الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

# BABEL NO MORE
# وداعاً بابل

@ketab_n

2.6.2014

البحثُ عن متعلمي اللغةِ الأكثر موهبةً في العالم

مايكل إيرارد

ترجمة: بندر الحربي

# وداعاً بابل

# BABEL NO MORE

## البحثُ عن متعلمي اللغةِ الأكثر موهبةً في العالم


**مايكل إيرارد**

MICHAEL ERARD


ترجمة

بندر الحربي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



@ketab_n

Twitter: @ketab_n

# وداعاً بابل

# BABEL NO MORE

البحثُ عن متعلمي اللغةِ الأكثر موهبةً في العالم

Twitter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
BABEL NO MORE
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Free Press - New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2012 by Michael Erard
All rights reserved
Arabic Copyright © 2013 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

**الطبعة الأولى**
**1434 هـ - 2013 م**

**ردمك 978-614-01-0718-2**

**جميع الحقوق محفوظة للناشر**

**الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل
**Arab Scientific Publishers, Inc.** S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

**يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.**

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

Twitter: @ketab_n

# المحتويات

مقدمة المترجم ..... 9

## القسم الأول
## تساؤل
## في متاهة الكاردينال

المقدمة ..... 13

الفصل الأول ..... 19

الفصل الثاني ..... 32

الفصل الثالث ..... 46

الفصل الرابع ..... 63

## القسم الثاني
## الاقتراب
## اقتفاء أثر متعددي اللغات المفرطين

الفصل الخامس ..... 101

الفصل السادس ..... 109

الفصل السابع ..... 138

الفصل الثامن ..... 154

الفصل التاسع ..... 161

## القسم الثالث
## الكشف
## همسات الدماغ

الفصل العاشر ..... 207

الفصل الحادي عشر ..... 219

الفصل الثاني عشر ..... 227



Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر ..... 240
الفصل الرابع عشر ..... 248

## القسم الرابع
## الإسهاب
### أدمغة بابل

الفصل الخامس عشر ..... 261
الفصل السادس عشر ..... 298
الفصل السابع عشر ..... 323

## القسم الخامس
## الوصول
### متعددو اللغات المفرطون في الفلاندرز

الفصل الثامن عشر ..... 343
الفصل التاسع عشر ..... 359
إضافة ..... 373



Twitter: @ketab_n

أمسكْ بسنونوةٍ صغيرةٍ

وغمّسها في العسل

ثم التهِمْها...

حينئذٍ سيكونُ بوسعكَ أن تستوعبَ كلَّ لغاتِ العالم.

"**تعويذة سحر فلكلورية**"

حين تطغى علينا الحيرة، فإننا لا ندرك بعد

إن كنا نحبّ أو إن كنا نكنّ البغض تجاه الشيء

الذي يغمرنا بالدهشة...

حينئذ لا نكون متيقنين إن كان علينا

أن نعانقه أو أن ننفذ بجلدنا منه.

"**ستيفن جرينبلات**"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# مقدمة المترجم

في السنة الرابعة من الهجرة، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحابيَّ الجليل زيدَ بن ثابت، ذا الموهبة الفذة في الحفظ وتعلم اللغات، بتعلم اللغة السريانية؛ فتعلمها بسرعة مذهلة خلال سبعةَ عشرَ يوماً فقط، وأصبح بعدها قادراً على كتابة مخاطبات النبي - صلى الله عليه وسلم - لليهود، وقراءة ردودهم عليها، هذا بالإضافة إلى معرفته السابقة بالفارسية، وبلغات أخرى كانت سائدة في عصره أيضاً.

**بابل**، كما تقول الأسطورة التي اعتمدها اليهود القدماء لشرح أصل اللغات الإنسانية: "إن أحفاد نوح -عليه السلام- استقروا في جنوب الهلال الخصيب بعد الطوفان، ثم بدأوا ببناء مدينة كبيرة، تشتمل على برج يصل إلى السماء، ولكن الإله شاء ألا يكتمل بناء المدينة، فجعل البنائين يتكلمون لغاتٍ مختلفة. وعندما تعطلت وسائل التفاهم بينهم توقفوا عن البناء وانتشروا في أرجاء الأرض".

يتحدث سكان العالم اليوم أكثر من 6,000 لغة تمثل لغاتهم الأم. الكثير منها لغات لا يتحدث بها إلا القليل من سكان العالم، أما الملايين من الناس فيتوزعون بين 273 لغة، منها اثنتا عشرة لغة يتحدث بها ثلاثة أرباع سكان العالم.

إن إتقان لغة أجنبية ثانية أو أكثر في عالمنا - البابلي - اليوم يعد سبيل الناس الفعّال للاتصال واكتساب المعرفة، وتكاد الرغبة في تعلم اللغات الأجنبية الأخرى تشمل سكان الدول كافة في أرجاء العالم، وتقترب من كونها ضرورة فرضتها عوامل عدة، وهدفاً لمن أراد المضي قدماً في عصر العولمة.



Twitter: @ketab_n

ولكن قدرة الإنسان على تعلم اللغات واكتسابها تبقى على المحك كموضع تجربة، ومثار نقاش وبحث مستمريْن، وقد تصل إلى أن يقال عنها إنها المرتقى الصعب الذي لا يقدر عليه الكثير كما هو الرأي الشائع.

يتناول هذا الكتاب أمثال الصحابي الجليل زيد - رضي الله عنه - من المعاصرين، وممن حفظ لنا التاريخ أسماءهم من السابقين، أولئك الذين حباهم الله تعالى قدرةً فريدةً على التعلم والتواصل بالعديد من لغات العالم تحدثاً وكتابة، والتي قد تبلغ عشرات اللغات، وعلى مستويات مختلفة من التمكُّن والإجادة، أولئك الذين جمعوا أقصى ما يمكن للإنسان أن يجمعه من اللغات الأجنبية.

إن المتخيل لصنوف الصعوبات التي يواجهها متعلمو اللغات الأجنبية اليوم، لا بد أن يشعر بمزيج من الدهشة، والإعجاب، والحماسة، وهو يقرأ هذا الكتاب، الذي يقول عنه مؤلفه مايكل إيرارد، إنه كتبه بفضول ورؤية المغامر، بعد أن جابَ أنحاء العالم، من بيركلي إلى حيدر أباد، متأملاً باحثاً. وتناول فيه تحقيقاً مستفيضاً عن حركة تعلم اللغات في أنحاء العالم، وعن حقيقة مثل أولئك الأشخاص وقدراتهم، مستعيناً بتطبيق المقاييس والمعايير العلمية، وبنظرة شاملة ذات أبعاد وزوايا مختلفة؛ من الناحية النفسية والاجتماعية، والبيولوجية، والتاريخية، وكشف عن الوسائل التي استخدمها كلٌّ منهم في تعلم هذه الطائفة الكبيرة من اللغات.

لقد غيّرت رحلة المؤلف التي سردها في ثنايا الصفحات التالية الصورة النمطية التي كنا نعرفها عن اللغات الأجنبية وتعلمها، الأمر الذي أدهش حتى المؤلف نفسه أثناء بحثه - وهو اللغوي المتخصص في علوم اللغة - عندما التقى شخصيات أقل ما يقال عنهم: (إنهم غيَّروا وجه العالم البابلي للغات).

**بندر الحربي**



Twitter: @ketab_n

# القسم الأول

## تساؤل
## في متاهة الكاردينال



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# المقدمة

ما إن انطلِق قارب الكاهن الإيطالي فيليكس كاروني من الميناء الصقلي في باليرمو، حتى بدأت الشكوك تتداعى حول سلامة وصوله أو وصول القارب المحمل بشحنة البرتقال إلى وجهته؛ وذلك لأن الإبحار في العام 1803 كان يمثل تجربة محفوفة بالمخاطر، وعرضة لهجمات قراصنة البحر الأبيض المتوسط. وبالفعل، نال القراصنة من كاروني، ووقع في الأسر، ولسنة كاملة سُجن في مكان على الساحل الشمالي للقارة الأفريقية، وأوشك على الاستعباد المؤكد، حتى تشفع له الدبلوماسيون الفرنسيون وأطلق سراحه.

عندما عاد الكاهن إلى إيطاليا، شرع في كتابة حكاية إفلاته العصيب، وبحلول العام 1806 نشرت الحكاية، وظهر المنشور الأول الذي أشار إلى أستاذ اللغات الشرقية في جامعة بولونيا، الذي ساعد كاروني في ترجمة وثيقة مكتوبة باللغة العربية. هذا الأستاذ الكاهن وابن النجار البولوني يدعى جوزيبي ميزوفانتي، الذي لم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من العمر حين كان صيته يملأ الآفاق، وتنسب إليه معرفته بأربع وعشرين لغة!

بعد أكثر من ثلاثين سنة، زارت مجموعة من السياح الإنجليز روما سعياً للقاء جوزيبي ميزوفانتي، وعند لقائه سألوه عن عدد اللغات التي يتحدث بها. وقتها كان يعمل أميناً لمكتبة الفاتيكان وعلى وشك الترقية إلى مرتبة كاردينال.

سأل أحد السياح رجل الدين: "لقد سمعتُ عنك العديد من الروايات المختلفة، ولكن هل لك أن تعرفنا بنفسك؟".



Twitter: @ketab_n

تردد ميزوفانتي قليلاً، ثم أجاب: "حسناً، إذا كان لا بد من الجواب، فأنا أتحدث خمساً وأربعين لغة".

- "خمساً وأربعين!".

صرخ السائح متعجباً، وقال: "ولكن كيف نجحتَ يا سيدي في اكتساب هذا العدد الكبير من اللغات؟".

أجاب ميزوفانتي: "لا يسعني شرح ذلك، ولكن الذي أعرفه بيقين أن الله أعطاني هذه القدرة المميزة. ولكن، إن كنت تريد معرفة كيف أصون تلك اللغات وأحافظ عليها، فيمكنني القول إنني حين أستمع إلى معنى الكلمة في أي لغة كانت، فإنني لا أنساها مطلقاً".

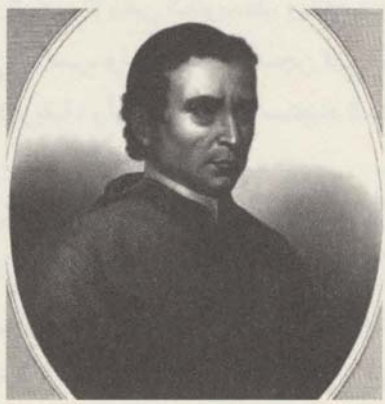

**جوزيبي ميزوفانتي**

وفي أوقات أخرى، عندما كان يُسأل عن عدد اللغات التي يتحدث بها، فإن ميزوفانتي يراوغ ساخراً ويقول إنه يعرف "خمسين لغة مع لغته الأم البولونية".

في سنوات حياته ظهر العدد الكافي من هذه الخمسين للناس في العلن - وكانت من بينها العربية والعبرية (القديمة والكتابية)، والكلدانية، والقبطية، والفارسية، والتركية، والألبانية، والمالطية، وبالطبع



Twitter: @ketab_n

اللاتينية والبولونية، وأيضاً الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والألمانية، والهولندية، والإنجليزية، وكذلك اللغة البولندية، والمجرية، والصينية، والسريانية، والأمهرية، والهندستانية، والجيوجاراتية[1]، والباسكية، والرومانية - هذا ما تناقلته حكايات الزوار القادمين إلى بولونيا وروما المتواترة.

شبهه البعض بالملك الفارسي ميثراداتس الذي كان قادراً على التحدث باثنتين وعشرين لغة، تلك التي تمثل عدد أقاليم دولته.

ومما يُحكى أن الشاعر جورج بايرون الذي خسر في إحدى المرات مسابقة الشتم باللغات المختلفة أمام ميزوفانتي، قال عنه إنه "وحش اللغات، وبيريراس[2] الكلام، وقاموس متعدد اللغات يمشي على الأرض، وأكثر من ذلك؛ بل كان يجدر به أن يكون متوجداً مع بنائي برج بابل[3] مترجماً عالميًّا لهم".

وقد وصفته الصحف "باللغوي البارز" و"أكثر اللغويين علماً على قيد الحياة" و"أبرع لغوي على الإطلاق" و"أعظم اللغويين في أوروبا

(1) الجيوجاراتية: لغة من عائلة اللغات الهندوأوروبية، يتحدث بها في الهند 66 مليون شخص حاليًّا. (المترجم)

(2) كائن عملاق من الأساطير اليونانية. (المترجم)

(3) برج بابل: وجد في أراضي الهلال الخصيب، وقد بُني على شكل هرمي تلتف حوله المصاطب. وهذا البناء المعماري الحلزوني يسمى زقورة، ويتكون من سبعة أدوار، بالإضافة إلى معبد صغير في قمته. ولا يعرف العلماء الشيء الكثير عن هذا البرج، ولكن قصة البناء وردت في الكتاب المقدس، الإصحاح الأول 9-11: 1، وعلى حد قول الرواية - وحسب الاعتقاد - يقال إن أحفاد نوح عليه السلام، استقروا في جنوب الهلال الخصيب بعد الطوفان، ثم بدأوا ببناء مدينة كبيرة، تشتمل على برج يصل إلى السماء ولكن الإله لم يشأ للمدينة أن تكتمل فجعل البنائين يتكلمون لغات مختلفة، وعندما تعطلت وسائل التفاهم بينهم توقفوا عن البناء وانتشروا في أرجاء الأرض. واعتمد اليهود القدماء على هذه الرواية لشرح أصل اللغات الإنسانية. (الموسوعة العربية العالمية - الطبعة الثانية) (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الحديثة"، وكان دائماً يوصف بأنه قمة الكمال البشري في اكتساب اللغات.

وموظف الحكومة البريطانية الذي أجرى عملية مسح إحصائي لجميع لغات الهند بين عامي 1894 و1928، وحصر عدد اللغات في مقاطعة أسام في إحدى وثمانين لغة متحدثاً بها، يكتب متعجباً: "لو كان ميزوفانتي هنا - وهو الذي يتحدث ثماني وخمسين لغة - لأصابته الحيرة".

في العام 1820 زار عالم الفلك الهنغاري البارون فرانز زافير ميزوفانتي الذي بادله الحديث باللغة المجرية بمنتهى الفصاحة. قال البارون المندهش إنه شعر "بالذهول"، ومن ثم - كما كتب لاحقاً - "تحدث معي بعدها بالألمانية؛ في البداية بالسكسونية الجيدة، ثم باللهجة النمساوية ولهجة شوابيا، بلكنة صحيحة أذهلتني إلى أبعد درجة".

وقد استمر ميزوفانتي بالتحدث بالإنجليزية مع الزوار الإنجليز، وبالروسية والبولندية مع الزائر الروسي في الوقت نفسه.

كتب زافير: "قام بكل هذا بلا تمتمة أو تلعثم، وبفصاحة لغته الأم نفسها التي يتحدث بها!".

وبالرغم من هذا التبجيل لمقدرة ميزوفانتي، إلا أنه كان أيضاً مثاراً للانتقاد اللاذع؛ فقد كتب الكاتب الأيرلندي تشارلز ليفر: "يعتبر ميزوفانتي أقل الأشخاص قيمة... فهو قاموس موغل في القدم يمكن أن يكون ممتلئاً بالظرافة".

وقال عالم الفيلولوجيا الألماني بارون بنسن: "مع كل اللغات اللامحدودة التي يتحدث بها ميزوفانتي، فإنه لا يقول أي شيء".

وقال الكاهن الروماني في مذكراته: "ميزوفانتي لا يملك حتى خمس أفكار!".

ويتذكر طالب ألماني التقى ميزوفانتي في الفاتيكان: "يوجد شيء فيه



Twitter: @ketab_n

يذكرني بالببغاء، فهو لا يبدو أنه ممتلئ بالأفكار".

في العام 1841، زارت امرأة هنغارية ميزوفانتي، وسألته: "كم لغة تتحدث؟".

أجاب ميزوفانتي: "ليس كثيراً، أتحدث فقط أربعين أو خمسين لغة".

وكتبت السيدة بالوسينا باجيت في مذكراتها "قوة مدهشة غير مفهومة"، "ولكنه ليس بالشخص الذي يثير الحسد، على الأقل بسبب المعرفة الفارغة بالمفردات، وبراءة الزهو البسيط الذي يملأه، إنه يذكرني أكثر بالقرد أو الببغاء، أو الآلة الناطقة، أو الأورغن عندما تنتهي النغمة، من كونه موهوباً بشيء ما".

ومع ذلك، فإن العديد من الأشخاص كانوا عندما يقابلون هذا الرجل شخصيًّا لا يستطيعون التخلص من شكوكهم تجاهه. ومن أجل ذلك، احتشد العلماء والفلاسفة ودارسو اللغات الكلاسيكية لاختبار قدرات ميزوفانتي - أو قل: نصبوا له كميناً - ولكنهم في النهاية هُزموا وفُتنوا الواحد منهم تلو الآخر.

في العام 1813 التقى أحد العلماء الأكاديميين - ويدعى تورينو كارلو بوشرون - ميزوفانتي في مكتبة بيزا، متسلحاً بأسئلة صعبة عن اللغة اللاتينية، وهو يحمل في ذهنه تصوراً أن ميزوفانتي غير قادر على الإجابة عن هذه الأسرار الجوهرية في تاريخ اللغة اللاتينية، وكان يصفه بقوله: "مجرد أديب دجال".

سُئل بوشرون بعد عدة ساعات تالية من لقائه ميزوفانتي: "حسناً، ماذا تعتقد بميزوفانتي؟".

"قسماً بباخوس"[1] صرخ بها بوشرون، وأردف: "إنه الشيطان!".

يشعر ميزوفانتي بالتواضع رغم هذه الموهبة التي لديه، ودائماً ما

(1) باخوس: إله الخمر في الأساطير الرومانية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

كان يقول إن الله قد أعطاه ذاكرة جيدة وأذناً لاقطة. وكان يكرر قوله: "من أنا؟ مجرد معجم غير مقيد".

في إحدى المناسبات، رتب صديقُ ميزوفانتي بابا الكنيسة الكاثوليكية غريغوري السادس عشر (1765–1846) مناسبة حضرها العشرات من الطلاب المنتمين إلى دول مختلفة من العالم، كان الغرض منها مفأجاة ميزوفانتي. لذا عندما أعطيت الإشارة، انحنى الطلاب أمام ميزوفانتي واستقاموا سريعاً متحدثين إليه بسرعة وطلاقة في الحديث كل بلسانه، وبهذه الغزارة من المفردات والطلاقة في نغمات اللهجات، كان من المستحيل الاستماع إليهم، ناهيك عن فهمهم". ولكن "لم يجفل ميزوفانتي وقتها، وأخذ كلَّ واحد منهم على حدة، وأجاب عن سؤاله بلغته"؛ فلم يسع البابا وقتها إلا أن يعلن فوز الكاردينال الذي لم يُغلب في مضماره قطّ.

كل ما تبقى لميزوفانتي هو أن يصعد للسماء، المكان الذي ربما تكتشف فيه الملائكة بدهشة ذات بهاء وجلال، أنه يتحدث لغتهم، أيضاً!



Twitter: @ketab_n

# الفصل الأول

كنت وقتها أتناول غدائي في منطقة وسط مانهاتن المعروفة بشدة ازدحامها في هذا الوقت من النهار، وكانت المطاعم اليابانية تحيط بي من كل اتجاه. خلف المنضدة، كان الطباخان يُعدّان طبق مكرونة الشرائط ذات الرائحة العطرة.

كان المدير - وهو رجل ياباني كبير في السن - يقرأ أوراق الطلبات ويصرخ بطلبات الزبائن بصوت مرتفع على الطباخَين باللغة اليابانية. وكان الطباخان شابين ممتلئي الجسم من أصول إسبانية، تظهر على ذراعيهما آثار الوشم، ويعتمر كل منهما قبعة البيسبول بالمقلوب، وكانا يتحركان بخفة ورشاقة من قِدر إلى أخرى في المطبخ المشبَّع بالدخان، وبكل انسيابية، يغرفان من هذا، ويخلطان من ذاك، لم يكن بوسعي وقتها أن أعرف أيَّ طلب قد أنهياه وأياً قد بدآ فيه.

وبين انشغالهما في تحضير الأطباق تحين لحظات فراغ يملآن أثناءها الحاويات بأعشاب مقطعة ويمسحان المناضد، ويتحدثان مع بعضهما بالإسبانية، ويخاطبان آخر في مطبخ المطعم بالإنجليزية البسيطة.

وهكذا يكتمل المشهد بثلاث لغات؛ اثنتان منها ليستا لغتي من يحدثهما، أضف إلى ذلك الاستعراض الراقص منهما أثناء طبخ مكرونة الشرائط، من دون أن تلتصق ببعضها.

من المدهش أن يسير العالم على مثل هذا المنوال، بالنظر إلى حقيقة أن هؤلاء الناس يتحدثون لغة ليست لغتهم التي نشأوا عليها، ولم



Twitter: @ketab_n

يتعلموها بالمدارس، ولم يُختبروا أو يؤهلوا فيها أيضاً. ويتكرر مشهد مكرونة الشرائط بكل تأكيد في كل يوم مئات الملايين من المرات في جميع أنحاء العالم، في الأسواق، والمطاعم، وسيارات الأجرة، والمطارات، والمحلات التجارية، والموانئ، والفصول الدراسية، والشوارع، والأمكنة التي يلتقي فيها الناس معاً من الأعراق والجنسيات كافة، من نساء ورجال وأطفال، يأكلون ويتبايعون ويتمادحون ويسافرون معاً، ويعملون معاً، ويخدم بعضهم بعضاً، ويتبادلون التحية، ويقدمون بعضهم للبعض الآخر، بل ويتسابُّون في ما بينهم، ويسألون عن وجهتهم آخرين لا يتحدثون لغتهم.

من المثير أنهم يقومون بكل هذه الأعمال بنجاح، حتى وإن كانوا يتحدثون بلهجات مختلفة، وبكلمات بسيطة، ويخطئون بها، ويعيدون صياغتها، ويقومون بأعمال أخرى أيضاً تسميهم باللغويين الدخلاء. ودائماً ما تنسج في مثل هذه اللقاءات بين المتحدثين باللغة غير الأصلية تجارب إنسانية جديدة.

وفي عصرنا الحاضر، وصلت طبيعة هذه اللقاءات إلى ذروتها، وضعف الرابط بين اللغة والجغرافيا بسبب الهجرات، والتجارة العالمية، والسفر الرخيص، والهواتف المحمولة، والأقمار الفضائية، والإنترنت.

ربما تكون معتاداً على آداب اللغات المختلفة، مثل القصص العالمية الإنجليزية، أو الفرنسية، أو اللاتينية التي تعتبر - أو كانت تعتبر - ثروة ثقافية. هذا الكتاب يتحدث عن قصص أخرى، عن نوع من الثروة المعرفية، عن الأشياء التي تعلمنا لغة جديدة.

في ما مضى، كنا نعيش في عزلة عن ضجيج العالم أشبه بالفقاعات. ولكن أغلب تلك الفقاعات كانت تحوي لغة - أو القليل من اللغات - يتحدث بها أشخاص مرتبطون بها كل يوم. وفي كل يوم يخرج من هذه العزلة المزيد والمزيد منا، ومن الواضح أن الفجوات التي تركها متعددو



Twitter: @ketab_n

اللغات تزداد بشكل سريع، وأحادي اللغة - مثلي - يحتاج إلى أن يعيش ويتعامل بعدة لغات، ولكن ليس هذا ما أنا بصدد الكتابة عنه.

وهناك شيء آخر يحدث أيضاً، نكون معه راغبين في التحرك في هذه الفقاعات بيُسر من دون عوائق. فمثلاً، يمكن أن تكوني امرأة داغستانية تعيشين في الشارقة (إحدى الإمارات العربية المتحدة) وتتحدثين بالروسية إلى زوجك، ويحدثك هو بالمقابل بالعربية. ويمكن أن تكون مدير مشروع أمريكيًّا يدير اجتماعاً عبر الهاتف باللغة الإنجليزية مع مهندسين من الصين، والهند، وفيتنام، ونيجيريا. ويمكن أن تكون متحدثاً يابانيًّا يعمل بجانب اثنين من الهندوراس في مطعم مكرونة الشرائط. وربما تكون سائحاً من بكين حققت حلمك أخيراً برؤية الأخدود العظيم[1].

إن انتقال الأفكار، والمعلومات، والبضائع، والناس في الآفاق يتم بسهولة شديدة، وهذا بحد ذاته يخلق وعياً عند الإنسان عن الجذور المتأصلة عن تعلم اللغة في مسارات حياته الشخصية أكثر من حياته الوطنية والقومية؛ مرتبطة بالأساس باحتياجات الاقتصاد، وليست على معايير المدارس أو الحكومات. وهذا معناه أن على عقولنا أن تكون متحركة أيضاً وتبقى مرنة ومفتوحة للمهارات والمعلومات الجديدة، وإحدى هذه المهارات تعلم الطرائق الجديدة للاتصال.

إن كان بإمكانك تخفيف القلق الذي يعتري بعض الأشخاص عندما يشرعون بتعلم اللغة، فستكون قد وصلت إلى حل لمشكلة اللغة الجوهرية في القرن الحادي والعشرين: كيف أتعلم اللغة بسرعة؟ وما مستوى الجودة المطلوبة لتكون قراءتي وتحدثي مفيدَيْن؟ وأي المعايير أتبع؟ هل هدفي.هو التحدث بمستوى المتحدث الأصلي للغة؟ وهل

(1) الأخدود العظيم أخدود بالغ العمق والاتساع، يقع في الجزء الشمالي الغربي من ولاية أريزونا الأميركية، ويعتبر أحد أروع المشاهد الطبيعية في العالم. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

سيتغير وضعي الاقتصادي، وهويتي، ودماغي؟

إن طريقة تعلم البالغين اللغات كانت الأساس في ظهور الإنجليزية كلغة عالمية مشتركة. في الحقيقة، إن انتشار اللغة الإنجليزية يعتبر نموذجاً وحيداً يستدعي إعادة النظر في القدرات "المشابهة للمتحدثين الأصليين" للغة.

في العقود القادمة، سيتعلم ما يقارب المليارين من البشر اللغة الإنجليزية كلغة ثانية. النسبة الكبرى منهم من البالغين الذين جذبتهم حظوة اللغة الإنجليزية وفائدتها؛ اللغة الأكثر انتشاراً في العالم خلال العقود الخمسة السابقة.

تبلغ قيمة سوق تعليم اللغة الإنجليزية في الصين 3.5 مليارات دولار، تقدمها ثلاثون ألف شركة متخصصة في تعليم اللغة الإنجليزية. قيل إنه في اليوم الواحد قد تبلغ نسبة الاتصال المتبادل بين الأشخاص غير المتحدثين الأصليين للغة الإنجليزية في أنحاء العالم إلى 70% من مجموع الاتصال المتبادل باللغة الإنجليزية. وهذا يعني أن المتحدثين الأصليين للغة الإنجليزية لديهم مرونة في تحديد لفظ "المقبول" في القواعد في الإنجليزية. وبعض الخبراء في الصين وأوروبا يناصرون الآن تعليم معايير اللغة الإنجليزية باللهجات الأجنبية التي لا تختلف عن اللغة الأم في دولها.

ربما تكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الأولى الأكثر تحدثاً بها من غير أبنائها. وعلى كل حال، فهي ليست اللغة الوحيدة الإضافية التي يتعلمها الناس في سوق يبلغ رأس مالها 83 مليار دولار في العالم؛ وهذا الرقم لا يتضمن ما ينفق في المدارس وأجور المعلمين والكتب في المؤسسات التعليمية. ففي الولايات المتحدة فقط، إنّ ما تبلغ نسبته 70% من طلاب الكليات في فصول تعليم اللغات الأجنبية يتعلمون الإسبانية، والفرنسية، والصينية، وحتى العربية، وكذلك الكورية، وهذه الفصول في



Twitter: @ketab_n

تزايد مستمر.

إذا كنت تقيم في البرازيل، فسوف تتعلم بلا شك الإسبانية، والآن هي إلزامية في المدارس. وإذا كنت تعيش في شرق آسيا فعليك بالتأكيد تعلم اللغة المندرينية[1]. أما في أوروبا فالشكر للاتحاد الأوروبي الذي اختار الفرنسية والألمانية. وهناك الهندية في الهند، والسواحيلية في شرق أفريقيا، والتوك بيسين[2] في بابوا غينيا الجديدة. ولكن التحدث كالمتحدثين الأصليين للغة في الوقت الذي يحتاج فيه الناس إلى لغات إضافية للحياة، يعتبر معياراً ليس باستطاعة المتعلمين البالغين الوصول إليه في الواقع.

من جهة أخرى، يعتمد ضخ حياة جديدة في لغات منقرضة أو مهددة بالانقراض على تعليم أشخاص فقدوا مرونة الأدمغة التي يمتاز بها اليافعون إيّاها. وعندما تموت ألسن الأسلاف فإن مجتمعاتهم لا تصمت، فيبدأ الأطفال والبالغون تعلم شيء آخر، غالباً ما يكون لغة ارتبطت بموت لغة أسلافهم. أنا أقول ذلك ليس رفضاً لهذه القضية بلا تكلف، ولكن لأشير إلى المشكلة بشكل عام. وأيضاً، أضف إلى ذلك أن بعث وسائل جديدة لترجمة الكلام والنص المكتوب بين اللغات لا يلغي مطلقاً حاجة الناس إلى تعلم اللغات، ولكنه يساعد في التواصل بلغات متعددة من خلال استخدام أدوات الترجمة المجانية في شبكة التواصل، على سبيل المثال. ومن خلال استعمال وسائل ترجمة مجانية، يمكن أن أحصل على

(1) المندرينية: هي اللغة الرسمية في جمهورية الصين الشعبية، ويتحدث بها في تايوان وسنغافورة. والجدير بالذكر أن المندرينية تحتوي على عدد كبير من اللهجات، وتستخدم بكثرة في شمال وجنوب غرب الصين. (المترجم)

(2) توك بيسين: هي لغة من لغات الكريول، تطورت في جزيرة غينيا الجديدة من رطانة استخدمت كوسيلة تخاطب بين سكان غينيا الجديدة المحليين والتجار ورجال السلطة الاستعمارية الذين تحدّث أغلبيتهم باللغة الإنجليزية. معظم مفردات اللغة مشتقة من كلمات إنجليزية. (الموسوعة الحرة - المترجم)



Twitter: @ketab_n

فحوى أي محتوى صعب من أي لغة لا أعرفها.

مطبخ مكرونة الشرائط الذي كان شاهداً على التجزئة، والارتجال، والتزامن من خلال استخدام عدة لغات في الوقت نفسه، لم يكن مشهداً حصريًّا في مدينة نيويورك؛ بل تكرر في لندن أيضاً (التي سميت في العام 1999 أكثر المدن تعدداً للغات في العالم)، وفي مومباي، وريو دي جانيرو، ومدن رئيسة أخرى في العالم. لم تعد الحدود الجغرافية بين الدول والجامعات والمواصلات هي التقاطعات اللغوية فقط، ففي هذا الصباح على صفحتي في موقع "تويتر" ظهرت خيارات للتحديث باللغة الفرنسية، والإسبانية، والكورية، والمندرينية، والإيطالية، والإنجليزية. التحديث نفسه حذر من رسائل الكترونية مخادعة، تسمى 419s تبعث باللغة الإيرلندية، والألمانية، والسويدية.

تستطيع في أي منطقة من هذا العالم أن تشاهد قنوات تلفزيونية مختلفة اللغات واللهجات؛ ففي القنوات الإخبارية، سوف تشاهد المحتجين السياسيين في الجانب الآخر من العالم وهم يحملون لافتات كتبت باللغة الإنجليزية. ونجوم الغناء يتعلمون لغات أخرى ليكسبوا آذان مستمعين جدد في أسواق أخرى.

إن ما يجعلنا نواجه اللغات الجديدة ليس تدفق تكنولوجيا المعلومات فحسب؛ ففي مدينتك أصبحت اللوحات تظهر في الشوارع بلغات أكثر مما كانت عليه من قبل، وأكثر من أي يوم آخر. الفندق المحلي في مدينتك قد يكون يوماً ما مقر إقامة بعثة تجارية من كازاخستان، أو البرازيل، أو بلغاريا.

مع العديد من اللغات المتعلمة والعديد من الأسباب التي تجعلنا نتعلمها، من السهل أن تفشل الطبيعة البشرية الصرفة في هذه المهمة، الواضحة في الأجهزة الحيوية للإنسان مثل الأدمغة، والأعين، والألسن، والأيادي؛ تلك التي يستعين بها كل البالغين لأداء هذه المهمة. وإذا كنت



Twitter: @ketab_n

تحاول أن تتعلم اللغة، فإنك تعلم أن أدمغة البشر البالغين محدودة (وهذه ليست القاعدة الثابتة) وتحد من قدراتهم. وكنتيجة لذلك، سوف يتحدث الأشخاص باللغات الجديدة بكثير من الاختلاف والتنوع، ولن يكونوا بطلاقة المتحدثين الأصليين، ومع ذلك فقد يحتاجون إلى التحدث بلغات ولهجات جديدة بهدف مسايرة التحولات الاقتصادية، ومن أجل ذلك نسأل: ما الذي عليهم فعله؟

تخيل شخصاً قادراً على تعلم اللغات بكل سهولة، شخصاً يجد طريقه بنفسه بين ضوضاء لغات العالم المتعددة، ويقفز من بينها بقفزة واحدة، شخصاً قادراً على أن يتعلم اللغة أكثر من اعتماده على الترجمة، شخصاً يعتبر بعبارة أخرى نموذجاً في عصر العولمة، شخصاً شبيهاً لميزوفانتي، يتعلم بسهولة، ويتذكر بشكل هائل، ولديه قدرة مدهشة على معرفة المفردات وإعادة بنائها. فهو ليس ببغاء، ولا جهاز حاسوب، بل إنه إنسان استثنائي في التعلم.

إحدى مواهب ميزوفانتي المدهشة كانت قدرته على تعلم لغة جديدة بوقت قصير جدًّا، باستخدام إما القواميس أو القواعد، وذلك بدون لغة مشتركة تساعده على الترجمة، كان ميزوفانتي يطلب من المصلي الأجنبي في الكنيسة أن يعيد صلاته حتى يتمكن من تمييز صوت اللغة وإيقاعها، ومن ثم ليقوم بتقطيعها إلى أجزاء الكلام، من أسماء وصفات وأفعال. وتشحذُ كل ذلك ممارسةٌ وتمرين لآلاف الساعات. قدرته على استنباط صورة اللغة من الأجزاء الصغيرة كانت قوية واستثنائية. إنه يستطيع توليف هذا المعنى المركب مع استعادة متميزة للمفردات التي يستطيع إعادة بنائها في جمل جديدة.

يمكن للذاكرة والنطق كسمتين بشريتين أن يُشحذا من خلال التدريب والممارسة، ولذلك يُفترض أنهما سمتان غير مكتسبتين من الولادة. ومع ذلك، لقد كانت لميزوفانتي خصائص أخرى متأصلة من



Twitter: @ketab_n

الـولادة، واعتـرف أن الله قـد منحه "مرونة مدهشـة فـي أجهـزة الكلام". عندما يزوره الغربـاء ويتحدثـون إليه بلغاتهـم المختلفة، تعلوهم الدهشـة من لهجتـه، ومعلوماته عـن الأدب، وظرافتـه، وحبه للألغـاز اللغوية. كان ميزوفانتـي أشـبه بالحرباء مـن الناحية الاجتماعيـة. حتى فـي اللغات التي يبدو أنه متعلمها، فهو يرتبط بها بسرعة وبثقة. لو تحدث إليه العشرات من الأشخاص، بعشرات اللغات، فإن كلا منهم سيخرج بشعور أن الكاردينال ميزوفانتـي يخاطبـه - أو يخاطبها - بلغـة أكثـر فصاحة من غيرهـا؛ الأمر الذي أعجـز العلم المعاصر عن تفسـير هـذه القدرة على الانتقـال من لغة إلى أخرى من دون خطأ. عدد كبيـر من الحكايات يتناقـل عن قدرته على التزامن فـي الحديث في لغـات أكثر مما أشـار إليها، وشـبهه أحد الكتاب "بالطائر الذي يحلق من غصن إلى غصن".

دعنا نفترض أن ميزوفانتي كان أسـطورة، فهل يسـتطيع أي شـخص لديه جسـم واحد فعل ما يفتـرض أنه قام بـه؟ هل من الممكن أن يتجسّـد في شـخص ما جميع الناس والأماكن في العالم، كجسم متجانس يتعايش فيه الناس بتجانس وبلا اضطراب أو تعارض، بسـبب أن علاقتهم بلغاتهم أقوى من ولاءاتهم السياسية أو الثقافية؟

يُحكى في الكتاب المقدس عن قصة بابل، ويُقال إن الناس في مدينة بابل شرعوا في بناء برج ليصل بهم إلى السماء تحدياً. ومما ساعدهم على ذلك اسـتخدامهم للغة واحدة سـمحت لهـم بالتواصل الجيـد مع بعضهم والاسـتمرار في بناء البرج، ولكن المشـيئة الإلهية وضعت حدًّا لهذا البرج - وغرورهـم - من خلال خبـص (خلط) لغتهـم المشـتركة. وعندئذٍ أدى سـوء الفهم إلى اختلافهم، وتوقف العمل بالبرج، وتشـتت الناس وتفرقوا جماعات، وتداعى البرج.

وفي النسخة السـومرية للقصة نفسـها، فإن الإله إنكي غار من عبادة البشر للإله الآخر إنليل، ولعنهم بالعديد من اللغات.



Twitter: @ketab_n

يمكن للمتعلم الاستثنائي للغة أن يتخلص من هذه اللعنة المشتتة للغات، ويهمس في أذنها: "وداعاً بابل!".

إن مجموع من يملكون ذكاء متوسطاً من البشر البالغين على وجه البسيطة يبلغ حوالى ستة مليارات شخص، تعلموا على الأقل لغة واحدة في طفولتهم. وهناك عدد آخر كبير (رغم أنه لم يُحصَ، فمن المثير أنه غير قابل للإحصاء أساساً) يتحدث لغة إضافية. في بعض الأماكن، يوجد العديد من الأشخاص ممن يتحدثون أربع لغات أو خمساً كانوا قد تعلموها وهم بالغون. ولكن، ليس هؤلاء من أعنيهم.

إنني أتحدث عن متعلمي اللغة الاستثنائيين، أولئك الذين يظهرون كومضات هنا وهناك، موزعين على مساحة شاسعة بين الزمان والمكان. بعضهم مثل الملك ميثراداتس الذي عاش نصف أسطورة، وآخرون مثل جوزيبي ميزوفانتي الذي عاش في عصر مضى. والبعض منهم يفترض أنهم يعيشون بيننا الآن.

إنهم "متعددو اللغات المفرطون" Hyperpolyglots.

البعض يستطيع التحدث والكتابة بعشرات اللغات على مستويات متعددة من التمكن والإجادة.

يقول أحد التعريفات إن متعدد اللغات المفرط شخص يتحدث (أو يقرأ، ويكتب، أو يترجم) على الأقل بست لغات، وعلى هذا التعريف بنيتُ بحثي الأولي. ووجدت لاحقاً أن إحدى عشرة لغة يمكن أن تكون أكثر دقة في نهاية المطاف.

كنت منجذباً بالأساس إلى ظاهرة متعددي اللغات المفرطين من الطريقة التي تلقي بها الضوء على اللغة والقراءة والكتابة، وعلى طموحات العالم الحديث في تحصيل الثروة الثقافية وتعلم اللغة: من يملكها، من يريدها، من حصل عليها.

من السهل أن تجد من يحكي لك قصصاً حاضرة عن قريب، أو



Twitter: @ketab_n

معلم مدرسة، أو شخص صادفه في الطائرة يتحدث العديد من اللغات أو يستطيع تعلمها بسهولة. وربما يقال عنه إنه "التقطها"، كما لو كانت اللغات ذات مقابض أو يمكن أن تُشفط بخرطوم المكنسة الكهربائية. نستمع إلى هذه القصص بكل دهشة ولا نلبث أن نعيدها بشك أو تعجب وكأنها قصص أحبائنا القديسين أو الصالحين العظماء، لأننا نعرف بالتأكيد كمّ الصعوبات التي نواجهها عندما نتعلم لغة أجنبية، حتى ولو كانت واحدة.

عندما بدأت الكتابة، كان كل ما بحوزتي قصصاً مثيرة تناقلتها الشعوب عبر القرون عن أناس ذوي مواهب لغوية مذهلة. أغلب هذه القصص كان أساطير غير موثوق بها. ومع ذلك، فهي تخبئ داخلها بذوراً من الحقيقة التي تخضع للاكتشاف والتقييم والاختبار، والتي بدورها تقود إلى اكتشافات أكثر. هل أمثال هؤلاء المتعلمين الاستثنائيين موجودون حقًّا؟ كم عددهم؟ وكيف تبدو هيئاتهم؟ وكم تصل نسبة هذه الموهبة في تعلم اللغات، إذا كانت حقيقة؟ ما هي قدراتنا القصوى لتعلم اللغات وتذكرها، والتحدث بها؟

**وداعاً بابل** هو حكاية بحثي عن أجوبة رصينة عن هذه الأسئلة وأسئلة أخرى. قررت أن أكتبه بفضول المغامر فضلاً عن تدوين الباحث، باحثاً عن حرية التحرك عبر الحدود الفكرية؛ لسبب بسيط وهو أن هذه الرحلة مستمرة بلا نهايات قدرية، لا أستطيع أن أكتب كما لو أنني أعرف ما الذي سأقابله. توجهت إلى الأبحاث الأدبية المنشورة، وإلى مقابلاتي مع العلماء، وبحثي في الأراشيف التاريخية، ومذكرات متعددي اللغات المفرطين، وبالطبع مقابلاتي معهم. وقدر كبير من المعلومات القيمة استقيته عبر استبيان في شبكة الإنترنت، شارك فيه أشخاص قالوا عن أنفسهم إنهم يتحدثون ست لغات أو أكثر. كل هذا كان ضروريًّا لمعرفة كيف هربت هذه الأرواح من لعنة الآلهة، وماذا طلبت منها الآلهة في



Twitter: @ketab_n

المقابل. هل معرفتنا بسر التحدث بلغات متعددة سيقودنا إلى سر تعلم أي لغة على الإطلاق؟

أثناء بحثي تعلقت بسؤالين مهمّين هما: ما أفضل طريقة لفهم ما يقوم به متعددو اللغات المفرطون مع لغاتهم أثناء حياتهم؟ ما المعايير التي ينبغي عليَّ استخدامها لأحكم على قدراتهم؛ إذا كانوا في الحقيقة يحتاجون إلى حكم؟ وكان عليَّ أيضاً أن أعرف سبب رفض علماء اللغة وصف متعددي اللغات المفرطين، ومتعلمي اللغة الموهوبين، وجامعي اللغات بأي شيء آخر عدا عن كونهم مجرد فضوليين أو غرباء.

على سبيل المثال، كتبت كارول مايرز سكاتون، اللغوية المتخصصة بالثنائية اللغوية، في أحد كتبها: "عندما تلتقي أشخاصاً يدعون معرفتهم بأربع لغات أو خمس، أرِهم ابتسامة الدهشة، ولكن لا تأخذ هذا الادعاء بمنتهى الجد!".

لست أبالغ عندما أقول إنّ لا أحد يملك نظرة نقدية إلى الأشخاص الذين تعلموا لغات عديدة كالتي يدعيها متعددو اللغات المفرطون، رغم أن العلماء قد بحثوا في الأشخاص الذين تعلّموا لغة أو لغتين "ثانية" أو "أجنبية" بشكل جيد، ويفضلون نوعاً واحداً من الموهبة عن الأخرى لكونهم مستحوذين على فكرة أن مستوى لغة المتحدث الأصلية يعتبر هدفاً وحيداً عند تعلم اللغة، وافتراض أن طلاقة المتحدث الأصلي للغة إنما هي بمثابة النموذج المحتذى به للنجاح؛ لكونه لغويًّا من الداخل.

قيل لي مراراً وتكراراً، إن في إمكان أي شخص تعلُّم مفردات كثيرة من لغات مختلفة، ولكنْ لا أحد باستطاعته تعلم العديد من اللغات بطلاقة المتحدثين الأصليين. ولكنني ما زلت أتساءل: هل يمكن لهؤلاء أن يكونوا طلقاء في العديد من اللغات؟ وعلى أي مستوى من الفصاحة؟ وما هي حدودهم؟ هذه هي الأسئلة التي حفزتني.

في أثناء بحثي، فحصت قدرة دماغي، وقمت بمغامرة شخصية



Twitter: @ketab_n

- واستمتعت بها - بتعلم اللغة الهندية، والإيطالية، والإسبانية، ولغات أخرى. وسافرت حول العالم، من أوروبا إلى الولايات المتحدة والهند والمكسيك، وتحدثت مع أناس قد شرعوا بطريقة أو بأخرى في المضي في طريق حياتهم عبر بابل.

إن ما قمت به من اقتفاء أثر الخبراء، واستنباط الحقائق والنظريات من المطبوعات العلمية لم يهيئني للقاء هؤلاء الأشخاص المدهشين. بعض متعددي اللغات المفرطين مثل الإسفنج، فهم قادرون على امتصاص واستنشاق اللغات بشكل سريع لا يصدق. وآخرون مثل الرافعة؛ يستطيعون رفع العديد من اللغات بحركة واحدة. وبعضهم مثل المقلاع؛ فهم يستخدمون خبرتهم القليلة في اللغات لكي تقذفهم لمدى أبعد.

إن هؤلاء ليسوا عباقرة، ولكنهم يملكون إمكانات عصبية غير طبيعية، ولديهم نزعة واضحة إلى استهلاك الوقت وقوتِهم الذهنية التي تكون بذاتها رابطاً إلى أدمغتهم. ليست العوامل الوراثية هي التي جعلتهم ما هم عليه، فهم يتأثرون بالنزعات نفسها التي تؤثر بنا. اختاروا اللغات نفسها التي اختارها أغلب الناس، واستخدموها للأسباب نفسها. شخصياتهم ترفض الانصياع للعموميات، ولم أجد الشك بهم أمراً ضروريًّا مثل ناقصي الأنا الذين يطلبون مسكناً من الاهتمام. ولم يطربني كثيراً صدقهم. وضعتني الشكوك البناءة في الطريق، لأنني في الأساس لم ألمح وبعمق أي اهتمامات مادية منهم من خلال ترويج قدراتهم.

في نهاية هذه الرحلة، أدركت أن متعددي اللغات المفرطين يتجسدون في شيء أسميه "إرادة المرونة". من خلال هذا الاعتقاد، نستطيع - إن أردنا - إعادة تشكيل أدمغتنا، وهذا ما يدفعنا العالم إلى القيام به.

وأمر هنا - مرور الكرام - على نموذجين للدافع القوي لدى الأشخاص في تعّلم اللغة، قد يبدُوَا كافيَيْن. الأول يقول: "أريد أن



Twitter: @ketab_n

أتحدث كثيراً من اللغات"؛ كالتغريدة التي كتبها أحدهم في موقع التواصل الاجتماعي "تويتر"، فسألته لماذا؟ أجاب: "لأنني أريد أن أكون قادراً على الذهاب إلى أي مكان والتواصل مع أي شخص". والنموذج الثاني أخبار إعلامية تمجد الطفل البريطاني ذا الأعوام العشرة آربان شارما، الذي يعتقد أنه يتحدث إحدى عشرة لغة، والذي قال عن نفسه: "أريد أن أكون جراحاً عندما أكبر، ليتسنى لي العمل في أي مستشفى حول العالم والتحدث بلغة الدولة التي أعمل فيها".

وسواء أتعلمت لغة واحدة أم مجموعة من اللغات فإنك تحاكي الطموح نفسه. أتمنى أنني لا أُفرط في تمجيد متعددي اللغات المفرطين بقولي إنهم يجعلون من خيوط مصائرنا اللغوية ظاهرة مرئية لا تعد ولا تحصى، سواء أتحدثنا بلغة واحدة أم بعدّة لغات.

بعض هذه الخيوط والمصائر تتبلور في مجموعة من الأشخاص الذين يشكلون ما أسميه "قبيلة عصبية"؛ طوروا طرائق عصبية لأنفسهم تختلف عنا جميعاً، وأعطتهم تنقلاتهم شعوراً بالمهمة والهوية الشخصية كمتعلمين للغة.

من الناحية اللغوية، إنهم خارج مقياس الزمن والمكان والوزن. هل يمكن أن يكونوا عينات متطورة من المخلوقات؟ يا له من أمر مثير أن نفكر على هذا النحو! إنهم لم يولدوا بهذه القدرات، ولم ينشأوا عليها، ولكنهم عصاميّون ولدوا ليعلموا أنفسهم بأنفسهم. إننا نحتاج إلى العلوم العصبية المتقدمة لاكتشاف الفروق الدقيقة في الدماغ اللغوي. أتمنى أن نصل إلى هذا قريباً.

إنها قبيلة غريبة، بلا صوت واحد، وبلا قادة، وبلا قانون. من نواحٍ كثيرة، إنها قبيلة ضائعة، لا تنتمي إلى وطن. ومع ذلك، إن إحساسهم بالعزلة يثير مشاعر أي شخص آخر. فهل لديهم شيء ما ليخبروننا به عن قدرة أدمغتنا، وما الذي ينبغي علينا فعله للمضي قدماً إلى بابل؟!



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثاني

عندما ظهر موضوع متعددي اللغات المفرطين، فرضت شخصية جوزيبي ميزوفانتي التاريخية نفسها لتكون نقطة انطلاق بحثي. لذا قررت الذهاب إلى مدينة بولونيا في إيطاليا، يحدوني الأمل لكشف الغطاء عن 150 عاماً من الأبحاث اللغوية والعصبية التي برهنت على إغفال سيرة هذا الشخص.

لم يكن عدد لغات ميزوفانتي الهائل ما أدهشني بحدّ ذاته، بل سرعته في اكتسابها، وقدرته على الانتقال السريع بينها. كيف استطاع أن يفعل هذا؟ هل قام بذلك حقاً؟ هل كان يعرف اللغات أكثر من معرفته معلومات عنها؟ وهل يستطيع التحدث بها في مواضيع متخصصة بطريقة لائقة؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الارتكاز على البحث العميق في طبيعة الموهوبين اللغويين.

وهناك أيضاً سؤال مفتوح عن الوسائل المستخدمة في تعلم اللغات. عندما التقى العالم الروسي ستارشفسكي ميزوفانتي في روما عام 1840، نجح العالم الروسي في إرباك العبقري اللغوي عندما تحدث إليه باللغة الأوكرانية.

بدا ميزوفانتي مندهشاً، وقال بالإيطالية: "ما هذه اللغة؟".

أجاب ستارشفسكي: "الروسية الصغيرة"، مستخدماً المصطلح المعروف وقتئذ.

رد ميزوفانتي بالقول: "حسناً، قابلني بعد أسبوعين".



Twitter: @ketab_n

وفي الموعد المتفق عليه، عاد ستارشفسكي ووجد الكاردينال قادراً على التحدث إليه بالأوكرانية بكل طلاقة، وتحدثا بها معاً لساعات. أصيب الروسي بالذهول، وكان يسأل: كيف فعل ميزوفانتي هذا؟

الجواب ببساطة أن الروسية والأوكرانية لغتان مشتركتان، فكلتاهما تتبعان المجموعة الفرعية من اللغة السلافية الشرقية من عائلة اللغات السلافية[1]. وشرح ميزوفانتي ذلك بقوله: "إنني أعرف الروسية من قبل".

لم يقنع هذا التفسير ستارشفسكي، وقال: "الشخص الذي يعرف اللاتينية يمكنه وبسهولة تعلم الإيطالية، ولكن ليس في أسبوعين". وبعد هذا اللقاء، أصبح ستارشفسكي مشغول البال بفكرة أن ميزوفانتي قد يكون يملك مفتاحاً سحرياً لتعلم اللغات، أو إكسير حياة لغويًّا. ولمدة أربعين سنة، قرأ كل شيء كتب عن الكاردينال متعدد اللغات مما وصلت إليه يداه، ولكنه لم يصل إلى جواب شافٍ!

قال لتلاميذه مسترجعاً الذكريات: "كنتُ على وشك أن أتوقف عن البحث، وفجأة وجدت سّر ميزوفانتي الخفي". ونقل بعدها هذا السّر إلى تلاميذه فقط؛ الأمر الذي سمح لهم بتعلم لغة جديدة في غضون ثلاثة أسابيع أو أربعة. كان هذا في كلية متعددي اللغات في مدينة سان بطرسبرج التي يرأسها ستارشفسكي الذي استخدم هذه الطريقة لتعليم اللغات المتحدث بها في مناطق روسيا القيصرية السبعين.

قال ستارشفسكي: "إن قدرة أي رجل متوسط الكفاءة تمكنه من تعلم أي لغة أجنبية خلال شهر، ومن يفشل فهو كسول أو غبيّ". مع الأسف فُقدت وثائق الكلية أثناء الاضطرابات إبان الثورة الروسية. ولكن، ما هو السّر الذي وجده الروسي؟

(1) اللغات السلافية: هي مجموعة من اللغات المتقاربة التي تتحدث بها الشعوب السلافية، وتندرج كمجموعة فرعية من اللغات الهندوأوروبية. يتحدثها سكان أوروبا الشرقية، والبلقان، وأجزاء من أوروبا الوسطى، وجزء في شمال آسيا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

خلال الدقائق التي قضيتها في جنيف، سويسرا، وجدت مقعداً في رحلة القطار المسائية المتجهة إلى إيطاليا. على الرصيف، أخذت تذكرتي من قاطع التذاكر، وسحبت حقيبتي في الممر الضيق في عربة النوم إلى المقصورة الضيقة. أخرجت من الحقيبة شطيرة وزجاجة شراب ورواية موبي ديك، وخلعت حذائي.

كنت في شوق إلى ليلة هادئة بعد يوم سفر متعب، ومحتاجاً إلى الراحة لأبدأ صباح الغد بزيارة مكتبات وأراشيف بولونيا باكراً.

بعد دقيقتين، جاء قاطع التذاكر، وهو رجل إيطالي كبير في السن ذو شارب أسود عريض وعينين حالمتين، ونظر إلى تذكرتي، وهزّ إصبعه وأشار، وقال شيئاً ما بالإيطالية لم أفهمه، ووضع إصبعه على التاريخ المكتوب على بطاقة التذكرة. كل ما استطعت فهمه أنها بتاريخ اليوم، وصالحة للاستخدام لمدة شهر من الآن! لحسن الحظ، إن قاطع التذاكر يستطيع أن يخبرني بما يريده مني، كما أعتقد. لا، لحظة، أدركت أنه لا يستطيع التحدث بالإنجليزية، وأنا لا أتحدث الإيطالية. قلت له: "أنا أتحدث الإسبانية". (على الأقل بالقدر الذي يجعلني أفهم ما الذي يحدث هنا). قال: "أوه، وأنا أتحدث بها أيضاً". فتم بذلك التحول إلى الإسبانية. شرح لي بعد ذلك ما الذي يريد أن يقوم به. كانت حقائبي غير مرتبة، والمقصورة مزدحمة بالأغراض والشطيرة والشراب والكتاب، وكنتُ مضغوطاً في هذه المقصورة التي من المفترض أن أتشاركها مع أشخاص آخرين.

بدأ القطار بالتحرك، والآن أنا أحتاج إلى مضجع حتى يرتب لي مكاناً مستقرًّا في هذه الليلة. وضعني قاطع التذاكر في مقصورة مع شخص يتحدث الإيطالية فقط. أثناء تحضيري للرحلة كنت أنوي قراءة كتاب جديد عن ميزوفانتي كتب بالإيطالية، أو الأفضل أن أضع الكلمات الإيطالية على نمط القواعد الإسبانية. كلما واجهت صعوبة أو أردت التأكد من حدسي



Twitter: @ketab_n

(أو الظن الخاطف)، قمت باستخدام مكشف لترجمة "غوغل" للغات. والآن وجدت نفسي مع شخص أستطيع التحدث معه، ولكن لساني لا يستطيع النطق ببنت شفة. من المخجل أن الإسبانية كانت أكثر من الإيطالية تلفظاً بها (خصوصاً بعد ترتيب الكلام أمام قاطع التذاكر)، بقي اللسان صامتاً والفرصة حانت للانتقال عندما اقتربنا من ضواحي سويسرا.

قضيت ليلتي في المقصورة الدائمة مع شاب من كوريا الجنوبية يتحدث القليل من الإنجليزية، وشاب آخر من البيرو يعيش في جنيف ويتحدث الإنجليزية، والإسبانية، والفرنسية، والألمانية، والبرتغالية، على درجات متفاوتة من الإجادة كما صرَّح لي، وأخبرني أيضاً أنه تعلم الإيطالية، ولكنه بعد دراسته للبرتغالية سرعان ما نسي الإيطالية تماماً. لغته الإنجليزية لا يشوبها الخطأ - بلكنة ثقيلة، وجمل بسيطة - ولكن، هل لي أن أقول إنه يتحدث الإنجليزية؟ تحدثنا لفترة عن الفلسفات التعليمية، كان الحوار بالإنجليزية، وأنا لم أختر الكلمات الأسهل بالنيابة عنه، أستطيع أن أقول بالتأكيد إنه يتحدث الإنجليزية.

دعني أقول لك: لا شيء يجعل الأمريكي الأبيض يدرك الإنجليزية - مهده وعرشه، وسجنه أيضاً - كرحلة قطار أوروبية؛ إن الجلوس مع شخص يتحدث خمس لغات (أربع منها ليست لغات أصلية لديه) كان مخيفاً. بدأت أشعر أنني بوضع دفاعي. لأكون منصفاً، أرى أن الأمريكيين لو عاشوا أو عبروا الحدود مثل ما يفعل الأوروبيون، لاستطاعوا أن يكونوا متنوعي لغات أيضاً. إنها قضية مرتبطة بالسياق والحاجة، وهذه تخلق بدورها ثقة ثقافية عن تعلم اللغات التي يصعب تقليدها. عندما تكون أحادية اللغة عاملاً - وراثيًّا - في الثقافة، فمن الصعب عليها أن تتكاثر.

قلت له إنني ذاهب إلى بولونيا لإجراء بحث عن جوزيبي ميزوفانتي الذي عاش في القرن التاسع عشر والذي تحدث عدداً هائلاً من اللغات، اثنتين وسبعين منها، أو نحو ذلك كما قيل. شعرت أنه من الحتمي أن



Twitter: @ketab_n

أضمِّن كلامي وقاية أخيرة وهي أنني لا أريده أن يشعر أنني قبلت هذا الادعاء دون تمحيص، هل كان جوزيبي ميزوفانتي حقّاً قادراً على التحدث بهذا العدد من اللغات؟ لم أكن متأكداً بما فيه الكفاية، ومع ذلك فقد أكدت جميع الروايات عن حياته إجادته عدداً كبيراً منها.

قال جليسي: "اثنتين وسبعين لغة! هذا لا يصدق!".

- أعرف ذلك، وأعتقد أنه أمر لا يصدق، أليس كذلك؟ إذا لم تكن هناك أي آثار له، أو كانت هذه القصص مختلقة فسأكون على الأقل قادراً على الشعور برضى الحقيقة المرة التي يشعر بها المجادل في الأمور الشكلية؛ وهي أن أبعد عنه سمعة الاحتيال التي تدحض معجزته، ولكن إذا كنا قادرين على إيجاد الأدلة على عبقريته اللغوية؛ فإن هذه الرحلة ستكون عودة للجذور.

عندما كنت طفلاً، كنت أحلم بتعلم الكثير من اللغات أيضاً. إن القدرة على التحدث والقراءة بلغة أخرى غير الإنجليزية تبرهن على أن المراهق الأحمق الحالم يمكن أن ينسلخ من حمقه ويحقق أحلامه بالهروب إلى أماكن بعيدة. ولكن هذا الحلم سرعان ما يسقط على الأرض كطائرة ورقية في يوم ساكن الريح.

في بداية كل إجازة صيفية، كانت أمي تعطيني قائمة بالأشياء التي ينبغي لي إتمامها حتى نهاية شهر أغسطس. كتب في أول القائمة: "تعلم الفرنسية" (عائلتي فرنسية الأصل) وهكذا دواليك سنة بعد أخرى، ولم أتعلم الفرنسية، وحتى إنني لم أبدأ في تعلمها. وبدون مساعدة من أحد، لم أكن أعرف من أين أبدأ. كانت الإسبانية في المدرسة الثانوية ممتعة، ولكن خمول الفصل أذهب كل حماسة لديَّ في ما يتعلق باللغة.

في الكلية، كتبت مرشدتي الأكاديمية ملاحظة على درجتي باللغة الإسبانية، وسألتني: "لماذا لا تتعلم في الخارج، في أمريكا الجنوبية مثلاً؟". كان رفضي واضحاً. وبعد فترة، وجدت نفسي جالساً في مطبخ



Twitter: @ketab_n

أحد منازل مدينة بوجاتا في كولومبيا، وأنا أحاول التحدث مع ربة المنزل زوريدا، في بحث يائس عن الكلام، لا يناسب قوة حديثي بالإنجليزية، جعلني أصرخ me gusta tu perro "أنا أحب كلبكِ" عن كلب صغير أبيض يلعق يدي".

قالت زوريدا بالإسبانية: "لقد قلت هذا من قبل".

من الواضح أن هذا كان قدراً. في النهاية، استمررت بالقول إن القراءة والاستيعاب أكثر فاجآني، كما أن السفر جعلني أعانق اللغة بشكل أسهل. فهمت جميع المحاضرات الملقاة باللهجة الصرفة للغة ألتيبلانو الكولومبية بدون تسجيلها كما كنت أفعل من قبل.

صديقتي الأمريكية، التي تعلمت الفرنسية والإسبانية خلال الفترة التي أسميها - بنظرتي الحالمة - فترة الطفولة الغريبة، شجعتني على تعلم اللغة بنفسي. ومن أجل ذلك سافرت بعد تخرجي من الكلية إلى تايوان لأدرس الإنجليزية، وأتعلم المندرينية، وألتقط القليل من التايوانية، وأختبر الحكمة الشعبية التي تقول: "إن الأحبة يقومون بأفضل دور في تدريس اللغة"، ومرت الأيام ولم أتحدث الإنجليزية خارج الفصل. كنت أتساءل: هل سأعرف قدراتي إذا استمررت بهذا المعدَّل؟

كانت أفضل أوقاتي مع هذه اللغات عندما أشعر بالراحة عند التحدث والاستماع، وكنت دائم التطور، وإذا استمررت على هذا الحال فإن لغاتي قد تصبح بارتفاع وصلابة هضاب كانساس. عندما رجعت إلى الولايات المتحدة متحدثاً بالإنجليزية طوال الوقت، تقوضت طلاقتي باللغة الإسبانية، ربما لأنني لم أصل إلى مستوى عالٍ، أو لأنني لم أقم بما يجب لزيادة مهاراتي. كانت تتردد في ذهني فكرة أنني إن لم أحصل على مستوى طلاقة المتحدثين الأصليين، فإن تتبع هذه اللغات أمر يفتقر إلى المنطق.

الحقيقة هي أنني لم أكن يوماً بطلاً لغويًّا أو متعدد لغات مفرطاً، وإنما أعتبر نفسي أحادي اللغة ذا مميزات أكثر من أحادي اللغة العادي



Twitter: @ketab_n

وأقل من متعدد لغات. كم أحلم بأن أستعيد القليل من الطلاقة في اللغة الإسبانية والصينية التي ترتفع من حين لآخر، ولكن أتمنى كذلك أن أربيهما كالريش وأحلق بهما عالياً. أحب استخدام هاتين اللغتين، ولكن من الصعب إيجاد الفرص لممارستهما في المكان الذي أعيش فيه. ربما أكون كسولاً وعشوائيًّا. ذاكرتي ذات الثلاثة والأربعين عاماً أكثر غربلةً من الفخ الحديدي. وأحمل ميراثاً عاطفيًّا من معلمي ومؤلفي الكتب التعليمية؛ ما جعلني أقول إن تطبيق الوسائل التربوية الغريبة جعل من تعليم اللغة أمراً صعباً ومملاً.

أحد أهداف البالغين هو تجنبهم للأمور غير المهمة والتافهة المغروسة فيهم من الطفولة، لذا فإن طريقهم يقود بوضوح إلى الابتعاد عن فصول تعليم اللغة؛ الحياة نفسها عابثة بما فيه الكفاية.

وفي ما يتعلق بالتحدث بلغة ثانية أيضاً، شعرت كذلك بأكثر التجارب تشويقاً في حياتي؛ عندما تلقي الشمس بأشعتها على المعنى المبهم في الكلام، وعندما يتحقق حلمي بالتحدث بالإسبانية والصينية بيسر وسهولة، وعندما أرتب كلماتٍ لأكوّن جملة في الهندية أسعد بها مضيفي، وعندما أسمع مصادفة البائعين من بكين وهم يتناقشون باللغة المندرينية ثم أقول لهم بالمندرينية إني أعرف سعر القطعة الحقيقي بعدما سعروها بثمن أعلى، وعندما ألمح في طرفة عين طريقاً مختلفاً يتكون ويبدأ بظهور طاقة غريبة عليَّ تخرج بعد بناء جملة غريبة. كم أحب هذه الأحاسيس، وأتشوق إليها مرة ثانية.

هذا غيض من فيض ممّا شاركت به متعددي اللغات المفرطين الذين وصفتهم في هذا الكتاب.

ولكني لا أعرف، لماذا يكون الجزء الأصعب من تعلّم اللغات صعباً، والأجزاء السهلة سهلة؟! كل ما أعرفه هو أنني لا أريد أن أكون متحدثاً باثنتين وسبعين لغة، أو حتى اثنتي عشرة لغة. ما أريده حقًّا هو



Twitter: @ketab_n

الكثير من الأجزاء السهلة والقليل من الأجزاء الصعبة.

في اليوم التالي وصلت إلى بولونيا، كنت أريد معرفة الحقيقة، ولكن إذا هربت مني فلن أتفاجأ.

قبل الشروع في رحلة بولونيا، كنت قد اتصلتُ ببعض الخبراء لأعرف وجهات نظرهم عن الذي أتمنى أن أجده. كانت واحدة من بينهم اللغوية كليرا كرامست من جامعة كاليفورنيا في بيريكلي، التي كتبت ونشرت الكثير عن أحادية اللغة، لذا كنت أبحث عن رؤاها المتعاطفة. قالت لي: "نعم، هناك العديد من الأشخاص الذين يتعلمون العديد من اللغات". ثم صمتت تفكر، وقالت: "ليسوا الأوروبيين فقط، أقصد، إن الأطفال الأفارقة ينشأون وهم يعرفون، ويتحدثون تلقائيًّا أجزاء قليلة أو كثيرة من ثماني لغات مختلفة أو تسع حيث إنهم يعيشون في مناطق تكون فيها القرى ذات لغات مختلفة، ومن خلال التزاوج يتعلمون من بعضهم بعضاً طرائق للتحدث وهكذا".

وأضافت بلكنتها الإنجليزية الجذابة: "ولكن، لا أقول إنهم متعددو لغات. حقًّا إنهم يتحدثون العديد من اللغات، ولكنهم ليسوا بالضرورة يعرفون كيف يكتبون أو يقرأون بها، وهذه اللغات تفتقر دائماً إلى النماذج الكتابية. وهذه تستخدم في سياقات معينة، فمثلاً إنهم بحاجة إلى معرفة لغة أفراد القبيلة الأخرى عند مضخة المياه المشتركة، ولكنهم لا يعرفون كيف يطلبون منهم لحماً في السوق؛ لذا كل لغة قد قيدت في نطاق معين".

واعترفت قائلة: "أنا لا أعرف بماذا أصفهم. أرى أن تسميهم متنوعي لغات. ولكن، بالنسبة إلى المعنى الآخر للأشخاص الذين لديهم كفايات كاملة في مجالات التحدث والكتابة للغة، فعليك أن تحدد ما الذي يعنيه التحدث باللغة".

ما زالت عقدة السؤال تلازمني: ما الذي يعنيه أن تتحدث لغة؟ في رواية آن باتشت "الغناء الجميل"، كان على المترجم متعدد اللغات جان



Twitter: @ketab_n

أن يجعل الطبيب في الرواية يسأل بلغات عدة تمثل الأشخاص الذين اختطفوا معه. يعرف جان بعض المفردات وكيفية لفظها، ويعرف كيف توضع الكلمات معاً، ويعرف كيف يبني جملة. هذه المناطق الثلاث - المعاجم والنحو والصرف - تُكوِّن ما يُسميه اللغويون رمزاً. ويمكنك أن تقول إن معرفة الرموز هي التحدث باللغة. ولذا، كان جان يعرف كيف يستخدم الرموز عمليًّا، هذه تسمى "البراغماتية"[1]، فهو يزن باستمرار الكلمات التي ينتقيها، خشية أن يقول الكلمة الخطأ للشخص الخطأ.

والآن، عليك في البداية أن تعرف الجزء الخادع من دقائق البراغماتية الخفية لمعرفتها. هبْ أنك الآن في اليابان، وتهم بمغادرة الفندق الصغير بعد تناولك وجبتك، وقالت لك مضيفتك صاحبة الفندق "Gozaimashita Arigato" "شكراً لك على تناولك الطعام لدينا" فماذا سيكون جوابك؟ إذا كنت تعتقد أن كلمة "Doiteshimashite" والتي تعني "مرحباً بك" ستكون مناسبة، فاعلم أنها ليست كذلك تماماً، وإنما المناسب والمؤدب أن تنحني وتقول "Domo" أو "شكراً"، مثل "شكراً جزيلاً لك".

من المثير أنك حين تقوم بمثل ما يقوم به المتحدث من داخل اللغة، فإنك قد لا تقول شيئاً على الإطلاق.

تعترف كرامست قائلة: "ربما يكون السؤال الصحيح ليس عن التحدث بلغة ما، وإنما عن معرفتها، وهذه الأخيرة تحمل معاني متعددة". تعريفها عن معرفة اللغة هو أن يكون الشخص على معرفة برمز اللغة والبراغماتية، وأن يكون قادراً على قراءة الرمز وكتابته، كما أن عليه أيضاً أن يكون ذا شعور عميق بمجموعة اللغة، والهوية، والثقافة التي تكون ميزات عميقة غامضة يطلق عليها "الارتباط" باللغة. هؤلاء الأشخاص

(1) البراغماتية: علم اللغة الذي يبحث في دراسة المعنى الوارد في سياق الحديث أو الذي يقصده المتكلم. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

فقط هم من يشعرون أن في الارتباط قوة كافية تمكنهم من "معرفة" اللغة.

وبحسب قول كرامست، إن معرفتك باللغة تستدعي بالضرورة معرفتك بثقافة المتحدثين الأصليين لها، وأن تحمل معك حقائب لثقافة اللغة، وهذا معناه - بالإضافة إلى أشياء أخرى - أنك تعرف معنى ما أنت بصدد قوله في هذه اللغة أو تلك. وقالت: "إذا كنت تتحدث إلى أشخاص من أمريكا اللاتينية مقيمين في الولايات المتحدة، فستجد ارتباطهم باللغة أكبر من مجرد قدراتهم على تسمية الأشياء المختلفة للشيء نفسه؛ إنه يمثل ارتباطاً بنوع عاطفي من تجارب العالم التي لا تتجزأ من استخدام اللغة في سياقات محددة".

سألتها: "هل هؤلاء الأشخاص المتمكنون من النظام اللغوي للغة فقط، عليهم أن يحدوا من قولهم إنهم يتحدثون تلك اللغة؟".

قالت: "لا، إنهم يتحدثون اللغة، ولكن ليس لديهم ارتباط ثقافي بها".

قُلت: "هل معنى هذا أنهم غير مؤهلين ليكونوا قادرين على الادعاء بأنهم متعددو لغات؟".

أجابت: "يجب أن يضع الشخص في اعتباره، أن هناك أنواعاً من الأشخاص؛ منهم من لا يحمل معه أي حقائب ثقافية معينة عن أيّ من اللغات التي يتحدثها. فقد تكون متمكناً من العزف على البيانو بشكل رائع، ولديك تحكم بارع في السلالم والنغمات الموسيقية، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنك تفهم موزار[1] أو أنك موهوب موسيقيًّا. إجادة الرمز شيء، ومعرفة ما يعنيه الناس بحديثهم، وسبب عدم استخدام المتحدثين بذلك الرمز له في أثناء التبادل شيء آخر.

(1) موزار، فولفغانغ أماديوس (1756-1791) مؤلف موسيقي نمساوي يعتبر من أشهر المبدعين في تاريخ الموسيقى، ورائد الأسلوب الكلاسيكي في نهاية القرن الثامن عشر، مات قبل بلوغ السادسة والثلاثين، تاركاً أكثر من 600 عمل فني. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

سألتها: "ما هي أكثر اللغات التي شعرتِ أنها الأكثر ارتباطاً بشخصية الفرد؟".

قالت: "أوه، لا أعرف. شهادات متعددي اللغات تُظهر أنهم يمثلون - بشكل أو بآخر - انعكاساً شخصيًّا وثقافيًّا لثلاث لغات أو أربع تقريباً، وبالكثير خمس لغات، وهذا يشمل اللغة التي نشأوا عليها". وأضافت: "أغلب هؤلاء الأشخاص نشأوا بثلاث لغات ومن ثم أضافوا الرابعة". كانوا مرتبطين شخصياً بالثقافة، والتي أسمتها "إطار العقل للمتحدثين باللغة".

قالت كذلك: "أحد أولادي نشأ بثلاث لغات وأضاف الرابعة، ومع هذا فهو يتعلم لغات بجانبها، ولا أستطيع أن أقول إن [لديه] اللغة السادسة أو السابعة التي يرددها. في حالتي، أنا أردد ثقافيًّا ما يُقارب ثلاث لغات. بالإضافة إلى ذلك لديَّ الروسية، واليونانية، واللاتينية إلخ. ولكن تلك أشبه بالفراشات"، وضحكت وقالت: "هذا ما أضفته إلى مجموعتي".

بالطبع، يستطيع الشخص أن يضع معايير فعالة عن معرفة اللغة بأي عدد، وستعكس هذه القيود التي يوظفها تجارب الشخص واستفادته. من خلال تعريفها عن الولد ذي الأعوام الستة الذي لا يستطيع القراءة، لا يمكن القول إنه يعرف حتى لغته الأصلية. وهذا بالمثل يمثل حقيقة الأشخاص الذين لم يكتسبوا الحقائب الثقافية للغة من التنشئة بغض النظر عن فصاحتهم.

في ما بعد، كنت أتساءل: لماذا يضطلع الشخص بتعلم اللغة إذا كانت مرتبطة دائماً بمستوى معرفة ودراية المتحدث الأصلي كهدف يصبو إليه؟!

النقطة الرئيسة التي اختتمت بها مهمة جدًّا، حيث قالت: "تعلم أن اللغة التي نتحدث بها تمثل جزءاً كبيراً في نسيج الخبرة في حياتنا، لذا فإن



Twitter: @ketab_n

سؤال: كم لغة تعرفها؟ هو في الحقيقة الشق الأول من السؤال، والشق الثاني هو أن تسأل: كم لغة تعيش معها؟ بالطبع، كلما زاد عدد اللغات التي تعيش معها أثرت بخبراتك. ولكن صقل هذه اللغات يتطلب الكثير من السفر والاتصال، أكثر مما يقوم به الناس الآخرون، لذا أود أن أقول إن الناس يستطيعون تعلم أربع لغات أو خمس كحد أقصى".

وسألت أيضاً روبرت ديكيسر خبير اللغات المكتسبة من جامعة ميريلاند عن رأيه في قصص ميزوفانتي.

فأجاب: "إذا كانت لديك ذاكرة جيدة وتحفيز كاف، فلن يكون تعلم المفردات في عشرات اللغات إنجازاً خارقاً. السبب الذي يجعل أكثر الناس لا يقومون بهذا هو أنّ القليل منهم فقط يملك التحفيز الكافي لفعل ذلك".

وقال: "ما هو أصعب من ذلك بكثير ويحتاج إلى قدرة خاصة هو أن تكون طلقاً، ولستُ أقصد الطلاقة والسرعة في التحدث، ولكن الدقة في معرفة الاختلاف العريض بين اللغات. هناك لا تتحدث عن المفردات فقط، وإنما تتحدث عن القواعد. ولا تستخدمها فقط، ولكنك تقوم بها بسرعة، مثل ما يقوم به المتحدث الأصلي في حديثه من استخدام عدد من قواعد التحدث بسرعة بشكل مدهش، لذا فإنك تحتاج إلى الكثير من الممارسة".

واستمر بالقول: "في الحقيقة، هذا يتضمن أمرين آخرين؛ الأول: وقت أكثر بكثير تحتاجه لحفظ المفردات، وما أسميه أيضاً القدرة على التحكم بالقواعد التي تعرفها في كلامك. لذا، حتى لو كنت تعرف القواعد الأساسية، فإنك تحتاج إلى جهود كبيرة لاستخدامها بالسرعة العادية في اللغة المتحدث بها. أعتقد أنك إذا وجدت شخصاً ما جيداً بشكل استثنائي في التحدث بطلاقة ودقة في عدد كبير من اللغات، فإن ما ستجده أن اللغات المثالية منها يمكن تطبيق الحكم عليها.



Twitter: @ketab_n

وقال: "إنها ليست متعلقة بالمناطق الثمانين للغة في الدماغ وحدها، ولكن بهدف تعلم العديد من اللغات بشكل جيد، والاحتفاظ بها نشطة بعد تعلمها، تحتاج إلى وقت لا يملكه أحد غيرك، حتى لو كنت تمضي وقتك كله في التحدث والتدرّب على اللغات.

لذا، عندما نسمع مثل هذه القصص عن الكاردينال قبل مائة أو مائتي سنة، تراودني الشكوك جدًّا، جدًّا، جدًّا، لأنّ أغلب الأشخاص غير اللغويين لا يدركون ما يعنيه تعلم لغة في الواقع. إنهم لا يدركون أيضاً - حتى لو كنت تتحدث اللغة بطلاقة وبوضوح - مدى بعدك عن طلاقة المتحدث الأصلي للغة بكل المقاييس الحقيقية".

وضع طلاقة المتحدث الأصلي للغة كمقياس للمقارنة بدون أي إيحاء مني، هل كان هذا أفضل مقياس يستخدم لشخص مثل ميزوفانتي؟

ولد ديكيسر في بلجيكا ونشأ فيها. هذا البلد ذو اللغات المتعددة الرسمية بالرغم من التنوعات السياسية، دائماً ما يضرب به المثل في أن الأنظمة السياسية فيه لا تستطيع العمل بسهولة مع أكثر من لغة رسمية. في الشمال يُتحدَث بالهولندية، والفرنسية في الجنوب الغربي، وفي منطقة صغيرة في الشمال الشرقي يُتحدَث بالألمانية، والجميع يدرس الإنجليزية (يتحدث ديكيسر هذه اللغات الأربع كلها). أضف إلى هذا الخليط بيروقراطية الاتحاد الأوروبي متعدد اللغات، والذي يقع في بروكسل؛ المدينة التي تسمع فيها الفرنسية كثيراً، وتعتبر اللغة الهولندية لغة رسمية أيضاً.

تنوع اللغات لدى البلجيكيين جزء لا يتجزأ من ضروريات الاقتصاد - فالدولة معتمدة على الواردات والصادرات - ومن نسبة السكان الصغيرة التي تتحدث اللغة الهولندية التي يبلغ عدد المتحدثين بها في أنحاء العالم 22 مليوناً تقريباً. إن تبنّي عدد من اللغات مذهبٌ متوقع



Twitter: @ketab_n

اجتماعياً يكتسبه الأطفال ببساطة لاعتناقه أو رفضه، لقد كنت متصوراً أنني سأكتشف مادة سحرية يشربونها مع المياه من الصنابير! إن أخذ دورات في اللغة يعتبر تسلية دعمتها الحكومة لديهم. الجانب المشرق في الأمر أن تعدد اللغات عند البلجيكيين خفف كثيراً من التوتر الاقتصادي بين المقاطعات في البلاد. سمعت مرة أحدهم يصف بلجيكا "بمختبر جميل لمتعددي اللغات"، وسماها شخصٌ آخر "صربيا اللغوية المتدنية"، هذا بدا أكثر واقعية.

قبل أن نفترق، شاركني ديكيسر بحكاية يتذكر بعضاً منها حدثت في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي. فقد قام بنك في بلجيكا - لم يعد موجوداً الآن - برعاية مسابقة هدفها البحث عن أكثر شخص متعدد اللغات في بلجيكا. نوع من مسابقات اللغة المقننة. اشترك المئات من الأشخاص في المسابقة، واختبروا في حوارات قصيرة من متحدثين أصليين للغة أتوا من الجامعات والسفارات.

قال: "بالطبع، فقد ادعى الكثير من الأشخاص معرفتهم بلغات كثيرة، ولكنهم لم يستطيعوا في الواقع التحدث بتلك اللغات. في إحدى المرات، تقدم أحد زملائي إلى اختبار اللغة الهندية، وهذا الشخص يعرف الكثير عن اللغة الهندية ويستطيع التحدث بها قليلاً، ولكن هل تستطيع أن تقول إن هذا الشخص يعرف الهندية؟".

لا يستطيع ديكيسر تذكر اسم البنك أو اسم الفائز أو كيف أثبت الفائز متعدد اللغات قدرته. وقال: "بالطبع كان عدد اللغات قليلاً جدًّا، تقريباً ثماني لغات فقط!".

هل هناك متعدد لغات مفرط حقيقي يعيش بيننا، وقُيمت مهاراته الشفهية من قبل الخبراء؟ أعتقد الآن أنني بحاجة إلى أن أقابل شخصاً مثل ذاك.



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثالث

تطل نافذة غرفتي العلوية في الفندق على مباني بولونيا، ذات الأسقف الحمراء والجدران البرتقالية التي تشع كالجمر. في مكان ما في الأسفل كان سر ميزوفانتي ينتظر الكشف عنه. في كل صباح، أقوم باكراً لأراقب الشمس وهي تتدفق على أسطح المباني والكاتدرائية، بينما البرجان المرتفعان المائلان ديو توري[1]، ينتصبان بين خيوط الضوء المنتشر.

استقللت المصعد الذي رحب بي واهتز نازلاً للدور الأول. أخذت طريقي بين الأزقّة الجميلة في الشوارع الضيقة المختلطة والمرصوفة بالحصى، بينما تمرّ دراجة هوائية الأقدام لتصدر صوتاً يخدش هدوء الصباح.

على طول الطريق إلى المكتبة التي تحوي أرشيف ميزوفانتي، توقفت عند مقهى لتناول الإسبيرسو والفطائر. في صباح يومي الأول كنت فقط قادراً على طلب الإسبيرسو unespresso بالإشارة وهز الكتفين، وهل يهتم أحد بمستوى طلاقة كاتب أجنبي زائر باللهجة المحلية؟ في نهاية الأسبوع، كنت قد تطورت في هز الكتفين، وإشاراتي أصبحت أقل، وتمكنت من قول كلمات مثل: Per favore (لو سمحت)، un espresso e un dolce (قهوة إسبيرسو وفطيرة)، come pagare (بكم؟)، كما تعلمت

(1) ديو توري: وتعني: "البرجان"، وهي مجموعة من مباني القرون الوسطى، والأكثر شهرة في بولونيا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

جُملاً أساسية مثل non posso parlare italiano (أنا لا أتحدث الإيطالية) والتي كنت دائماً أنطقها صحيحة.

تحت تمثال لويجي جالفاني - وهو طبيب عاش في القرن الثامن عشر واكتشف كيفية تحريك الكهرباء للعضلات - قرأت الصحيفة الإنجليزية، قبل أن تفتح مكتبة آرشي جناسيوا العامة أبوابها.

بنيت مباني آرشي جناسيوا بين عامي 1562 و1563، وكانت تحتوي جامعة بين أروقتها؛ إلى العام 1803، واستُخدم جزء من مرافق هذه المباني العملاقة كمكتبة محلية في 1838، أما الآن فهي ساحات وقاعات محاضرات كبرى تقدم مصغرات عن تاريخ بولونيا. وقد هُدم الكثير منها بفعل قنابل الحلفاء إبَّان الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك - ولحسن حظي - فإن أوراق ميزوفانتي نجت بعد أن أُخذت خِلسة وخبئت في مكان ما بين التلال.

في أحد الأيام ذهبت إلى مدرج التشريح؛ غرفة كبيرة غلفت جدرانها بألواح خشبية نُصبت عليها تماثيل للأطباء والعلماء القدماء تخليداً لهم، نجت من تدمير القنابل وبقيت شامخة على الجدران، وأعيد بناؤها لتكون في الأسفل كما كانت أثناء عصر التنوير. في وسط طاولة التشريح الرخامية، وباسم العلم الطبي كانت أجساد المجرمين المشنوقين تشرح وتقطع، وتوزع، وترقم، وتتم مقارنتها. وهذه ليست - بكل تأكيد - أجساد متعددي اللغات المفرطين، أو أدمغتهم.

كنت أود أن أرسم صورة جميلة في مخيلتي عمَّا سيكون عليه أول يوم لي في غرفة المخطوطات هذه. أدخل الغرفة وأعرف بنفسي بلغة إيطالية غاية في الطلاقة، ثم أنفض الغبار عن غطاء الصندوق وأجد- يا للإثارة! - اعترافات وتفاخر مفيستوفيليس[1] وأشعاره، وفي صندوق

(1) مفيستوفيليس: أسطورة الشيطان الذي باع الدكتور فاوست روحه له للحصول على عمر مديد، وقدرات خارقة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

آخر أجد مخطوطة الوثيقة الموقعة بالدم، وتعهداً بطول العمر والقدرات اللغوية الخالدة المرافقة. دليل لا يقبل الجدال عن قدرات ميزوفانتي، ويمكن لحقيقة الكاردينال أن تنكشف!

ما حدث في الواقع اقترب كثيراً من هذا! كنت أتخبط للصعود إلى أعلى السلم، وأتبع اللوحات الإرشادية التي بالكاد أفك شيفرتها biblioteca (مكتبة) وmanoscritti (المخطوطات)؛ سهلة بما فيها الكفاية. أوقفتني المرأة الجالسة وراء طاولة الاستقبال بسيل من الكلمات بالإيطالية قبل أن أقوم بإشارتي المعتادة "أنا لا أعرف الإيطالية". هززت كتفي وهي مستمرة بالكلام، ثم حاولت بإيماءة أن أقول: أريد أن أنظر إلى المخطوطات!

- manoscritti (مخطوطات)؟ أشارت إلى أسفل إلى القاعة!

أدرت ظهري للمضي، فصاحت: لا، لا، لا (غاضبة من غبائي) أشارت إلى جهاز الحاسب المحمول وناولتني ورقة لتعبئتها telefono، indirizzo، nome (الاسم والعنوان والهاتف) ملأتها، وختمت هي على الورقة.

- أين أذهب الآن؟

أشارت إلى الأسفل، نحو القاعة.

كانت غرفة المخطوطات النادرة واسعة ومرتفعة السقف، وتحوي أرفف زجاجية طويلة للكتب. في جو الأرشيف الصامت، استدارت رؤوس أمناء المكتبة عندما دخلت، وقلت buongiorno (صباح الخير)، وردت واحدة من الأمناء buongiorno - كانت امرأة في منتصف العمر - بطريقة جافة تماماً.

كنت أعرف فقط اسم أمينة المكتبة التي أرسلت إليها رسالة إلكترونية قبل أسابيع قليلة، كانت بالإنجليزية، وأجابت بالإيطالية، فوضعت جوابها في محركات الترجمة على شبكة الإنترنت.



Twitter: @ketab_n

سألت: "باولا فوستشي؟". ونطقت الاسم خطأ؛ فاستقامت في جلستها وبدت عليها الدهشة، وصححت الاسم، وطلبت مني الانتظار.

اقتربت مني امرأة أخرى تضع نظارة ضيقة وتزم شفتيها، فعرفتها بنفسي. عيناها تشعان معرفة بي، وانهالت الإيطالية من فمها، ولم أفهم منها سوى كلمة وحيدة هي ميزوفانتي. كنا نتواصل عن طريق البريد الإلكتروني بشكل جيد، والآن نتقابل وجهاً لوجه كما يلتقي البحارة من مناطق بعيدة بهدف الإبحار أو صيد الحيتان بلا لغة مشتركة، ولم تكن هناك كلمة مشتركة سوى ميزوفانتي.

انصرفت وتحركت بسرعة إلى أحد أرفف الكتب، وعرضت عليَّ دفتراً مربوطاً طوله قدمان، وعرضه أربعون بوصة، كان عبارة عن قائمة مفصلة مكتوبة باليد لكل مادة من مواد الصناديق التسعين ونيف من مجموعة ميزوفانتي.

هذه كانت inventario (قائمة). تصفحته لدقيقة، وشعرت أن قلبي يكاد يسقط، كل المفردات مكتوبة بريشة بحبر فاتح اللون، بخط يد مبهرج وغير مقروء. ضربت رأسي بيدي، وقلت لنفسي: كان عليَّ أن أتدرب على قراءة خطوط القرن التاسع عشر قبل أن آتي إلى هنا، والآن سأضيع هذه الرحلة سدى!

صارعت لقراءة عدة صفحات أخرى، وأدركت أنه لو وُجدت أي معلومات هنا فإنني لن أراها، فضلاً عن الأسرار.

في تلك اللحظة، قاطعتني بولا فوستشي، ووضعت دفتراً ضخماً آخر على الطاولة السوداء الخشبية، وأشارت إليَّ أن أفتحه. كان نسخة طبق الأصل من inventario مخصصة لميزوفانتي ومكتوبة بخط حديث مقروء؛ فكدتُ أن أجثو على ركبتي شكراً لها!

وبشكل مباشر انكشف غموض قائمة متعدد اللغات في جميع صناديق أوراقه التسعين، والتي كانت مكتوبة باللاتينية، والإيطالية،



Twitter: @ketab_n

ولغات أخرى. كان اهتمامي منصبًّا على أول مجموعة من الصناديق التي كانت مخصصة للغاته المكتسبة. كانت المحتويات مرتبة أبجديًّا، باللغة الأنغولية، والأرمانية، والبورمية، والبولونية، والكتالونية[1]، والإنجليزية، وواصلت العد. وفي النهاية، أحصيت خمساً وستين لغة، جميعها مكتوبة أسماؤها بالإيطالية. وكأنها خارطة صحراء بسعتها ووعورتها؛ بمساحة الصحراء نفسها.

وصفت القائمة محتويات كل صندوق؛ فقد دوِّنت فيها المتعلقات الشخصية، ورسائل العائلة، والمراسلات الرسمية، والوثائق الرسمية، وبعض الصناديق كتب عليها "متنوع". كيف صنفت محتويات الصناديق على هذا الأساس؟ ومن قام بذلك؟ لم أكن أعرف ولكن يبدو أنه أحد الأشخاص من متعددي اللغات. كنت أغبط الشخص الذي يمكن أن يقول لي ما الذي تحويه هذه الوثائق.

كانت مواد الصندوق موصوفة، ويكتب على أولها عندما تتطابق بالإيطالية، أو اللاتينية، أو الألمانية، أو الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الإسبانية، أو البرتغالية، أو الروسية، أو الصينية، أو العربية، أو الأرمينية. ودائماً كُتِب عليها "رسالة بالألمانية"، "رسالة بالهولندية". في بعض الأوقات تكون مفهرسة، ومختومة، أو مشار إليها بعبارة مجردة مثل "يحتوي على...".

مما لا شك فيه، أن آثار متعدد اللغات القديس ميزوفانتي حقيقية؛ حقيقية بالفعل.

في نهاية هذا اليوم، كان رأسي مكتظاً بقطع اللغات والحروف، ولن أستطيع الانتظار لإكمال بحثي. كنت أنصت، وأنصت، وأنصت محاولاً الاستماع إلى شيء ما في الأعماق لاكتشاف شيء آخر أكبر.

(1) هي إحدى اللغات التي تنتمي إلى عائلة اللغات الهندوأوروبية الرومانسية. وهي لغة منطقة كتالونيا التي تقع في شمال شرق المملكة الإسبانية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم التالي في بولونيا، عندما طلب مني الساقي due euro (اثنين من اليورو) بدلاً من الخمسة التي أعطيته إياها متمنياً أن تكون تكلفة الطعام أقل، أعطيته الاثنين اللذين طلبهما.

في غرفة المخطوطات، ابتسم أمناء المكتبة عند وصولي وقالوا Buongiorno (صباح الخير) والتي تعني أهلاً! وقالوا أيضاً: "نحن متأكدون بأنك ستكون قادراً على القراءة بالإيطالية بدون خطأ اليوم! نحن سعداء بأن نحضر لك الصناديق، ولكن سنحضر اثنين منها فقط قبل الغداء".

(أمناء المكتبة شديدو الحرص وضحوا لي كيف عليَّ أن أضيف توقيعي مع قائمة تواقيع الآخرين على الورقة داخل الصندوق).

في الأمس، نظرت إلى قائمة المحتويات فقط، واليوم خططت للغوص أعمق في هذه الصناديق التي أُحضرت إليَّ بعربات الواحدة تلو الأخرى مغلفة بالكرتون لتبدو مثل الكتب، كانت قديمة وتعلوها طبقة من الغبار. انبعثت رائحة عفن عند فتح الغطاء، فهذه الصناديق لم يلمسها أحد منذ عقود.

في الصندوق الأول، كتب على الملف الأول باللغة "الأنغولية" دون الإشارة إلى ما يحتويه. كان يحوي أربع مواد من قصائد، قصيدة عن بيت لحم، والأخرى عن الملوك الثلاثة؛ ترجع إلى الأعوام 1844، 1845، 1847 و1848. كانت بين الجمل ترجمة إلى اللغة اللاتينية لكل منها. هل كتبها الكاردينال؟ إذا كان يعرف الأنغولية فلماذا احتاج إذاً إلى الترجمة اللاتينية؟ كنت أنصت، وأنصت، كان هناك صوت داخلي، لكني تجاهلته لأستمر في البحث.

الملف الثاني معنون باللغة القبطية، ويحتوي على قصيدتين عن الملوك الثلاثة، وقصيدة أخرى عن بيت لحم، مع ترجمة لاتينية، (تكرار الموضوعات هكذا له مغزى سأعرفه لاحقاً بكل تأكيد).



Twitter: @ketab_n

وواصلت الاطلاع على العديد من الرسائل المكتوبة على أوراق صلبة بنية اللون، مقطعة بجميع الأشكال غير المعروفة، ولكنها ليست بمثل خربشات خط ميزوفانتي الضئيل، رقَّق الزمن من نسيج بعضها إلى أن بلغت سُمك جناح الفراشة.

الصندوق الثاني، كان يحتوي لغات متعددة؛ منها الألبانية، وتتضمن (قصيدة، قائمة من الأفعال، وبعض الجمل)، واللغة الغونكونية[1] وتتضمن (بعض القواعد، وقاموساً، وكتاباً عن المبادئ الدينية؛ لم يكتب بيد ميزوفانتي، ما عدا الجزء الأول من ترجمة كتاب سفر التكوين)، واللغة الأمهرية، والعربية، (محاضرة طويلة لميزوفانتي عن تاريخ اللغة العربية)، والباسكية (مجموعة من الكلمات)، والبورمية (بعض النصوص النثرية)، والبوهيمية (بعض التمارين اللغوية)، و"الكليفورنية"[2] (مسودات قواعد للغة ليزينوا، لغة السكان الأصليين الأمريكيين، والتي لم يكتبها ميزوفانتي)، ولغة الكيتشوا، اللغة الأصلية لسكان أمريكا الجنوبية (قائمة من الكلمات، لم تكتب بيد ميزوفانتي)، الفارسية (قصيدة لميزوفانتي عن شاعر فارسي)، ومواد أخرى متنوعة بالصينية، والقبطية (اللغة المصرية المكتوبة بالأحرف اليونانية)، والدنماركية، والعبرية، والأثيوبية (رسائل مترجمة)، والفرنسية، واليونانية، والإنجليزية، والإيطالية، واللاتينية، و"ليفونيس" (ربما تكون لغة يفونيان، وتعتبر تقريباً لغة منقرضة، كان يُتحدَّث بها في المناطق التي تعرف الآن بلاتفيا واستونيا) والمالطية، والهولندية. وبهذا كنت قد وجدت الدليل على أن ميزوفانتي، في الحقيقة، عرف أجزاءً من لغات عديدة، ولكن السؤال هو: ما درجة طلاقته في اللغة الغونكونية والبورمية؟ لم يكن ذلك واضحاً بما فيه الكفاية!

تكررت كثيراً في قائمة المحتويات كلمة "versi"، وعندما بحثت

(1) لغة الغونكونية: إحدى لغات الهنود في شمال أمريكا. (المترجم)

(2) الكليفورنية: إحدى لغات سكان أمريكا الأصليين. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

عـن الكلمة فـي قاموسـي ظهر لـي أول معنـى كنـت أتوقعه "بيت شـعر/ قصيدة".

أما المعاني الأخـرى الأقل حرفية فقـد فاجأتنـي، كان المعنى الثاني "صـوت، ضجيج، بـكاء" كقـوة حيوانيـة، والمعنـى الثالـث كان "ضجيج سخيف"، والتالي كان "اتجاه، طريق"، والذي يليه "طريقة" per un verso o per un altro (بطريقة أو بأخرى).

إذا كنـت تعرف الإيطاليـة بطلاقة، فإن هـذه المجموعة مـن المعاني صوت/ ضجيج/ بكاء/ ضجيـج سـخيف/ وطريقة، تبـدو طبيعيـة جـدًّا لديك، مثـل عبارة الحلزون على القشـرة والورقة على الشـجرة. يمكن أن يقول البعـض إن هذه المعاني تُظهر السـطح فقط مـن رؤوس معانٍ بلاغية مغمورة ومترابطة وغير منظـورة، مع أنها حقيقية جـدًّا. وبالطبع، إنّ علامة معرفة اللغـات هي القـدرة علـى إمسـاك المعنى المغمـور بدقـة، بمثل ما تعرف أو أعـرف المثلث بنظرة خاطفـة إلى أضلاعه الثلاثـة. ومن البديهي أن ميزوفانتـي يعرف لغتـه الأصليـة البولونية بهـذه الطريقـة، وربما لغات أخرى قليلة أيضاً. ولكن، هل يعرف خمسـاً وثمانين لغـة أخرى، أو اثنتين وسبعين، أو مائة وأربعين بهذه الطريقة؟ ولهذه المعجزة وحدها، ربما كان ميزوفانتي يعامل بتقديس.

فـي الأيـام الخوالـي، كان النـاس يؤمنـون بقـدرة شـخص مـا على التواجـد بمكانين مختلفين فـي الوقت نفسـه (مثل قدرة القديسـة كاترين) أو القـدرة على الطيـران (مثـل القديس جوزيف مـن كوبرتينـو)، مثل هذه الادعاءات اليوم محل شكوك فقط.

أثناء جلوسـي إلى الطاولـة الممتدة في مكتبة آرشـي جناسـيوا، وأنا أفتـش فـي محتويـات الصنـدوق الأول، أدركت أننـي كنت مصممـاً على وضع حد لأصوات المشـككين والمصدقيـن التي تجول في رأسـي ذهاباً وإياباً؛ لأوقف التركيز على هذه الصناديق ومحتوياتها. كنت أقول لنفسي:



Twitter: @ketab_n

قف، أتيت الآن إلى هنا، فعليك أن تصبر وتنتظر، وستنكشف الأسرار.

في تلك الظهيرة، توجهت إلى فياملكونتنتي؛ مسقط رأس ميزوفانتي وسرتُ فيه. إنّه شارع ضيق، والمحلان الوحيدان الموجودان هناك صالون تجميل، وبقالة صغيرة. حتى تتخيل كيف كان ميزوفانتي يعيش هناك عليك أن تجر مواقف السيارات خارجاً، وتسحب سلال النفايات بعيداً، وتمسح الشعارات المرسومة على الجدران. على مسافة عشرين قدماً مقابل صالون التجميل، وعلى جدار متصدع، كتب على لوح خشبي باللاتينية التالي:

"هنا ولد ميزوفانتي الذي كان قادراً بشكل فريد على تعلم لغات كل الدول".

وكتب على لوح آخر بالإيطالية:

"هنا كان محل النجار
عندما كان جوزيبي ميزوفانتي
أبرز متعددي اللغات
في عمر السابعة في العام 1781م
مع والده فرانسيس
يعملان بالمسحج والمنشار".

ليست هناك طريقة أفضل لبعث ذبذات المعجزة القوية في بولونيا الكاثوليكية من أن تكون ولداً استثنائيًّا موهوباً لنجار. قيل إن ميزوفانتي اليافع كان يمارس عمله على مقعد في الشارع أمام مبنى كان الكاهن فاذر رسبايي يعلم فيه أبناء الأغنياء باليونانية واللاتينية. وكانت أصوات التراتيل تنبعث من النافذة؛ فحفظها ابن النجار كلها. وعندما علم رسبايي بهذا الصبي، توسل إلى والد ميزوفانتي الرافض، ليدع ولده يذهب إلى المدرسة.

إنها الحقيقة، إن ميزوفانتي ولد وعاش في فياملكونتنتي حتى عام



Twitter: @ketab_n

1831، ثم انتقل إلى روما؛ المكان الذي توفي ودفن فيه في العام 1849. ولكن تعليميه الأولي كان أقل درامية مما تضمنته هذه القصة. فكما ذكرت مصادر عائلية، كان يذهب إلى المدرسة في عامه الثالث. في البداية لمجرد أن يكونَ في مكان آمن أثناء غياب والديه في أعمالهما. ولكن، سرعان ما اكتشفت معرفته في جميع الدروس أيضاً، وهناك بدأت دراسته للغة اللاتينية، واللغة الإغريقية، والفرنسية.

قبل مائة سنة، كان الولد البولوني الذي يظهر ذكاءً واعداً من الممكن أن يصبح عالماً أو فناناً، أو رجل أعمال، أو رجلاً عسكريًّا. ولكن في مدينة منكفئة تحكمها قبضة الكنيسة، فإن أفضل طريق لفتىً ذكي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان طريق الكهانة. وفي عمر الثانية عشرة دخل جوزيبي مدرسة تعليم اللاهوت.

ليس مهمًّا أي الحكايتين ستصدق، ولكن الأكيد أن علاقة ميزوفانتي باللغات بدأت في وقت مبكر جدًّا من حياته. وهذا منحه تجارب وخبرات مبكرة ومهمة مع أنماط عديدة من الأصوات وطرائق بناء المفردات والجمل. وعندما كان في مدرسة اللاهوت كان يدرس بشكل مكثف العبرية، والعربية، والقبطية، والكثير من الألمانية والفرنسية، وتعرضه المبكر لكل هذا كان له عظيم الأثر في ما بعد.

يمكن أن نقول الآن إن دماغ الغر الصغير كان مرناً، وإنه بهذا استفاد من تلك السن؛ عندما كانت الدوائر العصبية في دماغه التي تتحكم في الأنشطة الحركية والعقلية المتعلقة باللغة لا تزال مرنة بشكل كامل. فمع الوقت تضمحل هذه المرونة. قيل إن السادسة من العمر تعتبر نهاية القدرة على اكتساب لكنة اللغة الأصلية؛ لأن شبكات الدماغ بين الأصوات التي تحفظها والأوامر الحركية لإعادة إنتاجها تتصلب مبكراً.

وعلى كل حال، حتى بين الأطفال ثنائيي اللغة، فإن اللغة الثانية، بغض النظر عن وقت تعلّمها، يمكن أن تكون مقبولة، خصوصاً إذا كانت



Twitter: @ketab_n

تستخدم أقل من الأولى. وحسب القاعدة؛ فإنه في حوالى عمر الثانية عشرة، يستطيع القليل منهم التحدث باللكنة الأصلية. (بعض الأشخاص قادرون على اكتساب اللكنة إذا كانت اللغة التي يتعلمونها تشابه لغتهم الأم). في عمر الخامسة عشرة سيكون من الصعب على الشخص التحدث بقواعد اللغة الأصلية (على الرغم من أن قليلاً من الأشخاص يستطيعون ذلك، خصوصاً إذا كانت اللغة تشبه لغتهم الأم). وبعد ذلك العمر، يستطيع البالغون تعلم الكلمات ومعانيها بشكل جيد، وهذا أمر نقوم به في لغتنا الأصلية طوال حياتنا أيضاً. ورغم أن اكتساب القواعد اللغوية أصعب في هذه السن، إلاّ أنّه سهل على البالغين واسعي الاطلاع ممن لديهم قدرة أكثر على التركيز؛ وهذه تعتبر ميزات للتعلم.

قد تكون لدى ميزوفانتي ميزات أخرى. ولكن، ما هي يا ترى؟ خذ فكرة سريعة عن وسائل التعليم في وقته، وتخيل غرفة صغيرة متراصة الطاولات، وأولاداً منكبّين على كتب مهترئة ويقرأون جملاً متوافقة النغمات تجلب النعاس من دون استيعابها، ثم يقوم الواحد منهم تلو الآخر بترجمة المفردات بصوت عالٍ إلى اللاتينية أو الإيطالية مع تلقين المعلم. ويتعلمون القليل من المفردات في كل يوم، وجملاً طويلة وصعبة مقتبسة من القصائد، ومن الإنجيل، أو النصوص الكلاسيكية، ونماذج القواعد، ويلقنون قائمة بحالات الأفعال أو الأسماء، في ظل عدم وجود الجمل الإبداعية مطلقاً.

إذاً، فالجواب: لا. هذه الوسائل لم تكن مميزة بكل تأكيد.

هل هذه تعتبر بداية استثنائية لمتعدد اللغات؟ قد يفكر الشخص بالعصر الحاضر، فلتعلّم الاتصال يجب على الشخص ممارسة الاتصال. وللتحدث بشكل مجدٍ، ينبغي على الشخص أخذ دروس واضحة لفعل هذا. ولكن ميزوفانتي لم يقم بأي دور في مسرحية، أو تمثيل، وليست لديه تطبيقات على جهاز الهاتف النقال، ولا يملك برنامج "سكايب"



Twitter: @ketab_n

للتواصل مع مدرس من المتحدثين الأصليين للغة الأجنبية.

إن معامل اللغات أُنشئت قبل مائتي عام. ووُجد لاحقاً، أن متعددي اللغات المفرطين ينجحون بغض النظر عن الطريقة المستخدمة في تعليمهم. البعض كان عصاميًّا علم نفسه بنفسه. وهناك آخرون عندما يدرسون في الفصول يشعرون بالسعادة، وآخرون يتعلمون ما يحتاجون إليه من المتحدثين الآخرين.

يجب على الشخص أيضاً أن يحدد الفوائد من نوع التدريس الذي تلقاه ميزوفانتي. حيث إن دراسته للغة اللاتينية واللغة الإغريقية أعطته بداية جيدة في دراسة مفردات اللغات الرومنسية[1] وبناء اللغات الهندوأوروبية[2]، مع خبرات واسعة في الحروف الهجائية أيضاً لنظامين (كان قادراً على القراءة وربما الكتابة في مجموع ست لغات). وعلى الرغم من المعاناة التي ترافق التعليم التقليدي مقارنة بما نقوم به الآن، فلقد أعطاه هذا التعليم وسيلتين مهمتين في مشروعه اللغوي هما الذاكرة القوية والثقة بالنفس.

لم يكن هناك الكثير من الفوائد التي حصل عليها من البيئة الأوسع التي يعيش بها، والتي لم تكن بالطبع ثنائية اللغة. هل انغمس في هذه اللغات العديدة من خلال التقاطها في المنزل وفي الشارع؟ ومع ذلك، فإن جوزيبي لم يعش على الحدود أو في العاصمة، ولم تكن عائلته مهاجرة، بل كان كلا والديه بولونيين. جوزيبي نفسه لم يسافر إلى الخارج

(1) اللغات الرومنسية: مجموعة لغات تطورت عن اللاتينية، وهي جزء من عائلة اللغات الهندوأوروبية، وتستعمل الآن في الأماكن التي كانت من قبل جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وتشمل هذه اللغات الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والرومانية، والإسبانية. (المترجم)

(2) اللغات الهندوأوروبية: مِنْ أكبر العائلات اللغوية، يتكلم بها حوالى نصف سكان العالم، وتتكلم معظم الشعوب التي صنعت الحضارة الغربية لغات الهندوأوروبية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

في شمال إيطاليا حتى توسط به العمر، لذا من المحتمل أنه لم يتعرض لغير اللغة الإيطالية في المناطق التي عاش بها. هل كان قادراً على التغلب على عادات طبقة عائلته العمالية من أجل السفر؟ ربما وجدها هنا أو هناك في شبه الجزيرة الإيطالية، فقد كانت اللغة الإيطالية تستخدم العديد من الاختلافات المتباينة للغات، والتي وصفها أحد العلماء "بالشغب في التنوع اللغوي". أغلب الناس كانوا أحاديي اللغة على الأرجح، يتحدثون فقط اللهجة المحلية. وعندما تأسست الجمهورية الإيطالية المستقرة أخيراً عام 1860، أصبح فقط 10% من السكان يتحدثون لهجة الفلورنتين المرموقة التي نسميها الآن اللغة الإيطالية.

من ناحية أخرى، لقد دبّر التاريخ إحضار اللغات لميزوفانتي بشكل أقرب، ففي مقتبل عمره، تتلمذ لثلاثة معلمين، جميعهم مبشرون يسوعيون كانوا قد هاجروا في العام 1767 من مناطق الإمبراطورية الإسبانية، ومن المحتمل أنهم قد علموا جوزيبي الإسبانية والألمانية والفرنسية، ويحتمل أيضاً أنهم أعطوه دروساً في اللغة التي تقدم في المنهج اليسوعي العلمي لليسوعيين أيضاً، والذي اعترف بقوة اللغة ليس فقط لتحويل البربريين إلى الديانة المسيحية، ولكن كوسيلة لتصدير التعليم الغربي، وللاستشهاد بمثال واحد من عدة أمثلة، اليسوعي ماثيو ريتشي (1552–1610) الذي ترجم كتاب إقليدس[1] إلى الصينية.

في سن الخامسة عشرة، وبعد ليالٍ طويلة في المكتبة تحضيراً للاختبار، أصاب ميزوفانتي المرض فترك المدرسة، ولم تُعرف الأعمال التي قام بها بعد ذلك لعدة سنوات، ولكن يُظن أنه عمل في النجارة مع والده في الورشة في فياملكونتنتي، وبعد تعافيه أنهى دراسته. وفي عام 1797، حين كان في الثالثة والعشرين من عمره تقلد منصباً كهنوتيًّا،

(1) عالم رياضيات يوناني يلقب بأبي الهندسة. اشتهر إقليدس بكتابه "العناصر"، وهو الكتاب الأكثر تأثيراً في تاريخ الرياضيات. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

وعُين أستاذاً للغة العربية في جامعة بولونيا، ولنصف سنة تقريباً كان يروح ويغدو إلى آرشي جناسيوا إلى أن عصفت التغيرات السياسية بأوروبا. جُرد الأستاذ الشاب من وظيفته بقسوة بعد رفضه أداء القسم لجمهورية شيسبدا (قصيرة الأمد) التي كان نابليون قد أسسها في العام 1796 في شمال ولايات إيطاليا البابوية.

تعمدتُ الإشارة إلى هذا التاريخ السياسي لأُبرز مدى تأثير العوامل البعيدة وغير المتوقعة على متعدد اللغات؛ فلو بقي في وظيفته، لما اضطر الشاب ميزوفانتي إلى النزوح لمنطقة جغرافية واجتماعية تكون فيها اللغات المتعددة متقاطعة ومحتشدة. فمن العام 1796 إلى 1800 تقاتلت جيوش نابليون مع السلالة الحاكمة النمساوية على موقع بولونيا الاستراتيجي والسياسي، وامتلأت المستشفيات بالرجال الجرحى من جميع أنحاء الإمبراطورية النمساوية المختلفة لغويًّا، وكان أولئك الرجال يحتاجون إلى خدمات القديس ميزوفانتي كمساعد وكاهن الاعتراف، فتطورت لغة ميزوفانتي الألمانية، وتعلم المجرية أيضاً، والقبرصية، والبولندية، والروسية، والفلمنكية، وبالطبع الرومانية. وادعى أنه يستطيع تعليم نفسه اللغة خلال أربعة عشر يوماً. قام بذلك كما قيل، بأن كان يطلب من المريض ترتيل صلاته المعتادة، والتي من خلالها يدرك ويميز الفروق بين المفردات والقوالب.

"في هذه الحالة" - قال ميزوفانتي، لمانافيت الذي كتب السيرة الذاتية للكاردينال باللغة الفرنسية - "وبهذه الطريقة، كنت معتاداً على تكريس نفسي وطاقتي لدراسة لغة المرضى، حتى أشعر أنني فهمت بما فيه الكفاية".

وأضاف: "وبنعمة من الله الذي ساعدني في دراستي الخاصة، ومع ذاكرتي الحافظة، كنت قادراً على معرفة ليس فقط لغات الدول التي ينتمي إليها المصابون، ولكن حتى اللهجات الإقليمية لمناطقهم المتعددة أيضاً".



Twitter: @ketab_n

في أرشيفه، وجدت تقارير مختلفة عن حياته، فقد مُنح شهادة تكريم (بالإيطالية) مؤرخة في 1798 تقديراً له لمساعدته "كل شخص مريض يأتي إلينا طالباً العلاج، ويتحدث لغة غير معروفة لنا".

في السنة التالية، تلقى شهادة أخرى أطرت عليه بقولها: "حماسة لا تكل في ترجمة العديد من لغات المرضى".

وهناك تقارير أخرى عن تعلّم للغات من أشخاص، وليس من الكتب، ومن أشخاص لا يتشارك معهم لغة مشتركة. في المعتاد، لا تعتبر هذه بحد ذاتها إنجازاً، فدائماً يغامر التجار والمبشرون بالحوار مع أشخاص لا يتحدثون لغتهم، بدون أن تكون هناك لغة وسيطة (مبسطة) بينهم أو تعلم متبادل للغات. ومع ذلك، لا يوجد أي تقرير من هذه المصادر عن شخص اكتسب العديد من اللغات مثل ما قام به ميزوفانتي.

بعد خسارته منصب الأستاذية، ساعد ميزوفانتي والديه وأخته وأسرتها، من خلال تدريسه اللغات إلى الأجانب أو أطفال العائلات الغنية، الذين عينوه أميناً على مجموعاتهم الخاصة. كان عمله الأساسي في اللغات من خلال البحث عن المسافرين القادمين إلى بولونيا.

قال مانافيت على لسان ميزوفانتي: "كان عمال الفندق معتادين على إعلامي عند وصول الغرباء إلى بولونيا، لم أجد صعوبة في تعلم أي شيء، وفي تقديم العون لهم، والإجابة عن استفساراتهم، وكتابة الملاحظات في اتصالاتهم، وأخذ تعليماتهم؛ بلهجات اللغات المختلفة لكل شخص منهم".

هل كان ميزوفانتي موهوباً؟ يبدو أنه كانت لديه موهبة متأصلة في بعض نواحي اللغات، ويطابق مواصفات الفتيان الأذكياء. فقد تمكن من التفوق على الرغم من تدريبه على مستوى متغير، وتعامل مع مجموعة من المواد اللغوية في سن مبكرة، وكان لديه أيضاً حافز وانتباه كبيران، بكل تأكيد.



Twitter: @ketab_n

قال: "لقد جعلته قانوناً لكل قاعدة جديدة، ولأطبقه على نفسي على كل قاموس غريب يقع بيدي، فقد كنت أشحن رأسي باستمرار بالمفردات الجديدة، وعندما يمر الغرباء ببولونيا بأي مستوى لغوي يتحدثون به سواء أكان عالياً أو متدنّياً، كنت أسعى لأن أضعهم في الاعتبار؛ من خلال استخدامهم أهدافاً لإتقان النطق وتعلم الكلمات المألوفة وتكوين العبارات".

كان العالم القديس في أغلب مراحل حياته ضعيف البنية وواهناً. كتب أحدهم يصفه: "إن مظهره العام يدل على ضعف". وكان يوصف في سنواته الأخيرة "بالرجل الكبير المرح". وتصفه بالوسينا باجيت بأنه "قصير القامة، ويبدو مريضاً بذبوله ووهنه، وكان يتحرك كقرد مُتعب، أجفانه ترتعش، وردود الفعل على تقلصات وجهه اللاإرادية كانت مختلفة. قال البعض: إن هذا يجعله يبدو ضعيفاً". كان يأكل قليلاً، ولا يشرب الكحول، وينام ثلاث ساعات بالليل. كتب أحد مترجمي سيرته الذاتية: "خلال الليالي الطويلة التي خصصها للدراسة، كان لا يسمح لنفسه بالاقتراب من المدفأة حتى في ليالي الشتاء الباردة". لم يكن مقتنعاً باستخدام مدفأة متنقلة تسمى scaldino المفضلة لدى الطلاب الإيطاليين لتدفئة أيديهم وأقدامهم. وكان متواضعاً ولا يسمح للناس بتقبيل خاتمه، وهي التحية المعتادة التي تقدم للكاردينال. سقط مريضاً بمرض شديد ثلاث مرات في حياته. وفي كل مرة، اعترف بإصابته "بارتباك في اللغات"؛ ففي إحدى النوبات، نسي لفترة مؤقتة جميع اللغات التي يعرفها ما عدا البولونية. وليست هناك تقارير عن كيفية استعادته إياها مرة أخرى.

ومن بين الأعمال التي قام بها، عمل يسمى confessore dei forestieri (الكاهن الناصح للغرباء)، وهو الذي يسمع اعترافات الغرباء. دعته السلطات في أحد الأيام إلى زنزانة يقطن بها سجينان سيطبق بحقهما حكم الإعدام في صباح اليوم التالي، ولم يكن أحد يستطيع سماع



Twitter: @ketab_n

اعترافاتهما، وسيموتان موت العصاة لأنه ما من أحد يعرف لغتهما. في تلك الليلة، تعلم ميزوفانتي في غرفته حتى الصباح التحدث باللغة بشكل جيد، واستطاع أن يسمع اعترافاتهما ويطلب المغفرة لهما قبل الذهاب إلى المقصلة.

أو هذا ما ذهبت إليه القصة.

في إحدى المرات، جاءت امرأة إلى ميزوفانتي وقالت له: "إن خادمتي تريد أن تبوح بذنبها في عيد الفصح ولكنها تتحدث السردينية"[1] (والتي لم يكن أي كاهن في بولونيا يعرفها). قال لها ميزوفانتي: "امنحيني أسبوعين، وسوف أتعلم السردينية". وافقت المرأة ساخرة وغير مصدقة! فشرع ميزوفانتي يزور الخادمة كل يوم لمدة ساعة، وعند حلول الفصح أصبح قادراً على الاستماع إليها وإلى اعترافها.

في أول غوص لي في أوراق ميزوفانتي، كنت مندهشاً من غزارة اللغات التي يعرفها، وكيف قام ذاك الشخص الهزيل بتنظيف وصقل إسطبلات العالم اللغوية. ومع ذلك، كلما تغلغلت في البحث زاد شعوري بالإحباط؛ فقد كانت آثاره المتبقية عادية، ولا شيء فيها مثير... ثمة شيء مفقود؛ الآثار العلمية، وحتى المعجز منها، وهي وسيلة التعلم. وإذا وجدت الوسيلة فلن أستطيع إيجاد التعليمات، أو قوائم المفردات أو تمارين القواعد أو قصاصات الملاحظات ذات الشأن. ربما أُتلفت، أو كانت لا تستحق الحفظ، أو لم يكن بحاجة لكتابتها اعتماداً على ذاكرته المعجزة، ولقدرته على استيعابها في رأسه من المرة الأولى والاحتفاظ بها.

ثم اكتشفت شيئاً ما جعلني أتساءل وأقول: ما الذي كان ميزوفانتي قادراً عليه حقيقة؟

(1) السردينية: هي اسم يطلق على مجموع اللهجات المحكية في جزيرة سردينيا الإيطالية، وهي جزء من اللغات الرومانسية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

# الفصل الرابع

تطورت بعد عـدة أيام قدرتي على معرفة أبجديـات ميزوفانتي، حتى الأحرف الأولى في الأبجدية اليونانية التي تتجمع فيها خربشاته المضطربة مع الأحرف الصينية المشـوهة. كانت العقبـة هي الخط في الرسـائل التي اسـتلمها والمكتوبـة مـن قِبَـل معاصريه. فقـد كانت بـكل تأكيد مخربشـة بأغصان أشجار وأرجل دجاج مغموسة بالحبر.

وجدت في هـذه المراسـلات الدليل علـى الحالة التي كنـت أتمنى أن تكون صحيحة، فقد اسـتلم رسـائل مؤرخة من تاريخ 1820 إلى تاريخ 1840، باللغـة اللاتينيـة، واليونانيـة الحديثـة، والإيطاليـة، والإنجليزيـة، والألمانيـة، والإسـبانية، والفرنسـية، والبرتغاليـة، والروسـية، والبولنديـة، والعربية. ويمكننا أن نقول ونحن مطمئنون إنه كان يسـتطيع قراءة كل هذه اللغات. لم أجد أي ترجمات لتلك الرسائل إلى اللاتينية أو الإيطالية. كان قادراً أيضاً على القـراءة والكتابـة بالهولندية، والتركيـة، والمجرية، واللغة الكتالونية. نحن هنا أمام شخص لديه رسائل بخمس عشرة لغة، باستخدام أربع أبجديات مختلفة.

ومع ذلك، بدأت الشـكوك تدب! ربمـا لم تكن هذه الرسـائل تعني كثيراً، وربما اسـتعان بقامـوس للقراءة والكتابـة. هل قام بهـذا؟ لا توجد طريقة للإجابة عن هذا السـؤال. يقول الخبراء إنه من السهل تذكر الكلمة وتمييزها عند سـماعها في الحديـث أو قراءتها إذا تفوّهت بهـا أو كتبتها. من ناحية أخـرى، أن تكـون متعلماً يعني ذلـك أن لديك مسـاحة أقل من


Twitter: @ketab_n

تكرار الأخطاء.

كانت الغزارة مثيرة للإعجاب، يستطيع ميزوفانتي أن يوظف العديد من اللغات كلما احتاج إليها، ولكن ما جودتها؟ وما مستوى الطلاقة التي وصل إليها؟

آخذاً هذا السؤال في الاعتبار، فكرت في ملف اللغة الغونكونية. وباعتباري أمريكيًّا، فإن هذا جعلني أبتسم. كانت من بين الرياح الثقافية الأولية التي ضربت أوروبا في زمن ميزوفانتي سلسلة روايات المؤلف جيمس فينيمور، وتحدث ميزوفانتي بحرارة عن روايته L'ultimo dei Mohicani (آخر الموهيكيين)[1]. تساءلت إن كانت هذه السلسلة على علاقة بتعلم ميزوفانتي اللغة. في هذا الملف، وجدت ستين صفحة كانت عبارة عن وصف لقواعد اللغة الغونكونية - ليست بخط ميزوفانتي - مع قصاصات من الورق تحوي كلمات وجملاً باللغة الغونكونية مترجمة إلى الإيطالية أو لغات أخرى، ومكتوبة بأشكال مختلفة، من المفترض أنها تعكس طرائق معلميه.

كنت وأنا أفتش في هذه الصناديق أبحث عن الإثارة في حياة متعددي اللغات، يمكنني القول إنه رغم أنني كنت قادراً على "القراءة" بالإنجليزية واللغات الرومانسية فقط، فقد استطعت أن أميز اللغات العديدة الأخرى. في مرحلة ما، وأنا أنتقل بين محتويات الصندوق المكتوب عليه وصف بالإيطالية ورسائل كُتبت بالبرتغالية، وجدت قواعد اللغة الغونكونية ومجموعة جمل متحدث بها، مكتوبة باللغة الغونكونية على جهة من الصفحة وبالفرنسية على الجهة الأخرى، je te salue, mon fils. te portes-tu bien? As-tu fait un bon voyage? As-tu fait une

(1) آخر الموهيكيين: رواية تاريخية تجري أحداثها عام 1757 حين حاربت فرنسا بريطانيا لكسب النفوذ على المستعمرات الشمالية الأمريكية، وطلبت معونة حلفائها من قبائل السكان الأصليين لأمريكا لردع المستعمرين البريطانيين. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

bonne traversee? (أهلا بك يا بنيّ، أأنت بخير؟ هل كانت رحلة مريحة؟ هل كان العبور جيداً؟). قرأتها بسعادة، أوه، هذه أسئلة بداية الحوار، وهي تثير فكرة أن ميزوفانتي تعلم السؤال باللغة الغونكونية؛ فمن المفترض أنه سأل بها سكان أمريكا الأصليين الذين التقاهم في مكتبه.

هذه أدهشتني وأمتعتني. هل تعلَّم أيضاً مثل هذه الأسئلة بلغات أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد كان بإمكانه استخدامها مثل النص السابق؛ فاللقاء مع متحدثين أصليين، والتقاط السؤال المناسب، يبدوان أسلوباً مؤدباً في التمكن من إدارة النقاش. هل أنت ذاهب إلى النيبال؟ ما اسم قريتك؟ تعلم لفظها بطريقة صحيحة، وستحصل على تقدير عالٍ من محدثك. لا يجب عليك أن تعرف حتى الأجوبة، ثم تنتقل إلى السؤال الثاني، كم عمرك؟

في إحدى الكتابات عن سيرة ميزوفانتي، قيل إنه كان "متمكناً بشكل كامل" من اللغة الغونكونية (على الرغم من أنها ليست من ضمن اللغات الثلاثين التي يعرفها بإتقان). ادعى ميزوفانتي أنه تعلمها في الرحلات التبشيرية الطويلة في أمريكا. وبناءً على ما وجدته في الأرشيف، يمكن أن يكون قد تمكَّن من الحديث (غير الرسمي) باللغة الغونكونية مع الضيوف المتحدثين بها، ولكن ليست اللغة الغونكونية الكاملة التي يعرفها المتحدث الأصلي، ولا النكات في اللغة الغونكونية، ولا جمل الكياسة والتأدب، ولكنها كانت طريقة وصيغة لأداء اللغة الغونكونية.

ما الحدود التي ينبغي أن يصل إليها ميزوفانتي في اللغة الغونكونية حتى نقول إنها تستحق أن تلغى من قائمة لغاته؟ وهل هذا كافٍ لإلغائها؟ وإذا ألغيت، فما هي اللغات الأخرى التي يجب أن تلغى أيضاً؟

قبل أن أفهم ما تضمنه هذا الأمر، أصابني الشك حول اللغات التي أستطيع قراءتها بمثل هذه سهولة. الفرنسية، كنت أقرأ بالفرنسية بلا كلل كما لو كانت الإنجليزية.



Twitter: @ketab_n

أول فكرة خطرت ببالي: ولكني لا أتكلم الفرنسية!

ثم الفكرة الثانية: ما الذي قرأته أيضاً بدون معرفته؟

ثم سألت نفسي: ما هو القليل المهم في اللغة؟

أقصى ما يمكنك معرفته عن أهمية "القليل من اللغة" يبدأ عندما تصارع للإجابة عن سؤال: كم لغة عرفها ميزوفانتي واستخدمها؟ إنه لم يترك لنا أي قائمة محددة عنها، وهذا نتيجة فراغ أدّى إلى جدل.

قد يكون أول شخص نشر هذه القضية هو توماس واتس، عضو جمعية لندن للفيلوجيا (فقه لغة المخطوطات)، والعضو المهم في خبراء دراسة ميزوفانتي، والوسيط بين الفترة الرومانسية التي انتمى إليها ميزوفانتي وتطور العلم الإمبراطوري وعمر دراسات الدماغ. قيل إن واتس نفسه يقرأ خمسين لغة من ضمنها الصينية.

في مقال لواتس بعنوان: "في الطاقة الاستثنائية للكاردينال ميزوفانتي كلغوي"، والذي قُرئ أمام الجمعية في العام 1852، وردت حكايات مختلفة عن البولوني المشهور في اللغات، جمعت بجد، وكتبت من المرة الأولى بالإنجليزية.

الشخص المهم الآخر كان تشارلز وليام روسل، الكاهن الأيرلندي، والعالِم، ورئيس ما كان يسمى بكلية القديس باتريك، ماينوث (وتعرف أيضاً بكلية ماينوث) والذي التقى ميزوفانتي في روما مرتين، وكتب لاحقاً في العام 1858 سيرة توضيحية عن حياة الكاردينال ميزوفانتي، وفتح باباً من الفضول عن ميزوفانتي الذي تركه العلم. روسل كان يهدف لفصل الحقائق عن الخيال، والحقيقة عن الأسطورة.

كان كتابه كنزاً ثميناً مرصعاً بالأسماء الملكية والفكرية، مع همسات ممتعة على هامشيْ كل صفحة. في البداية، خصص روسل 120 صفحة لوصف مجموعة متنوعة ومختلفة من متعددي اللغات من العلماء، والتجار، والمبشرين، والمستكشفين، والمحاربين الذين يعرفون العديد



Twitter: @ketab_n

من اللغات. أغلبهم وافدون من الدول الأوروبية، منهم الملك ميثراداتس، والسير ويليام جونز (1746-1794) الفيلسوف والقاضي البريطاني في الهند الذي قيل عنه إنه يعرف ثماني وعشرين لغة. وتناول جزء من فصل الأطفال النابغين، ومتعددي اللغات الذين لم يلتحقوا بالمدرسة، مثل الرحالة البريطاني كوريت (1577-1617)، الذي طاف بكل الدول الأوروبية ودول شرق البحر الأبيض المتوسط، والذي يعرف اللغة الإيطالية، والتركية، والعربية، والفارسية، والهندستانية، وربما عشرات اللغات التي لم يستخدمها في بلده.

وعلى هذه الخلفية، وضع روسل نصباً تذكاريًّا لميزوفانتي، وكتب: "سيكون الكاردينال ميزوفانتي واقفاً لا يضاهيه أحد؛ حتى أعلى هؤلاء الأعلام... وذلك، على الأقل لأهداف المقارنة معه، إنهم مشهورون ثانويون يحملون معهم ادعاءات صغيرة من أجل الحصول على الاهتمام".

وكعدو للمشككين بقدرات ميزوفانتي، ساهم روسل من خلال مهاراته في حالة واقعية، ووضع قائمة باللغات التي يعرفها ميزوفانتي. والأكثر أهمية، أنه أنزل أصول الترتيب على التقارير المستقاة من الملاحظات المباشرة، واستعار نظاما أوليًّا من وليام جونز، الذي صنف لغاته الثماني والعشرين التي يعرفها بناءً على قدراته في كل منها[1] أسفرت جهوده عن النتيجة الآتية:

وضع روسل أربع عشرة لغة من لغات ميزوفانتي في أدنى مستوى، ما يعني أنه درس قواعدها ومفرداتها، ولكنه لم يثبت استخدامه لها، هذه اللغات هي: السنسكريتية، والمالطية، والتونكينية[2]، وكوشين

(1) ثماني لغات معروفة جيداً، وثماني لغات كان يستطيع قراءتها بمساعدة القاموس، واثنتا عشرة لغة أخرى تعتبر "مكتسبة". اللغات الثماني التي كان يستطيع التحدث بها، يفترض أنه كان يتقنها مثل لغته الأم الإنجليزية. (المؤلف)

(2) التونكينية: لغة السكان في شمال فيتنام. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الصينية[1]، والتبتية، واليابانية، والأيسلندية، واللابية[2]، والروثينية[3]، واللغة الفريزية[4]، واللغة اللاتفية، واللغة الكورنية[5]، ولغة الكتشوا[6]، ولغة البمبارا[7]. وفي سبع لغات أخرى يستطيع البدء بالحوار ويعرف الألفاظ الحوارية، وهي: لغة الانديك، والبورمية، واليابانية، والإيرلندية، والغيلية[8]، والتشيبيويه[9]، ولغة ديلاوير[10]، ومجموعة لغات أخرى من عائلة لغات الأسترونيزية[11]. مثل هذه المغامرات اللغوية مثيرة جدًّا، ومن هذا الحصر يلاحظ الشخص أنّ هذا يعني أن ميزوفانتي لديه فقط معرفة قليلة من اللغة في ثلث الاثنتين والسبعين لغة التي أقرها روسل له.

بناءً على أفضل دليل وجده روسل، نطمئن إلى أن ميزوفانتي لديه مهارة أساسية في أكثر من مجموعتين من اللغات. إنه يستطيع التحدث

(1) كوشين الصينية: لغة في المناطق الجنوبية من فيتنام. (المترجم)

(2) اللابية: لقب يطلق على اللغات السامية، جاءت من كلمة لابّي (Lappi) وهي منطقة جغرافية في شمال أوروبا. (المترجم)

(3) الروثينية: اللغة الأوكرانية القديمة التي تطورت من اللغة السلافية الشرقية. (المترجم)

(4) اللغة الفريزية: هي لغة تستخدم في شمال هولندا في منطقة تسمى فريزلاند. (المترجم)

(5) اللغة الكورنية: إحدى اللغات القديمة في إنجلترا. (المترجم)

(6) لغة الكتشوا: لغة من جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية. (المترجم)

(7) لغة البمبارا: لغة يتحدث بها في مالي. (المترجم)

(8) اللغة الغيلية: لغة في أيرلندا. (المترجم)

(9) إحدى لغات سكان أمريكا الأصليين. كان يتحدث بها في ضواحي المنطقة المعروفة الآن بنيويورك. (المترجم)

(10) لغة ديلاوير: إحدى لغات الهنود في شمال أمريكا. (المترجم)

(11) لغات الأسترونيزية: وتسمى أيضاً العائلة الملايوية البولينيزية، وتضم لغات إندونيسيا والفلبين وهاواي ونيوزلندا ومدغشقر ومعظم الجزر الأخرى في المحيطين الهادئ والهندي. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بإحدى عشرة لغة على الرغم من أن هناك عدداً قليلاً من حكايات الشهود التي أثبتت حقيقة قدراته في معرفة اللغة الكردية، والجورجية، والسيبيرية، والبلغارية "لغة الغجر"، ولغة باجون[1]، والويلزية، والأنغولية، والمكسيكية، والشيلية، والبيروفية. (والتي تضع المراقب في العصر الحالي في موقع مميز لافترض أن ميزوفانتي يمكن أن تكون له قدرات في بعض اللغات أكثر من معرفة أي شخص آخر - على كل حال - في تسع لغات: اللغة السريانية، والإثيوبية، ولغة الأمارنا[2]، والهندستانية، والجيوجاراتية، والباسكية، واللاتشين[3]، والكليفورنية، واللغة الغونكونية).

كتب روسل: "كان يتحدث بطلاقة أقل في كل منها، أما النطق فقد وصف على الأقل بأنه متمكن جدًّا".

اتفق كلٌّ من روسل وواتس على أن ميزوفانتي كان يتقن على الأقل ثلاثين لغة، وكتب روسل: "تلك التي يتحدث بها بطلاقة وبلكنة صافية للمفردات والعبارات الاصطلاحية، من النادر أن يحرزها الغرباء".

وصْفُ قدرات ميزوفانتي "بالطلاقة" يعني أنه يتحدث بها دون انقطاع (بغض النظر عن محتوى الموضوع) مع دقة في القواعد النحوية.

كتب روسل: "فوق كل شيء، إنه رجل يمكن أن يقال عنه إنه يعرف اللغة بشكل كامل، إذا سمح له المتحدثون الأصليون والمتعلمون الأذكياء بالتحدث بها بشكل صحيح ومتميز".

في هذا الجزء، حدد واتس معنى "الإتقان"، وهو أن يكون قادراً على التحدث [باللغة] بدقة وطلاقة في الكلام "تطابق" المعرفة بها، وعلى مستوى عدد كبير من المتحدثين الأصليين. وبالإضافة إلى الطلاقة

(1) لغة باجون: لغة يتحدث بها في بورما وتايلندا. (المترجم)

(2) لغة أمارنا: اللغة الأثيوبية القديمة. (المترجم)

(3) اللاتشين: لغة يتحدث بها في رومانيا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

في اللفظ، فقد لاحظ واتس أيضاً قدرة الكاردينال على الحوار، وتحية الناس بحماسة كبيرة وبدقة. وحسب اعتقاده، إن المقياس الحقيقي للقدرة النادرة تكمن في الحوار.

الثلاثون لغة (في قائمة روسل) كانت: العبرية، والعبرية القديمة، والعربية، والكلدانية، والقبطية، والأرمانية القديمة، والأرمانية الحديثة، والفارسية، والتركية، والألبانية، والمالطية، واليونانية، واليونانية العامية، واللاتينية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والألمانية، والسويدية، والدنماركية، والهولندية، والفلمنكية[1]، والإنجليزية، والإيليرية، والروسية، والبولندية، والتشيكية (والتي سماها روسل البوهيمية)، والهنغارية، والصينية.

من المثير، أن هذه اللغات الثلاثين هي نفسها التي تعلمها قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر، كما تقول الحكايات عنه وتمثل إحدى عشرة عائلة من العائلات اللغوية الكبيرة[2]، خمس منها هي (الرومانسية، الجرمانية، السلافية، الهيلينية، السامية) أعطته سعة في الاكتساب، وتجارب تعليم كثيرة. كل لغة أصبحت تبايناً صغيراً على موضوع أوسع، وتقدم تعليماً معززاً لكل لغة تابعة. فإذا كان يقرأ هذه اللغات، فهو يتمكن من ستة أشكال من الأبجديات (أنا أعرف أنه لا يقرأ الصينية، وعندما حاول القيام بها شعر بشيء من التعثر، ولهذا السبب لم أحسبها هنا).

في النهاية، لم يتفق واتس وروسل على حساب مجموع اللغات. قال روسل إن ميزوفانتي تحدث بائتين وسبعين لغة، وهذا العدد له مغزى ديني؛ حيث إنه عدد اللغات التي قيل إنها نتيجة سقوط برج بابل. شكك

(1) وبالطبع، اللغة الدنماركية والفلمنكية الآن معترف بهما على نطاق واسع على أنهما لغة واحدة. (المؤلف)

(2) عائلة اللغات السامية، والحورانية، والأفروآسيوية، والهندوإيرانية، والألتية، والرومانسية، والجرمانية والسلافية، الأورالية، الصينية - التيبتية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

واتس في بعض مصادر روسل، وحذف المتكرر، بدون الإشارة إلى رموز روسل الدينية، وخفض المجموع الكلي إلى ستين أو إحدى وستين لغة.

ولكن تلك الاختلافات ظاهرية، فكِلا الباحثين شكك في إنجاز ميزوفانتي أو في مجده، ومن المثير أنه لم يستشهد أحد منهم بعالم اللاهوت لشرح مواهبه، ولا حتى روسل الذي يضفي على ميزوفانتي صبغة دينية. الأكثر أهمية هنا كونهما يتفقان على أن ميزوفانتي تمكن من ثلاثين لغة بإتقان.

بالرغم من حسابات روسل المتأنية والمتابعة المعملية لواتس، فإن تحرر ميزوفانتي من الأسطورة الشعبية واستغراقات معاصريه بعيدة عن الوضوح. فليس المهم تعريف ما يعنيه التحدث باللغة؛ وإنما أيضاً كيفية الاستماع إليها!

نحن نفترض على العموم أن المتحدثين الأصليين مؤهلون للحكم على مستوى جودة استخدام شخص ما للغتهم، ولكن آراءهم عن طلاقة الآخرين يمكن أن تتغير بتغير ثقافة كل بلد. ففي بولونيا، رحب الإيطاليون بمحاولاتي الصغيرة بتشجيع، كما يفعل المكسيكيون والكمبوديون مع الإسبانيين. في تايوان والصين، استجاب الأشخاص لقدراتي البسيطة بتشجيع مؤدب وهم يقولون: "أوه، إنك تتحدث الصينية بشكل جيد". وأجبت بالصينية: "حقاً! أنت تجاملني". راودتني ضحكة فرح مكبوتة لأني فوجئت بأن إتقان إجابتي (التي تعلمتها من أحد الأصدقاء) فاق آراءهم الحقيقية عن مهارتي.

في المقابل لا يتسامح الفرنسيون عندما يشوه الغريب لغتهم، كما هي الصورة النمطية على كل حال. نظريًّا، سيقيِّمك المتحدثون الأصليون بالفرنسية بمستوى منخفض مقارنة بالإسبان في الإسبانية. في اليابان وكوريا، المهارة المنخفضة من شخص غير متحدث باللغة الأصلية سوف تحظى بالكثير من الاحترام والتشجيع، بينما يُنظر إلى



Twitter: @ketab_n

الشخص ذي المهارات الأفضل على أنه يمثل تهديداً. السفير الأمريكي السابق في اليمن والإمارات العربية المتحدة وليام راغ، أشار في إحدى المرات إلى هذا المعنى قائلاً: "إذا لم تكن متحدثاً أصليًّا للغة العربية وظهرتَ على وسائل الإعلام العربية، فإنه من الأفضل أن تدع الحديث يستمر دون الاكتراث بقواعد اللغة العربية؛ هذا الجهد بحد ذاته مقدَّر من قِبل المشاهدين العرب، وستبدو دبلوماسيًّا جيداً. ولأسباب ثقافية، فإن المشاهدين العرب يقدِّرون الحديث الصادق، لذا فهم أكثر تسامحاً مع المتحدث غير الطلق بالعربية من المترجم الذي ربما يغير ما يعنيه الشخص. لذا يمكنك أن تستنتج من جميع هذه الردود أن مستوى المتحدث الأصلي في اللغة ليس بالضرورة معياراً منطقيًّا.

والمشكلة الكبرى أن الشخص "ذا اللغة الأصلية" لا تكون لغته "س" مثلاً مثل لغة الشخص الآخر "ص" بالضرورة. وبنظرة قريبة إلى المتحدثين في المجتمع، يتضح أن هناك اختلافات في النطق والمفردات والقواعد والطبقات الاجتماعية والجنس والمناطق الجغرافية. فإن متحدثين يتحدثان اللغة نفسها بلكنتين مختلفتين يحسبان كمتحدثين أصليين، حتى لو كانا غير قادرين على وصف اختلاف لغتهما عن المعيار، ويمكن حتى أن يحكما على الاختلاف لدى المتحدثين الآخرين باعتباره خطأً أو غير صحيح.

في لغة الإشارة، المشكلة عميقة، إذا حددت المتحدث الأصلي فيها باعتباره شخصاً يستخدم اللغة منذ نعومة أظفاره، ثم إن هناك صعوبة في إيجاد أي متحدثين أصليين للغة الإشارة، حيث إن غالبية الأطفال الذين ولدوا صمًّا لم يسمعوا آباءهم من غير مستخدمي لغة الإشارة. (أنا أتأمل، ولكن أفترض أن هذا هو السبب بانتشار دورات لغة الإشارة بشكل كبير في الولايات المتحدة، حيث قفزت نسبة القبول بالكليات من عام 2006 إلى 2009 إلى أكثر من 16%، وعلى الرغم من ثقافة الصم القوية، لا يوجد



Twitter: @ketab_n

هناك مجتمع أصلي للغة الإشارة يستطيع الشخص الانضمام إليه، بحكم التعريف).

لم يخبرنا روسل كاتب سيرة ميزوفانتي قطّ عن نوع المتحدث الأصلي الذي يجمع الأدلة منه.

حتى لو افترضت أن كل متحدث أصلي للغة يعرف ما يعرفه المتحدثون الأصليون الآخرون، فإنه يظل مقياساً غير دقيق؛ فإن كلاً منهم يستطيع لفظ الكلمات مثل المتحدث الأصلي ولكن لديه نقصاً في الإبداع اللغوي.

إن مجرد تقليد المتحدث الحقيقي يمكن أن يوصف تجاوزاً بأنه "الإتقان"، ببساطة لأن التقليد قادر على ربط الكلمات معاً بلا تداخل كما لو كان يعرف ما الذي تقوم به. الذي يعنيه قول "طلاقة" يمكن أن لا يزيد عن معنى الثقة (أو عدم المبالاة).

من الممكن أن ميزوفانتي كان يطمح فقط إلى "العبور" في أغلب لغاته. أحد الدلائل على ذلك هو حماسته الواضحة في النطق، والتي أشار إليها روسل عندما وصف ميزوفانتي بالإنجليزية، وكتب الرجل الأيرلندي: "لو كنت أميل إلى انتقادها بصرامة، يمكن أن أقول - والتناقض هنا واضح - إنه بمقارنة نطقه باللغة الإنجليزية مع نطق المتحدث الأصلي للغة، فإن لغته الإنجليزية كانت تقريباً صحيحة جدًّا وتبدو طبيعية جدًّا".

وبالتأكيد، فإن مستوى ميزوفانتي الاجتماعي منع أي قراءة صحيحة لقدراته. فقد كانت اجتماعاته رسمية جدًّا على الأرجح، والتي بدورها تقلل من احتمال نقاش المواضيع الودية وغير المتوقعة، وكان يستطيع التحكم بالاجتماعات أيضاً، لذا لا أحد يستطيع أن يعرِّض سمعته اللغوية للخطر؛ فمن يتجرأ على أن يقول إن شخصاً في مثل هذا المنصب لا يستطيع القيام بما يدعيه؟



Twitter: @ketab_n

فتناولت حكايات المسافرين القادمين من إيطاليا عن ميزوفانتي، والذين ذهبوا في الرحلة التي تسمى الرحلة المُطولة[1] أولئك الذين يبحثون عن الكثير من الانغماس الكاثوليكي الذي يمكن أن يسحرهم أو يسبب لهم الاشمئزاز، وقد صوّروا ميزوفانتي كشخصية رومانسية، ونموذج لأطلال كاثوليكية حية، في حين أن الكنيسة كانت لها صورة مغايرة عن ذلك، فقد عرضت ميزوفانتي بصورة راعي الكنيسة المثالي والمحافظ واللاهوتي الخالص، وجزء لا يتجزأ من السير التي تحدثت عن القديسين، كما فعل روسل.

وإنه من السهل أيضاً أن تفوتنا حقيقة أن الحكم على "التمكن" في اللغة يختلف من فترة زمنية إلى أخرى، وافتراض أن معايير "الطلاقة" و"التمكن" في القرن الثامن عشر كما هي الآن. ففي عام 1875، على سبيل المثال كانت معرفة الفرنسية بالكامل في كلية هارفارد تعني أنك تستطيع ترجمة الذي تراه "سهلاً" في النثر الفرنسي، ولم تكن تعني أنك تستطيع أن تتحدث أو تناقش فيها أو توضح فهمك مع المتحدث بالفرنسية.

مثال آخر نستقيه من حياة المغامر ومتعدد اللغات المفرط السير ريتشارد فرانسيس برتون (1821-1890)، فلإظهار قدراته في اللغة الهندستانية لرؤسائه في الجيش البريطاني، ترجم كتابين من اللغة الهندستانية إلى الإنجليزية، وترجم نصًّا مكتوباً بخط اليد، وكتب مقالة قصيرة، ولديه قدرة على النقاش[2]. ومع ذلك، في حياته (تجاوز) العديد

(1) الرحلة المُطولة (Grand tour): رحلة مُطولة للمدن الأوروبية الرئيسة، كان الشباب من طبقة النبلاء الإنجليز يقومون بها لأهداف تعليمية. (المترجم)

(2) الهندستانية كانت اللغة الثامنة لبرتون التي تعلمها في حياته، بعد اللاتينية، واليونانية، والفرنسية، والإيطالية، والبروفانسية، والإسبانية، ولغة بيرماس [لهجة في إحدى مناطق فرنسا - المترجم]. وتعلم اللغة الجيوجاراتية، والفارسية، والسنسكريتية،



Twitter: @ketab_n

مـن إنجازاته اللغويـة التـي كانت في أسـلوب الحديـث. في العـام 1853 كان واحداً من عشـرات المسـيحيين الذين اسـتطاعوا التسـلل إلى المدينة المقدسـة في مكة، وعبر في هيئة هندي مسـلم متمكن من العربية، بالرغم من لكنته. ومع ذلك فإن قادته في الجيش "يُعرِّفون" اللغة بأنها تعني معرفة قواعدها منفصلة، وفي سياق النصوص.

إذا اسـتطعنا الاهتداء لطريقة ما لمعرفة ماذا كان ميزوفانتي أو بارتون قادرين عليه حقيقة؛ فإن ذلك يسـاعد أيضاً على تفسـير لمـاذا كثر متعددو اللغات المفرطون فـي الماضي، في حين أن الشـخص المعاصـر المتعلم الذي لديه أكثر مـن أربع لغات يعتبـر نادراً؟! يمكن للشـخص أن يتحدث عـن مهارتـي اللغـة النشـطتين (التحـدث، والكتابـة) ومهارتي الاسـتقبال

---

والمارثية [لغة هندوأوروبية من فرع اللغات الهندوإيرانية، يتحدث بها في غرب الهند - المترجم]، والعربية، والسندية، والبنجابية، جمعيها عندما كان في عمر الرابعة والعشرين. وفي سنة 1848 نجح في اختبارات رسمية في ست لغات وكان يُحضر لاثنين آخرين. وتعلم أيضاً التيلجو، والتودا، والصومالية، والسواحيلية جميعها؛ أي ما يقارب تسعاً وعشرين لغة، وإحدى عشرة لهجة. وكتب بارتون في إشارة إلى تاريخ شركة الهند الشرقية: "في تلك الأيام، ذهب رجل واع إلى الهند، وليس له إلا أحد سبيلين: أن تُطلق عليه النار، أو أن يتعلم اللغات!". كان تعلم اللغات أسهل من خلال تكليف إحدى النسوة المحليات بمرافقة الجندي باعتبارها "زوجة مؤقتة"، يمكن أن يطلق عليها لقب "القاموس المتحرك". وتفوَّق بارتون على جندي آخر يدعى كريستوفر رجبي، الذي كان يُعرف بأنه أفضل متحدث للغات في الجيش الهندي. ولهذا السبب أصبح رجبي لاحقاً خصماً له. لا يدعي بارتون أنه يتحدث تسعاً وعشرين لغة في وقت واحد، ولكنه تعلّمها إمّا في مجموعة أو بشكل عفويٍّ. وعندما عاد إلى التحدث بالعربية بعد عدة سنوات في إنجلترا كان عليه تنشيط لغته العربية. كان من المحتمل أنه لم يستخدم أكثر من ثلاث إلى خمس لغات في الوقت نفسه؛ ليست كثيرة على مغامر مثله، أكثر من المعدل المكتشف غير المشارك فعليًّا. ومع ذلك حتى الآن تعتبر بعيدة كل البعد عن اللغات التسع والعشرين التي تعزى له. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

(القراءة، والاستماع) وهذه خاصيّة للاستيعاب - التي تتواجد لدى أحادي اللغة في الكثير من اللغات الأخرى بشكل غريب - أسهل للاكتساب والاستخدام إجمالاً في زمن كزمن ميزوفانتي وبارتون.

قضى العلماء وقتاً طويلاً في القراءة وترجمة النصوص - أيْ في مهارتَيْ الاستقبال - على حساب الاتصال بالناس المتحدثين بلغات أجنبية.

أنا أقول عن الأشخاص الذين يقولون إنهم يعرفون لغة "س" أو "ص": إن على الشخص أن يفترض أن نشاطَي لغاتهم الفعالة هما القراءة والترجمة واللتان تمثلان أقل مشقة وضغطاً على أنشطة الدماغ، يمكن أن تحصلا على الكثير من المساعدة للقراءة والترجمة من خلال القواميس والقواعد. ولكن، للتحدث بدون أن تحرج نفسك، عليك أن تراقب ما تسمعه وتقوله في وقت التحدث الفعلي، وليس هذا فقط، ولكن الأصوات في الحياة الحقيقية تأتي بلكنات مختلفة (التي تضيف معلومات اجتماعية)، وأصوات بيئية (والتي تتطلب تركيزاً)، وهي تمثل أيضاً أنشطة عملية ثقيلة جدًّا. لذلك في وقت ميزوفانتي، كان من الممكن أن تجمع اللغات بشكل أسهل، والتحدث بها بفعالية، أكثر من يومنا الحالي، الذي أصبح الاتصال الشفهي به سمة مميزة في "معرفة" اللغة.

إعطاء الحتمية، من خلال النظر للمعطيات التاريخية يساعد الشخص على معرفة معايير التحدث ومعرفة اللغة. ببساطة، من المستحيل أن نقيم بالضبط الادعاءات عن قدرات ميزوفانتي في كل لغاته، بناءً على الدليل الذي قدمه روسل، على كل حال.

النتيجة الحتمية، أن عدّ لغات الشخص على أفضل حال ليس مقنعاً بشكل دقيق عند التحدث عن قدرات الشخص فيها. فاللغة ليست لها وحدة قياس مثل الكيلوغرام في قياس الوزن، والبوصة في قياس الطول!

ما هو ذلك التميز الذي يكون لدى الشخص ليملك أكثر من لغة



Twitter: @ketab_n

واحدة؟ إن اللغات الست المتقاربة بالمفردات والقواعد لا تنهك ذاكرة الشخص أو عملياته العقلية بقدر ما تقوم به ست لغات غير متشابهة، وبالمثل فإن اللغات الست التي يعرفها الشخص تحدثاً، وقراءةً، وكتابةً، لا تقدم نوعاً من التوظيف المعرفي للمتعلم البالغ بمثل اللغات الست التي لدى الشخص بدرجات مختلفة من الطلاقة وفي مهام مختلفة.

إذاً، ما هي الطريقة الأخرى لنا لإدراك مدى التوظيف المعرفي للشخص؟

لدينا هنا بعض الإمكانيات.

يقول التصور الشعبي إنك حين تحلم باللغة، فإنك قد تجاوزت مدخل اللغة إلى الطلاقة فيها. في الثمانينيات من القرن الماضي، وجد الطبيب النفسي الكندي جوزيف كونيك أن متعلمي اللغة الفرنسية الأسرع تطوراً، والأسرع من زملائهم الآخرين، هم أولئك الذين قالوا إنهم تحدثوا بالفرنسية في أحلامهم. وبين مجموعة أخرى من متعلمي اللغة الفرنسية، كان الأشخاص الذين لديهم REM (حركة العين السريعة) أثناء النوم في فترة الدورة التي استمرت ستة أسابيع مكثفة، قد تطوروا أكثر.

وللأشخاص الذين لهم تجارب حقيقية أكثر في لغتهم، لا يكون هذا مقياساً بديلاً قابلاً للتطبيق؛ حيث إن ثنائيّي اللغة قالوا إنهم يتحدثون، ويفكرون، ويسمعون في أحلامهم بكلتا اللغتين، وغالباً ما كانت لغة أحلامهم تُحدّد بأنها التي استخدموها قبل أن يخلدوا للنوم، وليست التي يعرفونها أكثر؛ مما يعني أنك عندما تعرف لغة حقًّا، فإنك تفكر بها.

في الحقيقة، إن الدماغ لا يفكر بأي لغة. ما الذي يعنيه الناس بقولهم "التفكير باللغة"؟ إنّ التفكير باللغة يأتي من القدرة على تحدثك باللغة أكثر بدون إعادة صياغتها أو ترجمتها من اللغة التي تعرفها أفضل؛ التفكير المرئي يشعر بأنه أقرب إلى مصدره في الدماغ.

هل التحدث بلغة مختلفة يغير من إدراك الشخص؟ هل بناء اللغة



Twitter: @ketab_n

وطريقة وصف مفرداتها للمعاني يجعلان العالم أكثر تنوعاً، وأصدقاءك أكثر ودًّا، والأشجار أطول؟

فرضيات النسبية اللغوية - أو فرضيات سابير وورف كما تسمى أيضاً - تفترض أن لغتك التي تتحدث بها تشكل إدراكك للعالم في الحقيقة. وبكل معنى الكلمة، إذا كان الشخص يتحدث بطلاقة بلغتين مختلفتين في مستوى الكلمات، فإن ذلك سيحدّد معرفته بالتنوع، إلى نوعين مختلفين من الأسماء ويمكن حتى الفئات. إذا كان ذلك حقيقيًّا، إذاً يجب أن يظهر عالم متعددي اللغات المفرطين متنوعاً.

في الحقيقة، قد لاحظ العلماء أن أحاديي اللغة الكوريين عندما يستخدمون مصطلح paran seki، أو "أزرق" فهم بهذا المصطلح يشيرون إلى اللون الأكثر اخضراراً والأقل بنفسجيًّا، من الكوريين ثنائيي اللغة بالإنجليزية الذين يفكرون به كأزرق فقط.

علماء آخرون رأوا كيف يقسم ثنائيو اللغة العلب ويكونون فكرة عن الوقت بشكل مختلف من أحاديي اللغة.

ولكنَ هذا الدليل مثير للجدل، وتأثير اللغة في الإدراك لم يحدد بدقة.

أحد الأسئلة المهمة جدًّا التي لم يُسأل عنها متعددو اللغات هو: عندما يصيبك الجنون فبأي لغة ستتكلم؟ فقد ثبت أن حالات الاضطراب في اللغات لدى المصابين بالذهان من متعددي اللغات لم تكن جميعها متساوية.

في إحدى الحالات التي سجلتها الطبيبة النفسية البريطانية فيليسيتي دي زولويتا لدى أحد مرضاها من المصابين بالذهان، كان المتحدث متحدثاً أصليًّا باللغة الإنجليزية، حوَّل لغته إلى الإسبانية بسبب أنه كان يعرف أن زولويتا تتحدث هذه اللغة أيضاً. كلاهما كانا مندهشين من أن هلوساته واضطرابات أفكاره اختفت. وكتبت زولويتا بالإسبانية:



Twitter: @ketab_n

«شعر أنه "عاقل" ولكن عندما تكلم بالإنجليزية، صار "مختلاً"». وفي ثلاث حالات أخرى من مرضى زولويتا، كان أولئك الأشخاص لديهم اضطرابات في التفكير أو يسمعون أصواتاً بلغات تعلموها أولاً واستخدموها كثيراً، وعندما يستخدمون اللغة التي يتحدثون بها أقل وكانوا قد تعلموها لاحقاً تذهب أوهامهم. وفي حالة أخرى - كانت لمريضة مصابة بالذهان وتتحدث الإنجليزية والإيطالية على حد سواء - كانت المريضة تسمع أصواتاً فقط بالإيطالية، وهي لغتها الأم. وليس هذا فحسب، فقد أنكرت بسرعة أنها تسمع الإنجليزية بتاتاً، في حين إنها اعترفت بأنها تسمع الإيطالية بسهولة. مرضى آخرون يسمعون أصواتاً مألوفة من لغتهم الأم، وأصواتاً عدائية في اللغة الثانية. وأبدى الباحثون اللاحقون ملاحظة ساخرة تفيد بأن أكثر شخص مؤهل ومختل عقليًّا في اللغة كان على مستوى عالٍ في الذهان.

أشار بعض العلماء إلى أن الجهود الزائدة في استخدام اللغة الثانية تهز الأشخاص وتخرجهم من حالة الوهم إلى الواقع. وأشار آخرون إلى أن العلاقة العميقة مع لغتك الأولى تجعلك أقل كبتاً، وأكثر بوحاً بما يسبب لك الأذى. أما في اللغة التي تعلمتها لاحقاً فإنك تستطيع إخفاءها عن نفسك الحقيقية.

لا يميل الناس إلى القول لأصحاب العمل المتوقع العمل معهم، إن لديهم عدم توازن عقلي مع اللغتين، وإنهم غير مستقرين في اللغة الثالثة، أو إنهم يحلمون بثلاث لغات ولكن ليس بالرابعة؛ الأمر الذي يؤكد ملاءمة المقارنة بين عدد لغات متعددي اللغات المفرطين وما يستطيعون استخدامه منها بالفعل.

رأيك عن ميزوفانتي يمكن أن يعتمد أيضاً على تعريفك لقيمة اللغة غير المكتملة. أنا أتحدث عن أكثر من مجرد نبذة أو جزء من اللغة، وأكثر من تبادل الدعابة أو السؤال عن وجهات الحافلات، وإنما عن المعرفة


Twitter: @ketab_n

العملية الجيدة عن جوهر اللغة التي تسمح لك بتفاعل حقيقي لاكتساب بعض الأهداف، بالرغم من محدودية النطاق، هذه هي المسألة هنا.

في المفهوم الغربي لتعريف اللغة، لا يعول كثيراً على هذه القدرات المقيدة، والنظرة السائدة هي أن اللغة مادة منفصلة عن العالم، وتعلمها يستدعي نشاطاً جسديًّا، وعندما تعرفها فإنها تكمن داخلك.

في الستينيات من القرن الماضي، أحدثَ اللغويون تحوّلاً في هذا المعنى من خلال القول إن قدرة الأطفال الجيدة في تعلم اللغة بسرعة سببها أنهم يملكون منذ الولادة أجزاء من اللغة بداخلهم. فكما أن جسدك يتكون من الطعام الذي تتغذى عليه قبل وبعد الولادة، فإن جزءًا من اللغة يولد معك. إذا كنت قد جمعت أجزاء بسيطة من اللغة فقط فإن هذه الوجبة الخفيفة لن تغيرك، ولا توضع بالحسبان. سَمِّ هذا نظرة "كل شيء أو لا شيء".

ولا يكون الجزء من اللغة مهمًّا إذا كانت اللغة المنفردة أساساً للدولة القومية، مثل ما كتب بنديكت أندرسون[1]: "مجتمعات متخيلة باللغة". هذا المفهوم ظهر في أوروبا في أيام ميزوفانتي. في النظرة القومية، فإن المواطن يثبت انتماءه إلى بلاده من خلال التحدث والكتابة باللغة القومية؛ مع الحفاظ على خصوصيتها من خلال تجنب اللغات الأخرى، واللهجات المحلية، والطرائق غير القياسية في التحدث والكتابة. وبهذه الطريقة يصبح "التحدث باللغة الأصلية" مشروعاً سياسيًّا أكثر من كونه لغويًّا. فالتحدث مثل المواطن أو المتحدث الأصلي يحقق

(1) بنديكت أندرسون، ولد عام 1936، هو أستاذ فخري للدراسات الدولية بجامعة كورنيل، ومعروف بكتابه الشهير" مجتمعات متخيلة باللغة"، الذي نشر عام 1983. تناول فيه مسألة نشأة القومية والوعي القومي، حيث يعتبر الأمة كياناً حديثاً تزامن مع نشأة الطباعة وظهور الجرائد باعتبارها وسيطاً للتواصل؛ مما ساهم بإنشاء مجتمع متخيل بين جمهور القراء. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بالأساس الشيء نفسه.

في فرنسا، على سبيل المثال لا يُنظر إلى اللهجات المحلية بمثل النظرة إلى اللهجة الباريسية الفصيحة، لأن توحيد اللغات كان هدفاً من أهداف الثورة الفرنسية. وحتى الستينيات، كان القليل من الإندونيسيين يتحدثون bahasa indonesia (باهاسا إندونيسيا) كلغة أولى أو لغة أم، أما الآن فإن الملايين منهم يتحدثونها. في الحقيقة، هي الآن اللغة الرسمية للبلاد. وبدأت المدارس تعليم قواعدها، ووضعت الحكومات اختبارات لقياس القدرة في تلك اللغة، وسرعان ما بدأت الشركات الخاصة بقبول نتائج هذه الاختبارات للحكم على طلاقة الشخص في اللغة، وقدرته على خدمة أهداف المؤسسة.

يصبح التفكير أكثر غزارة عندما تقحم أكثر من لغة. إذاً، "تعرف" اللغة - على الأقل في النظرة الشائعة للغات - بأنها اللغة المستقلة عن اللغات الأخرى التي تعرفها. ولفترة طويلة الوقت، كان ثنائيو اللغة يتعرضون لانتقادات بسبب تحدثهم بجمل تحتوي على مفردات كلتا اللغتين. هذا "الرمز المنتقل" يعتبر قانوناً سائداً. ويظهر أيضاً عدم قدرة الشخص على جعل الأشياء تحت السيطرة، ومن ثم فشله في معرفة كلتا اللغتين. يُنظر إلى ثنائيي اللغة بأن لديهم نقصاً واضحاً، أو إنهم مثقلون بالأعباء، في تضمين مؤسف آخر لنظرة "كل شيء أو لا شيء".

إن إتقان جزء من اللغة، يعد ذا أهمية أكثر في الأماكن من العالم التي لا تُعرض اللغة فيها كشيء منفصل، ولكن الشيء الأكثر انتشاراً ويعتبر خارجيًّا، مثل الملابس، فإنك لا تضعه داخلك، ولكنه يحويك من الخارج. لا هذا ولا ذلك يستطيع منح رؤية واضحة لماهية الأشياء التي تأخذ نماذج مختلفة..إنها أداة، الأداة التي تستخدمها عندما تحتاجها ودائماً ما تحتاجها، مثل ما احتجت إلى اللغة الفرنسية والإيطالية في آرشي جناسيوا، سمي هذا نموذج "بعض الشيء وبعض الشيء".



Twitter: @ketab_n

تتجلى أهمية الإلمام بجزء اللغة في بعض المواقف، كما في الأماكن التي لا تُكتب فيها اللغة، أو لا يوجد فيها العديد من الناس الملمين بالقراءة والكتابة، أو عندما تكون المصادر قليلة لجعل وجود اللغة ثابتاً ومحصوراً. أيضاً الجزء من اللغة مهم، في الدول التي فرضت سيادة قومية على العديد من اللغات، من تلك الدول التي تقوم هويتها القومية على لغة واحدة فقط.

في جنوب الهند على سبيل المثال، تظهر اللغة غالباً مثل اللباس الرسمي أو الشارات التي ترتديها لتخبر الآخرين بوضعك الاجتماعي والفئة والطبقة التي تنتمي إليها، والمنطقة التي حضرت منها، ودينك، وأسرتك، ومهنتك، وبالتأكيد جنسك. وعندما يعاملونك مثل الشخص الذي يتحدث هذه اللغة، عندها سيكون تصنيفك على هذا الأساس. ولكن ميزوفانتي لم يأت من أي من هذه المناطق، إذاً ما الذي كان يفعله؟

إحدى الطرائق لحل هذه المعضلة، هي من خلال فكرة "متعدد الكفاءات"، وهذه الفكرة كانت مثار جدل واسع النطاق في السنوات العشرين الماضية منذ أن اقترحها اللغوي البريطاني (فيفان كوك) لوصف النظام الذي يمتلكه متعددو اللغات "بالنظام الفائق" أو "نظام اللغة الكامل".

كان كوك يهدف إلى أن تكون النظرة إلى متحدثي اللغة الثانية باعتبارهم مثل "متحدثي اللغات متعددي الكفاءات الناجحين، وليسوا مثل المتحدث الأصلي الفاشل" كما كتب.

كان يعني استبدال نظرة "كل شيء أو لا شيء"، بنظرة "بعض الشيء وبعض الشيء". هذه تعني أن الشخص متعدد اللغات لا يحمل شخصين أو ثلاثة من أحاديي اللغة الأصليين المتقنين في رأسه/ رأسها. وليس هذا فقط، فلا تستطيع القول إنهم يعرفون "أقل من" أحاديي اللغة أو أي


Twitter: @ketab_n

أشخاص آخرين يقارنون معهم؛ الأمر الذي يجعلهم يشبهون بالأكواب نصف الفارغة. ليس صحيحاً - وليس عادلاً - أن نقارن متعلمي اللغة مع المتحدثين الأصليين الذين يعرفون لغتهم الوحيدة فقط. إنها أقرب لعقد مقارنة بين التفاح والبرتقال.

المثابرة تجعل الشخص لغويًا من الخارج، وهو ليس بالفاشل، ولكنه مختلف. خذ مثالاً متحدثاً للغة المندرينية بدون أي لغات أخرى، ورجل أعمال يتعلم الصينية في عمر الخمسين. لا يمكن للمتحدث الأصلي أن يكون أكثر "نجاحاً" مع لغته، بسبب أنه لم يخطط للحصول عليها، في حين أن رجل الأعمال لا يمكن أن يكون أقل "نجاحاً" منه، لأنه يتعامل مع مهمة أصعب.

أرسل (كوك) رسالة إلكترونية، يعبر لي فيها عن رأيه من أن البشر - عادة - يغفلون عن اكتشاف كفاءاتهم المتعددة. وكتب: "أعتقد أن القدرات البشرية لتعلم اللغات في البيئة الطبيعية غير مستغلة في الغالب". ولكن ما الحد الأعلى للكفاءات المتعددة، مهما كان تعريفه لها؟ هذا ما لم يستطع قوله.

بدون أن تكون قادراً على ملاحظة ميزوفانتي بشكل مباشر، من الصعب أن تحدد بدقة مجال أو عمق كفاءاته المتعددة. تستطيع أن تنغمس في جزء من زمن آخر، وتتخيل ما الذي قام به هو (أو أي شخص) ليحصل على مثل هذا الثناء.

على سبيل المثال، بناءً على المقياس الحالي للهيئة الأوروبية للطلاقة في اللغة، فإن الشخص الحاصل على أعلى المستويات - الشخص الذي نقول عنه إنه "متمكن" من اللغة - يكون لديه تحكم جيد في المصطلحات اللغوية واللغة العامية، ويعرف المعاني الدقيقة للمفردات، ويستطيع العودة في الحوار إلى المواضيع السابقة الصعبة وإعادة هيكلتها بسلاسة، بالشكل الذي لا يدركه المحاور.



Twitter: @ketab_n

لا أستطيع أن أحدد عدد اللغات التي تمثل قدرات ميزوفانتي الحقيقية.

من المؤكد، أن هناك اختلافاً كبيراً بين شخص ذي كفاءات متعددة حقيقية، وآخر يملك الكثير من "أجزاء من اللغة"، لكنه يحتاج وقتاً صعباً للنجاح.

على سبيل المثال، في مسابقة تنافسية للغات أقامتها الحكومة الألمانية في العام 1985 للطلبة بين عمر السابعة عشرة والتاسعة عشرة، وضعوا مجموعة من الاختبارات استمرت لمدة عام كامل، تضمنت نقاشاً عن الرسوم المتحركة والنصوص، وتقديم اختبارات مكتوبة تتضمن ترجمة، وكتابة، وتلخيصاً، وكتابة مقالة من 3000 كلمة، والمشاركة في اختبارات شفهية وكذلك مناظرات متعددة اللغات. إن القدرات الزائفة الأقل بكثير من الحد الأدنى المطلوب في لغتين (والتي قد تصل إلى أربع لغات) قد تكون مستحيلة.

قبل عدة سنوات، أجريت مقابلة مع أحد أعضاء الاستخبارات الأمريكية الذي يتردد على معارض التوظيف للبحث عن خبراء في اللغات أجنبية، وقال إنه بين الحين والآخر، يلتقي شخصاً يدعي أنه يتحدث أربعين لغة. ومن المعتاد، يكون الادعاء متبوعاً بكلمة "بطلاقة".

كان يرحب بهم بمبالغة وعدم تصديق. قال له أحدهم: "أنا متعلم لستِّ لغات. أعرف ما الذي أحتاجه لتعلم اللغة، وأعرف ما الذي أحتاجه لأحصل عليها بشكل جيد". هنا نجد ادعاءً لا يفتقر إلى الإقناع فحسب، بل إنه غير مبرر أيضاً، لا أحد ممن ادعى أنه يعرف أربعين لغة تم اختباره بها جميعاً.

ثم وصف لي لماذا يقومون بتوظيف هؤلاء الأشخاص، عليهم أن يعرفوا كيف يميّزون لغة الصلاة من الكلام المعتاد، وكيف يحلل كلام المتحدثين غير الأصليين، والأخطاء اللفظية، والأخطاء الأخرى، وحالة



Twitter: @ketab_n

الشـخص من حيث كونه متوتـراً أو لا، والذي يمكن أنه يتحـدث باللهجة المحليـة، والذي قد يكـون أيضاً مسـتخدماً الهاتف الخلوي وسـط الكثير من التشويش والضوضاء، لن تستطيع الحصول على مهارات مثل هذه من خلال مشـاهدة القليل من الأفلام. إنها تحتاج إلى تدريب يصل إلى مئات السـاعات، وتأخذ في البداية خبرة في الثقافة. وبالنظر إلى المخاطر، لا بد أن تكون هذه المهارات لدى المحللين.

هل يسـتطيع أي أحـد القيام بهـذا فـي ثلاثين لغـة؟ ربمـا لا، ولكن الشـخص ذا الكفاءة العالية في لغـة واحدة يمكنه بالتاكيـد أن يكون متعدد كفـاءات قابـلاً للقياس فـي عشـرات اللغـات. فـي الحقيقة، قـال محدثي إنـه يعمـل مـع الأشـخاص المتمكنين مـن عشـر إلى خمـس عشـرة لغة، الأشـخاص الذين يقولون إنـه علينـا أن نتعلـم الجورجية، ويشـرعون في ذلك، ثـم يقولون، نحـن ذاهبون إلى المدرسـة الأسـتونية، بينمـا يتعلمون التركية في المنزل. في مثـل هذه البيئة المتعددة اللغـات، تعد هذه الجهود في اللغة بطولة حقيقية.

وقد حدثني عـن زميله السـابق الـذي كان يرغـب في تعلـم اللغات بشـكل جيد ليستشـهد (بأمثال) من تلك اللغات، أجريت مسابقة بينه وبين بعض الأشخاص، في الاستشهاد بأمثال مبهمة لكل منهما. "ثم أصبح هذا الشخص وكأنه بلا قاع كلما أوغل في اللغة" كما قال محدثي.

حتـى مـع الشـخص الـذي لديـه معرفـة جيـدة فـي اللغـة أقـل مـن المتحـدث الأصلـي، ليسـت جميـع الطـرق المهنيـة مغلقـة. ربمـا كان ميزوفانتي أوفـر حظًـا إذا قـورن بالمعاييـر التي وضعتهـا صناعـة الطيران وتوقعاتها عن طلاقة اللغة الإنجليزية للطياريـن ومراقبي الملاحة الجوية. ففي العام 2008 وضعت المنظمة الدولية للطيران المدني (ICAO، إحدى منظمات الأمم المتحـدة) المعايير والشـروط التـي يكونون معهـا قادرين علـى التحـدث بالإنجليزيـة وفهمها إلى مسـتوى معيـن مـن الطلاقة حتى



Twitter: @ketab_n

مـارس 2011. كان الهـدف منها هو جعـل بابـل الفضاءات أكثـر وضوحاً وأمناً.

ورغم ذلك، فـإن تطبيق هـذه المعايير أظهـر العديد مـن التناقضات اللغويـة، وعانـى الكثير مـن الثغـرات. فمثـلاً، يواجـه الطيـارون ومراقبو الملاحة الجوية كل يوم تنوعاً واسـعاً في لكنات اللغة الإنجليزية، وكذلك وجود مسـتويات مختلفة من التحدث بالإنجليزية؛ ففي ملاحظة استمرت على مدى تسـع عشـرة سـاعة متواصلة، قام مراقبو أجواء الطيران الأتراك بالتفاعل مع 160 طياراً من الخطوط التركية، و14 مـن الخطوط الألمانية، و104 طيارين من 26 دولة أخرى، جميعهم يتحدثـون الإنجليزية، وكان 2 فقط من 104 طيارين يعملون في شـركات طيران فـي دول لغتها الأصلية هي الإنجليزية وربما يكونون متحدثين أصليين لها.

ركـزت المنظمـة الدولية للطيـران المدنـي علـى التحليـق والهبوط بأمـان، أكثـر مـن تركيزهـا علـى توظيـف متحدثيـن يشـابهون المتحدثين الأصلييـن للغـة. وكان مبررهـم فـي هذا أنـك لا تحتـاج أن تتحـدث عن الحبار أو المقايضـة في القيمة أو عـن الأديان، كالذي يجـب عليك القيام به في اختبارات أخرى في طلاقة اللغة. إن المواضيع الأكثر علاقة هنا هي الأجهزة ومصطلحات الطقس، ولا تحتاج أيضاً أن تتحدث الإنجليزية كما يتحدث بها الأمريكيـون والبريطانيون، من المهم أن تكـون واضحاً، وهذا ليس عملاً سـهلاً، ولكن النطق المختلـف عن المتحدثيـن الأصليين للغة يمكن الوصول إليه من قبل البالغين، ولا يمكن أن تكون بلا أخطاء؛ فحتى المتحدثون الأصليون يخطئون.

كانت القدرة الأكثر أهمية هـي: التمكن من إدارة الحـوار، والإجابة عـن الاستفسـارات، والتوضيـح، وفهـم الاتصـال، وإعـادة صياغـة طلب الشـخص أو وصفه، وأشـياء أخرى. من المثير للدهشـة أن أغلب الحوار بيـن الطياريـن ومراقبـي الملاحـة الجويـة هو عـن مجـال الطيران نفسـه؛



Twitter: @ketab_n

فقد استنتجت دراسة تمت في فرنسا أن 25% من الحوار الذي يتم بين الطيارين ومراقبي الملاحة الجوية يكون عن حالة الطيران، وما تبقى هو طلب الإعادة والتوضيح، وترتيب من يتحدث ومتى، مثل هذه المهارات يحصل عليها البالغون كجزء من كفاءتهم اللغوية المتعددة.

تهدف المعايير الجديدة إلى إكمال مخزون العبارات المستخدمة بين الطيارين ومراقبي الملاحة الجوية، باستخدام عبارات تدريب جيدة فقط، حيث يستطيع الطيار نطقها بطلاقة وقيادة الطائرة بأمان. وهذه حقيقة، شريطة أن تعمل النظم بكفاءة وفي أجواء طبيعية مواتية، وإذا لم تكن كذلك فالأمر يتطلب حواراً أكثر، وإلا فالعواقب ستكون وخيمة.

عام 1993، تحطمت الطائرة الأمريكية ماكدونل دوغلاس أم دي 82 في الصين، ولقي اثنا عشر راكباً مصرعهم، وجُرح أربعة وعشرون عندما هبط هبوطاً حاداً لمستوى سطح الأرض، وكان يحذره مراقب حركة الملاحة بقوله "Pull up, Pull up" (توقف، توقف) وكانت آخر كلمات الطيار الصيني: ما الذي يقصده بقوله "Pull up"؟

وعام 1995، تحطمت طائرة بوينج تابعة للخطوط الأمريكية 757 في طريقها من ميامي إلى كولورادو في الجبال، بعد أن جنحت بعيداً عن مسارها، كان السبب الرئيس هو ارتباك الطيارين. وخمنت تحقيقات الخطوط الأمريكية أن كلا من الطيارين ومراقبي الملاحة الجوية قد نفدت منهم العبارات، ولم يتشاركوا في مخزون العبارات التي تساعدهم على حل هذه المشكلة. لم يكن الطياران يتحدثان الإسبانية؛ وبعدها صرَّح مراقب الملاحة الجوية بأن معرفته باللغة الإنجليزية كانت محدودة، فلم يستطع إبلاغ طاقم الطائرة بشكوكه.

إن سجلات حوادث الطيران - والتي وصلت في بعض الحالات إلى حد الكارثة - مليئة بالقصص عن فشل اللغة، الأمر الذي دعا المنظمة الدولية للطيران المدني لإدخال تغييرات مهمة في خططها.



Twitter: @ketab_n

وسواء أكانت المعايير المؤسساتية تبدو فضفاضة جدًّا أو شديدة الإحكام، فإن لمتعددي اللغات المفرطين معايير خاصة لكفاءاتهم المتعددة يحددونها بأنفسهم؛ حيث لا يوجد مجتمع معين يمتثلون لمعاييره وينشئون عليها، لا يوجد شرطة لمتعددي اللغات المفرطين، وهذا الأمر يمكن أن يكون معقداً.

ومع ذلك، إنه من المفيد أن تسأل: ما الذي يتوقع متعددو اللغات من أنفسهم القيام به؟!

في استبيان وضعتُه على شبكة الإنترنت استهدفت من خلاله الأشخاص الملمين بست لغات أو أكثر، وسألتهم: ما الذي يعنيه أن "تعرف" لغة؟ جاءت أغلب الإجابات بأن عليك أن تكون قادراً على فعل شيء بهذه اللغة؛ كالتحدث إلى أهل اللغة الأصليين، والتعبير عن نفسك، والاطلاع على وسائل الإعلام، ولم يصف أحد الأهمية الفورية.

بالنسبة لهذه الفئة، أن تقول إنك "تعرف" لغة، معناه "القدرة" على استخدامها عفو اللحظة بدون تحضير، إنها لا تتطلب قولك "نعم، لديَّ مفك!" ثم تتجه إلى منزلك لإحضاره. وكذلك، لم يقل واحد من السبعة عشر شخصاً من متعددي اللغات المفرطين الذين ادعوا أنهم يعرفون إحدى عشرة لغة أو أكثر إنهم ينطقونها كما ينطق بها المتحدثون الأصليون للغة.

في الحقيقة، لم يُعد النطق كالمتحدثين الأصليين إشارة للنجاح لديهم، وهذا الحكم يشمل معرفة أي شيء عن ثقافة اللغة الأصلية. هناك شخص واحد فقط قال إن معرفة الثقافة مهمة، وأضاف: "إن الشخص العادي لا يعرف حتى ثقافة لغته بشكل كامل". في المقابل، كانوا يركزون على الراحة في القدرات الوظيفية: يجب أن يعرف الشخص كيف يتحدث ويقرأ ويكتب "بذكاء"، و"بدون صعوبة كبيرة" و"بدون الشعور بالرغبة في تجنب أي موضوع أو نشاط".



Twitter: @ketab_n

كتب أحدهم: "أكون قد وصلت للهدف، عندما تنقر القواعد في رأسي حيث يكون هناك التركيب - أي تركيب - ليكون جملاً. المهم معرفة المفردات وكيفية استخدامها لصياغة التركيب.

لا تحتاج إلى أن "تذوب في مجتمع اللغة التي يتحدث بها"، فمعرفة اللغة ليس معناها الامتزاج بها، إنها تنتقل عبر المجتمعات بلا قيود. إن التدفق عبر اللغات، هو تدفق عبر العالم. في رحلاتي بين متعددي اللغات، كانت هذه فكرة متوافقة.

من خلال ملاحظاتي في بولونيا، ظهر أن ميزوفانتي كان يعيش حياة لغوية غنية جدًّا. كليرا كرامست شبهته بشخص تدرب على السلم الموسيقي، وبالكاد متمكن من الرموز. ولكني من خلال ما عرفته عن حياة ميزوفانتي من الآخرين، أجد أن هذا التشبيه غير منصف. حسناً، لم يكن ميزوفانتي موسيقيًّا بارعاً على القيثارة، والماندولين[1]، أو المزمار. ولكن، قد يكون هاوياً أكثر في كل آلة، لأنك تعرف أنه يستطيع العزف على الآلات الأخرى، هذه المرونة بحد ذاتها نوع من البراعة الموسيقية.

خذ هذا الشعر، على سبيل المثال، كان مبعثراً في الملفات ومحفوظاً للمناسبات الاحتفالية، كتب هذه القصاصات الصغيرة باللغة الإنجليزية من أجل زواره، مثل الآنسة هينتر، والآنسة مايسالدن، والآنسة لانفير.

اقرأ من شعره:

"إلهي، يا من يكره الخطيئة
وانحراف البشر
حينئذ تبدأ
حكمتك السماوية"

(1) آلة لها لوحة مفاتيح ويتم العزف على أوتارها بواسطة ريشة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

ويقول في مقطوعة أخرى:

"دع العقل صحيحاً، والقلب صافياً
وبهذا، تضمن العمل صائباً
فالفاكهة النضرة تقطف من الشجرة اليانعة
إلهي! أعطني مثل هذا"

أبيات الشعر الفائزة هذه، لم تكن أكثر من مجرد جمل بلاغية مطمورة في كعكة الحظ[1]، وكان يحتاج إلى أكثر من مجرد المرور على الحروف الإنجليزية المألوفة ليكون قادراً على صنع قافية وجعل الجمل قصيرة. وللكتابة بأسلوب أدبي، وبمواضيع مناسبة ومشابهة لأبيات حكيمة، مهذبة في الفترة الفيكتورية الأولى، كان عليه أن يعرف بما فيه الكفاية عن الحس الإنجليزي المرهف ليصوغ أشعاره لزواره من الطبقة العليا. بالطبع، لم تكن الحساسية نفسها متاحة له في الصينية أو الأرمانية، ولكن هل يجب علينا أن نزيل هذه اللغات من قائمته بسبب أنها لا تنمّي أشعاره؟

في صباح اليوم التالي، ذهبت لزيارة فرانكو باستي أمين المكتبة البولوني والعالم الذي وضع كتاب "في مكتبة متعددي اللغات" (باللغة الإيطالية un poliglotta in biblioteca)، وكان الكتاب يتناول فترة من حياة ميزوفانتي بين عامي 1812 و1831، عندما كان يعمل قيماً على مكتبة جامعة بولونيا، قبل استدعائه إلى روما. كنت متشوقاً للقاء باستي، وبلا شك يجب أن تكون لديه رؤى في اهتمامنا المشترك. كان رجلاً مرتب الهندام، يتزين بسوار من ذهب، ويرتدي قميصاً مجعداً، ويبدو بارعاً كمعلم محترف متأنّق في قاعة الرقص، حييته قائلاً: Molto piacere

(1) كعكة الحظ fortune Cookie: كعكة مصنوعة من الدقيق، يوضع بداخلها "الحظ"، وهو عبارة عن قطعة من الورق مكتوبة عليها عبارة حكيمة، أو فأل حسن، تقدم دائماً في المطاعم الصينية في الولايات المتحدة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

(سعيد بلقائك). كان مندهشاً، وأجاب Piacere، لم يكن هذا بالإنجاز الكبير لي، فقد حفظت هذه العبارة في هذا الصباح.

- هل تريد أن ترى مكتبة ميزوفانتي؟ سألني باستي.

- بالطبع، أريد!

ثم رافقني إلى غرفة طويلة ذات قبب عالية وجدران من الكتب أمامها أبواب زجاجية. في مقدمة القاعة الرئيسة هناك طاولة كبيرة معتمة رابضة تحت مجموعة من نوافذ ضخمة كأنها أعين تلمع وتراقب الطاولات والكراسي المصطفة.

في هذا الوقت، كان باستي يتحدث إليَّ هامساً: لقد بنوا المكتبات كمعابد للكتب. كنت أستطيع وبسهولة تخيل ميزوفانتي جالساً على المنصة، يترجم بعض النصوص بسرعة، ويدير المكتبة والثلاثين ألف كتاب مع مساعد أو مساعدين. كان هذا النوع من الأعمال مناسباً له في المكتبة، الأمر الذي أتاح له الوقت للعمل مع لغاته. كانت المكتبة مشهورة بمجموعاتها من المخطوطات العربية والفارسية.

في هذه المرحلة من حياته، كانت لشهرته كمتعدد لغات مفرط حياة خاصة. في العام 1817، في العام نفسه الذي أوقف به اللورد بايرون[1] من قبل الزوار من الأمراء والنبيلات الروس، وقام بذلك أيضاً الكروات، والاسكتلنديون، والفرنسيون، والإيطاليون، والعشرات من الأمريكيين والبريطانيين، كتب البعض إليه طالباً توقيعه. كان هذا الوقت من حياته هو وقت الأداء والتمثيل، كان مسلياً غريباً، ولكن لم تكن تنقصه المهابة، كان لسيرته الذاتية فعلها الكبير في شهرته، والتي أصبحت مؤكدة لي عندما شاهدت أكواماً من الورق التي كتب عليها أسماء وألقاب زواره.

وضع بارون في لحظة تاريخية بولونيا في مفترق طرق لغوية،

(1) اللورد بايرون: شاعر بريطاني مشهور من رواد الشعر الرومانسي، ولد في لندن عام 1788، ثم انتقل إلى إيطاليا في عام 1816 وتوفي عام 1824. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

واستفاد ميزوفانتي من هذا الطريق، ثم نمت شهرته حتى تضخمت الظاهرة، فأصبح هو مفترق الطرق.

كان ميزوفانتي متعمقاً في اللاهوتية؛ كما وصفه باستي في كتابه، ففي العشرينيات من القرن التاسع عشر ترجم ميزوفانتي الكتاب المقدس من العامية إلى اللاتينية مرة أخرى، وكان يبحث عن مصادر الهرطاقات المدفونة في اللغة.

في إحدى الترجمات، قرأ في كتاب العهد الجديد الذي طُبع في (كلكُتا) باللغة الفارسية، وقرأ باليونانية من النسخة الفارسية المترجمة، وقارن النسخة الفارسية بالنص اللاتيني الأصلي للإنجيل، ثم كتب شرحاً باللاتينية والإيطالية[1]. وجدت أيضاً ملاحظة كتبت بالإنجليزية من امرأة أمريكية تدعى ديبوا إيملين انسلخت من معتقدات الكويكرز[2]، واعتنقت العقيدة الرومانية الكاثوليكية، ترجم ميزوفانتي هذه الملاحظة إلى الإيطالية، في ما يبدو أنها استجابة لرغبة أسرة خطيبته الكاثوليكية.

وفي الفترة نفسها، كان يتجول في الجمارك، ليمنع الكتب المجلوبة إلى الولايات البابوية ويتفحص سلع بائعي الكتب في السوق. فتصادر الكتب الممنوعة وذات الأفكار الفاسقة أو السياسية المتحررة وتتلف. هذا يضع ارتباطه ببولونيا والبابوية في زاوية مختلفة؛ هل بقي في بولونيا لأنه يحبها كثيراً؟ أو بسبب طابعه المحافظ الذي قد يهدد حياته في أماكن أخرى من أوروبا؟ في العام 1831 كان في روما، دفعه إلى اللجوء إلى هناك أعداؤه السياسيون في بولونيا وإغراءات حاجات الكنيسة.

(1) هذه المسألة متعلقة بالذي يعنيه القول عُمد الشخص "في" الماء (المؤلف). [الذي يقصده المؤلف هنا هو ما ورد في قول يوحنا في الإنجيل: كنت أُعمد "بـ" الماء. وحور حرف الجر في الترجمة اللاتينية والشرقية ليكون "في" الماء – المترجم]

(2) الكويكرز: إنهم مجموعة من المسيحيين البروتستانت. نشأت في القرن السابع عشر وإنجلترا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

وهو واقف في معبد معتم تغطيه الكتب، شرح باستي كيف أن ميزوفانتي لم يكن ذا شهرة في مدينته. في الحقيقة، كانت هناك إشارات في المذكرات عن شهرته في أماكن أخرى، ولكن كان لديه القليل منها في مدينته، باستثناء مكافأته من سلطات الكنيسة والأسر الأرستقراطية مقابل خدماته المكتبية لها. اعترف بيترو جيوردانيي[1] الثوري السياسي بهذا السهو، وكتب: "إن ميزوفانتي يستحق شهرة أوسع مما تمتع به، لهذا العدد من اللغات التي يعرفها بطلاقة أكثر، ومع ذلك هذا آخر جزء في تعليمه". وحتى اليوم، كما قال باستي، فإن ميزوفانتي لم يلقَ الاحتفاء اللائق؛ اللهم إلا لوحة تذكارية في فياملكونتنتي، وإطلاق اسمه على شارع بعيد عن مركز المدينة. ولكن لم يُحتفل بذكراه في أي عام.

في غرفة أرشيف المخطوطات بعيداً عن غرفة القراءة، كان أمين المكتبة يجلس أمام الطاولة، بينما يستغرق اثنان من الباحثين في القراءة، سحب باستي قائمة كُتب عليها مقتنيات ميزوفانتي من الكتب، والتي وضعها بائعو الكتب بعد وفاته. (لاحقاً وجدت دفتراً خُط باليد يتضمن مقتنيات ميزوفانتي العقارية وقت وفاته). إنها قائمة مشهورة، كما يقول باستي، ولكنها تحوي بعض الأخطاء الساذجة في تحديد اللغات، وهي على أية حال ساعدت أسرة الكاردينال على أخذ بعض المال من البابا بيولس التاسع، الذي تبرع بالكتب إلى مكتبة جامعة بولونيا. كنا كلما تهامسنا التفت الباحثون إلينا مستنكرين، عابسين في وجوهنا.

أراني أيضاً (الكودكس كوسبي)؛ وهي مخطوطات نفيسة خُطَّت في المكسيك في مرحلة ما قبل كولومبس، ونُقلت إلى بولونيا بحالة جيدة قبل وقت ميزوفانتي. الكودكس تحتوي على المئات من الصور المنقوشة، والمختومة بتواريخ الأحداث السعيدة في التاريخ. لقد رأيت

(1) بيترو جيوردانى (1774-1848). (المترجم)



Twitter: @ketab_n

تحليل ميزوفانتي للكودكس بخط يده، كانت أولى محاولاته لفك شيفرتها. يقول باستي إن ميزوفانتي استطاع التأكيد على أنها مخطوطات مكسيكية، وكانت تسمى من قبل "الكتاب الصيني".

وبجانب تحليل الكودكس، وجدت في أوراقه تاريخ اللغة العربية، ومقارنة بين اللغتين السويدية والألمانية، ومحاولة لترجمة كتاب سفر التكوين إلى اللغة الغونكونية. ربما لم ينشر متعدد اللغات المفرط أعمالاً كثيرة له، ولكن ليس من الإنصاف في شيء وصمه بموظف كنسية أحمق، أو مجرد ببغاء.

وجدت في الأرشيف شعراً ألمح إلى خبرات ميزوفانتي كمتعدد لغات مفرط، وقدَّم لمحة عن عقل الإنسان ومدى قدراته اللامحدودة. بعض هذه الأشعار كانت أقوالاً مأثورة مكتوبة بوضوح لعدد من الزائرين، أغلبهم جاء للتحية أو الصلاة، أو التبرك بمقام القداسة، ومع ذلك فقد كان القليل منها عن اللغات، والشهرة، والرب. لأن الرجل لم يكن يكتب عن العاطفة الصريحة، وهذه الأشعار كانت أقرب من كونها رؤية حقيقية للحياة الحقيقية من منظوره الشخصي.

بعض أشعاره، كان توبيخاً لنفسه ليكون متواضعاً (إلى درجة أنه اعتبر أن هذه الطريقة ناجحة). كان يُذكر أولئك الذين وضعوه في موضع رفيع باللغة، بأن القداسة، والتضرع إلى الله، أكثر تأثيراً من التحدث بالعديد من اللغات. أنا أحب ذلك الانطباع عن ميزوفانتي الذي كان يقول لزواره ألا يركزوا على لغاته الكثيرة، وربما كان هذا السبب في مجيئهم لرؤيته في المقام الأول؛ أعني زهده في الشهرة والتوسل العفيف:

"لماذا تسأل عن اسمي؟
لماذا تريده هنا؟
عندما تبدو الأسماء
لامعةً، ذائعة الصيت


Twitter: @ketab_n

عندما تكون لطيفاً
اكتب، وتذكر:
عبثاً يقدم العالم
أوه، فلنتجه إلى السماء مرة أخرى"!
وفي مقطوعة أخرى كتبها بالإيطالية:
"بآلاف الأصوات، وآلاف اللهجات
جاءت من صدور البشر، بمئات اللغات
أعز صوتاً لقلب النبيل المتواضع
صوت الثناء والتمجيد للخالق".

ربما يكون ذلك بسبب أنه راهن على إحساسه الذاتي، واعتداده بنفسه باللغات ليُمنح الاحترام، والتواضع المطلوب.

عندما هممت بمغادرة أبواب المكتبة الرئيسة، التفت إليَّ باستي وقال إنه يشك في مهارات ميزوفانتي! لقد فاجأني كلامه تماماً، لأنه في كتابه، لم يلمح إلى أي شكوك في مهارات ميزوفانتي. وهو الآن يقول لي ذلك!

- "كانت معايير التحدث أو معرفة اللغة منخفضة، لا أعتقد أنه كان في الحقيقة يتحدث الفارسية أو العربية".

سألت، وأنا أتمنى أن يكشف لي بعضاً من هذه الأدلة اللعينة: "كيف تعرف؟".

هز كتفيه وقال: "إنه مجرد إحساس".

كان يعرف أنني لن أزور الأرشيف مرة أخرى، وكان عليَّ أن أكتشف طلاقة ميزوفانتي، وأن أحصي الرسائل التي استلمها بكل لغة، فإذا كانت كثيرة، يجب أن يكون قد كتب الكثير، وهذا ربما يعتبر إشارة إلى الممارسة المتعددة، وبالتالي إلى درجة عالية من الطلاقة. كانت نظريات مقبولة من الناحية العلمية الاجتماعية.


Twitter: @ketab_n

كشفت "لباستي" عن خطتي، فابتسم ابتسامة متكلفة وقال: "أرى أنك شخص إيجابي".

الشخص الإيجابي هو الذي يعتقد أنه يستطيع الوصول للحقيقة من خلال العد، والقياس، والملاحظة. كنت مذهولاً، لقد وصفتُ بصفات عدة من قبل، لم تكن بينها هذه الصفة. لقد ترجم باستي حياة ميزوفانتي من قبل، وترك عبء التصنيف والتفسير للآخرين من أمثالي.

ثم دفع ذراعي بلطف وهو يبتسم.

قلت له: "عليّ أن أغادر بولونيا وبحوزتي بعض الحقائق الدامغة عن ميزوفانتي، فالناس ينتظرون مني معلومات شافية عنه، وليس المزيد من القصص".

أجاب بابتسامته القاسية نفسها: "هذا يؤكد أنك تعرف ما تريد".

مرة أخرى في آرشي جناسيوا، جلست إلى الطاولة ومعي صندوق مغلق وأنا أتأمل القائمة. لم يكن باستي أول شخص يثبط همتي في بحثي عن طبيعة ميزوفانتي الحقيقية، ولن يكون الأخير. ربما لم يكن يدرك مدى رغبتي المستميتة في رؤية ومعرفة شخصية من متعددي اللغات المفرطين عن قرب، إن لم يكن بجسده، فبالحقيقة.

أمر ما كان واضحاً في ذهني: يمكنني البقاء في بولونيا حتى تصبح لغتي الإيطالية molto perfetto (مثالية جدًّا)، لأعرف عن قرب حقيقة متعددي اللغات المفرطين.

غادرت بولونيا بقناعة واحدة مهمة؛ وهي أن ميزوفانتي تعلم واستخدم عدداً كبيراً من اللغات بطرائق مختلفة.

ولكون هذه الصناديق دليلاً مهمًّا، فقد كنت على استعداد كامل لتقديم الانطباع عن إرثه من اللغات بأنها كانت حقيقة وذات معنى، حتى لو كان العديد منها محصوراً في نطاق محدد، فإنها لغاته، ولم تكن أقل منطقية من كونها خاصة. خالجني شعور قوي أيضاً، بأنه لم يكن يدرس



Twitter: @ketab_n

اللغات كحِلية أو بغرض التباهي، كهواية جمع الفراشات!

ومع أني لا أستطيع قراءة أغلب هذه اللغات، فإن مقتنياته أشارت إلى أنه استخدمها. ربما ليس جميعها في وقت واحد، فالبعض صنفها تحت عنوان (قليلة الأهمية). وهذه اللغات تبدو في نظري، على الأقل، مثل الأدوات، بعضها استخدمه بوضوح في اتصالاته الكثيرة، والبعض كان مساوياً لعبارة Amuse-bouche[1]، والبعض الآخر عبارات حوار محفوظة، للتملق الاجتماعي "هل ستزور البابا في روما؟". قد تكون قدراته أقل من طلاقة ودقة المتحدث الأصلي، ولكن هذا الخليط الفريد سمة تجمع متعددي اللغات المفرطين.

ثارت شكوكي مرة أخرى أيضاً، ففي ظل عدم وجود موهبة ما، لن يستطيع ميزوفانتي القيام بما فعله - ولا حتى بنصف ما يدعيه - في اللغات المستهدفة التي يبحث عنها. وبعد هذا، فإن العديد من الأشخاص يعيشون في تقاطعات الطرق اللغوية، المكان الذي يستطيعون فيه الاستغراق مع العديد من اللغات. ربما يقبل البعض على تعلم عدة لغات، ومع ذلك القليل منهم أصبح متعدد لغات مفرطاً. أثناء استمراري في البحث، كان البعد المهم الذي استخدمته على أكمل وجه، هو توصيف خصائص القوة العقلية التي وظفها ميزوفانتي والآخرون من متعددي اللغات المفرطين لتعلم اللغات.

أدركت أيضاً أن خليطه اللغوي عكس مستوى من أداء عقلي لا يمكن معرفته من خلال عرض واحد باللغات التي يتحدثها، ويقرأها، أو يترجمها. أحد الشكوك التي كنت راغباً في التخلص منها، هو تجريد الشخص من أهليته لمجرد ارتباط اسمه بعدد كبير من اللغات. هناك أمور تجرد الناس من الأهلية، (ولا يمكن أن يكون منها تعدد اللغات).

(1) amuse-bouche: مشهيات تطلب قبل وجبة الطعام، ومعناها الحرفي: "شيء ما لإرضاء الفم"، ووظفها المؤلف في هذا السياق. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

أقسمت أيضاً أن لا أنظر إلى الأشخاص بنظرة "كل شيء أو لا شيء"، بل بعين "بعض الشيء وبعض الشيء". وهذا يعني، من ضمن أمور أخرى، أن الأشخاص يمكن أن يهتموا باللغات، حتى وإن لم يكونوا بمثل طلاقة المتحدثين الأصليين.

عندما غادرتُ كان يملأني شعور بأن ميزوفانتي قد قام بدور ما في عالَم اللغات، لم يقم به المتحدثون الأصليون لها، على رأس ذلك قدراته السريعة في تحليل اللغة وذاكرته الاستثنائية (كدليل على أدائه وادعائه)، وقدرة ظاهرة على تقليد صوت المتحدث الذي لم تكن لغته أصليةً بالنسبة له، والقدرة على الانتقال بين اللغات دون مقاطعة. هذه مهارات فريدة، لا يملكها أحادي اللغة بالضرورة في لغته الواحدة، ولا حتى ثنائي اللغة، فضلاً عن الانتقال بين اللغات. المتحدث الأصلي للغة ليس مشابهاً لمتعددي اللغات المفرطين، ليوضع بمقارنة معهم، شخص ما آخر عليه أن يأخذ هذا الدور.

مكان وزمان ميزوفانتي يبدوان بعيدين ومنقطعين. ولكنه كان بالحقيقة شخصاً فريداً من نوعه، ولكن، هل هو الشخص الوحيد من نوعه؟ أو إن هناك آخرين مثله يعيشون بيننا الآن؟



Twitter: @ketab_n

# القسم الثاني

## الاقتراب

## اقتفاء أثر متعددي اللغات المفرطين



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الخامس

عندما قارب ديك هدسون - اللغوي من كلية لندن الجامعية - على سن التقاعد، كان يشغله سؤال: من هو الشخص الذي تعلم أكثر عدد من اللغات؟ وفي منتصف التسعينيات من القرن الماضي، طرح سؤاله على أعضاء موقع "قائمة اللغوي"، المنتدى المشهور للمتخصصين في اللغة. انهالت قوائم من أسماء متعددي اللغات المفرطين المشهورين تاريخيًّا، وكان من ضمنهم جوزيبي ميزوفانتي، وألقى آخرون بشكوكهم وقالوا إن الحد الأعلى لعدد اللغات ينبغي أن يكون مرتفعاً. وعلى أية حال، فإنه يبقى سؤالاً مفتوحاً، تجربة طبيعية لنتائج لم تحلل بعد.

وبعد سنتين، استلم هدسون رسالة بالبريد الإلكتروني مطلعها: "سيدي، أود بدايةً أن أقدم اعتذاري عن إزعاجك، ولكني قرأت لك مقالاً، ولهذا كتبت".

كانت رسالة من الكاتب "س" الذي قرأ مقال هدسون، وكان يريد أن يصف جده الصقلي، الذي تعلم بطريقة غير منهجية اللغات بسهولة غريبة وأصبح في نهاية حياته قادراً على التحدث بسبعين لغة، ويقرأ ويكتب خمساً وستين! هذا الجد، كان في العشرين من عمره عندما انتقل إلى نيويورك في بداية القرن الماضي، وعمل هناك حمالاً في محطة القطار، الأمر الذي أتاح له اتصالاً دائماً مع العديد من المسافرين الذين يتحدثون لغات مختلفة. قال "س" إنه شاهد جده يوماً يترجم الصحيفة إلى ثلاث لغات مباشرةً.



Twitter: @ketab_n

في الخمسينيات من القرن الماضي، عندما كان "س" في العاشرة من عمره، رافق جده في رحلة حول العالم استمرت ستة أشهر، وكان جده يعرف اللغة المحلية في أي منطقة ينزلون بها. أخذتهم هذه الرحلة إلى النرويج، والأرجنتين، وفنزويلا، والمملكة المتحدة، والبرتغال، وإيطاليا، واليونان، وتركيا، وسوريا، ومصر، وليبيا، والمغرب، وجنوب أفريقيا، وباكستان، والهند، وتايلاند، وماليزيا، وإندونيسيا، والفلبين، وهونج كونج، واليابان. ويفترض أن جده تحدث اللغة المحلية لكل بقعة من هذه البقاع. يمكن أن يستنتج الشخص أن جده كان يعرف على الأقل سبع عشرة لغة (من ضمنها الإنجليزية)، ومع هذا لا توجد إشارة عن مدى استفادته منها.

والأكثر إثارة من ذلك، أن "س" ادعى أن هذه الموهبة موجودة في أسرته، واستطرد: "في كل ثلاثة أو أربعة أجيال هناك شخص من عائلتي لديه القدرة على تعلم اللغات"، "قال لي جدي إن أباه وأخا جده استطاعا التحدث بأكثر من مائة لغة".

عندما قرأ هدسون هذا، كان المغزى واضحاً جدًّا، تعد دراسة الأسس الوراثية المرتبطة بالقدرة على تعلم اللغات، خصوصاً وراثة اضطرابات اللغة، دراسة متطورة. في التسعينيات أجريت دراسة مثيرة على عائلة لديها مشاكل في التطور اللغوي يتشارك أفرادها بطفرة الجينات نفسها. هل من الممكن أن تكون هناك علاقة بين الجينات والقدرات الاستثنائية؟ ربما هناك جينات خاصة لمتعددي اللغات المفرطين!

أرسل هدسون رسالة "س" بعد موافقته إلى الموقع، وبحث عن وصف أفضل لتسمية هؤلاء الأشخاص الذين تعلموا الكثير من اللغات. اختار هدسون عبارة "متعددو اللغات المفرطون" Hyperpolyglots، حيث إن عبارة "متعددو اللغات" Polyglots فقط لا تؤدي الغرض، بينما المصطلح الآخر Multilinguals "متنوّعو اللغات" شائع وغير دقيق.



Twitter: @ketab_n

متعـدد اللغـات المفـرط عند هدسـون هو الشـخص الـذي يتحدث سـت لغات أو أكثر. وبرهن بقوله: "إن في المجتمعـات المتعددة اللغات، لا يتمتع كل شـخص بشـخصية مسـتقلة فحسـب، بل يتحـدث العديد من اللغات بحـد أقصى خمس لغـات. لذا فإن الشـخص الذي يتحدث سـتَّ لغات أو أكثـر يجب أن يكون اسـتثنائيًا، فهو ليس مجرد متعـدد لغات، بل إنه متعدد لغات مفرط".

لفتت ظاهـرة متعددي اللغات المفرطين انتباه هدسـون، بسـبب أنها فوق حـدود النظريـة اللغوية. باسـتثناء ظاهرة واحـدة عرفها - من دراسـة تمت لشـخص متخلف عقليًا يدعى كريسـتوفر، والذي يعرف عشرين لغة - ولم يتناولها أحد. لم يستمر الأستاذ في عمله مع الجامعة، لم يكن لدى هدسون ما يخسره من متابعة هذه الظاهرة المثيرة والمهجورة، على الرغم من أن "س" اختفى مباشرة بعد نشر رسالته.

إذا كنـت تعتقـد أن تعلم اللغـة يعتبر أمـراً فطريًا وبشـريًا فريـداً، فإن سؤال كم عدد اللغات التي يستطيع الشخص تعلمها؟ يبدو تافهاً؛ حيث إن تعلم لغة واحـدة بحد ذاته يعتبر تطـوراً مثيراً، وقِس على هـذا تعلُّم العديد من اللغات. حسناً، إنه يزيد الأمر غموضاً!

متعلمو اللغة الاسـتثنائيون المفرطون يسـتحقون الثناء والتقدير مثل عدائي الماراثون، لدفعهم إمكانيات البشر الأساسـية قدماً إلى أقصى حد، ولكن ليس الاهتمام العلمي الذي من شـأنه أن يقول إن باستطاعة الإنسان التنفس تحت الماء، أو أن يرفرف بجناحيه ويطير.

إذا دُفعت لشرح ظاهرة متعددي اللغات المفرطين، فالنظرية الفطرية تقـول إن جميع أدمغـة الأطفال مجهـزة بقواعد لغويـة أولية شـاملة في ما يشـبه الجدول الدوري لعناصر الكيمياء الذي يحتوي على خصائص أولية لجميع لغـات العالم وبجميـع الأبعـاد والاختلافات. والاتصـال مع اللغة الحقيقية (أو العديد منها) يثير بعض هـذه الخصائص من الجدول، والذي



Twitter: @ketab_n

لا يستخدم يضمر، بسبب أن جميع اللغات على الكرة الأرضية تختلف بعدد محدود من الأبعاد، حتى لدى البالغ فإنه يكون قادراً على إعادة إثارة هذه الخصائص وتعديلها، بعد إعطائه الوقت الكافي.

نظريًّا، لا يجب أن يكون هناك حد لدى الإجابة عن السؤال: "كم لغة يستطيع الإنسان أن يتعلم؟". وإذا لم يتعلمها أغلب الناس، فلأنهم مشغولون بنشاطات أخرى أقل أهمية كنحت عظام الحوت، وزراعة زهرة الأوركيد، أو الاستمتاع على الشاطئ.

ويقول مؤيدو النزعة النظرية المعارضة، أصحاب النظريات النشوئية، إن اللغة ليست فطرية موروثة، وإنما هي سلوك يُكتسب من مجموعة المهارات المعرفية البسيطة المتشابكة، وتكون في لحظة محددة من تطور الطفل، مثل هذه المهارات معززة بخبرات تشغلها ذاتيًّا إلى مستوى عالٍ من التعقيد. ومن هذه النظرة، فإن القواعد اللغوية لا توجد في أدمغة الأطفال كمتعلمين خبراء، بل يمكن للبشر أن يملأوا الفراغات في البيئة. وعلى هذا الأساس، كان تفسير أصحاب النظريات النشوئية لظاهرة متعددي اللغات المفرطين كالتالي: إن الأشخاص الذين لديهم موهبة لتعلم اللغات لديهم قدرة على تمييز وتحليل النماذج بدقة عالية جدًّا، وهذا بالتأكيد، يخلق نوعاً من الحس البديهي. في أي مرحلة يمكن للتحليل أن يصبح معرفة للغة؟ وكيف تستطيع الخروج من تأثير لغتك الأولى - أو شحذ معلوماتك عنها - لتصبح طلقاً في الثانية؟

في هذه الأثناء، طور الجانب اللغوي التطبيقي، الذي يتعامل مع تعليم اللغات الأجنبية، ومعرفة القراءة والكتابة، مفهوم "الاستعداد" لتعلم اللغات، وكان حقًّا مقياساً لسرعة تحقيق الطالب الطلاقة في اللغة الإضافية في فترة محدودة.

تطور هذا المفهوم في الخمسينيات من القرن الماضي. وتتكون الاستعدادات من أربعة أبعاد، هي:



Twitter: @ketab_n

1- ما مدى دقة استرجاع الشخص للأصوات؟
2- ما مدى قدرته على إدراك نماذج القواعد؟
3- ما مدى قدرته على إنتاج جمل جديدة تقوم على تحليله؟
4- ما مدى قدرته على تعلم كيفية ارتباط الكلمات في اللغة الأولى والثانية؟

لاحقاً، تطور المفهوم، وأضيف بُعدٌ جديد عن كيفية عمل الذاكرة.

ولكن أبعاد الاستعدادات لم تطبق على متعددي اللغات المفرطين. المجموعة الكبيرة من الأبحاث على الاستعدادات قام بها البيروقراطيون في مؤسسة تعليم اللغات الأجنبية في واشنطن دي سي (وعواصم أخرى)، حيث كان محور الاهتمام هو المتعلم المثالي الذي أتقن لغة واحدة على أعلى درجة من التمكن، بهدف التجسس أو العمل بالسلك الدبلوماسي. أما الشخص العادي متعدد اللغات، فبالكاد يثير الاهتمام.

حتى لو اختُبر متعددو اللغات المفرطون من خلال مختبرات الاستعدادات، فإنه يبقى في المفهوم أوجه قصور. على سبيل المثال، تقيس الاختبارات القياسية الميل إلى الاستعدادات للتنبؤ بدرجة الطالب في الفصول أفضل من تنبُّئها في الاستخدام الحقيقي للغة في الحياة. وهي لا تتنبأ أيضاً بكيفية تكيف الشخص باللغة في النهاية، والاستعدادات العالية لا تضمن أن تصل هذه القدرات إلى حدها الأعلى سريعاً، والأكثر أهمية من ذلك، أنه ليس هناك اتفاق على ما كوّن الاستعدادات، وكمية المصقول منها خلال التنشئة، وكم الكمية الموروثة منذ الولادة. قد تتكون الاستعدادات في وقت تؤثر فيه القوى السياسية في العديد من البيئات التعليمية. وجود الاستعدادات العالية يتضمن وجود الاستعدادات المنخفضة، التي في المقابل تتضمن تقديم المصادر التعليمية على أسس غير متساوية.

إذا كانت الاستعدادات التي تجدها مثيرة تتوافق مع أجناس محددة،


Twitter: @ketab_n

أو أعـراق، أو طبقات، فستكون كمن يقوم بترسيخ الامتيـازات القديمة. الأكثر أماناً، هـو أن تفتـرض أن جميع الطـلاب لديهم الجينـات المعرفية التي تسمح بتعلمهم على نحو متكافئ.

كان هدسـون في موقـف حرج، فحتـى لو افترضنـا جـدلاً أن إنجاز متعلمي اللغة الناجحيـن لا يمكن شـرحه إلا من خلال أحـداث خارقة - كوحي من الملائكة أو اتفاقات مع الشياطين - فإننا لا نستطيع أن نتجاهل كيف يكـون بعـض المتعلميـن أسـرع وأفضل فـي اسـتخدام اللغـات من البعض الآخر، مع افتراض أنهم يسـتطيعون قـراءة المعنى الدقيق بالضبط، أو حتى تقليد الأصـوات بدقة. بعض هؤلاء الأشـخاص، ممن بلغوا الحد الأعلى في المنحنى الطبيعي، يحسـبون كخبراء. ومع ذلـك فهناك آخرون ذهبوا بعيداً أبعد من هذا، كيف نشرح هذا؟

كما أخبرنـي فـي اتصالاتنا عبـر البريـد الإلكترونـي والهاتـف، فإن هدسـون بنفسـه بذل جهـداً كبيـراً ليتعلـم العديـد مـن اللغات قبل السـفر إلى الأماكن التـي تتحدث بهـا، وحدّد الوقـت والزمـن المطلوبين لذلك. ومع ذلك فقد وجد بعـد عودته أن قدراته تنحدر بسـرعة يصعـب تجنبها. يتعلم الآخرون أسـرع ويحتفظـون بمعلوماتهـم لفترات أطـول منه. كيف قـام متعـددو اللغـات المفرطـون بالمحافظـة علـى مهاراتهم؟ هـل يمكن للمتعلمين العاديين القيام بمثل ذلك؟

أعرب هدسـون عـن قلقـه من وجـود اتجاه سـلبي فـي تعليـم اللغة الأجنبية في بريطانيا. حيث يحث السياسيون الشـعب البريطاني على تعلم اللغات لضمان الحصول على فرص عمل في دول الاتحاد الأوروبي، في حين لا تشـترط الجامعات معرفة اللغات الأجنبية ضمن مسوغات القبول بها، كما أغلقت أقسـام تعليم اللغات عندمـا تناقص عـدد الملتحقين بها. والأكثر من ذلـك، أن الحكومة كانـت دائماً تمـدُّ دول الاتحـاد الأوروبي بمعلمـي اللغـة الإنجليزيـة، والكتـب الدراسـية، والـدورات، والبرامـج،



Twitter: @ketab_n

بعائد يقدر بما قيمته 1.3 مليار جنيه إسترليني سنويًا. وبعبارة أخرى، إنّ تعلم اللغات كان لمواطنين من دول أخرى، الذين سيتنافسون لاحقاً مع البريطانيين على الوظائف. هذا التضارب يشدد على حقيقة أن المهاجرين عام 2005 حولوا لندن إلى مكان تتحدث به 307 لغات، وجعلوا من عاصمة الدولة - التي تعد أكثر الدول أحادية في اللغة في الاتحاد الأوروبي - أكثر مدينة متعددة اللغات على الكرة الأرضية. لذا، فإنهم بحاجة ماسة إلى استراتيجية جديدة لتعلم اللغات الأجنبية.

في هذه الأثناء، في الولايات المتحدة، كان نقص التحليل اللغوي للوثائق الكثيرة في المخابرات الأمريكية يعني حدوث هجمة إرهابية وشيكة كالتي وقعت في 11 سبتمبر 2011، حيث مكثت هذه الوثائق على قائمة الانتظار للتحليل إلى وقت متأخر. كانت حكومة الولايات المتحدة حسب استراتيجيتها لمكافحة الإرهاب لا تريد أن تثق بعمل المخابرات مع المهاجرين الجدد (خصوصاً الأشخاص من الخلفية الثقافية نفسها التي ينتمي إليها نظام القاعدة). خوف المواطنين من الدخلاء والأغراب أخمد لغات عائلات المهاجرين التي يُحتاج إليها الآن بشدة في وظائف حكومية متعددة. عند الاقتران بوقت آمن من الفراغ السياسي ستُبنى قوة لغوية من الخبراء. وبهذه الاتجاهات، التي يعود بعضها إلى عقود سابقة، أُهدرت فيها بعض مصادر البلد المهمة، من الطلاقة اللغوية والمعرفة الثقافية التي طالما حذر الخبراء من تناقصها. ففي العام 1981، نشر السيناتور بول سيمون مقالاً بعنوان: "اللغة - تقيد أمريكا: مواجهة أزمة اللغة الأجنبية". ومع ذلك فإن طلب الميزانية الضرورية لشيء ما مثل اللغة يمكن أن يتحرك فقط بأزمة.

ورغم ذلك، أصبحت المشكلة أعمق؛ فالفشل في تأهيل خبراء لغة للحكومات والأعمال الاقتصادية يعزى إلى فشل النظام التعليمي. بالإضافة إلى ذلك، يعد النجاح في تعلم اللغة، متى حصل، منتجاً ذاتي



Twitter: @ketab_n

التشكيل، أي إنه يتم بجهود ذاتية. مثل هذه النظرة، تعتبر مثل إلقاء حواجز الاتصال بين المعلمين والمتعلمين بطرائق تجعل جهودهم ثابتة، وتثير مرونة الدماغ. إنها أيضاً تلغي أي دور تشريعي للحكومات، مع أنها المستفيد الأول من توسيع المهارات اللغوية. النتيجة كانت عجزاً عميقاً في بناء أساسيات معرفية للمجتمع عن تعلم اللغة الأجنبية.

وهو ما رآه هدسون، عمىً ثقافياً، وقصوراً ذاتيًّا بالمجتمع، وضعفاً سياسيًّا يقف حجر عثرة في طريق تعلم اللغة الذي يحتاج الأميركيون والبريطانيون للقيام به. ويفكر هدسون، ويقول: ربما أن الطريق إلى الأمام يمكن إيجاده في وسائل أو مواهب متعلمي اللغة ذوي الأداء العالي. وقال لي: "إنهم أبطال الأولمبيات في اللغات، ولو عرفنا كيف يحصلون على الميداليات الذهبية بموهبتهم، فإننا يمكن أن نعرف أفضل الطرائق لتعليم الأشخاص العاديين للتحدث باللغات".

هل كان هذا حقيقة؟ لقد كان عليه أن يلتقي بعضاً من حاملي الميداليات الذهبية في اللغات للتأكد من ذلك!



Twitter: @ketab_n

# الفصل السادس

في السنوات التالية، اعتاد هدسون أن يكتب لي - بين الحين والآخر - رسالة إلكترونية عن أحد متعددي اللغات المفرطين.

- هل سمعت بهارولد وليامز؟ (سألني هدسون).

- نعم، وليامز كان صحفيًّا من نيوزلندا، قيل إنه يعرف ثماني وخمسين لغة.

- وماذا عن جورج كامبل؟

- نعم، كان باحثاً من اسكتلندا يستطيع التحدث والكتابة بطلاقة بنحو 44 لغة على الأقل، ولديه معرفة كافية بعشرين لغة غيرها. قرأت عنهما في صفحة النعي في صحيفة واشنطن بوست.

هذه كانت إحدى العقبات الموجودة دائماً، فهدسون لا يستطيع أن يجعلني أتواصل مع شخص من متعددي اللغات المفرطين ممن هم على قيد الحياة، إنه لم يلتق أحدهم. وفي هذا الأمر كنَّا متساويين.

في هذا الوقت، بدأت معلومات قليلة عنهم تظهر من خلال شبكة الإنترنت، وتستطيع الآن بسهولة الدخول إلى موقع اليوتيوب، وستجد مقاطع من الفيديو لأشخاص يثرثرون بثماني لغات أو عشر. ولكن عندما بدأت بحثي، كنت أتمنى فقط أن أجد هذه المجتمعات العملية موجودة على أرض الواقع. وكما لم يكتب في موقع الويكيبيديا (الموسوعة الحرة) عن المشاهير من متعددي اللغات حتى الآن، فمثل هذه المواقع تكون محل شك، أو تُحذف.


Twitter: @ketab_n

ومما يزيد الأمر إحباطاً، أن الكتابات العلمية كانت تتجاهل هذا الأمر إلى حد كبير، باستثناء الدراسات القديمة التي تتناول مدى التأثير الضار الناجم عن إصابة الرأس من جروح أو أمراض على قدرة الشخص في التحدث بلغة واحدة أو أكثر. أفضل مثال على ذلك، مقال كتبه (أيه. لايشنر) بالألمانية يعود للعام 1948، عن جورج ساوروين (1831-1904)، الألماني الذي يستطيع القراءة والكتابة بست وعشرين لغة، قال لايشنر ساخراً: "على الرغم من أنه كان غير موهوب في أي شيء آخر". وآخرون قالوا عنه: "إنه موهوب جدًّا في اللغات".

كان لاينشر يحاول أن يفهم المبادئ التي تتحكم باللغات بدماغ الشخص من خلال رؤية أي اللغات التي تأثرت من السكتة الدماغية. وبدا أن الاهتمام بمتعددي اللغات المفرطين قد أخذ في التزايد عن ذي قبل.

كانت أدلة الأبوكريفا[1] المعتمدة عن متعلمي اللغة كثيراً ما تلتقط من الصحف، ولا سيما صفحات النعي. اكتشفت في أرشيف الصحيفة، قصة إليزابيث كولمان الفتاة التي ولدت في سانت بطرسبرغ في العام 1809، والتي أُطلِق عليها لقب "ميزوفانتي الروسي" قبل أن تصل إلى سن السادسة عشرة، فهي تتحدث اليونانية والإسبانية، والبرتغالية، و"السلمنكية"، والألمانية، والروسية. قال الجميع إنها "تمكنت" من إحدى عشرة لغة، تتحدث ثماني لغات منها بطلاقة. لم تحظَ إليزابيث بفرصة لأن تصل إلى مستوى ميزوفانتي كما كانت تتمنى، فقد كانت لا تنام أكثر من ست ساعات في الليل منذ أن كانت في عمر الحادية عشرة لتوفر وقتاً أكثر للدراسة، ونقص النوم هذا أنهك بدنها، فماتت في سن السابعة عشرة.

في الأرشيف نفسه، هناك حكاية إيراتيو أوبراين، الحداد الأمريكي

(1) الأبوكريفا: كتابات مشكوك في صحتها أو في نسبتها إلى مؤلفها. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

في مدينة روما في ولاية جورجيا الأمريكية، والملقب "فولكانوس[1] عالم روما"، فبناءً على تقرير نشر عام 1898، فإن أوبراين تحدث اللغات اليونانية، والألمانية، والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، واللاتينية، ولغات أخرى. وُصف بأنه رجل متواضع، وعملاق القامة، ونابغة. ولكن الكاتب يتساءل ويقول: "كيف لمثل هذا الرجل ذي الموهبة الواضحة أن يرضى بعمل متواضع كحداد؟!".

أحد الأجوبة كان التالي: قبل ستين سنة كان الدور المتواضع في الحدادة يمثل معبراً إلى الشهرة العظيمة. في العام 1838، أشار حاكم ماساتشوستس وليام إيفرتي في حديثه إلى مجموعة من المعلمين إلى "حداد متعلم" من ولاية كونيتيكت اسمه إليهو باريت (1810-1879)، والذي علَّم نفسه خمسين لغة. وعندما أصبح باريت في عمر الثامنة والعشرين غلب عليه أمران؛ العمل اليدوي وقراءة الصحف الأجنبية، وكان دائماً يقول للناس إنه لا يبحث عن الإشادة أو الثناء على حد قول إيفرتي.

وخلال عقد من الزمن أمضاه باريت في تدريس نفسه قراءة العديد من اللغات الأجنبية، والتي ظهرت كمحاولة لتخطي إنجازات أخيه الكبير - المتوفى - العلمية، ساعد نفسه من خلال العمل على صنع المجارف التي تستخدم في الحديقة وأجراس البقر. كان فخوراً بنفسه ويردد دائماً أنه كان يحمل معه قواعد اللغة اليونانية واللاتينية في قبعته ويدرسها خلال وقت الراحة. ولكن اللغات والمجارف لا تجلب مالاً؛ لذا بحث باريت عن عمل إضافي كمترجم، وكتب إلى تجار ووستر الخطاب الذي نُشر في الصحيفة ولفت أنظار الحاكم إيفرتي.

رتب الشاعر هنري وادسورث لباريت عرضاً للدراسة في جامعة

(1) فولكانوس (من الأساطير): إله النار النافعة لدى الرومان. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

هارفارد، ولكن باريت رفض العرض قائلاً إنه إذا لم يعمل في الحدادة فسيمرض. وقبل بول بينان[1] وجوني أبلسيد[2]، كان باريت نموذجاً مشرقاً للأمريكي العصامي في العمل وتطوير النفس، وجميعهم كانت لهم جهود عظيمة في نهضة الولايات المتحدة الأمريكية.

وكما هو متوقع، نُسيت إنجازاته اللغوية تقريباً. عندما ذهبت إلى المكتبة العامة في كونيتيكت لأرى مجموعة باريت، قال لي أمين المكتبة إنه لا يوجد من ذهب إلى هناك للبحث عمَّا قام به (أو ما ادعاه) في مجال اللغات. والباحثون الذين سألوا عنه كانوا في الغالب يبحثون عن آخر أعماله التي يدعو فيها إلى إلغاء العبودية في الجيش.

بعد أن طلبت فتح خزانة الكتب المبطنة في مساحات صغيرة خاصة، تفاجأ أمين المكتبة عندما رأى خلف البابين الزجاجيين الملطخين كتب باريت في اللغات: العهد الجديد بالهندوستانية، وقواعد اللغة التاميلية، وقاموس اللغة البرتغالية، ونسخة صغيرة من ملحمة الأوديسا باليونانية؛ مغلفة بالشمع ومربوطة برباط أحمر.

لقد تعمق باريت بالبرتغالية، والفلمنكية، والهولندية، والسويدية، والنرويجية، والأيسلندية، والويلزية، والغيلية، والسلتية[3]، والروسية، واللغات السلافية التابعة، مثل السريانية، والآرامية، والسامرية، والإثيوبية.

أحد كتاب سيرة باريت الذاتية - ويدعى بيتر توليز - أعزى إليه معرفته بثلاثين لغة، وموسوعة نايت للسير الذاتية قالت إنه يُجيد تسع

(1) بول بونيان: هو شخصية أسطورية لخطّاب ماهر، تظهر شخصيته في القصص الطويلة في الفولكلور الأمريكي. (المترجم)

(2) جوني أبلسيد: شخصية مزارع حقيقة (1774-1845)، يعتبر من الشخصيات الأمريكية الشهيرة، لقيامه بجلب بذور فاكهة التفاح، وزرعها في مساحات كبيرة من البلاد، دون مقابل. (المترجم)

(3) اللغات السلتية: عائلة فرعية من عائلة اللغات الهندوأوروبية تشمل: الأيرلندية والاسكتلندية والويلزية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

عشرة لغة[1]، وعندما زرت جمعية التراث الأمريكي في ورستر التي استخدمها باريت كمصدر، وجدت أن لديها القليل من كتب القواعد والقواميس من اللغات الأجنبية التي ادعى معرفته إياها.

في العام 1837، كانت المجموعة تتضمن كتبا في إحدى وثلاثين لغة؛ المقتنيات تحتوي على مجرد نسخ من العهد الجديد. من المثير أن مكتبة الجمعية تحتوي على مجموعة من الكتب في اللغة الأمريكية الأصلية مثل لغة ماساتشوستس وناراجانسيت، التي لم يتضايق باريت من تعلمها من أمريكي أصلي لم يخرج من مدينته. لم تصبح اللغات الأصلية - مثل الآرامية والسامرية - في العالم الجديد شيئاً طريفاً يُتزيّن به كقلائد. كتب بيتر تولس: "دراسته المستغرقة والغريبة للغات لم تكن هدفاً بحد ذاتها، بل وسيلة للرقي الاجتماعي، ونوعاً من العمل العقلي الفذ الذي استخدمه ليحرر نفسه من محل الحدادة".

**إليهو باريت**

(1) الإنجليزية، واللاتينية، واليونانية، والعبرية، والسريانية، والسامرية، والعربية، والتركية، والفارسية، والإثيوبية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والألمانية، والأيسلندية (غالباً الغيلية)، والإستونية، والبوهيمية، والدنماركية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

لم يدَّعِ باريت أنّه كان قادراً على التحدث بلغاته، ولكن على قراءتها. خلال السنوات العشر المكثفة التي تعلم فيها، كان يمضي أربع ساعات يوميًّا في الدراسة (ساعة في وقت الظهيرة، وثلاث ساعات مساءً)، يدرس ويرصد نشاطاته، ويضع علامات على تقدمه في الدفتر كالتالي:

- 9 يونيو: 68 سطراً من العبرية/ 50 سطراً من اللغات السلتية/ 40 صفحة من الفرنسية/ 3 ساعات دراسة في اللغة السريانية/ 9 ساعات في محل الحدادة.
- 10 يونيو: 100 سطر من العبرية/ 85 صفحة من الفرنسية/ حضور 4 قداسات في الكنيسة/ حصة من الإنجيل في الظهيرة.

عندما كان باريت في الحادية والثلاثين من عمره، ترك عمله واللغات فجأة، وأدرك - كما أعلن أمام أحد الحشود في المدينة - "أن هناك شيئاً آخرَ في الحياة يستحق أكثر من مجرد متعة الرغبة في التعلم؛ فهناك الكلمات التي يتحدث بها مع الأشخاص، واستمالة القلوب من أجل المبادئ العظيمة الحقيقية".

وبعد أن استفاد من شهرته اللغوية المشكوك فيها، أصبح داعياً للسلام، ولتحرير العبيد، وطبعت صورته على طوابع الرسائل الرخيصة المسافرة عبر الأطلسي، وأخيراً ألّف ثلاثين كتاباً.

قيل إنه حاز شهرة واسعة، ولم يكن يدفع أجرة الفندق الذي ينزل فيه، أو المركب الذي ينقله في النهر. وفي فترة لاحقة من حياته عاد إلى اللغات، وبثّ في نفوس الشابات في مدينته حب اللغة السنسكريتية. بعد وفاته في العام 1879، نعاه أصحابه وركزوا على "تمتعه بشخصية جميلة وطفولية".

في عام 1841، شكَّل العالم المشهور بعلم فراسة الدماغ - لورينزو نايلز فاولر - قالباً من الجص لجمجمة باريت. ربما كان هذا أول مؤشر



Twitter: @ketab_n

على أن قدرات متعددي اللغات المفرطين لها منطقة معينة في الرأس. بالرغم من أن علم الفراسة - الذي كان شائعاً في ذلك الوقت - وُصف مؤخراً بأنه نظرية خاطئة.

يرى الباحثون بعلم الفراسة أن سطح جمجمة الإنسان يعد خريطة لذكائه، وشخصيته، وسماته. كانت وظيفة خبير الجمجمة هو فك شيفرة المساحات النسبية والأشكال في مناطق الدماغ المنفصلة، وعددها سبع وثلاثون، وتسميتها بأسماء مثل منطقة "التقدير"، و"الحب"، التي تمتد بين مؤخر العنق إلى الأنف، وأسفل الصدغين حول العينين إلى الأنف.

هنا صورة مرسومة لرأس باريت من منشورات فاولر:

صورة جانبية لإليهو باريت

في خريطة الجمجمة الاحتمالية[1] تقع منطقة اللغة في "ذلك الجزء حول العينين، على الرغم من أن هذه لم تكن مشهورة عن باريت. ولكن المؤلف عرف بوضوح أن الحداد لا يتحدث خمسين لغة ولكنه يستطيع قراءتها فقط، لذا جعل العضو بهذا الشكل نظراً إلى موهبة باريت.

في مقال مكتوب عن علم الفراسة، أظهر خبير الجمجمة (يمكن أن يكون فاولر نفسه أو غيره) اندهاشه من شكل بنية جمجمة باريت، وكتب: "القوة التي تمنح المحافظة على أشكال الرسائل والكلمات هي الدعم الأساسي في نشاطه اللغوي". بناءً على علماء الفراسة، فإن بنية الجمجمة تحتفظ بذاكرة الرموز، مثل الأشكال والأوجه، والهجاء، والصور. ولتذكر الكلمات، فقد اعتمد باريت على قوة الاحتمالية، والتي كانت "هائلة" لديه.

(1) الاحتمالية (في علم الفراسة): قوة في منطقة من الجمجمة، تتحكم بالذاكرة الواقعية والتاريخية للشخص، وتعكس الرغبة في التعلم والمعرفة، تقع بين منطقة "الشخصية" و"المقارنة". (المترجم)



Twitter: @ketab_n

كتب فاولر: "قد منحته الاحتمالية المحافظةَ على الذاكرة التاريخية والحرفية، ربما بدرجة فائقة، إنه بكل وضوح يعرف كل شيء". لم أستطع تتبع مجسم جمجمة باريت، والتي كانت كما أتخيل تحمل القدر نفسه مثل شخصية باريت.

في أرشيف صحيفة استرالية، وجدت أيضاً إطراء على الأمريكي أرميا كورتين، وميزوفانتي، ومتعددي لغات آخرين. لقد راقني أسلوب الكتابة في تركيز الإطراء على اللاحقين أكثر من السابقين.

**SPEAKING SEVENTY TONGUES.**

Has there ever lived a linguist who was acquainted with more languages than the late Mr. Jeremiah Curtin, the translator of "Quo Vadis," who died the other day?

Probably not. Even he himself did not know, within a dozen or so, how many different and distinct tongues he really spoke. It is certain, however, that he had mastered in his time no fewer than seventy different speeches and dialects.

Perhaps his nearest rival was Giuseppe Mezzofanti, the great Italian cardinal and keeper of the Vatican library, who died at Rome in 1849. Mezzofanti spoke and wrote fifty-eight living languages with ease and fluency, and had at least a partial knowledge of most of the dead ones. Altogether he knew 114 speeches or dialects. On one occasion he received in audience a Magyar noble, a Hindu pundit, a Chinese mandarin, and a Berber chieftain from Kordofan, and conversed with them, each in his own speech.

Barthold Niebuhr, again, knew twenty languages by his 20th birthday, and mastered many more in later life, his knowledge extending to such rare dialects as Jazygian, Finnic, Biscayan, and Tartarian. But even this record was eclipsed by the marvellous Johann Baratier, who at the age of 5 knew Greek, Latin, and French, besides his native German. He compiled a Hebrew dictionary at 12, and published a French translation of the Itinerary of Benjamin of Tudela at 13. At 19, when he died, he spoke and wrote thirty-three languages.

Then there was Conon Gabelentz, and his even more talented son, Georg Gabelentz, who between them mastered over one hundred languages.

مقال الصحيفة المؤرخ في 23 مارس 1907



Twitter: @ketab_n

أجد هنا وهناك - أثناء بحثي في المكتبة - ادعاءات مبالغاً فيها تستغل الأطفال، أوضح مثال منهم هي ينيفرد ساكفيل ستونر الصغيرة (1902-1983). كتبت مجلة التايمز في عام 1928 عن شيري (وهذا لقبها) بأنها أتقنت ثلاثين لغة بعمر التاسعة، وفي العام نفسه اجتازت اختبار القبول في جامعة ستاند فورد[1]. كان منافسها الوحيد الذي أدهش الناس هو الطفل المعجزة وليام جيمس سيديس (1898-1944)، الذي التحق بجامعة هارفرد في عمر الثانية عشرة كنابغة في الرياضيات والفلسفة[2]، كما كان مثالاً واضحاً لطبيعة الآباء الطموحين بلا رحمة (سيديس توفي في عمر الرابعة والأربعين، وقضى النصف الثاني من عمره في الاشتغال بوظائف متدنية). واتفق وجود شيري في تلك الفترة[3].

طبقت الأم قوية الإرادة في تعليم ابنتها ينيفرد ساكفيل ستونر طريقة "التعليم الطبيعي" الأسلوب الذي طور عبقرية ابنتها، فقد كانت تضع صوراً ملونة حول سريرها، كُتبت عليها ترانيم بسيطة للأطفال" وتقرأ عليها الكتاب المقدس، والأساطير، والقصص اللاتينية الكلاسيكية.

(1) وبالطبع، يُطرح هنا سؤال مهم: من الذي قاس قدرات شيري؟ وأي معيار استخدم؟ في محاضرة ألقتها والدتها عن التعليم الطبيعي، قامت بإحضار أطفال صغار إلى المنصة، وطلبت منهم إعادة كلمتي "بقرة" و"عجل" بالصينية. وعبارتي "مع السلامة" و"صباح الخير" باليابانية، وأغنية "تونكي تونكل ليتل ستار" باللاتينية. وبعد أن أعاد الأطفال هذه الكلمات، أعلنت والدتها وقالت: "كما ترون، إنهم يتكلمون اليابانية". وكُتب في النيويورك تايم في 4 مايو 1915 إذا كانت الفتاة ستونر الابنة الموهوبة، تتحدث اثنتي عشرة لغة فقط على هذا الأساس، فإنها لم تضف الكثير إلى مخزون العالم من اللغات". (المؤلف)

(2) قيل إن سيديس كان نابغة في تعلم اللغة أيضاً، وعلى الرغم من أن هذه القصص متواترة عنه، فإنه من الصعب التأكد منها. (المؤلف)

(3) تعرض وليام جيمس سيديس بعد تخرجه من هارفارد لأزمات نفسية وعقلية، وألقى باللائمة على الأسلوب القاسي والخاطئ الذي اتخذه والداه في تعليمه منذ الصغر. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

كما أُعطيت الطفلة شيري آلة كاتبة لتأليف القصص والقصائد (كما فعل سيديس أيضاً في سن الرابعة).

ألفت شيري تسع عشرة مقطوعة شعرية، تقول في مطلع واحدة منها:

"عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين
أبحر كولومبس في البحر الأزرق
ووجد اليابسة والحرية المحببة إليّ والمحببة إليك".

في عام 1921 حاولت أم ستونر (كما كانت تُكنى) أن تنفي الإشاعات التي ترددت بأن ابنتها العبقرية ذات السادسة عشرة ربيعاً، التقت رجلاً يكبرها بالعمر يدعى تشارلز فيليب ديبراتش، وهو نبيل فرنسي كثير السفر، وتزوجت منه بعد ثلاثين يوماً فقط من لقائهما، وهو يعد من جميع النواحي أفضل زوج لنابغة مراهقة، باعتباره مغامراً جريئاً يبحث عن المخطوطات الضائعة، ويتحدث سبع عشرة لغة.

ولكن للأسف، مات في مكسيكو سيتي في العام 1922، وبعدها بفترة، اكتشف والدا ستونر، أنه لم يكن أرستقراطيًّا بل كان فناناً مفلساً مخادعاً يدعى تشارلز فيليب بروتش، ومن المحتمل أنه لم يتحدث السبع عشرة لغة أيضاً.

بعد سنتين، شرعت ستونر ووالدتها في رحلة حول العالم "للبحث عن العباقرة" برفقة الفتاة لورين جيليت "العبقرية" التي كانت في السادسة من العمر من نيويورك، التي تتحدث ست لغات (لم يشر إلى عدد العباقرة الذين التقينهم). تزوجت شيري وانفصلت مرة أخرى وارتبطت بزوج آخر في العام 1931. ولكن لظروف غير معروفة، تراجعت شيري وانفصلت عن زوجها، وبعد ضجة إعلامية في عام 1931 بسبب قضية مرفوعة ضد زوجها، عاشت شيري بهدوء في مدينة نيويورك لبقية حياتها، وأطلقت عليها الصحافة المقولات الساخرة بعد زواجها الثالث، كقولهم: "إن



Twitter: @ketab_n

شيري تستطيع أن تتحدث ثماني لغات ولكنها لا تستطيع أن تقول "لا" في أي منها".

من خلال اتصالاتي مع اللغويين، كنت أعرف عن الحياة المثيرة لكين هيل؛ اللغوي الكبير المبجل في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، والمدافع عن الأقليات اللغوية في أنحاء العالم، والذي توفي في عام 2001. ينسب إليه زملاؤه خمسين لغة. بدأ يتعلم هذه اللغات في مدرسة داخلية للبنين في أريزونا. في البداية التقط من زملائه في الفصل اللغة الإسبانية، ثم لغة الجمبز والهوبي (من لغات سكان أمريكا الأصليين في الجنوب الغربي). وبعد تخرجه من الكلية، تردد مع المرأة التي أصبحت زوجته في ما بعد (سالي) على مصحات المصابين بالسل في أريزونا لمساعدة المرضى من أعضاء هذه القبائل في تسجيل رسائلهم إلى أسرهم البعيدة، حيث إنهم لا يعرفون الكتابة.

لم يكن هيل اللغوي الوحيد الذي لديه القدرة على البحث السريع عن الطرق للتعبير عن الأشياء بالعديد من اللغات غير المترابطة. ولكن يبدو أنه فريد كما يتضح في القصص التي تروى عن مهاراته. جميع الأشخاص الذين تحدثت معهم في المؤتمرات اللغوية يبدو أنهم يعرفون قصة هيل، أو يعرفون شخصاً يعرفه. في إحدى المرات تحدث بالأيرلندية للموظفة في السفارة الإيرلندية حتى توسلت إليه كي يتوقف؛ لأن لغتها الإيرلندية لم تكن جيدة كلغته! وبعد مشاهدته للمسلسل التلفزيوني الياباني (شوغون) بترجمة مكتوبة أسفل الشاشة بالإنجليزية، كان قادراً على التحدث باليابانية. وعندما كان يذهب إلى أستراليا كان يقوم بأعمال الحقل في أستراليا بمساعدة أحد سكان أستراليا الأصليين والذي يدعى جورج روبرتسون جانبجنبا. كانا يبدآن العمل في القرية عند الساعة العاشرة صباحاً، ويتحدثان باللغة المحلية، وعندما تحين ساعة الغداء، يستطيع هيل (الذي لم يسمع من قبل بهذه اللغة) التحدث بها بطلاقة!



Twitter: @ketab_n

هذا النوع من التقدير يوافق ما قاله عنه زملاؤه في عمله البحثي. "والتي لم يضطلع بها بالتأكيد عامل الحقل الذي لم يكن بالطبيعة متعدد لغات، أو متحدثاً أصلياً للغة". كتب ذلك فيكتور جولا، اللغوي الآخر. لا يبدي اللغويون اهتماماً بأن هيل نفسه يبغض وصف الأسطورة. يُعرف عنه أنه يقول دائماً عندما يأتي: "وصلنا، ها نحن ذا مرة أخرى".

إحدى الطرق المفيدة التي ينبغي أن يفكر بها عن متعددي اللغات المفرطين هي النظر في اللغات التي لديهم، وتحديد أي منها يستطيعون "أن يتحاوروا" بها، وأيّ منها "يتكلمون بها". يقول هيل إنه يستطيع التحاور بثلاث لغات هي الإنجليزية، والإسبانية، والوارلبياري (لغة الأستراليين الأصليين). واللغات الأخرى يستطيع التكلم بها فقط؛ فهو يستطيع قول بعض الجُمل في بعض المواضيع ولكنه لا يعرف كيف يتواصل بها بكفاءة في جميع شؤون حياته، مثل تبادل حديث ودي مع شخص ما أثناء المشي في الممر، أو الاستشهاد بالأمثال الشعبية. في بعض اللغات، كان من الصعب أن تعرف كيف تقول كلمة بسيطة مثل "نعم". هذه كانت بعض معالمه في "التحاور" في اللغة. ولم يدَّعِ هيل أنه يعرفها. ولكن قراءة اللغات والتحدث بها لهما شأن آخر، فقد قرأ كتاب "علم نفسك الفنلندية" بينما كان يستقل الطائرة إلى هلسنكي، وعندما وصل إلى هناك كان يتحدث بها! (القصة نفسها قيلت عن هيل واللغة النرويجية).

أحد أبنائه - ويدعى عزرا - شرح أن والده استخدم لغاته في طرائق محددة، جعلت الأشياء العادية أكثر إثارة، وكسرت الرهبة في المواقف الجديدة، وساعدته في تجاوز عزلته وخجله. قال لي عزرا: "أتذكر في إحدى المرات أنني قررت تصوير مقطع فيديو عنه، وقلت إنه علينا الذهاب إلى قسم التصوير لتسجيل الفيديو. كانت ردة فعله: هل أنت مجنون؟ لا نستطيع أن نذهب إلى هناك، لن تستطيع القيام بهذا! ولكن



Twitter: @ketab_n

عندما ذهبنا إلى هناك، وقف ثلاثة أشخاص بالقرب منا سعداء لسماع خطة المشروع، كان أبي يقف هادئاً ومرتبكاً نوعا ما.

ومع ذلك، لو كانت تجهيزات الفيديو موجودة في السفارة الصينية، لبادر، وذهب إلى هناك، فقد كان يتحدث المندرينية ويفضل التحدث ببعض اللهجات الغامضة، ولخرج من الاستديو بتجهيزات الفيديو بدون التفكير بها. ولكن بسبب عدم وجود لغة مشتركة واضحة مع من يعمل معه، كان يخشى بشكل هستيري من دخول الاستديو هناك".

وبمثل حالة ميزوفانتي، فإن هيل كان واقعاً بدوامة ذاتية ليكون أسطورة، إلى حد أن حقيقة قدرات "بعض الشيء وبعض الشيء" في العشرات من اللغات أصبحت بشهرة "كل شيء أو لا شيء" من خلال كيمياء الرهبة (أو الحسد).

أصبحت موهبته أصلاً مهنيًّا، تقودها براعة أدائه العام في جامعة رفيعة المستوى، ثم أتاحت له شهرته كعالم، وحسن خلقه الكثير والكثير من اللغات، والمتحدثين، والفرص التعليمية، وصنعا العديد من الفرص لرؤية وسماع أدائه من أشخاص كثر، الذين منحوه مبالغتهم في قصصهم. وفي ظل هذه الشهرة، كان هيل خجولاً ومتواضعاً؛ الأمر الذي فسر لزملائه السابقين سبب رفضه للقب الأسطورة العبقري. فقد كانوا يعتقدون أنه لا يريد الاعتراف باللقب تواضعاً، بينما كان صادقاً في رفضه، ولم يكن يريد أن يُنظر إليه بغرابة، ولكن الناس أصروا على هذا الاعتقاد، لدرجة أنهم رفضوا نفيه أمامه علانية، كما حدث في مقابلة تمت في العام 1996.

سُئل هيل: "أتعرف أنك نوع من الأسطورة؛ عندما نحسب عدد اللغات، والسرعة التي تتعلم بها اللغات الجديدة. هل تستطيع تعطينا بعض النصائح لتساعدنا على تعلم اللغة الجديدة؟".

قال هيل: "أسطورة! إنها حقاً خرافة! دعني أنتهز هذه الفرصة لأزيل



Twitter: @ketab_n

هذه الخرافة! سأقول لك الحقيقة. لا تمحُ هذه الفقرة!".

قال المذيع: "أتعدني؟".

- الحقيقة أنني أعرف فقط ثلاث لغات إحداها الإنجليزية، لذا كل ما تعلمته هو لغتان: لغة الوارليبري والإسبانية، هاتان فقط هما اللغتان اللتان أشعر أنني أعرفهما.

- ماذا عن لغة النافوجو؟[1]

- أنا أعرف الكثير عن النافوجو، ولكنني لا أستطيع التحدث بها.

- هذا ليس صحيحاً!

- بل إنه صحيح. أنا لا أستطيع المناقشة بالنافوجو! أنا أستطيع أن أقول الكثير عن الأشياء، الأمر الذي يجعل الناس يعتقدون أنني أستطيع التحاور بها، ولكن عندما يتكلم الشخص مرة أخرى، لا أستطيع الرد عليه بطريقة كافية. قول الأشياء مختلف تماماً عن الحوار. أستطيع أن أقول العديد من الأشياء في لغات مختلفة، ولكن الحوار أمر مختلف. التحدث باللغة يختلف حقيقة عن معرفة شيء ما عن اللغة.

ثم شارك ببعض النصائح والمهارات، تلك التي شحذت خليطه اللغوي. قال: "في البداية عليك أن تتعامل مع الأصوات، استمع إلى المتحدث الأصلي، واعرف أسماء أعضاء الجسم، والحيوانات، والأشجار، وكل مفردات البيئة من حولك. خمسون كلمة ستعطيك أساساً، وأكثر منها إذا كانت اللغة متناغمة. ثم تعلم كيف تربط الأسماء والأفعال، ثم ابدأ ببناء الجمل. تعلم كيف تبني جملة اسمية، واستنبط المفردات بفعالية، ولا تعتمد على الكتب الدراسية". وأردفَ قائلاً: "تعلمت عشر مرات أكثر بممارسة هذه الطريقة، فأنا أركز على كل ما أستطيع سماعه، وما يجب أن أسمعه. ولا أكتفي بما أراه!".

(1) النافوجو: إحدى لغات سكان أمريكا الأصليين، في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

واقترح أيضاً أن يتعلم الشخص كيف يصوغ جملاً معقدة باكراً. تعلم هذه المهارة في المدرسة، ولكونها تسير على أنماط منتظمة، فإن تطبيقها يكون سهلاً. لذا، قال: "تعلَّم كيف تكوِّن الجمل الموصولة بشكل صحيح، لأنه بسبب هذه الجمل الموصولة، ستستطيع أن تقول الشيء الذي تضرب به كرة البيسبول إذا كانت لا تعرف اسم المضرب".

في الواقع، أنا لم أنتبه إلى هذه الطريقة من قبل. ولكن إذا شرعت في تعلم لغة أجنبية جديدة فسأجربها. وبالطبع، التحدث بجمل أكثر تعقيداً سيكون مثيراً للإعجاب.

كل ما أستطيع قوله هو أنه لا يوجد هناك من قيمّ قدراته في اللغة، أو قاس مهاراته المعرفية. كتب إليَّ صموئيل جاي كيسير، اللغوي من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا رسالة إلكترونية، قال فيها: "فكر في قدرات هيل في تعلم اللغات بالطريقة نفسها التي يمكن أن تفكر بها بقدرات موزارت الموسيقية، كانت قدرات كل منهما متشابهة، إنها موهبة مثيرة ذات عناصر عصبية غامضة".

وجدت أن متعددي اللغات المفرطين نماذج مثيرة للرغبة الحثيثة في الارتباط بالعالم ثقافيًّا من خلال معرفة اللغات الأجنبية. الفنان راينر جانهل، المولود في استراليا، والمقيم في نيويورك، ساعدني لفهم كيف نشأت هذه الرغبات وأخذت الشكل الذي هي عليه.

جانهل رجل طويل رياضي البنية بشعر أسود كثيف، بدأت معرفتي به بمشاهدة مقاطع الفيديوهات التي ظهر فيها؛ كانت الرسائل الإلكترونية التي أرسلها حافلة بالأخطاء إملائية، مما جعلني أتصور أنه كتبها على عجل، أو بينما كان يقود دراجة هوائية!

وقد تم إنتاج العديد من البرامج الإعلامية ومقاطع الفيديو عن تجربته في تعلم اللغات: اليابانية، واليونانية، والعربية، والكورية، والصينية، ولغات أخرى. لقد صور نفسه وهو يقرأ العربية والصينية، وأبرزَ


Twitter: @ketab_n

في أحد العروض مواد دراسة اليابانية، من ضمنها الطاولة، كان يسمي هذه الصناديق من أشرطة الفيديو، والتي تبلغ خمسمائة ساعة، (نماذج/ مجسمات).

في البداية، كنت مندهشاً من أني لم أجده يحاول أن يصل إلى الطلاقة في أيٍّ من هذه اللغات التي أقرَّ بها. وضع فن جانهل تجاربه في أن يصبح لغويًّا دخيلاً في واقع ملموس يمكن فحصه وانتقاده. هذا كان مهمًّا. وحتى العام 1992، كان مهتمًّا باكتساب اللغة، ويستطيع التحدث بخمس منها، ثم جعل تعلم اللغة نفسها فناً يقوم به، عندما يواجه حقيقة أنه لن يكون مثاليًّا جدًّا في أي لغة. هو يرى نفسه مجرد "هاوٍ شبه متخصص". قال في أحد المقاطع ساخراً: "أستطيع أن أقول جملة (إنني لست إرهابيًّا) بإحدى عشرة لغة"[1]. ووقف على أخطائه الهجائية أيضاً. وكتب لي ذات مرة: "إنها في الحقيقة شعر، أو إنها عبارة عن جمل استفزازية تتّسم بالبراءة".

كتب في مقال عام 1995 بعنوان "اللغويون المسافرون": "إنهم يمكن أن يقدموا - يوماً ما - شيئاً ما نافعاً للعديد من متعددي اللغات المفرطين، ولمتعلمي اللغات الطموحين جدًّا".

وقد كتب جانهل سرداً تاريخياً مطولاً عن محاولاته للبعد عن لغته الأم، وكتب: "هناك العديد من الأسباب لدى الشخص ليتوقف عن التحدث أو تعلم اللغات الأجنبية طوعاً أو كرهاً. أريد أن أتأمل بعض العوامل المؤثرة، التي هي في حقيقتها مترابطة: كالتعليم، والسياسة، والاستعمار، والحالة النفسية، والهجرة".

شرح جانهل كيف كان الناس في القرون الوسطى يتعلمون اللغات الأخرى من اللاتينية، واليونانية القديمة، والعربية، بهدف فهم واستيعاب

(1) المقطع على موقع "اليوتيوب" بعنوان: Rainer Ganahl-Homeland Security. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

النصوص الدينية والثقافية. هذا النموذج من القراءة والترجمة وجه جوزيبي ميزوفانتي خارج مهنته في الفترة الوطنية في أوروبا؛ حيث تم انتقاء بعض اللغات، ودُرست في المدارس الوطنية. في ما بعد - وخلال فترة الاكتشافات، والاستعمار، وبناء الإمبراطوريات - تعلم بعض الأوروبيين ودرسوا لغات المناطق البعيدة بهدف إخضاعها. وبالوقت نفسه تعلم الناس في تلك المناطق لغات حكامهم المستعمرين.

يقول جانهل: "أما اليوم فهي تتعلق بأهداف أخرى مثل السياحة، والهجرة. ويأتي التسوق على رأس هذه الأهداف، فتعلم اللغة يقوي العلاقة بين المستهلك والاستهلاك، عندما تكون قدرة الشخص القوية باللغة تتأكد من خلال مدى قدرته على إقناع السائح، وعامل المحل، وصاحب الفندق، والعامل اليومي. دعك من اللباقة الدبلوماسية، والتجسس، ومهارات الاشتقاقات والألغاز اللغوية لدى المستشرقين، فإن هذه النماذج من الأداء لم تعد تطبق. أما في المجالات السياحية والتجارية، فإن المتحدثين الأصليين لهذه اللغات المستخدمة تعودوا على لكنة اللغة التي ينطق بها غير المتحدثين الأصليين وقواعدها، وغيروا (إن لم يخفضوا) مستوى أداء لغة زوارهم. قال جانهل الساخر إنّ الإشباع الفوري للتسوق مُعادٍ للاستمرار المطلوب لتعلم اللغة. إن شراء قاموس شهير، أو تنزيل "بودكاست" للغة يمكن أن يكون جيداً، ولكن لا يُعَدُّ اكتساباً للغة.

كان تاريخ راينر في إطار أوروبي، ولكن الإحصائيات تقول إن اتجاهات الهجرة والسياحة سوف تستمر في العالم كما قال سابقاً؛ فقد تضاعفت أعداد المهاجرين في العام من 75 مليوناً في عام 1960 إلى 191 مليوناً عام 2005. كما أظهرت إحصائية البنك الدولي في عام 2005، أن أكبر ستة ممرات للهجرة من مجموع عشرة (باستثناء روسيا)



Twitter: @ketab_n

تقع بدول تختلف لغتها القومية عن بلد المهاجر[1]. وتتم حركات الهجرة الكبرى بين أوروبا ووسط آسيا، وجنوب آسيا، وجنوب الصحراء الكبرى الأفريقية، مما يعني أن الناس في الدول الغالب عليها تعدد اللغات، يتوجهون في الغالب إلى دول متعددة اللغات. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يخمن الشخص أنهم أضافوا لغات جديدة إلى مخزونهم اللغوي، عندما مروا أو استقروا في هذه البلاد. وهكذا الحال بالنسبة للسياحة، ففي العام 2008 كان هناك 924 مليون سائح في العالم، وتتوقع منظمة السياحة العالمية أن يبلغ عددهم 1.6 مليار في العام 2020. (في العام 1960 كان عدد السياح المسافرين 25 مليوناً فقط؛ إذاً، لقد ساعدت اللغة في زيادة العدد بنسبة 3.596 بالمائة!). وكما هو معلوم فإن أي زيادة في السياحة تزيد عالمية اللغة، وعدد البائعين والعاملين الذين يريدون التحدث بلغة المستهلك. كما أن ظهور اللغة الإنجليزية العالمية جزء من هذا الاتجاه أيضاً. فبالنسبة للمتحدث الأصلي باللغة الإنجليزية، إن ما يميزه هو شهرة اللغة الإنجليزية، والتي تؤكدها مركزية الاقتصاد والقوة العسكرية الأمريكية (وتعطي لمحة عن المجد البريطاني القديم). وينظر إليها في بقية أرجاء العالم على أنها محاولة لتقليل الصدام اللغوي، والقدرة على الانتقال إلى أي مكان، والتحدث مع أي أحد، والتسوق في كل مكان وزمان.

(1) رقم 1 المكسيك إلى الولايات المتحدة، رقم 3 تركيا إلى ألمانيا، رقم 4 الهند إلى الإمارات العربية المتحدة، رقم 5 الفلبين إلى الولايات المتحدة، رقم 7 ألمانيا إلى الولايات المتحدة، رقم 9 الهند إلى المملكة العربية السعودية. أما المتنقلون بين أفغانستان وإيران، والجزائر وفرنسا، ومصر والمملكة العربية السعودية، فإنهم لا يحتاجون إلى تعلم لغة جديدة. في عام 2010، كان الرقم 5 هو الصين إلى الولايات المتحدة، ورقم 6 الفلبين إلى الولايات المتحدة، ورقم 10 الهند إلى الإمارات العربية المتحدة. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

النظر في خلفية مقال جانهال ضروري لفهم المرونة الدماغية[1]. أسمي هذا التكييف اللغوي العنيد "إرادة المرونة". هذه العبارة انعكاس مقصود لمقولة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه الشهيرة "إرادة القوة"، القوة الأساسية التي تدفع بالبشر، والمجتمعات، وحتى العالم الطبيعي بعيداً عن حالات السكون الموجودة. أصبح مصطلح نيتشه على ما يبدو في القرن الحادي والعشرين بمسمى "إرادة المرونة"، حيث إنّ "المرونة" هنا متعلقة بالجهاز العصبي بكل تأكيد، ومعنى "إرادة المرونة" هو "الزيادة المستمرة" لدوائر الدماغ العصبية، ومن بينها دوائر اللغة العصبية.

كتب عالم الأعصاب في جامعة هارفارد (الفيرو باسكوال ليون): "المرونة من مكونات الدماغ البشري المعقدة، وتقدم وسيلة متطورة لمساعدة الجهاز العصبي للتكيف في البيئة الجديدة".

يمكنك أن ترى إرادة المرونة في عالم اللغة. المدرب توم فيرسز صاحب كتاب "اختراق اللغة" - وهو من أكثر الكتب مبيعاً - كتب على موقعه الإلكتروني إنه يتعهد بمساعدتك على تعلم اللغة في ثلاثة أشهر.

والكاتبة المقيمة في نيويورك إلين جوفن، لديها مدونة تصف مشروعاً عن دراسة ثلاثين لغة في ثلاث سنوات، وليس دراستها فحسب بل التأليف فيها أيضاً!

وفي تتابع سريع نسبيًّا نُشرت مذكرتان عن تعلم اللغة الأجنبية، وهما من امرأتين أمريكيتين تدعى الأولى كاثرين روسل ريتش نشرت كتاباً

(1) وصف عالم الأعصاب ماركوس جاكوبسون "المرونة" بأنها تعديل في الجهاز العصبي لتغيير "الوسط" الداخلي والخارجي. التغيير في الوسط الداخلي يأتي بعد الإصابة أو المرض، أما التغيير في الوسط الخارجي فيحصل من خلال المشاركة في الحواس. والوسطان أيضاً يتفاعلان مع بعضهما بعدة طرائق؛ الأمر الذي يحاول العلماء فهمه. استخدمت "المرونة" في المعنى الثاني، وكذلك في التفاعل. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

بعنوان "الأحلام بالهندية"، والأخرى ديبورا فالوز، مؤلفة كتاب "الأحلام بالصينية".

ربما يكون ذلك النادي الذي صادفته أقل شهرة، ولكنه الأكثر إثارة؛ إنه نادي اللغة الدولي المسمى "بنادي هيبو العائلي"، الذي أُسس عام 1981، على يد يو ساكاكيبارا المعلم الياباني النابغة الذي اهتم بأساليب تعلم اللغة واستحوذت عليه فكرة تآلف اللغات العالمية التي لخّصها في هذه العبارة: "أي شخص يستطيع أن يتعلم سبع لغات!".

في مدة إقامتي المؤقتة بين أعضاء النادي، لم ألتقِ أي شخص يتحدث سبع لغات. ولكن الجو الاجتماعي الأخوي والمرح يجعل الأعضاء يعتقدون أنهم يستطيعون تحقيق هذا الهدف.

الدروس في فروع نادي هيبو (في اليابان، وكوريا الجنوبية، والمكسيك، في الولايات المتحدة يسمى مشروع لاكس للغة)، وجدت حماسة تهدف لمضاعفة خبرات الطفل اللغوية. "بحثنا يثبت أن أي شخص، في أي عمر، يمكن أن يكتسب لغات جديدة. ولسوء الحظ، الطريقة التي يتخذها أغلب الناس في محاولة تعلم اللغة، هي في الفصول التقليدية التي لا توفر بيئة مؤاتية لاكتساب اللغة. الأطفال يتعلمون لغتهم الأم من خلال تقسيم اللغة إلى أجزاء صغيرة في القواعد والمفردات، أو من خلال البحث في القاموس. لذا، لماذا على الطفل أو البالغ أن يتعلم اللغات الأخرى بهذه الطريقة أيضاً؟[1].

يحضر أعضاء النادي دروساً أسبوعية، يغنون فيها الأغاني، ويلعبون الألعاب، ويقرأون القصص في مجموعة أساسية من اللغات. أما في

(1) سواء أكان الأطفال جيدين في تعلم اللغة أو لا، وبأية طريقة، فإن هذا الموضوع يطرح باستمرار بين متعلمي اللغات الأجنبية وعلماء اكتساب اللغة. أنا أفضل ما قاله لي رينر جانهل "ليس بالضرورة أن الأطفال يتعلمون أفضل، ولكن إحساسهم تجاه الوقت والنجاح مختلف عن الكبار"، وهذه التي يعتنقها أعضاء هيبو. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

المنزل، فيقومون بتشغيل أسطوانات مدمجة بصوت هادئ باستمرار؛ تحتوي على قصص تحكى بلغات مختلفة، تدور الواحدة تلو الأخرى، ومن ضمنها لغتك[1]. هذه الارتباطات الواسعة تعرف "بالموجات الكبيرة"، والتي ستحصل منها على طريقة اللفظ في الجمل. ويقولون في النهاية، إنك ستحصل على "موجات صغيرة" وهي أصوات مفردة، مع معانيها.

بعد أن أغراني الفضول لمشاهدة هذا البرنامج التعليمي، قررت زيارة نادي "هيبو" في تشيهواهوا في المكسيك، وأقمت مع عائلة والتقيت أعضاء من النادي. بعض البالغين قالوا لي إنهم عندما كانوا يستمعون إلى قصص بالفرنسية أو اليابانية، أدركوا فجأة "أنهم يعرفون ما الذي يعنيه الحوار الذي يستمعون إليه". وأن الانتقال بين اللغات سيكون مثيراً جدًّا بسبب أنهم لم يمارسوا أي نشاط دراسي، فقد تعلموا "تلقائيًّا". يصر الأعضاء على أن النادي لا "يعلمهم" اللغة، متى استخدمنا كلمة "تعليم" فإن الناس ينزعجون، ويقولون: "نحن لا "نتعلم" اللغة". ويفضلون استخدام "نشجع". وأسس النادي نفسه، بدون اختبارات، ودرجات، ومعلمين، الطريقة مختلفة كليًّا عن أسلوب الدراسة المنهجية. وبالمثل، فإن الأعضاء لا "يتعلمون" اللغة، بل "يكتسبون" اللغة. ويقولون: "أصبحنا مثل الأطفال، نتشبع باللغة بالطريقة نفسها التي يقوم بها الأطفال".

يريد الشخص أن يعرف، هل هذه الطريقة فعالة؟ قالت إليزابيث

(1) اللغات السبع الرسمية لدى "هيبو" هي: المندرينية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، واليابانية، والكورية، والإسبانية، ثم أضيفت لاحقاً العربية، ولهجة كانتون الصينية، والهندية، والأندونيسية، والإيطالية، والملايية، والبرتغالية، والروسية، والسواحيلية، والسويدية، والتايوانية، ولغة التاي، والتركية، والفيتنامية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

فيكتور، المديرة التنفيذية للمشروع: "أستطيع التحدث "بحوالى" خمس لغات". وشرحت: "أستطيع أداء العمل باليابانية وإيجاد الحقائب الضائعة بالإسبانية والفرنسية، وتكوين الأصدقاء بالصينية، وأكثر من ذلك. أستطيع أن أقول (أنا جائعة) أو (أنا متعبة)، ويمكن أن أفهم بعض العبارات التي يقولها الآخرون لي". بالنسبة لها، إنّ "التحدث" باللغة يعني أنها تستطيع النقاش والتواصل، وليس كونها طليقة في اللغة أو غير طليقة. لسوء الحظ، بسبب أن أعضاء النادي معارضون بشدة لأداء الاختبارات، فإن المنظمة ليس لديها دليل على جودة العمل.

أحد أهدافي في تشيهواهوا هو التأكد من النتائج. أمضيت بعض الوقت وأنا أتحدث إلى مراهقة يابانية جميلة تدعى توموكو سوزوكي، التي تعتبر نموذجاً لقدرات أعضاء النادي. ولأن والدها كنشي سوزوكي رئيس منظمة "هيبو"، وخليفة المؤسس يو ساكاكيبارا، فقد نشأت توموكو في نادي "هيبو"، ودائماً تراها تستمع إلى قرص يعمل بصوت خافت طوال الوقت، وهي بين مجموعة كبيرة من الزوار الأجانب في منزلها، ويحرص أبواها باستمرار على حضور اجتماعات "هيبو".

سألتها: "كم عدد اللغات التي تعرفينها؟".

أجابت: "نشأتُ مع تسع عشرة لغة، ولغتي الأصلية هي اليابانية، ولكن الأساس تسع عشرة لغة". قدراتها في اللغات الأخرى (منها الروسية، والماليزية، والفرنسية، والمندرينية) محصورة في ترديد نشيد هيبو. ومع ذلك فإن بعض السنوات من الإقامة في الولايات المتحدة جعلت لغتها الإنجليزية فصيحة. التقيتها في المكسيك حيث كانت ضمن برنامج التبادل الطلابي لمدة ثلاثة أشهر. أشاد أعضاء "هيبو" المكسيكيون بلغتها الإسبانية، ولهجتها قريبة من لهجة سكان تشيهواهوا. ومع ذلك، فإن أسلوب "هيبو" لا يستطيع منع وقوع أخطاء المتعلمين التي تحدث غالباً مع اللغة الثالثة؛ فمع مرور الوقت بدأت لغاتها تتداخل الواحدة



Twitter: @ketab_n

بالأخرى. قالت إنها في المرة الأولى التي تحدثت فيها مع والديها عبر الهاتف، لم تستطع تذكر اليابانية، وعندما قابلتها في المقهى كانت لغتها الإسبانية قد تضاءلت.

سألتها: "هل تقولين إنك تتحدثين الروسية؟".

قالت: "لا، وإنما أعرف كيف أقدم نفسي للآخرين فقط. ولكن ما زلت أتحدث لغة أخرى وضعتها لنفسي، وهي خاصة جدًّا".

في وقت لاحق من ذلك المساء، كنت قادراً على رؤية مشهد "هيبو" عن قرب في تشيهواهوا، كان الاجتماع في غرفة إسمنتية مستطيلة، مع جهاز "آيبود" مدخل في نظام النداء الصوتي العام في مقدمتها، ست عائلات تقريباً يتبادلون التحية، والأطفال يلعبون مع بعضهم، وقدم الكبار أنفسهم لي بالإنجليزية، وعندما عرفوا أني أعرف بعض الإسبانية، صاروا يتحدثون بها بين الحين والآخر. ثم بدأ الاجتماع مع رئيس النادي ميغيل دوران الذي قام بتشغيل أغانٍ بالألمانية، والصينية، والإنجليزية، واليابانية، صفقت لها الأيدي وتمايلت القدود وتحركت الأرجل. كنت غير معتادٍ على رؤية مثل هذا السلوك، لذا قمت بتقليد الكبار الآخرين حولي، ثم جلسنا بشكل دائري، ومررنا الميكرفون إلى الأشخاص الذين يحفظون بعض الكلمات أو القصص بلغات متنوعة. أمسك الأطفال الميكرفون بشجاعة في البداية، ثم جلسوا في أحضان ذويهم، وهم يسردون الحديث بلا خجل. عندما وصل الميكرفون إليَّ، فكرت أن أتباهى وأقدم نفسي قليلاً بالإسبانية، والمندرينية. في النهاية صفق الجميع.

كنا نقوم ببعض الغناء الكاريوكي[1]، ونلعب لعبة الكلمات المتقاطعة شفهيًّا، وقوفاً بشكل دائري، كل جملة من اللغة يقولها الشخص، فإنه يُشجَع من الآخرين. كانت الردود الإيجابية من المجموعة تشجع

(1) نوع من الغناء يغني فيه المغنون الهواة، أغنية بمصاحبة موسيقى مسجلة مع استعمال ميكروفون، وتعرض كلمات الأغنية على شاشة أمام المغني. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الأشخاص للقيام بالمزيد. لم يكن نطق من استطعت سماعهم صحيحاً، ولكني لست متأكداً إن كانت لذلك أهمية لديهم. كان هناك دخلاء على اللغة يخلقون مرحاً اجتماعيًّا في ما بينهم.

بعد الاجتماع، دُعي الجميع لتناول طبق التامالي على العشاء الذي أقيم على شرفي، وهنا جاءتني الفرصة للتحدث مع الآباء. كان أحدهم مهندس أنظمة، والآخر صيدلانيًّا، والثالث مهندساً صناعيًّا. كان هذا النشاط مرتبطاً بالعوامل الاقتصادية أكثر من كونه مرتبطاً بعلم النفس. فقد كانوا من طبقة المكسيكيين المتوسطة، ومتدينين، ولكن لا يملكون الروابط الاجتماعية التي تعطيهم منافذ لتطلعاتهم التي لا علاقة لها باللغة؛ فالأغنياء يرسلون أبناءهم للخارج حيث المدارس أو المخيمات التعليمية، والفقراء يكونون مشغولين بمشاكلهم بما يحول دون الالتحاق بالفصول.

جاءوا لأنهم يريدون أن يتعلم أبناؤهم أكثر من لغة، بالإضافة إلى الإنجليزية، ليصبحوا أكثر من ثنائيي اللغة. يريد آباؤهم أن يكونوا أكفاء من الناحية الاقتصادية، ويدركوا أن كل شخص آخر في العالم يتحدث الإنجليزية أيضاً. قال لي ميغيل دوران إن الكثيرين التحقوا بالنادي بسبب رغبتهم في تعزيز لغتهم الإنجليزية، ولكن poco a poco (شيئاً فشيئاً) أصبحوا أقل اهتماماً بالإنجليزية، وأكثر اهتماماً باللغات الأخرى. كما قال لي أحد الآباء: "لا أريد أن أتعلم سبع لغات، أريد فقط أن أنمي لغتي"، ولكن الفكرة أن الشخص لا يعرف أين هم ذاهبون، أو أي اللغات سيواجهون؟

قال لي (شاد نيلب) الأنثروبولوجي الذي تعلم في "هيبو": "لا يعتقد الأشخاص عن أنفسهم أنهم متعددو لغات كما يفكر متعددو اللغات. ولكن ما يقوم به النادي هو وضع الأشخاص في بيئة يكونون فيها شبه مستغرقين في اللغات، ويصنفهم كمتعددي لغات، ومن ثم كمواطنين عالميين.



Twitter: @ketab_n

الدوافع لأن نكون عالميين - ليس فقط بصفة النسخة الإنجليزية بل بنسخة متعددي اللغات - لديها موقع على خط الزمن في التطور السياسي لتعدد اللغات. في العودة إلى ما قبل التاريخ؛ إلى وقت اللغة البدائية، عندما كانت كل جماعة متنقلة من البشر تتحدث بلهجتها الخاصة، ونسخ لا تحصى من رموز الكلام نصف الجامدة، يمكن أن تُسمع في كل كهف وبئر. كل واحدة من هذه الرموز لديها مدى، ولكن بلا مركز أو أطراف؛ إلى أن تتصادم الجماعات، أو تتحد، أو تتشارك وتقيم في القرى التي تتطلب الإقامة في أماكن ثابتة كأوطان.

خلال آلاف السنين، أصبحت تلك المدن المبنية إمبراطوريات، وانقرضت بعض اللغات، وتحدث الناس على الحدود وفي المدن لغات البعض الآخر؛ وانتقلت هذه اللغات عبر المدن، والتجار، والمكتشفين، ورجال السلطة، والتبشير الديني، والمصاهرة، والنخبة. وكل شخص يقيم في مناطق منعزلة جغرافيًّا، يحتاج إلى معرفة الجيران المنعزلين أيضاً بهدف التجارة والتجوال.

كل هذا كان مهدداً بالانقراض، بعد آلاف السنوات لاحقاً، في عصر الدولة، ولفترة امتدت 250 سنة، أصبحت أحادية اللغة نموذجاً مثاليًّا في أغلب الأماكن، بسبب أن حدود الدول رسمت لتضم جميع الأشخاص الذين يتحدثون لغة واحدة. هذا الاتحاد كان مهدداً من قِبل تعددية اللغات وتلوثه بالبربرية، والاختلاط بالأعراق والسلالات.

بعد نهاية الحرب الباردة، عندما انهارت زعامة الدولة القومية، بدأ تدفق المال، والمعلومات، والعمال بدون عائق من الحدود القومية. أصبحت بوتقة الثقافات -وهي البوتقة الاجتماعية التي صنعت أحاديي اللغة، وصنفت متعددي اللغات - لا تمثل الصورة لفكرة التقدم والتآلف. وبرز عدم التجانس اللغوي من جديد، ومع تعدد الهويات العرقية، جاء الوعي بخطورة التحدث بلغة واحدة. بدا الأمر كما لو أن مستقبل البشرية



Twitter: @ketab_n

اللغوي لغة واحدة يمكن أن تُسقط الارتباطات بالأماكن، كما حدث في العصور البدائية.

وحتى بعد الانتقال من أوطانهم، فإن العائلات تبقى متصلة باستخدام الهاتف وشبكة الإنترنت، وتبقى على اتصال مع موروثات وطنها الثقافية من خلال المحطات الفضائية. وهذه بدورها زادت من رغبتهم في الهجرة وأضعفت قوة الذوبان في المجتمع الجديد. وبالنسبة لأولئك الذين يعيشون بعيداً عن الحدود، فقد استوردت هذه الأدوات نفسها التنوعَ الثقافي واللغوي، ورأس المال الثقافي الذي وعد به هذا التنوع.

ونمت بابل على الطريق وعبر الأثير، وبدأت الحكومات تعترف بأن تعدد اللغات ميزة أساسية في مستقبل الجغرافيا السياسية. ففي عام 2002، أطلق الاتحاد الأوروبي سياسة تعليمية هي "اللغة الأم زائد اثنتين"[1]. وفي السنوات الخمس أو العشر الأخيرة، شرعت دول مختلفة مثل كولومبيا، ومنغوليا، وشيلي، وكوريا الجنوبية، وتايوان في وضع خطط طموحة لتصبح دولاً ثنائية اللغة؛ لم تكن الإنجليزية دائماً هي اللغة الثانية.

تجسد متعددو اللغات المفرطون في كلتا الفكرتين: اللغة الوحشية البدائية القديمة، وتعددية اللغات في المدينة التكنولوجية المعاصرة. هذا يفسر سبب دوران هذه القصص حول هذا الشخص الذي يستطيع

(1) التقدم على كل حال كان بطيئاً. ففي عام 2005، فقط نصف المصوتين من مواطني الاتحاد الأوروبي، قالوا إنه يمكنهم إجراء محادثة بلغة واحدة على الأقل غير لغتهم الأم، مما يجعل العدد الكبير غير المتوقع 250 مليون أوروبي أحاديي اللغة. أعلى مستوى لثنائية اللغة يقع في لكسمبورغ، ولاتيفيا، ومالطا، ولاتوانيا، والأقل في هنغاريا، والمملكة المتحدة، والبرتغال، وإيطاليا، وإسبانيا. انظر إلى النتائج على الموقع:

http://ec.europaeu/public_opinion/archives/ebs/ebc_237.en.pdf

(المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أن يتحدث بعدد مذهـل من اللغات، مثل الأشـخاص الغرباء. إذا لمسـت أحدهم، فستلمس قوته. لهـذا السـبب اختبـر ميزوفانتي في مسـابقة البابا غريغوري السـادس عشـر، وتجادل راسـل وواتس عن عدد اللغـات التي يعرفها. ولهذا السـبب مجَّـد حاكم ماساتشوسـتس إليهو باريـت، وأصبح كين هيل أسـطورة بالرغم مـن معارضته. عندمـا تقول إنك تتحدث عشـر لغات، فسـوف تسـمع سـريعاً إشـاعات بدأت تحوم بأنك من المتحدثين بعشـرين أو ثلاثيـن لغـة، وهـذا السـبب يجعـل النـاس لا يثقـون بالذيـن يتحدثون العديد من اللغات، وينظرون إليهم كجواسيس، ويتساءلون: لمن يدين هؤلاء بالولاء؟

لهذا السبب يفكر الشخص بأن يكون متعدد لغات!

وتقدمت قليلاً في كتابة قصتي، ففي المرحلة التي كنت فيها مع ديك هدسون نتبادل أسـماء متعلمي اللغة الاسـتثنائيين المتوفين، كنت ما زلت أبحث عن نمـوذج لا يزال على قيـد الحياة. عرفت عن اللغوي السـويدي المتحمس إريك جنامارك، وأرسـلت إليـه مقالي الذي كتبتـه عن متعلمي اللغـة الاسـتثنائيين. وبعد عدة أسـابيع تالية، جـاء الجواب، مكتوبـاً بعناية على الآلة الكاتبة (لم يكن يسـتخدم البريد الإلكتروني وجهاز الحاسب). كان وقتها يعمل على كتابه "متعددو اللغات اليوم"، ثم طلب من مساعديه الاسـتمرار في العمل بدلاً منه، لضعف أصابه. لم يكن جنامارك، المسافر دائماً، لغويًّا كسـولاً، مشـيراً إلى أنـه يتحدث سـت لغات بطلاقة، وسـبعاً أخرى بشـكل جيد، وخمس عشـرة فـي المسـتوى الأدنـى (أو الحوارات اليومية). قال أيضـاً إنه يسـتطيع القيام بالترجمـة في أربعين لغة؛ عشـرون منها يستعين بها بالقواميس.



Twitter: @ketab_n

إريك جنامارك

كانت نظريته عن قدرات متعددي اللغات المفرطين عبارة عن افتراض بسيط: يجب أن تكون لديهم ذاكرة فوتوغرافية. وكتب يشرح: "وهذا التفسير يبدو أنه الوحيد في تفسير سبب "معرفة" متعددي اللغات الاستثنائيين أكثر من خمسين لغة على الرغم من أنهم لا يستطيعون التحدث بأكثر من نصفها، أو أقل.

كان هذا قبل أن أعرف بما فيه الكفاية عن متعددي اللغات المفرطين وقبل أن أكوّن صورة عامة عنهم. لذا بدت لي عبارته جريئة في هذا الوقت. وكان الأكثر عقلانية الافتراض أنهم يظهرون فجأة بشكل عشوائي بين الناس؛ بالتكرار نفسه الذي يظهر معه غرباء الأطوار. اعتقدت أنه يعرف أكثر مني، وربما يكون على حق.

شيء ما أيضاً أوقفني فوراً.

فقد كتب: "على العموم، يجب على الشخص أن يركز على متعددي اللغات المعاصرين، ولاسيما أولئك المولودون بعد عام 1900". هذا



Twitter: @ketab_n

يعني أن لا يشـار إلى ميزوفانتـي؛ لا يوجد لديه شـيء ليفعله مـع متعددي اللغات كعلم، ويمكن أن يعتبر شخصاً خرافياً.

شـخصاً خرافياً؟ هذا لا يدل على شـيء! لقد رأيت كتابة ميزوفانتي، وأوراقه. هل يعرف جنامارك شيئاً ما عن ميزوفانتي لم أعرفه؟

لم أحصل علـى الجـواب. في الوقـت الذي كتبـت إليه مـرة أخرى لسؤاله، كان الرجل السويدي قد توفي إثر مرض عضال عانى منه طويلاً.



Twitter: @ketab_n

# الفصل السابع

كان أحد جامعي اللغات الذي يعرفه ديك هدسون، شخصاً يدعى كريستوفر، ولكنه لم يكن شخصاً يمكن أن تستدعيه لإجراء مقابلة شخصية. كانت إجابته تميل إلى أن تكون أحادية المقطع، ولا يُعرف عنه أنه محاور، سواء أكان ذلك بالإنجليزية (لغته الأم)، أو بلغاته العشرين الأخرى[1].

كريستوفر المختل عقليًّا لا يستطيع القيام بمهام بسيطة، ولا يبقى في وظيفة، معدل ذكائه منخفض جدًّا (لم يحصل على أعلى من 76 درجة) وعمره العقلي تسع سنوات، والمثير في الأمر - على الرغم من ذلك- هو موهبته في اللغات!

إنه يمضي في ممارسة اللغات وقتاً أقل مما نعتقد. في كتابهما الأول عن قدرات كريستوفر اللغوية بعنوان (عقل العباقرة: تعلم اللغات والنمطية) كتب عنه اللغوي نايل سميث، الأستاذ بجامعة لندن، بالتعاون مع إيانثي ماريا تسيمبلي من جامعة أرسطو في سالونيك: "كان يمضي أغلب وقته وهو يحفر في أرض الحديقة، ويقضي ساعات طويلة في محل تمشيط الصوف، ويقرأ الصحف، ويستمع إلى الموسيقى مستغرقاً في

(1) يستطيع كريستوفر الترجمة والتواصل بالهولندية، والدنماركية، والفنلندية، والفرنسية، والألمانية، واليونانية المعاصرة، والهندية، والإيطالية، والنرويجية، والبولندية، والبرتغالية، والروسية، والإسبانية، والسويدية، والتركية، والويليزية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

مهام أخرى مختلفة".

تعددت الأقوال عن سبب إصابة كريستوفر بتلف الدماغ، فقيل إن ذلك حصل بسبب نوبة الحصباء الألمانية التي أصابت والدته في مرحلة مبكرة من حملها، أو بسبب سقوطها العنيف أثناء الحمل، أو لأنها عانت مخاضاً طويلاً؛ مما اقتضى الاستعانة بأنبوب الأوكسجين لتتمكن من التنفس. وفي فبراير 1962 بعد ستة أسابيع من ولادة كريستوفر، شُخِّص طبّياً وجود خلل في دماغه. وفي عمر السادسة أو السابعة، بدأ اهتمام كريستوفر باللغات من خلال مشاهدة أولمبياد المكسيك في العام 1968.

يذكر سميث وتسيمبلي أنه "كان دائماً يتظاهر أنه من دولة أجنبية، ويلبس المنشفة كالعمامة، أو كرداء مصارع الثيران"، "لديه موهبة مبكرة، ولكنه أيضاً مصاب بخلل طفيف في الكلام، وضعف في النظر، ودرجة من الوهن بدت تأكيداً لتشخيص حالته كمعاق ذهنيًّا".

على الرغم من أنه لم يشخص بالتوحد رسميًّا، فإن لديه العديد من سمات المتوحدين. كان - كما شاهدته في الفيلم الوثائقي والصور - قصيراً وذا نظرات جميلة، يمشي بتثاقل، وله جبين أسود عريض وشارب مفتول. وصفه كلٌّ من سميث وتسيمبلي "بأنه غير متحدث اجتماعيًّا" و"عاطفي غامض"، لم يكن مهتمًّا بالآداب الاجتماعية، وكان غير قادر على إدراك ما يفكر به الآخرون.

السمة الأخرى للتوحد هي الاستغراق في موضوع واحد، ففي حالة كريستوفر، كان الموضوع هو اللغة. قال سميث إن كريستوفر فصيح في اللغتين الفرنسية والإسبانية، "ومتمكن تماماً" من اليونانية. تعتبر الألمانية سهلة بالنسبة له، كما هي الهولندية. قبل أن يظهر على التلفزيون الهولندي، اقترح أحد الأشخاص أن يطور لغته الهولندية "الطبيعية". لذا، بعد عدة أيام من التدرب على قواعد اللغة والاطلاع على القواميس، كان قادراً على مناقشة الأشخاص قبل وبعد العرض، ويؤدي مثل اللغويين



Twitter: @ketab_n

الموهوبين قبله. في لغاته الأخرى كانت لديه كمية هائلة من المفردات التي تعلمها والتي ظهرت دليلاً على ذاكرته غير المحدودة. في إحدى المرات أعطى سميث وتسيمبلي كريستوفر درساً لمدة ساعة في اللغة البربرية، وتركا له بعض الكتب الأساسية. وبعد شهر كان يتذكر كل شيء عن اللغة البربرية.

المدهش أيضاً أن كريستوفر يمكنه أن ينتقل بين جميع لغاته الخمس برشاقة، ويترجم من وإلى الإنجليزية بكل سهولة. (الانتقال بين اللغات الأخرى أصعب بالنسبة إليه). الأمر المهم هنا أنه ليس مجرد أعجوبة في الذاكرة. ومع ذلك، فعندما تقرأ بعمق أكبر ما يستطيع أو لا يستطيع فعله، فإنك لا تصل إلى فهم الكثير مما تعنيه موهبة تعلم اللغة؟!

إن الأمر يعتمد على تعريف الموهبة في اللغة. إذا كنتَ تعني أن الشخص يتعلم لغات جديدة بسرعة، ويدرك أيضاً تصريف الكلمات وأصواتها ويوافق بين عناصر الأسماء والأفعال، ففي هذه الحالة يعتبر كريستوفر موهوباً. ومن الناحية أخرى، إذا كان تحديدك "للموهبة" هو الأداء اللغوي الأقرب إلى المتحدث الأصلي، ففي هذه الحالة فهو غير كفؤ! في الكثير من لغاته، أكثر كلامه عبارة عن ترديد، وترجمته غير دقيقة، خصوصاً في اللغات الأكثر بعداً عن عائلة اللغات الرومانسية والجرمانية. وأقرَّ كلٌّ من سميث وتسيمبلي بقولهما: "مع أنه طليق في بعض اللغات، إلاّ أنّ كريستوفر لم يصل في أيٍّ منها إلى مستوى لغة المتحدث الأصلي".

لاحظ الآخرون أن لغته الإنجليزية - على الرغم من أنها لغته الأم - لا تشبه اللغة الأصلية؛ إذا كنت تعتبر أن فهم الاستعارات والتعبيرات المجازية يُعَد جزءاً من مهارات المتحدث الأصلي، فإن عبارة مثل "يقف على أكتاف العمالقة" تحيره وتصيبه بالاضطراب. أشار بعض العلماء إلى أن معرفتك للاستعارة تعتمد على معرفتك للمعنى الذي يريد الشخص قوله أكثر من الترجمة الحرفية لمثل عبارة "أكتاف العمالقة".



Twitter: @ketab_n

كما أن كريستوفر لا يتعلم القواعد الجديدة كاملة. بعد أربع سنوات من تعلم الدروس اليونانية على سبيل المثال، زادت مفرداته، وأصبح أكثر طلاقة، وقلل من أخطائه، ومع ذلك لم يكن قادراً على التمييز بين الجمل المضبوطة وغير المضبوطة نحويًّا.

يعاني متعلمو اللغة الثانية العاديون صعوبة في بناء المفردات أكثر من بناء الجمل، وكان كريستوفر عكس ذلك؛ كان مستغرقاً - ومتميزاً بالفطرة - في بناء الكلمات، خصوصاً في التهجئة. ويستطيع أيضاً استخدام أربعة أنظمة في الكتابة. عند إعطائه صحيفة في لغة من لغاته، كان يقوم باختيار الكلمات ويحدد أجزاء الكلام والخصائص الأخرى.

القيود الكبرى - والتي قد تُقدم مقياساً حقيقيًّا لما يستطيع كريستوفر القيام به وما لا يستطيع القيام به - في أغلب لغاته الأجنبية، تتأثر بقواعد لغته الإنجليزية التي يتحدث بها أو يترجمها؛ فمثلاً، عندما تُطلب منه ترجمة جملة "من الذي يستطيع التحدث بالألمانية؟"، فإنه يجيب بترتيب الكلمات بالإنجليزية نفسه، كما لو كانت الإنجليزية ترديداً للغات الأخرى.

كما كتب سميث وتسيمبلي: "لن تخطئ عندما تقول إن القواعد عند كريستوفر في الأساس إنجليزية مع نطاق من البدائل المخفية". كلمة الاستنساخ أو عبارة الاستعارة الدلالية، ترجمة حرفية من لغة إلى أخرى. أحد أفضل الأمثلة على ذلك في اللغة الإنجليزية عن الاستعارة الدلالية عبارة long time no see (لم تُرَ منذ وقت طويل) تترجم في اللغتين الهولندية والألمانية (مع ترتيب القواعد والكلمات بنمط أقرب إلى الإنجليزية)، يمكن للمتعلمين استخدام وفهم الاستعارة الدلالية بشكل مقبول، وكذلك عند ترتيب الكلمات على أسلوب قواعد اللغة الإنجليزية، فإنّ عائق الاستعارة الدلالية الأكبر يبدأ بالوضوح (ولا تبدو تافهة). قال لي أحدهم معبّراً عن أصداء المشاعر الشعبية عن متعددي اللغات في



Twitter: @ketab_n

النرويج: "إذا ادعى النرويجي أنه يتحدث سبع لغات؛ فإن ستًّا منها هي النرويجية".

قام مؤخراً كلٌّ من سميث وتسيمبلي وزملاء آخرون، بإعطاء كريستوفر تدريباً لغويًّا آخر بتعليمه لغة الإشارة البريطانية، وهي تجربة وثقوها في كتابهم الثاني عنه (الإشارة للعباقرة المتوحدين: اللغة في مواجهة الغرابة) تعد لغة الإشارة تحديًّا معقداً، فعندما يصدر المتحدث سلسلة ثابتة من الأصوات، فإن هذا يجعل نوع الاستعارة الدلالية التي يقوم بها كريستوفر في لغاته أكثر وضوحاً. وأيضاً، فإن لغة الإشارة تتطلب براعة يدوية ونظرات حادة، وهذه تعتبر تحدياً لمن لديه إعاقة في هذين الجانبين.

قورنت قدرات كريستوفر مع مجموعة من طلاب اللغات الأجنبية في الجامعة الذين أدوا اختباراً تحريريًّا في قواعد اللغات الأجنبية وجاءت نتائجهم جيدة. كان فهمه للغة الإشارة جيداً، ومع ذلك، كان من الصعب أن تعزى مواهبه - مهما كانت - إلى لغة الإشارة. كانت لديه صعوبة في تعلم استخدام وظائف القواعد لأنها تحتاج إلى دقة في التحكم بإشارات وحركات اليد. طور الاتصال بالعيون مع معلمه، إلا أنه - نظراً لأنه لا ينظر دائماً إلى الوجه - فشل في توظيف حركات الوجه في لغة الإشارة التي تستخدم للنفي أو طرح سؤال مثل: "ماذا؟" أو "أين؟". كان المتعلمون العاديون جيدين مثل كريستوفر.

من البداية، لم يكن سميث وتسيمبلي مهتمين بتعددية اللغات المفرطة بحد ذاتها، لذا لم يتمكنا من تحديد أين تكمن موهبة كريستوفر بدقة (على الأقل في اللغات التي يتحدث ويكتب بها). "**نظرية الوحدات الإدراكية**"[1] هي الفكرة التي تقول إن للغات وظيفة مستقلة في الدماغ.

(1) نظرية الوحدات الإدراكية: مصطلح شامل لعدد من النظريات التي ترى أن العقل يتكون من وحدات إدراكية مستقلة نسبيًّا عن بعضها، ومبرمجة لتحليل أنماط معينة



Twitter: @ketab_n

يعتقد أنها غير مترابطة لدى الشخص مع القدرات المعرفية غير المتماثلة (كما في حالة كريستوفر) ويمكن أن تكون لديه لغة سليمة إجمالاً. نظرية الوحدات الإدراكية مثيرة بحد ذاتها، فهي تناقش طبيعة التفكير، وسواء أكانت اللغة ميزة للبشر أم لا، فمثل هذه الادعاءات عن نظرية الوحدات الإدراكية كانت خطوطاً حمراء لدى المنتقدين الذين فنَّدوا استنتاجات سميث وتسيمبلي عن كريستوفر في الكتاب الأول. كشف الحقيقة عن تحليل وحدات كريستوفر سيحلل الآراء حول نظرية الوحدات الإدراكية أيضاً.

في الحقيقة، لم يكن البعض مقتنعاً بأن لدى كريستوفر قدرة لغوية سليمة؛ لأنه لم يكن طليقاً في اللغة الإنجليزية (جادل سميث بأن بنية اللغة الإنجليزية في رأس كريستوفر كانت سليمة، مما يعني أنه لا يزال يمثل نموذجاً جيداً لنظرية الوحدات الإدراكية. وتواصله اللغوي الفاشل لم يكن يتحكم بما أسماه سميث "القدرة اللغوية").

يرى النقاد أن كريستوفر مؤهل ليوصف كمتوحد عبقري، أو ذي قدرة فريدة باللغة. أظهر استطلاع أجري على المتوحدين العباقرة عام 1970، أن 19 طفلاً من 119، كانت الأفكار تأتيهم بنماذج لغوية، أبرز هذا الاستطلاع حالة لطفل يبدو شبيهاً لكريستوفر، ووُصف من قِبل والديه كشخص لديه معرفة عملية باللغات: الفرنسية، والإسبانية، واليابانية، والروسية، ومعرفة أقلّ بالأبجدية العربية، والعبرية، ولغات أخرى مع نطقها. (إنّ العديد من الأشخاص المصابين بطيف التوحد يهتمون بالأشياء الميكانيكية، أكثر من اللغات).

كما علق آخرون بالقول إن كريستوفر لم يكن ذا قدرة لغوية، وإنما كان قادراً على تمييز الأنماط. وإنه من قبيل المصادفة أن تتناغم الطلاقة

---

من المعلومات بطرق معينة، وأن تطوُّر الذكاء يتم نتيجة اكتساب تدريجي لتداخل تلك الوحدات الإدراكية في ما بينها. (المعجم النفسي الطبي - المترجم)



Twitter: @ketab_n

مع اللغة، وكان أيضاً معززاً بذاكرة روتينية[1]، وهي ميزة المتوحدين العباقرة (ما قيل صحيح، حيث إنهم يتذكرون الذي يرونه ويسمعونه بدون تفكير شعوري). على الإجمال، إن ذاكرة كريستوفر ولا سيما الذاكرة العاملة، غريبة جدًّا، وكلّ من ذاكرة كريستوفر وتمييزه للأنماط أعطياه قدرة على التحليل وكذلك قدرة على الاستعادة والتكرار، بما أنه يقوم بالعديد من الأخطاء، ولا يستطيع الذهاب بعيداً عن أنماط الجمل الإنجليزية.

كتب أحد النقاد عن كتاب عقل المتوحدين العباقرة: "يبدو أن كريستوفر ليس بالمتعلم الناجح للغة كثيراً [بالمعنى الضيق]، كما أنه مُجمِّع للتفاصيل المهملة التي تكوِّن لغة طبيعية".

في الكتاب الثاني عن لغة الإشارة البريطانية لدى كريستوفر، بدا سميث وزملاؤه موافقين على التقييم. وكتبوا أن قدراته "لغوية جزئيًّا"، وأن حالته "لا تقدم أدلة متعلقة" بالموهوبين في اللغة. واستمروا بوصفه - وهو الأمر الذي لا يمكن تفسيره - بأنه متمكن من اللغات المتحدثة، وموهوب بدرجة كبيرة في تعلم اللغات الجديدة. واختلفوا في ما إذا كان كريستوفر مجرد مدرك متميز للأنماط؛ علماً بأنه يفشل في تمييزها في الموسيقى والألعاب، ويرتبك عند تعلم لغة صورية مع الكلمة التي يعتمد معناها على موقعها في الجملة.

ماذا يقول هذا الرجل الاستثنائي لنا؟ في رأي سميث وتسيمبلي، إن حالته تعني أن تعلم اللغة لا يتطلب مميزات مسلّماً بها، مثل القدرات العامة في تعلم اللغة، والقدرات المعرفية المتوسطة، ونظرية العقل. أشار النقاد إلى أن الأشخاص الذين يكتفون بالأداء فقط مثل كريستوفر هم أولئك المكتفون بالاستعارة الدلالية للغاتهم الأم. ومع ذلك، إنّ العديد

(1) الذاكرة الروتينية: حفظ الكلمات والأرقام والحروف والرموز أو أي شيء آخر من دون فهم للمنطق أو العلاقات المشتركة داخل المواد التي يتم حفظها. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

من متعلمي اللغة سيكونون سعداء إذا امتلكوا مثل ذاكرته ومهاراته في تحليل وتجميع الكلمات. وهنا يتضح كون تعلم اللغة لا يعتمد فقط على الذاكرة البحتة، فعليك أن تجعل ترتيب الكلمات يتم بشكل تلقائي، أكثر من استعادته شعوريًّا اعتماداً على الذاكرة.

من المفارقات أن كريستوفر لا يستطيع أن يكون مثالاً لمتعلم اللغة الموهوب، أو من يُطلق عليهم حديثاً (متعددو اللغات المفرطون)، ومع ذلك، إنّ حالته تتنبأ بالكثير مما قد أتوقعه عن الحد الأعلى في تعليم اللغة؛ مثل القدرات العالية في مجال واحد بالتزامن مع عجز في مناطق أخرى. يمكن لعدم التوازن - في الأساس - أن يطوِّر مهارات فكرية، ويمكن أن يكون أيضاً في مناطق اللغة نفسها، كإجادة الكلمات والأنماط. كان كريستوفر ضعيفاً نسبيًّا في النحو، ومع ذلك فإن ضعف مهاراته الاجتماعية والحياتية كان يمثل له إعاقة أكبر مما يسببه ضعفه في النحو. متحدث اللغة الأجنبية الذي يتحدث بالاستعارة الدلالية طوال الوقت، يمكن أن يكون جسر تواصل في طرائق أخرى. حتى لو كانت طريقة لفظك غير مثالية، ولكنها جيدة بما فيه الكفاية للتوضيح والتعديل، فإنك تستطيع التواصل.

لا زلت لا أستطيع التخلص من فكرة أن هناك من يشبه ميزوفانتي هنا أو هناك، وكان على بحثي أن يستمر.

إريك جنامارك الذي توفي عن عمر ناهز الثامنة والتسعين، وضع كتاباً أسماه (الفن والعلم في تعلم اللغات)، وهو كتاب مبسط يشرح فيه كيف يصبح الإنسان متعدد لغات. كتب في المقدمة تعويذة سحر فلكلورية تقول:

"أمسك بسنونوة صغيرة

وغمّسها في العسل، ثم التهمها،



Twitter: @ketab_n

حينئذ سيكون بوسعكَ أن تستوعب كلّ لغاتِ العالم".

ولكن، هل حمص جنامارك طير السنونوة؟ على الأرجح لا. إنه يبدو كالشخص الذي أخذ بنصيحته العملية التي يبنى عليها تعليم اللغة من خلال نشاط التركيز، والإعادة، والتدريب. سمى هذا "بالأعمدة الثلاثة" لتعلم اللغة.

كتب جنامارك: "يمكن أن تكون هذه الاستعدادات موجودة لدى الكثيرين، ولكنها لا تظهر إلا عند البلوغ. فإن ما يميز متعلمي اللغة هو أنهم أكثر التزاماً من الآخرين، ويستثمرون الوقت بشكل جيد".

كما كتب أيضاً: "على الطفل أن يتعلم عن العالم واللغة، أما البالغ فعليه أن يتعلم عن اللغة فقط". وكما أن الأطفال لديهم ميزة العيش في العالم المكون بالأساس من أشياء مجردة يتكفل الأشخاص البالغون المهتمون بهم بتسميتها، والذين يكونون بدورهم مستمعين صبورين. البالغون الذين يسكنون في عالم من المجردات، يمكنهم التكيّف مع هذا من خلال ملاحظة اللغات في البيئة.

إنها أفكار مثيرة للاهتمام، ومعقولة، وقد تكون مألوفة، ولكنها لم تبرر وصفه لميزوفانتي بأنه كان أسطورة. هل قرأ لراسل وواتس؟ هل وجدهما منبهرين بالأدلة القليلة؟ هل كانت أحكامهما فضفاضة وغير دقيقة؟

أعتقد أن رفض جنامارك لميزوفانتي كان فيه بعض التجني غير المبرر؛ باتهامه ميزوفانتي بالخرافة، في حين لا ينكر أحد أنه كان ذا براعة لغوية، وكان عليّ أن أقول لجنامارك إن الكاردينال جمع العديد من اللغات، بعدد جيّد من المعايير العالية، وجميعها كانت إلى الدرجة التي يحتاجها في الحقل الذي يعمل به؛ حتى لو كان غير قادر في جميع اللغات، فقد طابق في العديد منها ما يقوم به المتحدث الأصلي.

ولكن، حسناً، هَب أنني تجاهلت ميزوفانتي الذي كان أبرع مرشح



Twitter: @ketab_n

من متعددي اللغات المفرطين في العالم! ماذا بعد؟

أرسل لي جنامارك رسالة تحوي قائمة بأسماء عظماء تعلُّم اللغات المفرطين. "قائمة من متعددي اللغات المعاصرين":

- يوجين شرناوسكي (1912)
- زياد فصاح (1954)
- أرفو جولتي إينن (1949)
- دونالد كينريك (1929)
- إميل كربس (1867-1930)
- لومب كيتو (1909-2003)
- بانت نيرميكاند (1905-1997)

لماذا هم سبعة؟ لماذا هناك امرأة واحدة (لومب كيتو)[1] فقط؟ ... لم يشرح جنامارك ذلك[2].

تعرفت على الهنغارية لومب كيتو، متعددة اللغات المفرطة - لأول

(1) لقب العائلة في اللغة المجرية يأتي قبل الاسم الأول. (المؤلف)

(2) من الملاحظ أن معظم مشاهير تعلم اللغة، ومتعددي اللغات، ومهووسي اللغة، من الرجال. وعلى الرغم من نقص الأدلة، فإنّ هذا يبقى سؤالاً مطروحاً؛ فالعلاقة بين الجنس والقدرة على تعلم اللغة لم تكتشف بعد، وهذا ليس بالغريب، فلم يتطرق الباحثون إلى العلاقة بين الاستعداد اللغوي والطبقة الاجتماعية والاقتصادية، والعرق، والسلالة، أو التفضيل الجنسي أيضاً. في استبيان وضعتُه على شبكة الإنترنت عن الأشخاص الذين يتحدثون ست لغات أو أكثر، كان تسعة وستون بالمائة منهم ذكوراً، وهذا لا يعني أن الذكور أفضل من الإناث في تعلم اللغات، بل يمكن أن يعني ببساطة أن الذكور كتبوا الاستبيان المصمم تقديراً وإعجاباً بقدراتهم العقلية. في الحقيقة، إن الفخر بتعلم اللغات أو التحدث بها يظهر وكأنه هوَس ذكوري. ومن جانب آخر، إن الإناث يكثرن في المجالات والمواقف التي تتطلب مهارات لغوية عالية مثل الترجمة الفورية؛ ربما لأن المترجمين الفوريين يجب ألا يكونوا ظاهرين أو يتسموا بالغرور، وهو الدور الذي تقوم به المرأة في المحيط الثقافي، والتي تكون على استعداد للعب دور أفضل فيه. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

مرة عام 1996 – من خلال مقال كتبه ستيفن كراشن، اللغوي من جامعة جنوب كاليفورنيا، والخبير في اكتساب اللغات. وفي عام 1995، كان كراشن يدرس بهنغاريا؛ المكان الذي تعيش فيه لومب كيتو التي تتمتع بشهرة محلية، وكتبت أيضاً مذكرات بعنوان "كيف تعلمت اللغات" نُشرت عام 1970 باللغة المجرية فقط. عندما قابل كراشن المرأة ذات الثمانية والستين عاماً، كانت تتعلم لغتها السابعة عشرة، العبرية!

**لومب كيتو**

قال لي كراشن: "كانت لدى لومب إرادة وعزيمة لعمل بطولي يتمثل في الحصول على مدخلات شاملة والاحتفاظ بها، والدأب على تقويتها". عملت بجد، ولم تكن تخشى الفشل، وكانت تقرأ بغزارة[1]. واشتهر عنها أنها تتفوق على الرجال في أي مجال لغوي! حالة لومب أيدت نظرية

(1) كانت تعتقد أيضاً مثل جنامارك، أن الأطفال ليسوا بالضرورة أفضل في تعلم اللغات من البالغين. واعترفت أنه بعد عمر العاشرة أو الحادية عشرة، لا يستطيع الشخص النطق كما يفعل المتحدث الأصلي، وكانت فخورة بلكنتها: "بعد تعلم ست عشرة لغة، ونصف قرن من العيش في بودابست، لا يزال الأشخاص مرهفو السمع يستطيعون اكتشاف أحرف العلة المميزة في حديثي لسكان جنوب هنغاريا". وقالت إن المشكلة الرئيسة المتعلقة بالعمر، هي ضعف الذاكرة، ولكن هناك العديد من الطرائق لمنع تلك المشكلة أو التقليل من أثرها. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

كراشن في اكتساب اللغة الثانية؛ خصوصاً في الجزء المهم منها "فرضيات المدخلات الشاملة"، والتي قدمها في العام 1975. جادل كراشن أنه يمكن للأشخاص اكتساب اللغة بكلا الشعورين الواعي وغير الواعي، مع احتفاظ الشعور الواعي بالأولوية. وقال إن اكتساب اللغة يحدث عندما نفهم ما نقرأه أو نسمعه وليس عندما نكتب باللغة أو نتحدث بها، وكذلك بحفظ المفردات، ودراسة القواعد. هذه هي الطريقة التي يتعلم بها الأطفال اللغة الأولى، إنهم "يكتسبونها"، وكذلك يفعل الكثيرون من متعددي اللغات مثل لومب.

في عام 1941، انتقلت لومب وزوجها إلى غرفة كان يسكنها قبلهما رجلٌ روسيٌّ، وقد تركها مليئة بالروايات المكتوبة باللغة الروسية. وباستخدام لغتها الروسية الأولية (محدقة إلى قاموسين مجلدين قديمين)، بدأت تفك شيفرتها، وطورت لغتها الروسية إلى درجة أنها تستطيع قراءة أعمال مثل رواية "الأرواح الميتة" للكاتب الروسي نيقولاي غوغول؛ الكتاب الذي خبأته داخل الموسوعة المجرية بهدف التمويه. لاحقاً، بدأت بالإسبانية من خلال قراءتها ترجمة رواية "الرجال يفضلون الشقراوات". بعبارة أخرى، لم تكن تقرأ الكلاسيكيات فقط.

أعجب كراشن بلومب لأنها لا تدعي أن لديها موهبة بما تقوم به. قال عنها في إحدى المقابلات: "آخر كلماتها غيرت حياتي. فقد قالت: ستيفن، إنك ما زلت صغيراً، العديد من السنوات أمامك، والعديد من اللغات عليك اكتسابها (كنت وقتها في الرابعة والخمسين)".

فكانت نقطة انطلاق له، فانغمس في اللغات، وقراءة الروايات بالفرنسية، والألمانية، والإسبانية. وزاد إعجابه بأسلوب لومب وطريقة توسيعها لقدراتها. .

في عام 2008 عندما تُرجم كتاب لومب "كيف أتعلم اللغات" إلى اللغة الإنجليزية، استطاع غير الهنغاريين أخيراً القراءة عن الهنغارية



Twitter: @ketab_n

المشهورة بأنفسهم. يتسم أسلوب لومب بالتشويق وإن كان لا يخلو من الطرافة والتهكم، وهذه مقتطفات من كتابها:

- أحد أهدافي في هذا الكتاب هو إزالة الضباب الرمزي المحيط بفكرة "القدرات الفطرية لتعلم اللغة".
- "كان عليّ إزالة الغموض عن تعلم اللغة، وإزالة تماثيل البطولة المتعلقة بتعلم اللغات الأخرى".
- "ما الذي يجعل الشخص ناجحاً؟ إنه الاهتمام، والتحفيز المثير، يقوده الطموح والمثابرة والاجتهاد. إنّ إحدى النقاط المهمة هي أن تعتز بنفسك وتكون مقتنعاً بأنك لغوي نابغ".
- "أسلوب تعلم اللغات الأفضل هو الذي يسمح لك بتعلم أدق الأنماط وبسرعة نسبية".
- "ثم يجب عليك استيعاب النماذج لجعلها تلقائية. ولفعل هذا، يجب عليك أن تتعامل مع هذه النماذج بالقدر الذي تستطيعه".
- أحد الأساليب هو أن تتدرب على الحديث الفردي أو تمارس ألعاباً لغوية خاصة، مثل: "كم عدد المفردات المتشابهة لكلمة محددة تستطيع إيجادها؟". في رحلات القطار الطويلة كانت تلعب وحدها كشخصين منفصلين!

تبيِّن العبارات السابقة مدى حرص لومب على بث روح الحماسة والتشجيع في نفوس القراء ليصبحوا نابغين.

ومع وصف كراشن الأولي عنها أنها قارئة (بل قارئة متحمسة كما وصفت الدكتورة لومب نفسها)، أكدت لومب في مذكراتها أهمية التدريب بالمحادثة، حتى وإن كانت حديثاً منفرداً. وكتبت: "إذا تحدثت مع نفسي، أكون مرتاحة لأنّ محدثي لن يكون ساخطاً من طول التردد في الحديث، وصعوبة ترتيب القواعد، والفراغ بين المفردات التي تملأ باللغة الأم!". وأضافت: "كل ما أشرت إليه هو حديث نفس صامت".



Twitter: @ketab_n

وقد حثت القراء على الاجتهاد في تصحيح الأخطاء.

في رأي كراشـن، إن فرضيات المدخلات الشـاملة تتوقع أن حديث النفس والتدريب المشابه له ليسـا مجديين بدرجة كبيرة، بينما اختلف معه آخـرون، إذ يـرون أن المخرجات مهمـة لأنها تحـدث بتلقائيـة من خلال تعزيز الموصـلات العصبية، ولأنها تفرض على الأشـخاص أيضـاً الانتباه إلى بناء القواعـد، خصوصاً في وقت الحوار الفعلي النشـط، فالأمر يشـبه ضرب أحـد الباحثيـن مثلاً، الفـرق بيـن متعة مشـاهدة أبطـال التنس وهم يوجهـون ضربـة بحركـة دائريـة وبيـن تحليل أجـزاء هـذه الحركـة بهدف محاكاتها لاحقاً.

قالت لومب أيضاً: "لا تنزعج من القواعد، سـأجد سريعاً "المركبات الفضائية" ثم المفعول به والاسـم المرفـق أو التوابع". رسـالتها واضحة؛ إنها ترى أن المصطلحات البراقة سـتأتي لاحقاً في السـياق، لذا لا تنزعج منهـا. وكتبـت: "الشـخص يتعلـم القواعـد مـن اللغـة، وليـس اللغـة من القواعد".

(يمكن للمرء أن يسمع صرير أسـنان الآلاف من معلمي اللغة غضباً من هذا الاتجاه الهنغاري).

نظرية كراشـن لا يمكن أن تتنبأ بعدد اللغات الإضافية التي يسـتطيع الشخص أن يكتسـبها، لكنها تؤكد أن في الإمكان اكتسـاب المزيد منها ما دام الشـخص يسـتطيع الحصول علـى مدخلات شـاملة، بشـكل لانهائي. أضف إلى ذلك أن لومب، التي لا تنقصها الحماسـة، لم تسـتطع التحدث بطلاقـة بأكثر مـن خمـس لغـات فقط مـن مجمـوع اللغـات التـي تعرفها بمسـتويات مختلفة - وطبعاً هـذا العدد محـدود - وهي: اللغة الروسـية، والإنجليزية، والفرنسـية، والألمانية، بالإضافة إلى لغتهـا الأصلية. وكتبت لومب أن هذه اللغات "تعيش داخلي بجانب لغتـي المجرية". تعني بعبارة "تعيش داخلي" القـدرة على "الانتقال بيـن هذه اللغات بكل سـهولة، من



Twitter: @ketab_n

كلمة إلى أخرى".

وهنا نرى أن عامل السن له دور أيضاً: فالمجرية والألمانية والفرنسية كانت أولى اللغات التي تعلمتها، أما اللغتان الأخريان فجاءتا لاحقاً، وشرعت في الإنجليزية في عمر الرابعة والعشرين، والروسية في الثانية والثلاثين. وفي المقابل، للقيام بالترجمة في الإيطالية، والإسبانية، واليابانية، والصينية، والبولندية، لغاتها الخمس "المتموجة"، تحتاج إلى أن تجدد ذاكرتها لمدة نصف يوم. اللغات الست الأخرى (البلغارية، والهولندية، واللاتينية، والرومانية، والتشيكية، والأوكرانية) عرفتها من خلال عملها في الترجمة.

عندما أشرت إلى هذه الصورة عن لومب، اندهش البعض، وقال: "تحتاج فقط إلى نصف يوم لتجدد ذاكرتها في اللغات!"، وآخرون قدَّروا أن باستطاعة البالغين أن يكونوا أكثر ثقة ونشاطاً، خصوصاً في عمر متأخر. ما أدهشني عندما وضعت يدي على مذكراتها، أنها تقول إنها محدودة في اللغة؛ لم تقل إن ذلك بسبب قلة التدريب، ولم تقل إنه بسبب عدم مقدرتها على السفر. في الحقيقة، لم تعطِ أي مؤشر عن السبب؛ المحدودية كانت هناك ولا يمكن تجنبها.

كانت تُسأل دائماً: "هل من الممكن أن أعرف ست عشرة لغة؟"، فتجيب: "لا، ليس من الممكن، على الأقل ليس على مستوى واحد من الطلاقة".

مرة أخرى، بلا شرح. ليس الأمر متعلقاً بالوقت الذي يستغرقه التعلم، ولا بقوة طموحها، فهناك محدودية لا يمكن تجنبها، نهائية كالجاذبية. إلا أني توقعت مخزوناً من اللغة يقترب من مخزون ميزوفانتي أو باريت وبريتون.

في النهاية، كانت لومب شخصية مثيرة، ولكنها لم تكن من أبرز اللغويين الذين أبحث عنهم.



Twitter: @ketab_n

في هذا الصدد، أنا على ثقة بأنه يمكنك تعلم عدد كبير من اللغات في حياتك، على مستويات مختلفة من التمكن. ومع ذلك، ليس مهمًّا عدد اللغات لديك. هناك في ما يبدو محدودية في عدد اللغات النشطة على مستوى عالٍ في الوقت نفسه. يمكن أن يكون لديك أيضاً عدد من اللغات أقل استخداماً، ويمكنك أيضاً إعادة تنشيط العديد من اللغات الكامنة؛ على الأقل لفترة قصيرة من الوقت. وتستطيع توسيع المفردات المقيدة بالبيئة الحقيقية إذا احتجتها.

قرأت لاحقاً رسالة من جنامارك يشرح فيها كيف يجب عليك أن تكون متشككاً في أي شخص يدعي أنه يتحدث عشرين لغة أو أكثر. هل كان يراقب من يقال عنه - عنها - متعدد لغات مفرط؟ لماذا؟ ربما كان مرتاباً من ميزوفانتي، كما أعتقد. بعد كل شيء، لقد ارتاب من الادعاءات المبالغ بها من قبل الآخرين، وهو يصر بشدة على أن التحدث بالعديد من اللغات في الوقت نفسه غير ممكن.

تأكدت من الأسماء المتبقية في قائمة جنامارك في متعلمي اللغة الموهوبين: شرناوسكي، فصاح، جولتي إينن، كينريك، كربس، نيرميكاند. ربما كان أحد هؤلاء قد ادعى قوة لا محدودة لديه. ولكن كربس، ولومب، ونيرميكاند كانوا متوفين. ولم أتمكن من الحصول على المعلومات الضرورية للاتصال بجولتي إينن وشرناوسكي. داين جنامارك، ابن إيرك، أعطاني عنوان البريد الإلكتروني لكينريك، الذي أعطاني بدوره رقم هاتف في إنجلترا، لم يرفع أحد سماعة الهاتف عندما اتصلت، وبعد فترة يئست.

إذاً، لم يبق أمامي إلا (زياد فصاح).



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثامن

أول بحث لي عن زياد فصاح كان من أخبار رويترز التي نشرت في عام 1996، وبدأت بمعلومات أولية عن حياته: ولد في ليبيريا عام 1953، ورحلت به أسرته إلى بيروت وهو صغير، ودرس علم اللغة في الجامعة الأمريكية في بيروت، وبعد تخرجه انتقل مع والديه إلى البرازيل، وتزوج هناك. وهو يحمل بطاقة أعمال كتب عليها أنه يكتب ويتحدث أربعاً وخمسين لغة بطلاقة. وحتى عام 1998، وُضع على قائمة موسوعة جينيس للأرقام القياسية العالمية كمتحدث لستٍّ وخمسين لغة؛ مرة أخرى، قيل "بطلاقة". كيف تحدد هذا؟ لا يزال هذا غامضاً، فقد انتشر هذا الوصف عن طريق تلفزيون اليونان، ومن برامج متعددي اللغات المفرطين المهووسين التي لم تُعرض.

لسوء الحظ، إن مراسل رويترز غير المتمرس لم يضع حقيقة صورة (فصاح) الأسطورية تحت المجهر. ذهب المقال إلى تأكيد: "أنه بجانب لغته الأم العربية، واللغتين الفرنسية والإنجليزية، اللتين تعلمهما في المدرسة، فإن فصاح علَّم نفسه جميع هذه اللغات. بدأ بالألمانية، ثم انتقل أبعد؛ إلى لغات دول الشرق مثل: المندرينية الصينية الكانتونية، واليابانية".

وفي عمر الأربعين كان "فصاح" لا يزال يلتقط اللغات، وأخيراً تعلم البابيامنتو واللغة الكريولية، والتي تتضمن الهولندية والبرتغالية والإسبانية المتحدث بها في الجزر الكاريبية. وكتبت رويترز "فصاح الذي يستطيع تعلم ثلاثة آلاف كلمة خلال شهرين إلى ثلاثة أشهر قال إن المندرينية


Twitter: @ketab_n

كانت أصعب لغة تعلمها بسبب العدد الضخم من الرموز. ادعى فصاح أنه يستطيع خلال سبع سنوات تعلم بقية اللهجات البالغ عددها ثلاثة آلاف التي يتحدث بها العالم!".

يمكن أن تخرج العين من مقلتها بعد قراءة هذا التباهي! يبدو أن هؤلاء يشبهون الناس في القرون الوسطى ممن كانوا يعتقدون أن الأمراض تسببها مواقع المجرات! تعلم ثلاثة آلاف لهجة في سبع سنوات؟ هذا كان معدًّا بوضوح لصحفي ساذج. هناك أكثر من ثلاثة آلاف لهجة في العالم، ويعتقد أن العدد الحقيقي أقرب إلى سبعة آلاف. كيف سيقوم فصاح بتعلم ثلثيْ هذه اللغات بدون قواميس أو كتب إذا كانت لم تدوَّن؟

قررتُ أن أطبق شكوك جنامارك عن قائمة متعددي اللغات المفرطين، بالإضافة إلى الحكايات الصحفية الحماسية، مثل الأساطير الشعبية. لم أصدق أي شيء مفيد منهم. ببساطة كنت أحتاج إلى أن أستمر في البحث أكثر.

أصبح الإنترنت هدية لأولئك الذين يملكون "إرادة المرونة". في السنوات الخمس الأخيرة تقريباً، ساعدت الشبكة العالمية متعلمي اللغة على الالتحاق بالفصول الدراسية من خلال تقديم حصص الاستماع (بودكاست)، والدروس الخاصة، والمنتديات، والألعاب بجودة وأسعار متفاوتة. أحد المواقع التي ظهرت بقوة من عام 2005 هو: www.how-to-learn-any-language.com، الذي أنشأه رجل أعمال سويسري متعدد اللغات، واشتهر سريعاً بين الآلاف من متعلمي اللغات من جميع أنحاء العالم. كان مرتعاً للمناظرة عن الأساليب الشخصية في تعلم اللغات، وأصبح أيضاً مكاناً للقاء متعددي اللغات المفرطين مع بعضهم. بالنسبة لي كان هذا كنزاً ثميناً.



Twitter: @ketab_n

أحد المشرفين على المنتديات في الموقع يلقب بالملك أردشير[1].
كتب في معلوماته الشخصية أنه نشأ وهو يتحدث الإنجليزية، وأول لغة أجنبية تعلمها هي الفرنسية التي بدأها في المرحلة المتوسطة، وانطلق بالتحدث بها خلال سفره وحيداً إلى فرنسا في الثالثة عشرة، ولكنه فشل بها تقريباً كمنهج في المرحلة الثانوية. وكمراهق كان يحاول عبثاً تعلم الألمانية بنفسه، وكان طالباً جيداً في اللغة اللاتينية في المرحلة الثانوية، وبعد تخرجه من جامعة كولومبيا في نيويورك، كانت لديه "أسس قويّة جدًّا" في الفرنسية، والألمانية، والإسبانية، واللاتينية، واليونانية، والسنسكريتية. وفي أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه في جامعة شيكاغو، أضاف الفرنسية القديمة والإنجليزية القديمة والإنجليزية المتوسطة والألمانية العليا القديمة. وفي تحضير للبحث حلل اللغة النوركية القديمة. وبعد تخرجه قضى سنتين في ألمانيا، وقال عن هذه الإقامة: "المكان الذي منعت عقلي فيه من الشعور باللغة الإنجليزية، وشرعت بإتقان اللغة الألمانية، والانتباه إلى أي كلمة، وكتابة جميع المفردات، ووضع نقاط لاستخدامها لنفسي حتى أعرفها".

في بداية التسعينيات، انتقل إلى هاندوغ في كوريا ليعمل مدرساً في الجامعة. وفي الثانية والثلاثين، حين كان بعيداً من بلده ووحيداً تقريباً، استخدم جميع قواه العقلية ليتعلم العديد من اللغات بقدر ما استطاع. وفي السنوات الخمس التالية، كان يقضي اثنتي عشرة ساعة يوميًّا وهو يحاول أن يتعلم لغة واحدة على الأقل من كل عائلة لغوية. كان يهدف بهذا العمل إلى قراءة أعظم الكتب بالعالم في لغاتها الأصلية. كان يعمل على ثلاثين لغة مختلفة في اليوم بمقدار خمس عشرة إلى عشرين دقيقة لكل منها. في النهاية تزوج من امرأة كورية ورزق بولد. وبعد عشر سنوات،

(1) الملك أردشير هو الملك الفارسي الذي احتل شمال الهند. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

انتقل وعائلته إلى لبنان ليشغل مركزاً جديداً في الجامعة هناك ولأنه يريد أن يتعرض للغة العربية، وهناك ولد له مولود آخر. وفي عام 2006، عندما قامت إسرائيل بقصف لبنان وغزوه، استقلوا سيارة أجرة وانتقلوا بصعوبة إلى سوريا، ثم أجلي من هناك إلى الولايات المتحدة. وبالرغم من هذه المعاناة، فقد أصبح المعلم الروحي للمنتدى، والملهم لمتعددي اللغات ومتعددي اللغات المفرطين، فهو يتحدث بسلطة قوية عن أهمية التعليم، ويجمع معلومات شخصية عن الأشخاص مثل زياد فصاح.

بعد أن وضع الملك أردشير سؤالاً: "هل زياد فصاح موجود حقًّا؟".

بعض الحقائق الجديدة عن الرجل البرازيلي بدأت بالظهور، مثل أنه كان يتعلم اللغات التي تقع تحت يده في الصباح الباكر بعد أن يغلق نوافذ الغرفة، أو إنه ضجر من اللغات، حتى إنه تركها في فترة التسعينيات.

يسأل المشككون، ويقولون: "كيف يمكن لرجل برازيلي متوسط الحال أن يحصل على المواد الدراسية الأجنبية، خصوصاً قبل ظهور الإنترنت؟ وإذا كان موهوباً فلماذا لا يكون غنيًّا؟ وينفي البعض أن زياد فصاح يمكن أن يكون طليقاً في العديد من اللغات.

كتب أحد المدونين: "في الأعوام الثلاثين الأخيرة، كنت أتعلم بمعدل لغة واحدة في السنة، حيث أعرف الكثير من الرموز الغامضة بقدر يمكنني من تعلم هذه اللغات. على سبيل المثال، أنا أقرأ الكتب فقط في عشر لغات، وأحاول أيضاً الاستماع إلى المذياع الناطق بالقليل من اللغات في كل أسبوع".

وكتب آخر: "لا أريد أن أقول إنني أستطيع التحدث باللغة حتى أفهم على الأقل 85-90 بالمائة من الذي يقال على القنوات الفضائية وفي الأفلام، وحتى أكون مستعدًّا للدخول في حوار مع متحدث اللغة الأصلي في العديد من الموضوعات، كل هذا بقليل من الصعوبات أو الانقطاعات في الاتصالات أو المعلومات".



Twitter: @ketab_n

ومن هنا، بدأت الشكوك تثار حول فصاح!

ثم انضم الأمريكي ديف ماسيري إلى موضوعنا، فقد انتقل هذا الرجل إلى البرازيل للتّدرّب على فنون القتال المتنوعة، وتعلم اليابانية للتحضير للسفر إلى اليابان، وكان معلمه للغة اليابانية (زياد فصاح)! وقال: "إذا كنت غير مصدق لكلامي، أو كنت في ريب في قدراته، رجاء اتصل بي بنفسك". ووضع عنوان بريده الإلكتروني ورقم هاتفه في المشاركة.

وقال واحد تلو الآخر من أعضاء المنتدى إنهم تحدثوا مع فصاح بالروسية، أو الكونتونية[1]، أو المندرينية، أو الإسبانية، وادعوا أنه يتحدث هذه اللغات بلكنتها، وهو شخص ودود ومغرم باللغات. كما قال آخرون إنهم يريدون الاستعانة به لتعليمهم عن طريق (سكايب).

رأيت كل هذا بدهشة. ففصاح لم يخجل من الأداء العام من قبل، فلماذا لم يدافع عن نفسه الآن في هذا الفراغ؟ وصلت شهرته إلى النهاية، بالغطسة المميتة. في عام 1997، ظهر في برنامج على التلفزيون التشيلي، كالمسابقة الذي أجراها البابا غريغوري السادس عشر لميزوفانتي، التي تعتمد كثيراً على المشهد الواحد. ولكن هذه المسابقة حقيقية أكثر الآن، لأنه مع وجود موقع (اليوتيوب) الذي عرض مقطع البرنامج التشيلي أخيراً، أصبح بإمكان الجميع رؤية إخفاق فصاح المأساوي.

رجل متوسط العمر، بوجه عريض، وشعر رأس قليل، يجلس في استديو التلفزيون أمام المشاهدين، ويلبس سترة سمراء ويضع ربطة عنق. يقف المشاهدون الواحد تلو الآخر ويسأله كل منهم سؤالاً بلغته الأصلية الفنلندية، أو الروسية، أو الفارسية، أو الصينية، أو اليونانية، وكان عليه أن يترجم كل سؤال للمشاهدين ثم يجيب عليه باللغة نفسها. قالت المرأة

(1) الكونتونية: لغة يتحدث بها في شمال الصين. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

المتحدثة باللغة الفنلندية إن عدد متحدثي اللغة الفنلندية (5 ملايين)، وإن اللغات الفنلندية والسويدية، والسامية لغات رسمية في فنلندا. بدأ فصاح مرتبكاً، ثم قال شيئاً ما لم يكن صحيحاً. وبعد أن تعثّر في إجابة السائل باللغة الفارسية، قالت إنّ "فصاح" لم يجب على سؤالها، فارتفعت أصوات الاستهجان من الحضور.

سأله المتحدث الروسي بالروسية: "ما هو اليوم؟".

أجاب فصاح: "ماذا؟".

ثم سأل المتحدث بالمندرينية: "ما الشيء الوحيد من صنع الإنسان الذي يشاهد من القمر؟".

كان من المفترض أن يقول فصاح: "لا شيء" أو "سور الصين العظيم"، (مجاملةً للمتحدث الصيني)، وبدلاً من ذلك قام بحركة غريبة بيده اليسرى على رأسه، حيث مرر أصابعه من جبهته إلى أذنه ثم كرّر ذلك مرة أخرى، ثم قال بالإسبانية: "أين تعلمت الصينية؟ وكيف تعلمتها بسهولة؟". هز المتحدث الصيني رأسه، وقال: "لا".

من جديد ارتفعت أصوات الاستهجان من الحضور، فبدأ "فصاح" يتعرق، ومرر أصابعه على رأسه مرة أخرى، وكأنه ينقب في جمجمته عن الأجوبة، ولم يعرف الإجابة.

أظهر المدوِّن، ماجنوس ليون، في مدونته http: //ardentagnostic. blogspot.com لاحقاً استنتاجات مهمة، شاركه بها العديد من الأشخاص، وهي أن زياد فصاح واحد من مليار شخص في العالم غير القادرين على التحدث بخمس وتسعين لغة. كانت الردود في المنتدى حادة وسريعة، فوصم المشاركون الرجل البرازيلي بالمزيف، وتباهى المشككون ببراهين ساقوها.

عندما ظهر الفيديو إلى النور، كتب الملك أردشير مباشرة: "من الواضح جدًّا أن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يلقي الضوء على



Twitter: @ketab_n

حقيقة زياد فصاح هو زياد فصاح نفسه. وما دام يعرف عن هذا المنتدى، وهذه الحوارات، ولكنه غير مكترث لتوضيح الحقيقة، فأنا أعتقد أن علينا أن نتغاضى عنه بصمت محترم في هذا الوقت. هذا الرجل موجود، ولكنه ليس أسطورة".

وكأي شخص آخر في المنتدى، لديَّ الآن عنوان البريد الإلكتروني الخاص بفصاح ورقم هاتفه، والاتصال به سيكون سهلاً. كنت آمل أن يكون فصاح هو ميزوفانتي المعاصر. ولكن، إذا وجهت إليه أسئلة خاطئة، فربما يفلت هذا الأمل إلى الأبد. كنت أريد أن أختبر طلاقته، ومدى فصاحته في اللغات التسع والخمسين.

لقد كنت في حاجة إلى مرشد إلى عقول متعددي اللغات المفرطين؛ فاتصلت بالملك أردشير الذي قال لي: "بالتأكيد أستطيع أن آتي إلى كاليفورنيا للقائك".



Twitter: @ketab_n

# الفصل التاسع

الصيف في بيركلي، كاليفورنيا، محل الآيسكريم، كوب صغير بدولار واحد من المحل المفتوح في جادة شاتيك، وفتاة صغيرة تتأرجح أسفل التل، وفريق عمالقة سان فرانسيسكو للبيسبول يتبارون مع فريق أوكلاند.

يبدأ الملك أردشير - واسمه الحقيقي ألكسندر أرغيليس - يومه المعتاد عند الساعة 2:00 أو 3:00 فجراً، يكتب على طاولة في الحجرة الإضافية في دفتر مغلف ذي صفحات مسطرة. كتب بعض الصفحات باللغة الإنجليزية لمساعدته على تجميع أفكاره. يقول إن لغته الأولى أكثر غنىً. ثم يستمر في "حجرة النساخ" للممارسة، يكتب صفحتين بكل من العربية، والسنسكريتية، والصينية، تلك اللغات التي يسميها "مصدر اشتقاق الأنهار".

وقال: "إذا بدأت اليوم بكتابة هذه اللغات الثلاث، فأنا أعرف أن هذا اليوم سيكون يوماً جيداً".

ثم صفحة من التركية تتبعها ورقة من الفارسية أو اليونانية، ثم الهندية، والغيلية، أو لغات أخرى. يعمل لمدة خمس عشرة دقيقة لكل منها، وينتقل إلى لغة جديدة في نهاية كل فترة، وينتقل إلى اللغات التي يعرفها أقل، يكتب تمارين للقواعد. هدفه أن يكتب أربعاً وعشرين صفحة في اليوم.

- كم عدد الدفاتر التي عبأتها؟ سألته.



Twitter: @ketab_n

أشار بإصبعه إلى ثلاث طبقات منها، مربوطة بسلك أسود على الرف، وقال: "أنا أدوِّن الدفتر الخامس والأربعين. إذا كنت متعباً أو مشوش الذهن فيمكن أن تستمر الكتابة طوال اليوم، ولكن مع التركيز، يمكن أن أقوم بذلك في أربع ساعات".

عندما التقيته أول مرة، كان معدل الساعات التي يدرس فيها باليوم تسعاً، وأشار ببعض الحنين، إلى أن معدل دراسته كان أربعَ عشرة ساعة قبل أن يرزق بأطفال.

قال لي مرة: "ليس هناك أي فائدة مادية من معرفة اللغات، إنها إهدار للوقت والجهد، ولو وضعت كل هذا الوقت والطاقة التي أقوم بها لتوسيع دماغي، وآفاقي اللغوية والأدبية، في اهتمامات عملية، مثل جمع المال، أو العمل على ابتياع بيت واسع، أو أي نوع من النجاح، فليس هناك أدنى شك بأنني سأصل إلى ذلك".

في الواقع، لم تكن الفرص قليلة؛ فأثناء قيامه بأعمال مؤقتة في الصيف كطالب جامعي، عُرض عليه عدد من الأعمال، مثل تتبع الطقس في قرية أوتا أو نيفادا، ولكن هذه الوظيفة بالطبع لم تكن تناسب قدراته الفكرية.

لذا بدأ طريقه هنا، كهروب أو رحلة ذهنية، وملئت أرفف الحجرة الإضافية بالقواميس وكتب القواعد، والروايات، وكتب التمارين، وكتب المناهج التي ترتفع على جدرانها من ثلاث جهات. هناك ترتيب لعائلات اللغات البالغ عددها 130 عائلة لغوية.

قال لي وهو يشير إلى الأرفف: "أنا أعرف وبصدق، أين أنتم الآن؟ حزتم فرصة رائعة لتكونوا - كيف أصفها؟ - أصغر مختبر مكتنز باللغات في العالم. الغرفة تبدو وكأنها صومعة راهب، أو كبسولة فضائية. هدوء أرغيليس في العمل يكاد يجعله أصم. أرففه كانت ممتلئة، وكان يكتشف



Twitter: @ketab_n

بعض الأشياء بداخلها ونحن نتحدث، مثل كتاب النحو، الذي لم يكن يعرف أنه يملكه[1].

كان رجلاً طويلاً ونحيفاً، ذا شعر بني، وعينين وديعتين، وصوت كصوت القديس، كان بعمر الرابعة والأربعين ولكنه يبدو أصغر سنًّا، وتكاد تتساءل: في أي مدرسة لتعليم اللاهوت درس؟ لذا، أعتقد أنه متعدد اللغات المفرط. كنت أتوقع أن أرى شخصاً صاخباً وجذاباً؛ شخصاً مبتهجاً وليس منطوياً، حياته مليئة بالمثيرات السياسية والعاطفية التي عاشها بعشرات اللغات؛ شخصاً يستطيع في لحظة أن يتوحد مع جميع العالم، وفي جميع المتغيرات المختلفة في العالم، فيصير رجلاً نشطاً لغويًّا ومليئاً بالطاقة.

ولكن، على النقيض، وجدت خلف هذا الباب رجلاً مثقلاً بالوحدة. روحه بدت مسترخية، وفي أوقات أخرى ساكنة. يمكن أن تصفه بأنه رجل مفقود من الماضي؛ إذ لم يكن واضحاً أنه سعيد، ويفتقد إلى حاضر يمكن أن يكون أفضل.

قال ألكسندر: "أنا بوضوح مثل المتسوط [الجالد نفسه] أو أحد أعضاء الجماعة اليسوعية[2]. لديَّ براعة في تعلم الانضباط الرهباني، كأداء لمحاولة الحصول على التنوير الذاتي". أنا لا أمزح، هنا شخص ما يعيش أحلامه، ويتحمل واجباته، ويتمرد في الفرح. في اليوم الأول الذي

(1) يمكن مشاهدة مقطع من عمل ألكسندر أرغيليس اليومي في غرفة الدراسة في موقع اليوتيوب على العنوان التالي: Polyglot's Daily linguistic workout. (المترجم)

(2) هي رهبنة كاثوليكية أسّسها إغناطيوس دي لويولا عام 1540. يعرف عضو هذه الجماعة باليسوعي نسبة ليسوع المسيح، الشخصية المحورية للديانة المسيحية. وتعتبر أكبر جماعة رهبانية كاثوليكية للذكور في العالم. تنتشر مراكز اليسوعيين في العالم، ولهم مراكز في عدّة دول عربية أبرزها لبنان وسوريا ومصر وغيرها. (الموسوعة الحرة - المترجم)



Twitter: @ketab_n

زرته فيه، كانت زوجته خارج المنزل، وبينما كان يتحدث معي، كان طفلاه الاثنان بعمر الثالثة والخامسة يلعبان بهدوء في غرفة المعيشة. وعندما أتيا ليشاهدانا، غمرهما بالقبلات وألقى عليهما أسئلة بالفرنسية التي يعرفانها بالإضافة إلى الإنجليزية والكورية. وكان يكتبان الرموز الصينية في دفتر التمارين، الذي أراني إياه بفخر. كما أعتقد، يبدو مثل متعددي اللغات المفرطين.

"أحاول الإمساك بهما لأقول لهما دعونا نقوم ببعض التمارين اللاتينية معاً، فيجريان حولي. أريدهما أن يشاركاني هذا، لا أريد أن أقول لهما اخرجا من هنا أنا أعمل، أريدهما أن يصبحا جزءاً منه، أريد أن أشركهما معه بقدر ما أستطيع.

أنا أفضِّل أن يكون لديك طفلان بفرق عامين بينهما، هذا مثاليٌّ جدًّا، أنا أكبر من أخي بأربع سنوات، ولم نكن معاً عندما كنا صغيرين. في حين أن الاثنين يتشاجران أحياناً ولكنهما معاً، ويحبان بعضهما، وتستطيع أن ترى ذلك. لديَّ أخ واحد فقط - ماكس - وسوف تلتقيه، كان بكامل عافيته إلى أن بلغ سن العاشرة، وأصيب بعدها بمرض عقلي مدمر، وأصبح من وقتها معاقاً تماماً جسديًّا وعقليًّا. رفض والداي أن يضعاه في المصحة، وأولياه الكثير من الرعاية والاعتناء به".

كانت جملته الأخيرة مدخلي لطرح السؤال التالي: "هل يمكن اعتبار تعلمك للغات ردة فعل لهذا الأمر بشكل أو بآخر؟".

أخذ نفساً وتنهد قبل أن يصمت لفترة، ثم قال: "لستُ متأكداً، لا أعتقد ذلك. ولكن، أعتقد أنه يمكن أن يكون القيام بهذا بشكل إلزامي نوعاً من الشعور بأن حياة أخي قد فقدت، وعليَّ القيام بجهد مضاعف من أجلي وأجله".

مثل هذه القصص العاطفية لم أكن أنوي أن أكشفها، وبالتأكيد ليس



Twitter: @ketab_n

سريعاً. شعرت وكأنني أتخبط داخل المكان الذي ينبغي أن أكون فيه. تعودت أن أتساءل: لماذا الشخص ذو القوة اللغوية، مثل ميزوفانتي، يقارن دائماً مع المتحدث الأصلي للغة واحدة، في حين تكون المقارنة الأكثر قوة مع رجل هجرته جميع الكلمات، وأصبحت أصواتاً لا معنى لها. كما سأكتشف، أن الناس الذين خسروا لغاتهم نتيجة المرض أو الإصابة شاركوا بجهود علمية لفهم عمل اللغة في الدماغ أكثر مما قام به ميزوفانتي وأمثاله. هنا زوج رمزي في الجسد الأخوي؛ أحدهما متعدد للغات، والآخر رجل أصم.

وفي صباح كل يوم جديد، يحيي ألكسندر الشمس في غرفته، ثم يذهب لممارسة رياضة الجري لمسافات طويلة في الهواء الطلق، بمحاذاة التلال القريبة في الحي، بينما يستمع إلى شريط بالألمانية (حتى الآن هو يتحاشى"إم بي ثري"). المارثون الطويل سهل بالنسبة له. قال في إحدى المرات إنه ضاع في الغابة، وجرى لأكثر من ثلاثين ميلاً حتى شعر بالإعياء. وكما عرفت من أحد المتخصصين فإن المتسابقين في المارثون الطويل عليهم أن يتناولوا وجبة خفيفة كل ساعتين، ولكن ألكسندر كان لا يحب تناول الكربوهيدرات لأنها لزجة ومؤذية.

في صباح أحد الأيام، اكتشف في الجوار مدرسة لتعلم اللاهوت، وحلم أن تكون معهداً لمتعددي اللغات الذي يرغب في البدء به. طلبتُ منه أن يريني إياها، وفي طريقنا إلى أعلى التل عرفت أنه لا يجيد قيادة السيارة، هذه النقطة التي ستظهر أهميتها في ما بعد.

كانت المدرسة على طراز القرن التاسع عشر، تعلم القانون، تحيط بمبناها أشجار (السكوية) وأشجار الأكالبتوس التي يداعب الهواء أوراقها. أشار ألكسندر إلى مسار يتجه نحو أسفل التل، وقال إنه مفيد


Twitter: @ketab_n

لممارسة التتبع، وأسلوب التتبع "Shadowing": هو الوسيلة التي تعرف من خلالها أصوات اللغات؛ تضع الشريط في "الوُكمان" بينما تمشي بخفة ورشاقة وتأرجح ذراعيك، ثم تدندن بتلك الأصوات بصوت مسموع. وعلى الرغم من أنك لا تعرف معاني الكلمات، فإنك لاحقاً ستقرأ هذه الكلمات وترجم ذلك، ثم تقوم بتتبع المواد نفسها مرة أخرى.

وبالنسبة لألكسندر، إنّ تحليل الصوت أولاً ثم إضافة المعنى لاحقاً يجعلان الكلمات تلتصق بذاكرته. يعتبر الصراخ الآن تلقيحاً ضد الخجل لاحقاً.

في البداية، ظننتُ أن طموحه أن يتحدث بجميع لغاته بطريقة أخرى هي التتبع، ولكن لم يكن ظني في محله، أو ربما هو يود التحدث إلى الأشخاص؟ ذلك أيضاً لم يكن صحيحاً! في الواقع، كان هدفه أن يقرأ أمهات كتب الأدب العالمي؛ الكلاسيكية والمعاصرة بلغاتها الأصلية. أراني رواية حديثة لمؤلف هولندي، وقال لي وهو يلوح بالكتاب: "قراءة هذا الكتاب تشعرني أني بصحبة أرواح حية، دون الذهاب إلى أمستردام والجلوس في أحد المقاهي وطلب كعكعة، جعلتهم يعتقدون أنني واحد منهم لا مجرد سائح أمريكيٍّ". أراد أن يكتشف شعوره في مواجهة اللغة الحية، والتقاط المعنى الخفي في هذه المواجهات. قال لي: "أغلب اللغات التي تعلمتها لم أتحدث بها، وفي الغالب لن أفعل، وهذا طبيعي بالنسبة إليّ. هذا جيد إن كنت تستطيع فعل ذلك، ولكن قد يكون الأمر نادراً إذا كان لديك اهتمام بالحوار باللغة الإنجليزية". لماذا عليّ أن أعتقد أنه سيكون أفضل في اللغات أخرى؟

وأثناء مسيرنا في باحة الحرم أشار إلى الرواق، إنه مكان جيد أيضاً لأداء التتبع. كتب في الهواء بإصبعه، متخيّلاً نفسه مدير المدرسة؛ هناك نضع الكورية، وهنا الصينية، وهناك أبعِد اليابانية، ودع الطلبة ينتقلون من منطقة إلى أخرى!



Twitter: @ketab_n

قال إنه يود القيام بهذا لأنه يواجه لغات حية وليست أشياء مجسدة وقابلة للتجزئة، ولكنها كالسحب الغائمة. تصنيف شيء ما "بالفرنسية" أو "الإيطالية" ملائم بالنسبة له، ولكنه لا يعكس حقيقة تصوره. على طلبته أن تكون لهم تجاربهم أيضاً. إنّ ما نسميه "اللغة" بالنسبة إلى ألكسندر مختلف بشكل بسيط في حدود مفهوم اللغة. قال: "بالنسبة لي، عندما أريد أن أتعلم اللهجات الرومانسية والجرمانية، فقط ضعني في البيئة، وستأتي مفعمة بالحيوية، وستبنى من خلال ساعات طويلة من الدراسة المقننة للغات الأخرى". حتى لو شرع اليوم بتعلم لغة أخرى لا ترتبط بما يعرفه اليوم. قال: "أريد أن أحدد ساعات أقل في المقارنة مع ما سبقها".

الباحة المُضاءة بالشمس، بوسطها نافورة جافة ومتشققة أغرتنا للتوقف. قال: "هكذا أرى متعددي اللغات؛ هناك ثلاثة أنواع منهم: النوابغ وهم أشخاص نادرون، ومتميّزون بأي شيء يقومون به، وأحد هذه الأشياء هو اللغة. وهناك أشخاص جيدون في اللغات فقط، مثل ميزوفانتي، والذي تتأتى له بسهولة. وهناك أشخاص مثلي يرغبون في العمل الكثير جدًّا، وكل شيء نكتسبه لاحقاً يكون بفضل العمل الجاد الذي بذلناه، ومعرفتنا جاءت من جهدنا، وأعتقد أن هذا النوع الأخير هو الذي ستهتم به أكثر: ما الأساليب التي لديهم ليعلموها للأشخاص الآخرين؟".

ينتابني شعور بالغباء والاشمئزاز من نفسي وأنا أمشي بجانب ألكسندر!

سألته عن رأيه في الأشخاص الذين لهم لغة واحدة فقط. أجاب: "أشعر بالأسف تجاههم". وأكد أن كل شخص متعلم عليه أن يتعلم ست لغات!

لاحظت أنه لا يحب إزالة التكلف أو التبسط في الرسميات، وأن ذلك يجعله غير مرتاح؛ فهو يضيق بالرسائل الإلكترونية التي لا تحمل



Twitter: @ketab_n

تحيات رسمية. ولا تعجبه مشاركات المنتدى لأنها غير "منهجية"، ويكن تقديراً كبيراً لعلماء عصر التنوير الذين اخترعوا أشياء، وكتبوا شعراً، وقاموا بأبحاث علمية، وتعلموا الكثير من اللغات. في ذلك المجتمع المتزامن، كان هناك نقص في الأشخاص متعددي الجوانب الثقافية نسبيًّا، الأمر الذي يؤخذ كعلامة على زوال الحضارة. ومن المفهوم أنه عانى كثيراً في الاندماج مع المنظمات الحديثة. وعندما تخرج من الجامعة، قال له الأستاذ إن طموحه لتعلم العديد من اللغات يمكن أن يصمه بالهاوي، وليس بالعالِم، وما زال هذا الوصم بعد عدة عقود يؤرق ألكسندر جدًّا، والذي استمر ليثبت أن الأستاذ كان على خطأ.

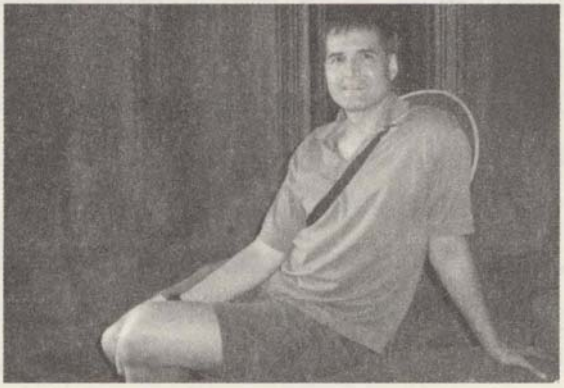

**ألكسندر أرغيليس في أنغكوروات، كمبوديا، 2011**

عندما عدنا إلى السيارة، سألته إن كان يقرأ الصحف للتدرّب على لغاته، تخيلت أن متعدد اللغات المفرط شخص مطلع ويناقش الأحداث الجارية في العديد من المدن.

أجاب: "هل تعرف بم يسمي اليونانيون الصحيفة؟ إنهم يسمّونها Ephimerida، وخزته فاجأتني.

قلت: "لا. إذاً؟".



Twitter: @ketab_n

تجنب الإجابة، وقال: "لا؟".

يرى ألكسندر نفسه كثائر. هناك العالم الذي يقود الناس إلى التخصص في تخصصات ضيقة من المعرفة، وهناك ألكسندر الذي يريد أن يعانق جميع الآداب، وجميع الناس، مع أنه نموذج لكل اتجاه يشجبه، ومع ذلك فهو يعرف العديد من اللغات، ودراستها تمثل تقريباً كل ما يقوم به! (للتأكيد، تأمَّل كيف يوثِّق كل دقيقة في عمله مع اللغة الأجنبية).

سحب جهاز الحاسب المحمول من فوق طاولة المطبخ الأنيقة، وأراني كيف يعمل. منذ سنوات، عندما بدأ أول مرة في طريق متعددي اللغات، كان يكتب على ورقة الرموز الجرمانية أو الصينية، والآن يستخدم جداول "الإكسل" والأرقام العربية. في عمود يكتب عدد الصفحات التي أتمها في الغرفة؛ إذ إنّه يخصص خمس عشرة دقيقة للصفحة، ويحسب المجموع النهائي من الساعات لكل لغة ولكل عائلة لغوية مفصلة بالدقائق في كل يوم. وعند سؤاله: كم الوقت الذي استغرقته للكتابة باللغة الألمانية؟ يمكنه أن يقول لك وعيناه مغمضتان: "سبعاً وخمسين ساعة!". هو أيضاً يحسب ساعات قراءته السردية، والاستماع إلى الكتب الناطقة أثناء الجري، ويقوم بالتدرّب على القواعد والمراجعة، والتتبع.

لاحظت أنه لا يتحدث مطلقاً عن أجزاء من اللغة أو الأشياء التي تثير لديه المتعة، وينفعل عندما أسأله إذا كان يفضل أحرفاً صوتية أو جملاً فعلية أو تناغم أصوات. ويتكلم بصرامة عن وحدات من الزمن لكل مادة. هو مثل الشخص الذي يحب الطعام، ولكنه يهتم بمعرفة السعرات الحرارية أكثر من اهتمامه بنكهة الطعام نفسه.

كم من الوقت نتحدث عنه هنا؟ خلال الأيام 456 الماضية، بناءً على جدول ألكسندر، فقد أمضى 4454 ساعة (تقريباً 40 في المائة من 10944 ساعة للأيام 456) في دراسة اللغات، ورتبها تنازليًّا بمجموع الساعات التي قضاها في الدراسة:



Twitter: @ketab_n

| | | | |
|---|---|---|---|
| الإنجليزية | 456 ساعة | الألمانية المتوسطة[2] | 17 ساعة |
| العربية | 456 ساعة | الدنماركية | 17 ساعة |
| الفرنسية | 357 ساعة | الأنجلوسكسونية | 14 ساعة |
| الألمانية | 354 ساعة | الفرنسية القديمة | 14 ساعة |
| اللاتينية | 288 ساعة | الإفريقية | 12 ساعة |
| الصينية | 243 ساعة | النرويجية | 12 ساعة |
| الإسبانية | 217 ساعة | القسطانية[3] | 12 ساعة |
| الروسية | 213 ساعة | السواحلية | 12 ساعة |
| الكورية | 202 ساعة | الأوكرانية | 10 ساعات |
| السنسكريتية | 159.50 ساعة | النوردية الجديدة | 8 ساعات |
| الفارسية | 153 ساعة | البلغارية | 8 ساعات |
| اليونانية | 107 ساعات | السلافونية الكنسية القديمة[4] | 8 ساعات |
| الهندية | 107 ساعات | العبرية | 8 ساعات |
| الغيلية | 107 ساعات | الإنجليزية المتوسطة | 7 ساعات |
| البولندية | 102 ساعة | الفريزية | 7 ساعات |
| الأيسلندية | 83 ساعة | اللغة الألمانية العليا القديمة[5] | 6 ساعات |
| الصربية الكرواتية | 57.50 ساعة | السويدية القديمة | 5 ساعات |
| السويدية | 51 ساعة | الغيلية الإسكتلندية | 4 ساعات |
| الكتلونية | 44 ساعة | الغيلية مانكس[6] | 4 ساعات |
| النوردية القديمة[1] | 40 ساعة | الويلزية | 4 ساعات |
| الإيطالية | 39.50 ساعة | البريتانية[7] | 4 ساعات |
| البرتغالية | 37.50 ساعة | الكورنية | 4 ساعات |
| التركية | 34.75 ساعة | التايلاندية | 4 ساعات |
| اليابانية | 30 ساعة | الإندونيسية | 4 ساعات |
| الرومانية | 26.25 ساعة | الفيتنامية | 4 ساعات |
| اللغة الإغريقية | 22 ساعة | | |

(1) النوردية القديمة: وتسمى الأسكندنافية القديمة، وهي لغة جرمانية كان يتحدثها سكان إسكندنافيا خلال عصر الفايكنغ وحتى القرن الرابع عشر. (المترجم)

(2) الألمانية المتوسطة: اللغة المحكية في جنوب ووسط ألمانيا من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. (المترجم)

(3) القسطانية: لغة من عائلة اللغات الرومانسية، تنتشر في جنوب فرنسا وشمال غربي إيطاليا وشمال شرقي إسبانيا. (المترجم)

(4) السلافونية الكنسية: هي اللغة الأساسية في الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء. (المترجم)

(5) اللغة الألمانية العليا القديمة: هي اللغة الألمانية التي استخدمت في الفترة من عام 750م إلى عام 1050م. (المترجم)

(6) الغيلية مانكس: هي لغة من عائلة اللغات الهندوأوروبية، يتحدث بها بعض سكان منطقة مانكس، بمحاذاة البحر الإيرلندي في شمال أوروبا. (المترجم)

(7) البريتانية: هي اللغة التي تحدث بها سكان منطقة بريتاني في فرنسا، وتنتمي اللغة إلى عائلة اللغات الهندوأوروبية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

كما أنه يمضي من نصف ساعة إلى ثلاث ساعات وهو يدرس لغات أخرى عددها سبع وستون. قال: "يمكن ألاّ أجد الفرصة لأتعلم الكازاخستانية، ولكني أريد أن أعرف كيف يبدو صوت اللغة الكازاخستانية، فإذا سمعت أناساً يتحدثون الكازاخستانية في الطريق، أستطيع أن أقول (هذه هي)".

قررت أن أقابل أيفن والد ألكسندر، الذي يمكن أن يعطيني صورة عن سنوات مراهقة ألكسندر، توقعته شخصاً فظًّا ومتحفظاً، ولكن عندما جاء ليوصلني، رأيت رجلاً أشعث في بداية السبعين من العمر، شعره الأبيض متدلٍّ على نظارته الدائرية. تلمح في كلامه لباقة ألكسندر، ويستطيع أيضاً التحدث بساعات عن السعي المتقد في تعلم اللغات إذا أعطي الفرصة.

عندما انتقل أيفن وتوأمه جوزيف إلى مانسكوتا من المكسيك في نهاية الأربعينيات، كان تلاميذ المدرسة الآخرون يسخرون منهما قائلين: "أنتما لستما أمريكيين، أنتما من الهنود الحمر". وللاندماج مع المجتمع توقفا عن التحدث بالإسبانية. في الصف التاسع وقع في حب اللغة اللاتينية، لأنها تشبه الإسبانية، لغة أبيه المكسيكي.

كان هو وأخوه أثناء المراهقة مشاغبيْن، ويعامل كل منهما الآخر بسلوك عدوانيٍّ عنيف، وقسّما العالم إلى نصفين، حيث اتجه أيفن إلى الشعر واللغات، بينما اختار جوزيف عالم الفن، وفي النهاية حصل على الدكتوراه في تاريخ الفن[1]. أيفن التهم اللغات الرومانسية، فقد وجد

(1) الغرابة تضرب بأطنابها في جذور هذه العائلة، فجوزيف غير اسمه لاحقاً إلى خوسيه، وأضاف علامة صوتية إلى أرغيليس لتصبح أرغيس. كان أيفن يقول له: "أنا لا أعرف إلى أي مدى تعرف عن الثقافة الحديثة؟". ولكن خوسيه أصبح شخصاً مهمًّا في حركة العصر الحديث الفنية. في السبعينيات، أنشأ ما يسمى "بالتقارب التوافقي"، وفي فترة لاحقة توقع فناء البشرية، بسبب أن التقويم الميلادي الذي



Twitter: @ketab_n

مـوادّ بالفرنسـية والإيطاليـة والبرتغاليـة فـي المكتبة، وبحـث عن قصص وكتـب بالكتلونيـة والبروفانسـية[1]، ووجـد قصصـاً بالرومانيـة العامية في متجـر للكتـب القديمة في شـيكاغو. قـال: "أصيبـت أمي بالدهشـة عندما تحدثت الرومانيـة أمامها". كانت اللغة اللاتينية أساسـية في الكلية، واللغة الإغريقيـة أيضـاً التي قادتـه بدورهـا إلـى السنسـكريتية، وقفـز بعدها إلى الهندية والبنغالية، والسـريلانكية، والنيبالية، مع الانعطاف إلى الفارسية[2]. وجميعها - باسـتثناء اللاتينية والفرنسـية والإيطاليـة - كان يتعلمها خارج الفصل الدراسـي. وهـو يعـرف أيضـاً الألمانيـة، والإسـكندنافية القديمة، والأيسـلندية القديمة، والروسـية، والعربية، والصينية. قال أيفن: "يذكرني ألكسندر بنفسي عندما كنت أتعلم السنسكريتة بعد الاستحمام في الصباح والمنشـفة لا تزال علـى رأسـي". كان من السـهل تخيله بهـذه الهيئة؛ كان ألكسـندر الصغير يسـير على خطـاه، ثـم تخيّلت أيفـن في طابور السـوق التجاريـة محنيـاً علـى عربـة التسـوق وهو يقـرأ ويبحـث في أحـد الكتب الأجنبية، وعندما يكون قادراً على القراءة بهذه الطريقة، فإنه يعرفها حقاً.

من المؤكد أن مرض ماكس حرك شـيئاً ما في ألكسـندر ابـن الرابعة

---

يتضمن اثني عشر شهراً كان من وجهة نظره لا ينسجم مع الطبيعة. وكتب خوسيه: "إن جميع الكواكب تعمل بتقويم خاطئ، وتعيش في الترتيب الزمني الخاطئ والمزيف". كان يعرف لسنوات طويلة باسم (فاليم واتن وروج)، وقال إن عام 2012 سيكون نهاية العالم؛ لأنه يصادف نهاية التقويم التاريخي الذي وضع من دورة المايا، وبعد مرض قصير توفي في مارس عام 2011. (المؤلف)

(1) اللغة البروفانسية: من عائلة اللغات الرومانسية، يتحدث بها في مقاطعة بروفانس في فرنسا. (المترجم)

(2) قال أيضاً إنه يستطيع قراءة الروايات الحديثة بالهندية والبنغالية بسهولة، وكانت قلة المواد الدراسية في هذه اللغات تدهشه؛ خذ البنغالية مثالاً، التي تأتي في المرتبة السادسة من اللغات الأكثر استخداماً في العالم، بعدد 181 مليون متحدث لها. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

عشرة. قال والده: لم يبقَ الولدان معاً مدة طويلة، والولد الكبير شعر بالذنب خوفاً من أنه ربما يكون السبب! لتوفير عناية أفضل لماكس انتقلت العائلة من نيويورك إلى كاليفورنيا، وهذا الأمر فاقم من جرح ألكسندر. قال أيفن إنه ينظر إلى ألكسندر وكأنه بداخله "وعمليًّا اختفى كشخص". عمل أيفن في النهاية أمين مكتبة في جامعة كاليفورنيا في بيريكلي، فكان يصنف المواد في اللغات الأجنبية، من ضمنها اليونانية الحديثة، وبعض المواد من جنوب آسيا، كما أصبح شاعراً شهيراً.

قال أيفن: "كان من الطبيعي أن نولي ماكس اهتماماً أكثر، ولكنا كنا مدركين لوجود ألكسندر، ونحرص على أن نكون جيدين معه بقدر ما نستطيع. ولكن لا أعتقد أن ألكسندر أدرك حرصنا بهذه الطريقة، أعتقد أنه يشعر بالرفض. وعندما وصل ألكسندر إلى سن المراهقة كان لديه القليل من الأصدقاء، وبلا صديقات، الأمر الذي أقلقنا. ولكن عندما عاد يوماً إلى البيت بأسطوانة أغاني تويستد سيستر ووألفيس كوستيلو، شعرت بالراحة لأن الولد بخير!".

حسب أيفن، لم يكن ليربي ألكسندر ليصبح متعدد لغات مفرطاً، بالطريقة التي يحضر محب كرة القدم ابنه في الملعب لرمي الكرة ويطمح أن يكون مشهوراً، إنه حتى لم يعرف أن ألكسندر كان يتعلم اللغات حتى صارحه بهذا بعد سنوات تالية. كان مذهولاً عندما أخبره ألكسندر، باعتباره بالغاً ويتعلم اللغات.

سألت أيفن إذا كانت فكرة أن ألكسندر عرف أكثر مما عرف هو تزعجه؟

قال: "أوه، لا أشعر بأي مشكلة على الإطلاق. كنت أقول له مازحاً: لك أن تحتفظ باللغات الجرمانية، ولكن دع لي اللغات الرومانسية".

كان أيفن في الأربعين عندما قرر أن يركز على اللغة الهندية، الأمر الذي كان يعني التوقف عن اللغة الصينية. فقد أدرك أن اكتساب المهارات


Twitter: @ketab_n

التي يريدها في الهندية - مثل قراءة الأدب - يتطلب الكثير من الوقت. "أعرف أن سنوات عمري محدودة، ولن أتعلم الصينية، أنا فقط أركز على ما أستطيع فعله".

أصبح مشغول البال، "سأكون في السبعين في يناير القادم. لاحظت أن كل عام يمر يقلل مقدار بقائي في الحياة على الأرض. وإذا كنت أحتاج وقتاً طويلاً للحصول على ما أريد، فالوقت قصير حتى قبل أن أصل إلى الشيخوخة. هذا ما أدركته في آخر سنتين. الإدراك الحقيقي عن حدود الإنسان".

إنه مثل ابنه يتلاعب بدقائق اليوم، ومع ذلك فهو مستمتع كثيراً مع نفسه. وبدون مساعدة من محفز، انتقل إلى درجة أخرى من التنوير في اللغة التي لا تحتاج إلى انتصار أو تودد؛ لأنها صديقته فعلاً. قال لي إنه سيتمكن من إنهاء الفارسية، وليس العربية، ومن ثم يريد أن يباشر التاميلية، ذات القواعد الممتعة التي يمجدها، وأثناء ما كان يتحدث كان الوقت يسرق الدفء من فنجان قهوته.

كنت مندهشاً من أنه لا أحد يعرف كم عدد اللغات التي يتحدث أو يقرأ أو يكتب بها ألكسندر، ولا حتى والده، على عكس الأشخاص الآخرين من مدعي تعدد اللغات المفرط، وكذلك الأشخاص المتابعين لتعليماته على موقع (اليوتيوب)[1] أيضاً. رفض ألكسندر - في الوقت الذي التقيته فيه - أن يحدد لهم عدداً، وأصر بقوله: "إذا أخبرك شخص بعدد اللغات التي يتحدث بها، فلا يجب عليك أن تثق بما قاله!".

قلت: "هيا، أخبرني. كم عدد اللغات التي تعرفها؟ أنا أثق بك!".

فاستعصى عن الإجابة، وآخرون معي ألحوا عليه، بدأت الأصابع ترتفع، ما زالوا يحسبون هذا الرقم. وقال: "إنهم لن يذهبوا بعيداً؛ لأنه لا

(1) موقعه على موقع اليوتيوب: ProfASAr's channel. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

يوجد الكثير من الأشخاص القادرين على تسمية العديد من اللغات".

قرأت لاحقاً مقابلة ذكر فيها أنه درس ستين لغة، ويستطيع القراءة بعشرين منها على نحو جيد.

وحتى عندما اعترف بالرقم (لأسباب عملية كما قال) لم يغير رأيه في أن الرقم الأولي للغات غير معتمد عليه؛ إنه طريق مختصر، طريقة للتحدث إلى الأشخاص الذين لا يستوعبون، والذي يخلق نوعاً من الغموض. ربط معارفه معاً كشبكة العنكبوت؛ فهو يربط المفردات الجديدة بأشياء أخرى.

"كيف تتذكر جميع المفردات؟". سألته في إحدى المرات.

رد في حسم: "ولماذا عليَّ أن أنساها؟".

- لأنها كثيرة!

- إذا درستَ أيَّ شيء بقصد واهتمام، فسيصبح جزءاً منك، وسترتبط بأشياء أخرى. لذا لماذا تذهب بعيداً؟

إنه محق في هذا، فنحن نتذكر الأشياء بوضوح أكثر عندما نربطها بأشياء أخرى، خصوصاً الأمور الشخصية والعاطفية القوية، والمثيرات الغريزية (مثل الجنس) أيضاً. يقول ألكسندر إنه لا يستخدم وسائل الاستذكار لتذكر الكلمات ونماذج القواعد باستثناء الموصلات الاشتقاقية التي يعرفها أصلاً.

ونحن جالسان في مكتبته بعد ظهر أحد الأيام، سمعت حواراً مؤثراً بين ألكسندر وابنه الأكبر الذي كان الفضول ينتابه لمشاهدتنا. كان ألكسندر يلاطفه قبل الانضمام إلينا، في بعض الأوقات من خلال قوله شيئاً عن اللغات، تلك التي تجعلني غير مرتاح بشكل جديٍّ.

ألكسندر: "سبتذهب إلى المدرسة الإسبانية العام القادم".

الابن: "لا، لا، لا!".

- لماذا لا تريد أن تتحدث بالإسبانية؟



Twitter: @ketab_n

- لأنها صعبة... صعبة.

- ماذا عن الإنجليزية أو الفرنسية؟

- ليست بصعوبة الإسبانية، ولكن الفرنسية أصعب قليلاً من الإنجليزية.

- لماذا؟

- لأنك عندما تبدأ في تعلم الفرنسية تقع في الأخطاء، ولا تخطئ بالإنجليزية إلا قليلا، ولكنك تخطئ كثيراً بالفرنسية واللغات الأخرى.

- إذاً، الإنجليزية هي اللغة البسيطة؟

- نعم!

قهقه الولد وخرج من الغرفة وهو يقفز بعيداً. ضحكت مع والده ولكن التفاعل كان حزيناً، ويشير إلى المفارقة بين اتجاه كل منهما، فالأب يميل إلى الاتساع في اللغات بعكس ابنه، أو يمكن أن يكون السبب أنه يريد أن يكون ولداه تابعين مخلصين لطقوسه وهما لا يزالان صغيرين. نحن نعزو القدرات اللغوية الكبيرة للأطفال، ولكن السعي وراء أسرارها، مثل السعي وراء العبادة التي يقوم بها الكبار فقط.

لم يعترض ألكسندر، ولكنه لا يريدني أن أتحدث عن الدماغ له أو لأي شخص آخر، وقال: "لن تجد أي أجوبة هناك".

في المرات القليلة التي سألته فيها عن الموهبة، والاستعدادات، أو أي شيء معرفي موروث، كان ألكسندر يخبرني أنه لا يملك أيًّا منها. شعرت أنه يعزو إنجازاته إلى الممارسة والسمة الأكاديمية في التعليم، والتدريب المكثف (التقليدي)، أو شخصيته بعبارة أخرى. وكان يقول: "بقدر ما تذهب "إرادة المرونة" في مداها، ركز على الإرادة، وليس على المرونة".

وبالإضافة إلى المرونة التي يتمتع بها كما يبدو، حيث إنه في بداية الأربعين من العمر، لا يزال يتعلم أشياء جديدة؛ فقد كيَّف مهامه بهدف



Twitter: @ketab_n

توسيع مهاراته المعرفية بدون أن يرهقها. ومن خلال القراءة والكتابة والاعتماد على القواميس إذا احتاجها، يمكن أن يكون أكثر استيعاباً في مهارة استخدام اللغة، وليس فعّالاً، وبطوليًّا. وأيضاً يمكن أن يقلق قليلاً من معلوماته باللغة الإنجليزية وإمكانية تداخلها مع ترتيب الكلمات نتيجة الاختلافات النحوية في اللغات الأخرى، بسبب أنه لا ينتج جملاً جديدة في الوقت الحقيقي. تمارينه في التتبع جعلت طريقة الألفاظ مألوفة بالنسبة له، ولكنها لا تهيئه للتعامل مع آداب الثقافات المختلفة. ومع ذلك، فهو لم يتضايق من نقص هذه المعرفة لديه. فهو يستطيع القيام بالآداب المتوقعة والمطلوبة في الثقافة الإنجليزية، والكورية، والألمانية، والفرنسية. ويقول إنه لو قضى وقتاً كافيًا في البلد يمكنه أن يجمع المصادر التي يعرفها ويتكلم إلى الناس. كما أنه قلل من التحديات التي يواجهها من أجل اكتساب اللكنة المحلية.

ذات مرة سخرت منه "زمرة" من النقاد الذين يظهرون دائماً سطحيين بإصرارهم على أنّ النقص في اللغة يكمن في عدم الطلاقة في أداء اللكنة لأصلية لها (مع أنه شيء مستحسن، ناهيك عن إمكانية إحرازه).

لغات ألكسندر جعلته أكثر فعالية في تعلم لغات أخرى، فمن المعروف أنه من السهل تعلم لغة ثانية تنتمي إلى العائلة نفسها، وهذه حقيقة (لاختصار الوقت المستغرق في حفظ المفردات، على سبيل المثال). ولكن ألكسندر وآخرين بقدراته نفسها يمكن أن تكون لهم فائدة من تجاربهم في العائلات اللغوية. فالأشخاص أمثاله يشحذون أساليبهم في التعلم الفعالة بالنسبة لهم، ويستخدمونها كثيراً. ومع وجود لغة جديدة، فالوقت لديه أسهل لالتقاط أصواتها وأنماطها، ولكنه يحتاج إلى خمس لغات أو ست قبل أن يصبح عمله الكبير ساري المفعول.

ادعى شخص التقيته مؤخراً أنه يستطيع "فك رموز" الأفعال العربية،



Twitter: @ketab_n

التي تدرس على صيغة الفعل الماضي أولاً، لأنها الأقصر. ثم يتعلم الناس الفعل المضارع، الذي يكون أصعب في التعليم لوجود السوابق واللواحق، والأفعال غير المنتظمة. وجد هذا الشخص أنه من الأسهل تعلم الفعل المضارع، ومن ثم الانتقال إلى الماضي. قال فرحاً: "وضعتُ قانوناً جميلاً جدًّا، وبدون استثناءات تقريباً، وهذا يعني أن النظام كان رأساً على عقب لقرون!". شخص آخر أيضاً يقول إن لديه نظاماً لتعلم نبرات اللغة المندرينية، والهمونغية[1]، والتايلندية، والتي تتطلب التدرب على جميع تراكيب النبرات المتاحة. لقد قام بهذا بالأساس للمساعدة في إدراك الصوت وإصدار النبرات، وكذلك لمعرفة كل نبرة على حدة. وفي النهاية ستكون قادراً على معرفة التحولات في النبرات، وأي النبرات معدلة.

كما أنهم يستطيعون استثمار تراكيب اللغات الأجنبية بتميز، فقد كان لمتعددي اللغات المفرطين ردود أفعال (عاطفية) تجاه اللغات التي تثيرهم أو يعرضون عن تعلمها. قال ألكسندر إنه لا يحب الأصوات التي تنطق بها اللغة المندرينية، وكان من السهل عليه التوقف عن العمل بها. وهناك امرأة أتقنت أربع لغات أثناء دراستها في الكلية، ثم ذهبت للخدمة في الجيش كمترجمة فورية للغة الروسية، أحجمت عن تعلم اللغة العربية أثناء خدمتها في العراق لأنها تمثل لغة الخصم في اعتقادها. وقال رجل إنه اختار في المرحلة المتوسطة اللغة الألمانية بدلاً من اللغة الفرنسية لأنه ينظر إلى الفرنسية كلغة "ذات طابع أنثوي"، تلك هي الفكرة التي علقت في ذهنه لعقود!

ليست جميع أجزاء قواعد اللغة سهلة الفهم. كريستوفر "متعدد اللغات المتوحد العبقري" يرتبك في فهم معنى الكلمة الغامض في اللغة

(1) الهمونغية: لغة تتحدث بها مجموعة عرقية آسيوية من سكان المناطق الجبلية بفيتنام ولاوس وتايلاند وبورما. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

التي وضعها له الباحثون، والتي تعتبر سهلة لدى المتحدثين العاديين (الكلمة تعني شيئاً مختلفاً حسب موقعها، سواء ألحقت بكلمة ثانية في الجملة، أو وردت في سياق جملة أخرى). متعدد اللغات الذي "فك" رموز العربية، قال إن تعلم الأفعال باللغة الروسية أرهقه، فكما هو الحال في العديد من اللغات، هذه الأفعال بنموذجين: واحد من الفعل المنتهي (الفعل التام)، والآخر للفعل غير المنتهي (الفعل الناقص). في الروسية قاعدة الفعل التام والفعل الناقص معقدة، وفيها العديد من الاستثناءات؛ لدرجة أنه يعتقد أنه ينبغي أن يعيش بين عائلة روسية ليفهم الفعل بشكل صحيح.

عانى ميزوفانتي العظيم نفسه من انهيار عصبي بعد صراعه مع المندرينية الصينية في نيبال، ونسي لفترة جميع اللغات التي يعرفها باستثناء لغته الأم، البولونية.

هل لدى ألكسندر قدرة تحليل عالية؟ هو لم يخمن أيضاً مثل هذه الأسئلة. إنه يبدو منسجماً بشكل غريب مع ما يقال عن تعلم اللغة بشكل واسع. حاولت مرة أن أخبره عن بحث قامت به مجموعة صغيرة من متعلمي اللغة الهولندية وعن حقائقه التي ساهمت في نجاحهم. في البداية استمع إليّ باهتمام، ومن ثم أوقفني قائلاً: "إنهم فقط مجموعة صغيرة من المراهقين. كيف يمكن أن يساعدوا الأشخاص الآخرين في تعلم الهولندية؟". أحصيت له بعض الحقائق التي قد يقدمها تعلم اللغات الاستثنائية، ولكنه أصر على رأيه، خشية أن يعترف بوجود بعض المواهب الفطرية لديه.

نظرت إلى كلامه بتقدير للحظات، ومن ثم جمعت أفكاري وقلت له: "بالنسبة إلى علاقة التحدث بالدماغ، أريد أن أتعلّم منك عن قرب وبهدوء. بُح لي بسرك، قل ما الذي يحفزك؟ أنت تتبع لغات البشر، كل واحدة منها بتناغم غني بالطبقة الصوتية، إلى المكان الذي تصبح فيه



Twitter: @ketab_n

أسهل لغة بشرية. ثم نظرت إلى مركز اللغة الكامنة في رؤوسنا وهي تشع بسرها السرمدي. ومع ذلك، عندما أسالك: لماذا أنت قادر على فعل ما تفعله؟ لا تستطيع أن تقول مقطعاً واحداً! قل، الدماغ!".

إذا كان ألكسندر لم يشبع فضولي عن محتويات جمجمته، فقد كان صريحاً إلى درجة محبطة عندما ركزت اهتمامي على زياد فصاح، فقد استهجن الطريقة التي قام بها زياد في تشويه سمعة متعدد اللغات بأدائه، على حسب تصوّره لهذا الأمر. وخلال يومين من زيارتي، كشف لي أنه عندما كان في بيروت، وجد أشياء عن فصاح لم تكشف في منتدى متعددي اللغات. فهو - أي فصاح - قال إنه تعلم العديد من اللغات من البحارة، ولكن ألكسندر نفى هذا متهكماً: "لم يكن هناك أيّ بحارة. هل هناك بحارة من أذربيجان يمشون في طرقات بيروت؟ أين هم؟ لم أر أحدهم!".

ادعى فصاح أيضاً أن لديه شهرة مع الدبلوماسيين المحليين. قال ألكسندر: "بعد ثلاثين سنة تالية، لم يسمع أحد في بيروت عن فصاح، في الوقت الذي تظن فيه أن الشخص الذي قام بمثل هذا النوع من الإثارة ينبغي أن يكون معروفاً جدًّا. لديَّ بعض المعارف من الصحفيين، وطلبت منهم البحث في الأرشيف في العقدين الماضيين عن أي تقرير عن زياد، فلم يجدوا أي شيء".

وأضاف: "أيًّا كان الأمر، إن هناك تزييفاً للحقائق. فهو يقول إنه أخذ المواد التي احتاج إليها في تعلم اللغات من المكتبة العامة ببيروت. حسناً، لم تكن هناك أي مكتبة عامة حين كان يعيش هناك! والمصادر لم تكن متاحة! وأستنتج أن كل شيء كان من قصص بورخيس الوهمية". أعتقد - لأكون صريحاً - أن الذي كتب عن أشخاص ذوي قدرات دقيقة في الذاكرة، والذين عجزوا عن التذكر، وعن مكتبة في بابل تحتوي على ترجمات لا نهائية لكل الكتب التي كتبت في العالم؛ الرجل الذي يعرف



Twitter: @ketab_n

كل لغة يتحدث بها، ومع ذلك فهو لا يستطيع قول أي شيء لأي شخص، يبدو من شخصيات بورخيس الرئيسة. لذا، هل لمتعدد اللغات أن يحكم على متعدد لغات آخر من دون أن يقابله وجهاً لوجه، مكتفياً ببعض الأدلة والقرائن؟

حدثني عن مدون اسمه راين بوث الذي ذهب إلى البرازيل والتقى "فصاح". وأضاف ألكسندر: "إنه يؤمن بقدرات فصاح". هذا مثير، كما أعتقد. كل تعددية اللغات المفرطة مهمة بالاعتقاد وليس بالحقائق؛ وعلى هذا الأساس يستطيع الشخص الاعتقاد بوجود الرجل العملاق والكائنات الفضائية. لاحقاً، قال لي بوث إنه لم يكن يعتقد أن "فصاح" يتحدث تسعاً وخمسين لغة بطلاقة. ولكن - كما قال - "ليست المسألة أنه يتحدث تسعاً وخمسين لغة بطلاقة، أو لا يتحدث أي لغة على الإطلاق".

وأضاف: "لأكون صادقاً، يبقى كلام أولئك الذين يقولون إنهم يتحدثون العشرات من اللغات مجرد ادعاء مضلل ما لم يؤكدوا قدراتهم بتقارير محددة. مثل: إن فلاناً فصيح بثلاث لغات، ومطّلع على عشرين لغة، ويستطيع القراءة بثلاثين لغة أخرى بسهولة، وسيكون موضع علم وفهم أفضل. إن التحدث باللغات الأجنبية مهارة مثل مهارة العزف على البيانو، فعندما تحصل على هذه المهارة، ليس من الصعوبة أن تسترجعها مرة أخرى بعد سنوات من تركك لممارستها".

عرض بوث اختباراً لفصاح الذي وافق عليه في البداية، ما دام سيحصل على المال منه. ولكن عندما انقطع الاتصال، اختفى فصاح.

من بعيد، يعتبر متعددو اللغات المفرطون نموذجاً مشرقاً من البشر، مثل أبطال الأسطورة الذين يحدوهم الأمل في بناء البرج الذي يصل بهم إلى السماء، ونطمح أن نعيد معهم الكرة.

.....

لنعد إلى ألكسندر، سنراه جالساً وهو يدرس على ضوء الشمس،



Twitter: @ketab_n

أنظر إلى الجداول، وأشرطته، وكتبه المكدسة على الأرفف، وغرفة معيشته الفارغة، وثلاجته الخاوية. يمكن أن يكون ألكسندر العظيم في اللغات نوعاً من متعددي اللغات، ولكن حياته - في الحقيقة - بعيدة كل البعد عن العظمة. فقد عانت عائلته كثيراً أثناء هروبها من لبنان، وعمل في بعض الفصول الدراسية في كلية صغيرة أغلقت لاحقاً بسبب الأزمة المالية في عام 2008، وأعطي مبلغاً من المال للإنفاق على احتياجاته اليومية لمدة طويلة. عندما التقيته، كان يعيش من منحة العاطلين عن العمل، بالإضافة إلى ما يكسبه من الترجمة إلى الكورية.

بالنسبة لي، شعرت أنه خذلني لأنه لم يساعدني مع فصاح، ولم يوافق على إجراء اختبارات القياس في اللغات. ثم بعد زيارته مرتين وكتابة ساعات لمقابلتنا، صار تعاملنا أبسط، ثم أصبحت أنظر إليه كرجل مقدس.

بالإضافة إلى تمارينه في اليوغا، يقوم ألكسندر بتمارين القواعد، ويحسب تقدمه في اللغة خلال الساعات؛ كما يفعل الرهبان عندما يعدون قائمة بالقرابين، والدرويش اللغوي الذي يُلهَم من خلال نشوته الفائضة، وهو الرجل الذي لا يحتاج إلى مدرسة أو منظمة، ولكن جعل بيته مكاناً لمتعدد اللغات المفرط. ليس غريباً أن قناته في موقع "اليوتيوب" عدد مشتركيها بالآلاف، والعديد من أصدقائه على الإنترنت يحدوهم الأمل في أن يكونوا متعددي لغات مفرطين، ويحترمونه، ويبحثون عن دروسه، ويريدون أن يلمسوه. ربما استطاعوا الحصول على بعض موهبته، ولم أكن بعيداً عن ذلك.

سألني ألكسندر، المعلم الروحي لمتعددي اللغات المفرطين: "ما اللغة التي تريد أن تتعلمها؟ يمكن أن تتعلم واحدة وأنت هنا". كان يشع بالتفاؤل الذي ينقصني.

"لقد حاولت تعلم المندرينية الصينية، والإسبانية من قبل، وجذبتني



Twitter: @ketab_n

الهندية لأسباب معينة". (ولم أخبره بالروسية حتى الآن).

"يمكن أن تقوم بكل هذا!".

قبل سنتين، شعرت أن ذهني يحتاج إلى نوع ما من التدريب العقلي الذي أستطيع أن أحصل عليه من خلال تعلم اللغات بمهارة القراءة، وكانت الروسية هي الأنسب لهذا الغرض. لذا التحقت بمركز تدريب تابع لكلية المجتمع، مستمتعاً بكوني هنا وسأعمل بجد. المدرس غير المتفرغ كان من غير المتحدثين الأصليين باللغة الروسية. كان رجلاً قصيراً في الستين من عمره، ربما يكون شخصاً أخفق في مرحلة الدكتوراه، واستقدم لتدريس لهجة سكان موسكو، سأعطيه اسماً ما، ليكن "نامق".

كنت أطفو فوق سحابة من المشاعر الجميلة في هذا الفصل. كنت أقوم بواجبي كمواطن عالمي، وأوسع من آفاقي، وأصبحت أكثر قرباً من الثقافات الأجنبية. وبسرعة حلقت هذه التجربة بعيداً، فبدلاً من التحدث بالروسية، تعلمت الصمت! كنتُ هناك في بداية القرن الحادي والعشرين، وكنا نقرأ جملاً غير مفيدة من الكتب ونشير بأصابعنا إلى الصور.

- إنه فيل؟

- نعم إنه فيل!

مرت ستون سنة منذ أن بدأ البحث العلمي في أبجديات تعلم اللغة الأجنبية واكتساب اللغة الثانية، ولا واحدة منها لامست معرفة السيد نامق الذي يدرس قواعد اللغة الروسية بهذه الطريقة، يكتب القاعدة على السبورة، ويعطي القليل من الأمثلة، ويدع الطلبة يقرأون، ثم ينتقل إلى القاعدة التالية. يدرس كالراقص المتعَب. وفي انتهاك لمبادئ أخرى، قام بتكديس الأبجدية السيريلية[1] والحروف المتصلة في القراءة والكتابة في أعلى القواعد والمفردات. كأنه فصل طبي بلا أدوية. حتى زميلتي، تلك

(1) الأبجدية السيريلية: أبجدية منسوبة إلى القديس سيريل، ولا تزال أشكالها الحديثة تستخدم في صربيا وبلغاريا وروسيا وفي بعض اللغات السلافية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الطالبة التي كانت تعيش في موسكو، ظلت ذاهلة وصامتة، وتبخرت المشاعر الجميلة.

تالياً، التقيت أندرو كوهين المتخصص بعلم اللغة التطبيقي في جامعة مينيسوتا، وهو متعدد لغات مفرط أيضاً - درس ثلاثين لغة كبالغ، وتعلم أربعاً منها إلى درجة عالية جدًّا - ويوافقني الرأي بقوله: "إننا نحشو رؤوسنا بالكثير من القواعد غير المفيدة؛ فهي قواعد لأنواع محددة من أدوات التعريف والتنكير التي نستخدمها في اللغة الإنجليزية. أنا أعرف أن الطلبة الآسيويين دارسي اللغة الإنجليزية لديهم قوائم طويلة من سبع وخمسين قاعدة لها، ويحفظون استخداماتها، والمتحدث الأصلي للإنجليزية فقط يعرف ما هي. ولكن، لِمَ أنفق كل هذا الوقت والجهد دون جدوى؟

عندما كنت أتعلم اليابانية، أخذنا درساً في اللغة عن شراء ربطة العنق في محل أنيق في طوكيو، وكان علينا أن نحفظ كلمات للاختبار مثل: (خافت/ مبهرج/ منقوش/ قماش/ منقط/ مخطط...). كنت أقول لنفسي: "لماذا؟ فأنا عندما أشتري ربطة العنق لا أتحدث مع أي شخص، بل ببساطة، أذهب إلى حامل الملابس وأنتقي ما يروقني. لماذا يجعلني هؤلاء الأشخاص أتعلم مثل هذه الأشياء؟". وهناك درس آخر يتعلق بالتحدث مع الطبيب عن نوع الإسهال الذي أعانيه. فإذا كنتُ بهذه الدرجة من المرض، فمن المؤكد أني سأذهب إلى طبيب أمريكي أو على الأقل من يتحدث اللغة الإنجليزية؛ ففترة المرض ليست الوقت المثالي لتعلم اللغة!".

استمر عذابي مع السيد نامق؛ لأنني أقلمت الدروس على احتياجتي الخاصة، فتوقفت عن كتابة الواجبات بالحروف المتصلة على سبيل المثال، لأنني قد كبرت جدًّا على تعلم الخط، والنتيجة أنه أعطاني درجة الرسوب؛ ولم أكن أساساً بحاجة إلى الدرجات. ومما فاقم الوضع أكثر



Twitter: @ketab_n

أنني كنت أجلس في الصف الأخير من الفصل بجوار طالبة مشاغبة في المرحلة الثانوية تدعى إليزابيث، والتي كانت تأخذ هذه الدروس لمجرد المتعة. وعندما أصر نامق على أن نتحدث تامة المعنى "بالروسية الصحيحة" كما يتحدث الروسي فقط في الجمل تامة المعنى، تمتمت إليزابيث بأغنية "المطر عند الإسبان، يهطل في الوديان".

كان عليّ الانسحاب، ولكني لم أفعل، فقد كنت أريد أن أتعلم الروسية، لذا اخترعت بعض الألعاب للقيام بهذا تشبه تلك التي يمارسها السجين. إنها المنطق السليم عندما تُعلِّم المفردات عن أفراد الأسرة، فإنك تطلب إحضار صور أفراد الأسرة الحقيقيين، لتلامس عواطف الشخص، وتساعده في التعلم. استخدمت هذه الطريقة عندما كنت أدرس الإنجليزية في تايوان. "نامق" لم يبذل مثل هذا الجهد، بل وضع لنا صوراً خيالية... هذه أمي، هي طبيبة، هذا أبي، هو مهندس معماري!

"الحل المثالي هو التغلب على هذه السخافة". قلت لإليزابيث.

"هذه أمي". وأشير إلى صورة تخيلية، وأقول بصوت عال للفصل..." هي تعمل في إسفلت الطرق!".

قالت اليزبيث: "وكذلك أمي".

"هذا أبي، إنه طبيب بيطري للفيلة!".

"وكذلك أبي!".

ضحك بعض الحاضرين، والأغلب كانوا مندهشين. ابتسم نامق بتكلف وقال: "في الاتحاد السوفياتي كان مطلوباً من الناس أن ينتجوا حصصاً معينة. وهذان الاثنان مثل الشخص الذي ينتج أكثر من حصته".

لم يكن نامق سعيداً بتصرفاتي. وفي أحد الدروس أعطانا اختباراً عمليًّا لا يقيس ما تعلمناه، وكان ذلك الأمر القشة التي قصمت ظهر البعير. قلت له بغضب إن الاختبار ليس عادلاً، فاتهمني ظلماً بالتقصير، وكأنني متعلم صغير. كنا على وشك أن نتشاجر في مقدمة الفصل،



Twitter: @ketab_n

فاحتمى بعيداً، وخرجتُ ولم أعد.

كل ما تعلمته هناك، هو ثقتي في نفسي عندما أذهب إلى موسكو يوماً ما، حيث سأتمكن من نطق كلمة (فيل) على نحو صحيح!

سألني ألكسندر: "ما الذي تريد أن تتعلمه؟".

قلت: "الهندية".

وكانت الهندية.

في حديقة قريبة، التقينا شخصاً طويل القامة، وخريج جامعة بيريكلي اسمه جوستين، وصار لاحقاً يثير حنق ألكسندر، معلمه، بعدم قيامه بالتتبع كما يوصف له. لذا أمره متعدد اللغات بالذهاب إلى منطقة منحنية في طريق ظليل، ثم العودة إلى الشمس.

مررنا بامرأة شابة تتشمس على العشب، (جزء من الفائدة المرجوة من أسلوب التتبع في الحديقة، هو أن الناس سيحدقون بك، وبالتالي ستعتاد على ذلك).

قال ألكسندر مازحاً: "المشكلة أن الناس في شمال كاليفورنيا لا يحدقون إلا بالشخص الغريب جدًّا.

بعد عدة دورات، قفز ألكسندر بجانب جاستن، يشجعه للصراخ أكثر "بالإيطالية". وبينما كان الرجلان يدوران بالجوار، ويصرخان، ويومئان بحرارة، كما لو كانا يدافعان بحرارة عن آرائهما في خضم جدال عنيف، تحدثت إلى المتشمسة أسفل التل، وكانت تشاهد ما يجري.

وسألتها: "هل يبدو هذا غريباً بالنسبة لك؟".

قالت: "نوعاً ما، ما الذي يجري؟ هل هو يتعلم الإيطالية؟".

- الشخص الذي على اليمين هو المعلم.

- جيد، هل تتحدث الإيطالية؟

- لا، أنا أتحدث الإسبانية، ولكني زرت إيطاليا.

- من أي منطقة في إيطاليا هو؟



Twitter: @ketab_n

- هو ليس إيطاليا بل أمريكيًّا.

(ارتفع حاجباها في دهشة).

استطردتُ قائلاً: "في الحقيقة، هو يعرف الكثير من اللغات، وقال إنه يريد إنشاء مدرسة لجعل العديد من الأشخاص مثله".

"مثل لغات الطائفة؟". (كما لو أنّ هذه الظاهرة معروفة على نطاق واسع).

عندما انتهى جاستين، عرض ألكسندر الشريط لي، اخترت شريطاً بالهندية.

قلت له: "لقد وعدتني بتعلم الهندية بلا تعب".

أجاب: "لم أعدك بشيء من هذا القبيل!".

بدأت أمشي، وأومئ، وسماعتا الأذنين تطنان على أذني وتنثران الصوت الهندي على نسيم بعد العصر الهادئ، شعرت بالقليل من هذه الأصوات يدخل أذني ويخرج من فمي، ثم شعرت بالقليل من التقدم. لا أحد في الحديقة يبدو أنه لاحظني، لأن نصف ساعة من هتاف ألكسندر وجاستين أشعرهم بالملل.

أخذت أقول لنفسي: "قف منتصباً وتحدث بصوت عالٍ". هذا صعب، حيث إنني لم أستطع أن أقول جملاً طويلة فيها عدة كلمات، وكان عليّ أن أتوقف عن الحديث لأستمع إلى ما يعنيه؟ الصوت يقترب أكثر وأكثر، وفجأة أصبح الصوت بالنسبة لي يشبه السنسكريتية. لديَّ معلم يوغا يفتتح التدريب بنشيد بالسنسكريتية.

في لحظة محددة، اقترب مني ألكسندر، في هذا الوادي، متعدد اللغات يمشي بجواري، لا خوف لدي.

ولدهشتي، كان يتحدث الهندية أيضاً.

- كيف؟ (سألته).

أجاب أنه" أدخلها" في رأسه بعد ثلاثة دروس من الشريط.



Twitter: @ketab_n

توقفت، وبغير ثقة أديت بمستوى أقل؛ الأمر الذي جعل جاستن ينتقدني، ويأمر: "قف مستقيماً، وتحدث بصوت أعلى".

- أتقصد صراخاً؟! (سألتُ متعجباً).

أومأ ألكسندر بالموافقة وقال: "تبدو قلقاً". قلت: "حسناً، نعم لأنني لا أستطيع أن أردّد الكلمات التي أسمعها في الشريط، وأنساها".

في مشهد آخر، كنا جالسين على كرسيين في الحديقة ونتصفح كتاباً تعليميًّا.

- هل تريد أن تقوم بذلك مرة أخرى؟ أكيد، إذاً عليك في هذا الوقت، أن تكون أعلى، وأسرع، وأدق. نعم، نعم".

بعد تتبع ثلاثة حوارات أخرى سهُلت الهندية. لم أبحث عن أساليب أو أسرار، كل ما أعرفه عن الدراسة هو الاستغراق، والحفظ، وكتابة الجمل، والتدرب إلى ما لا نهاية، واستخدام بطاقات الاستذكار. في بداية ممارسة أسلوب التتبع يبدو الأمر سخيفاً. ومع ذلك، فإن البوابة إلى اللغة الهندية - كما أشعر بها - قد فتحت أمامي.

صاح ألكسندر: "لقد وعدتني، لقد وعدتني بالتأكيد. أنت تعرف أكثر مما كنت أعتقد، لقد فاجأتني!".

أشعة الشمس، أشعة الشمس، أعطني الآن شخصاً أستطيع أن أستخرج منه المفردات. دعني ألعب مع طفل صغير. أعطني متعدد لغات مفرطاً يعلّمني التتبع البارع، بلا موانع، حتى وإن لم يكن متحدثاً أصليًّا.

في السنة التالية، سوف تتغير حياة ألكسندر مرة أخرى، إلى الأفضل هذه المرة، فقط بعد أخذه بنصيحة من صديق. ما زال يصف نفسه في السيرة الذاتية كمتعدد لغات، وهو الآن اختصاصي لغات في منظمة وزراء التربية والتعليم لبلدان جنوب شرق آسيا في سنغافورة؛ المدينة التي يمكن أن توصف بأنها أرض تعدد اللغات. ولكن لم يكن لديه الوقت لاكتشاف اللغة الماليزية أو التاميلية، وهما اللغتان الرسميتان هناك؛ لأنه لا يستطيع



Twitter: @ketab_n

أن يخرج بيروت من رأسه. كانت العربية أكثر لغة نشطة تعلمها. ولا يزال الأمل يحدوه في افتتاح مدرسة متعددي اللغات، وكان فخوراً بتفوق ابنه في اللغة، وبحصول ابنه الكبير على جائزة في الشعر، وخاصة لأنها كانت بالإنجليزية، وليست بالصينية أو الفرنسية.

سوف أتذكر دائماً كيف كنا بعد دروس الهندية في الحديقة، نذهب إلى محل بيع الكتب المستعملة. كان ألكسندر يشعر بالحسرة لعدم قدرته على شراء مجلدات عتيقة باللغة الألمانية. بعد أن تصفحنا اللغات الأجنبية معاً، توجهت إلى قسم التاريخ الطبيعي وحدي. ظهر ألكسندر وسأل: "ألم تقل لي إن لديك عقلاً جيداً، أليس كذلك؟". نوعاً ما، أدائي بالهندية أثاره. أنا أيضاً كنت مبتهجاً لأنني أُمدح من قبل متعدد لغات مفرط.

في أحد الأيام الحارة في شهر أغسطس، ذهبت إلى المركز الرئيس للبنك الدولي في واشنطن العاصمة للقاء نوع آخر من متعددي اللغات المفرطين؛ نوع أكثر ندرة وأكثر تشويقاً؛ امرأة. قالت لي مسؤولة الاستقبال إن هناك من ينتظرك بشوق. وبينما كنت واقفاً هناك، رن جرس الهاتف. أبعدت المسؤولة السماعة عن أذنها، ورفعت حاجبيها للشخص الذي يهتف بعيداً. قالت إنها هناك. ثم ظهرت هيلين أبادزي، امرأة طويلة ورشيقة الخطوات ترتدي ملابس قصيرة.

في مكتبها، كانت جالسة بهدوء وراء طاولتها، وأخبرتني أنها تسافر إلى أنحاء العالم بهدف تقييم التقدم في برامج التعليم، خصوصاً في محو الأمية، من الدول التي تلقت قروضاً من البنك الدولي.

ولدت هيلين في الخمسينيات في مدينة صغيرة في اليونان. قالت إن أحد الأشياء التي كانت تريدها كان غريباً، وهو"تعلم العبرية، للتغلب على



Twitter: @ketab_n

الإحساس بالغربة في مدينتها المكتظة باليهود السفرديون"[1]. ولذا تلقت دروساً في اللغة العبرية وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وأتقنتها في سن الحادية والعشرين، ومعرفتها اللغوية طبقتها على العربية.

**هيلين أبادزي تتحدث إلى مدير مدرسة، غامبيا، 2010**

على الإجمال، قالت هيلين إنها درست تسع عشرة لغة إلى المستوى المتوسط على الأقل، وقالت إنها اكتسبت مهاراتها التحليلية من أبيها الذي تعلم التركية والبلغارية والألمانية؛ جميعها بدون كتب.

إنها تستخدم كل يوم اللغة اليونانية، والإنجليزية، والإسبانية، والفرنسية، والبرتغالية (على الأقل اللغات الرسمية للبنك الدولي). واللغات الأخرى محفوظة لديها وتستعملها حين توفد لأداء مهام خارجية. بعض اللغات تعلمتها حديثاً، بنت طريقة لغوية قوية بنفسها. وتحضيراً لمهمة في تنزانيا، تعلمت اللغة السواحلية من المرة الأولى. ولكن رحلة إلى كمبوديا ستدخل الخط، لذا كان عليها أن توقف السواحلية لتلتقط اللغة الخميرية. التحدث باللغات المحلية ليس من

(1) السفرديون: الأشخاص المنحدرون من الجنس اليهودي الذي عاش في إسبانيا والبرتغال خلال العصور الوسطى. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

متطلبات العمل، ولكنها وجدت أن ذلك يجعلها أكثر تأثيراً، لأنها بذلك تستطيع التحدث مع المعلمين والتلاميذ وتتابعهم عندما يعرضون قدراتهم في القراءة، ويسمح لها ذلك أيضاً بتطويق البيروقراطية المحلية التي ربما تقوم بتجميل الواقع من خلال عرضه بالإنجليزية. ثمة شيئان كانا يمثلان عقبة لها، الأول عدم الحصول على الوقت الكافي للتدرّب على اللغات، والآخر عمرها. فهي في التاسعة والخمسين، وإيجاد المواد المحفوظة لم يكن أسهل مما كان عليه في الماضي.

إحدى حيل تحدي العمر، هي استخدام جهاز مصنوع في الصين يسمى معيد اللغة الإلكتروني؛ وهو عبارة عن صندوق مربع فضي مزود بشريط. وبدلاً من تشغيل الشريط مباشرة، فهي تخزِّن فيه الأصوات، ويمكن أن يشغل مقاطع بسرعات مختلفة. فكانت تبحث عن مواد اللغة المرفقة بها مواد صوتية أو تدفع للأشخاص المحليين لتسجيل نص، ثم تستمع إليه تقريباً خمس عشرة مرة، حتى تعرف جميع القواعد والمفردات، بالإضافة إلى استخدام تكنولوجيا أخرى مثل "سوني وأيبود".

حتى مع معيد اللغات، فإن اللغة السواحلية تعتبر تحدياً بالنسبة لها. فاللغات الأخرى التي تعلمتها فيها (لواحق)، لذا تكون الكلمات أسهل عند البحث في القواميس عندما لا تعرف القواعد. ولكن منطق لغة البانتو في السواحلية يتكون من بادئات مرتبطة بتغير المعاني، لذا يجب على الشخص أن يعرف القواعد لترجمتها؛ وهذا يصيبها بالضجر.

وعلى الجانب الآخر تصرح: "في مثل عمري - كما أردد دائماً - من الجيد أن تقوم بشيء لا تقوم به عادة. وهذا أصبح تدريباً ضد الهرم! لديَّ ثلاثة أقارب تجاوزوا المائة، لذا من الممكن أن تكون لديَّ جينات جيدة، لست متأكدة - ضحكت - ولكن علينا أن نبقي الدماغ نشطاً، والطريقة المثلى لفعل هذا هي الاستمرار في تعلم الأشياء الصعبة".



Twitter: @ketab_n

- إذا كنت تعرفين أن التعلم كان صعباً جدًّا عندما كنت أصغر، فما الذي قمتِ به بشكل مختلف؟

أجابت بسرعة: "لقد تعلمت خمس عشرة لغة أخرى".

طريقة أخرى تستخدمها تسمى "مراجعة الوقت"؛ وتعني مراجعة المواد المتعلمة سابقاً بفترات زمنية محددة: (تحب أن تقود دراجتها أثناء استماعها إلى الجهاز). مثل هذه "الذاكرة المُجدولة" التي طورها بول بمسلر - والتي تسمى طريقة بمسلر - تُعلِّم اللغات.

لقد اقترح القيام بمراجعة أي مواد متعلمة (المفردات، قواعد اللغة، أمثالها) في فترات زمنية من خمس ثوان، وخمس وعشرين ثانية، ودقيقتين، وعشر دقائق، وساعة، وخمس ساعات، ويوم، وخمسة أيام، وخمسة عشر يوماً، وخمسة أشهر، وسنتين. هذه الفترات الزمنية كانت تقوم على المعدل الطبيعي في قياس ضعف الذاكرة؛ فمع المراجعة المستمرة، فإن الوقت يمتد بين المراجعات التالية، لأنه في كل مراجعة يقل المعدل الإجمالي لضعف الذاكرة.

يحتفظ الدماغ بكمية محددة من المادة بدون الحاجة للمراجعة. اختبر العالم النفسي هاري باهرك متحدثين أصليين للغة الإنجليزية؛ أولئك الذين درسوا اللغة الإسبانية منذ خمسين سنة ماضية. من غير المستغرب، أن الشخص الذي حصل على الدرجة الفضلى في الاختبار هو الشخص الأكثر تمكّناً باللغة من قبل. ولكن المستغرب أن ما يتذكره الأشخاص لا ينخفض مع سنوات العمر. وفي الواقع، إن ما تتذكره بعد ثلاث سنوات إلى ست سيبقى معك إلى عقود.

يبدو أن متعددي اللغات المفرطين لديهم استرجاع ذاكرة قوي. إحدى المميزات القوية لذاكرة كريستوفر هي أن قدرته على الاسترجاع تتطور بعد تأخير. لدى أغلب الناس، إنّ مُضيَّ فترة كبيرة بدون تمرين



Twitter: @ketab_n

يعني فشل الاسترجاع[1]. قالت المرأة إن نصف يوم من التعرض إلى مواد مكتوبة هو كل ما تحتاجه لإنعاش بعض لغاتها. وقال لي شخص آخر: "إن العدو اللدود لتعلم اللغة هو النسيان، ويمكنك أن تمنع هذا بالتعلم المستمر. إنّ هذه المسألة ليست متعلقة بنظرية النشوء والارتقاء".

هناك مفتاح آخر ثمين لدى متعددي اللغات المفرطين، من ميزوفانتي إلى أبادزي، وهو القدرة على ضبط ما يقولونه قبل أن تلفظه أفواههم.

في هذا الأمر، استشرت اللغوي روبرت ديكيسر قبل الذهاب إلى بولونيا، وتوقعت أن هذه حالة يستطيع فيها متعددو اللغات المفرطون إبقاء أجزاء من الجملة في رؤوسهم عندما يسمعونها؛ كقدرة مرتبطة.

إن القيام بهذين الأمرين يتطلب ما يسميه العلماء "الذاكرة العاملة" التي يمكن تشبيهها بطاولة العمل للنجار؛ كمساحة لوضع المعلومات المطلوبة لحل المشكلات. إن حجم طاولة العمل يحدد حجم المعلومات المطلوبة للحل، والوقت المطلوب للإجراء. نحن نستخدم "الذاكرة العاملة" في جميع نواحي حياتنا اليومية. عليك أن تكون قادراً على الاحتفاظ ببداية الجملة لجعل النهاية ذات معنى؛ كأن تحدد في ذهنك ما الذي تريد أن تطبخه للعشاء في أثناء تسوقك لجلب المقادير من السوق. وكما عرفها الطبيب النفسي البريطاني الذي كان أول من شرحها، تعتبر "الذاكرة العاملة" المساحة التي تحتفظ مؤقتاً بكمية محددة من المعلومات في الدماغ، والتي يمكن أن تستخدم لمساعدة قدرات مختلفة، ومن ضمنها التعلم، والاستنتاج، والتحضير للقيام بالأفعال. وتظهر قدرات الذاكرة العاملة كأفضل مؤشر للذكاء، ويمكن أن تكون أيضاً جزءاً رئيساً لما يُسمَّى بالعادة "استعدادات تعلم اللغة الأجنبية".

(1) أداء كريستوفر في مهام متعددة من الذاكرة غير متوقع، وربما يكون أفضل نموذج للدراسات المتعلقة بالذاكرة الشاذة أكثر من اللغة. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

هيلين، المرأة التي تجوب العالم، وتحاضر عن الأمية والتعليم، تتحدث كثيراً عن الذاكرة العاملة. إنها تركز في عملها دائماً على قضية التغلب على الأمية بين سكان العالم البؤساء. في النهاية، سيستطيع أحدهم أن يدع عقلها يتحدث، كما اعتقدت.

قالت: "تخيل أن لديك أكبر قارورة في العالم".

(على شاشة الحاسوب لديها رسمت هذه القارورة التي ترمز إلى الذاكرة طويلة الأمد؛ ذاكرتها طويلة الأمد. لا قاع هنا، ويمكن أن تضع معلومات مترابطة إلى ما لا نهاية. هذه القارورة ذات عنق ضيق جدًّا، وتفتح خلال اثنتي عشرة ثانية، وتستوعب سبع فقرات شفهية).

"دعنا نقول إنك دخلت محلاً ما، وحددت صندوق الرقائق الذي ستشتريه، وقرأت السعر، وأخرجت النقود لتدفع، فإذا كنت تقرأ بتلعثم، فستختفي الجملة التي على الصندوق وستنسى البداية. كما أنك لو عددتَ نقودك ببطء، فمع الوقت الذي تحتاجه لعد النقود ربما ستنسى السعر". من هنا ندرك محدودية الذاكرة العاملة، التي تحمل عدداً محدوداً من المعلومات لفترة قصيرة من الوقت.

تعمل هذه الطريقة مع اللغة أيضاً. وقالت: "عندما يسألك شخص ما سؤالاً فعليك أن تحضر الرد. تقوم ببحث واع بالذي تعرفه ثم تستخدمه للرد، هذا البحث الواعي يحضر الأشياء بشكل أسرع".

عندما تكتب أو تقرأ، فإن هذه الوسيلة مرتبطة بشكل أقلّ بالأنشطة التي تتطلب علاقة قوية بالوقت الفعلي لممارسة اللغة مثل الاستماع والتحاور. عندما تتحدث، فإنك تجد أربع كلمات أو خمساً في كل ثانية. دعنا نقول إن أحدهم سأل هيلين: "كم عدد التلاميذ الذين يأتون إلى المدرسة؟ وهل يتناولون فطورهم قبل المجيء؟". وللإجابة، عليها أن تجمع مجموعة من الأفعال وتقوم بذلك بسرعة.

هي عززت ذاكرتها العاملة من خلال صنع نماذج لغوية تلقائية على



Twitter: @ketab_n

قدر المستطاع؛ تكرار نماذج القواعد والقوائم حتى تستطيع الدخول إليها بالعدد الأقل من الجهد المعرفي الشعوري.

قالت لي: "لديَّ موز/ لدينا موز/ لديك موز... هل أصابك الملل منها؟ ربما، ولكنها تثبت في الذاكرة. وربطها عاطفيًّا بشيء ما سيجعلك تفكر بها". إنها لا تراها طريقة مملة على الإطلاق.

هي لا تشبه ألكسندر، فقد اعترفت بأنها تستخدم ما تسميه "مؤشرات" أو جداول الذاكرة. قالت إن أساليبها في الذاكرة يمكن أن تعتمد على المدخل البصري في حفظ المشتقات والأفعال من الكلمات. هي أيضاً تحفظ الأناشيد التي تعبر عن القواعد أو المفردات في لغاتها المختلفة.

حدث ذات مرة في مطار نيودلهي أنها كانت تتبادل النقود وتتحدث مع الصراف بالهندية، وسألها: "هل تأتين إلى الهند كثيراً؟". قالت: "Kabhi kabhi (أحياناً أحياناً)". وكانت هذه العبارة أول مقطع لأغنية شعبية، والتي بدأ الصراف يترنم بها ويقول كابي كابي، ثم أكملت هي الأغنية Kabhi kabhi mere dil mein khayaal aata hai (أحياناً أحياناً، تراود قلبي هذه الأفكار).

وهتفت قائلة: "وهكذا بلا مقدمات، وجدتني أنا والصراف في مطار نيودلهي نغني هذه الأغنية؛ بوليوود حقيقي في المطار! هذه الأشياء هي التي تثري حياتي!". وضحكت.

عام 1990، سمع زوجها ثيودور عن مسابقة مقامة في أوروبا لاختيار أفضل متعدد لغات. كان يعتقد أنها لم تعزز قدراتها بما فيه الكفاية، لكنه قرر أن يضم اسمها إلى المتسابقين. وبعد أيام قليلة، فاجأ منظمو المسابقة هيلين باتصال هاتفي، وأخبروها أنها ستقوم بالتحدث إلى تسع من المتحدثين الأصليين لتسع لغات المختلفة للتأكيد على قدرتها. احتجت عندها وقالت إن لغاتها ليست كلها نشطة على المستوى نفسه، وتود أن



Twitter: @ketab_n

تستخدم آخر لغة تعلمتها لمرة واحدة، وإلا فإنها ستتداخل مع بعضها. ومع هذا استلمت الدعوة لحضور المسابقة، وكانت واحدة من ثلاث نساء فقط من ضمن عشرين متسابقاً، وطارت إلى بروكسل، وفي قاعة كبيرة أخذت تتنقل من طاولة إلى أخرى، وهي تتحدث إلى المتحدثين الأصليين باللغة القادمين من السفارات والجامعات.

ربما تكون هذه المسابقة هي التي تحدث عنها روبرت ديكيسر. أعتقد هذا. على العموم، عليَّ أن أبحث أكثر عنها. هل اختبر كل هؤلاء من متعددي اللغات المفرطين في مكان واحد؟ هل كان ميزوفانتي حاضراً بينهم؟

قالت: "كان الفائز - لا أتذكر اسمه الآن - يعرف ستًّا وعشرين لغة".

تطلعتُ للقاء ذاك الرجل الذي لا أعرف عنه سوى أنه أوروبي متعدد اللغات!

لا يستخدم ألكسندر وهيلين أغلب لغاتهما في وقت واحد. هيلين جاهزة لاستخدام حوالى خمس لغات في مهامها اليومية، وألكسندر يستخدم الإنجليزية والكورية والفرنسية في حياته اليومية. بالإضافة إلى اللغة، فهو يركز على الوقت المعطى. ومن خلال التحدث إلى كليهما، أستطيع أن أرى أن حياتهما مصممة مثل ما قال إريك جنامارك؛ إن على متعلم اللغة أن يعكف عليها، حيث تهدف ممارستهما اليومية إلى تنفيذ ثلاث مهام: الأولى تطوير ألفتهما مع أصوات اللغة وقدرتهما على إصدارها، والثانية الانكباب على تدريبات القواعد، والأخيرة العمل بجد على تجنب ذبول الذاكرة.

قام ميزوفانتي بمثل هذا، ولكنه لا يزال يملك قدرة واحدة ليست لديهم؛ فهو يستطيع الانتقال بين اللغات بكل سهولة؛ هذه القدرة التي لا تبدو أنها تتطور بالتدريب.



Twitter: @ketab_n

سمع أحدهم أن ميزوفانتي يتحدث سبع لغات أو ثماني في نصف ساعة، فراح يتساءل: "كيف لا تلتبس عليه؟".

سأله ميزوفانتي: "هل حاولت أن تضع نظارة ذات عدستين خضراوين؟".

أجاب السائل: "نعم".

رد ميزوفانتي: "حسناً، عندما تضع هذه النظارة، فكل شيء يبدو أخضر في عينيك. هذا بالضبط ما يحدث معي؛ فعندما أتحدث أيما لغة - لتكن الروسية مثلاً - أضع النظارة الروسية، وبهذه الطريقة يتلون كل شيء بالروسية، وأرى جميع أفكاري بهذه اللغة فقط. وإذا انتقلت إلى لغة أخرى، فما عليَّ إلا أن أغير النظارة؛ الشيء نفسه يحدث بتلك اللغة أيضاً!".

وصف تشارلز راسل في مذكراته عن ميزوفانتي عدة حالات حلَّق بها ميزوفانتي بين اللغات. متعدد اللغات المفرط البولوني دُعي للحضور إلى روما من قبل البابا الجديد جورج السادس عشر، للانضمام إلى جمعية الدعاية المقدسة؛ المجلس الكنسي الرسمي المؤسس بهدف إحضار الرجال الكاثوليك من جميع أنحاء العالم لتعلم الفن الإنجيلي. في اليوم السادس من يناير من كل عام، تقيم المدرسة الأكاديمية لتعددية اللغات حفلاً يجمع الطلبة الذين يقرأون الشعر بلغاتهم الأصلية. كان تاريخاً موفقاً، ففي التاريخ الكاثوليكي، يشير اليوم السادس من يناير إلى زيارة الملوك الثلاثة للمسيح الرضيع في بيت لحم. حيث كان الملوك الثلاثة يمثلون عالم الوثنيين (أو غير اليهود) المنجذبين إلى الرضيع المقدس، كما أنّ عيد الظهور كان يعرف بعيد اللغات كذلك. وكرمز للعمل التبشيري، الاحتفال كان مناسباً، ومهارات ميزوفانتي جعلت الحفل يتعاظم بادعاء القوة العالمية.

عندما حضر راسل هذا الحفل، قام كبير العلماء بافتتاح الحفل



Twitter: @ketab_n

باللاتينية. ثم أخذ كل واحد من الطلاب دوره. كان المطلوب منهم كتابة شعر عن موضوع اليوم المقدس، وتنوير الوثنيين، فقدّم الطلبة اثنتين وأربعين لغة في ذلك اليوم (في بعض السنوات كانت خمسين أو ستين). ثم بدأ المشهد الرائع.

كان حضور ميزوفانتي مترافقاً مع بهجة لا تنتهي، فقد تجمهر حوله التلاميذ وتحدثوا معه بهذه اللغة، وتلك. كتب راسل: "إنه لم يتردد قطّ أو يرتبك من الكلمات أو تداخل التراكيب في هذا الانصهار اللغوي". كان المشهد يموج كالسيرك بلا مشرف حلبة. التفّت مجموعة من الفتية الصينيين حول ميزوفانتي، ثم جاء دور شاب بورمي تحدث بلهجة سكان بيجين. من أحد الجوانب، جاء رجل أنيق يشكو مازحاً بأنه لم يسمع أشعاراً بالروسية فدار حوار طويل بالروسية مع الكاردينال. في النهاية، سمع راسل ميزوفانتي يتحدث بما لا يقل عن عشر لغات إلى اثنتي عشرة لغة بدون اضطراب؛ الأمر الذي بهره تماماً.

لإيجاد معنى للذي كان ميزوفانتي يقوم به، يستطيع الشخص أن ينظر إلى متعددي اللغات عندما ينتقلون بين اللغات. إحدى النظريات تقول إنهم لا ينتقلون بين اللغات بطريقة الفتح والإغلاق، وإنما لديهم تنشيط ذهني لها في الوقت نفسه، ولكنهم يضعون غطاءً على اللغة غير المطلوبة. إن هذه العملية تشبه فتح الأضواء في المنزل، ولكن عليك أن تغطي المصباح الذي لا تريده أن يشع.

المتحدث عليه أن يقوم بشيئين: الأول إيقاف الاستجابة في لغة، والثاني مبادرة الاستجابة بأخرى. صديق لي نشأ على اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية قال: "حتى لو كانت اللغة التي تخرج من الفم لغة واحدة، فهو يشعر أنه يتحدث بها جميعاً في الوقت نفسه". البراعة لدى متعدد اللغات تتعارض مع صميمها؛ فعندما تقول شيئاً ما، فإن العديد من الأشياء يجب أن تبقى صامتة. هذا يمكن أن يشرح لماذا شخص مثل لومب



Twitter: @ketab_n

كيتو لديها خمس لغات فقط متزامنة. وهذا لا يعني أنها لا تستطيع أن تنشط لغاتها الأخرى، وإنما لا تستطيع الاحتفاظ بلغات أكثر غير منشطة.

إنّ آلية الانتقال هذه هي التي تساعد المترجمين الفوريين على الانتقال بين اللغات بسرعة، وتساعد أيضاً ثنائيي اللغة على إدخال كلمات أو جمل من إحدى اللغات إلى الكلام في اللغة الأخرى، أو تغيير رمز الانتقال. يمكن للمتحدثين الفصحاء الانتقال بين الجمل، والتقلب بين اللغات بدون انتهاك قواعد أي منهما. تتطلب هذه العملية جهازاً عصبيًّا من طراز فريد.

الانتقال بين المهام - أو اللغات - هو المهمة الرئيسة لما يسمى بالوظيفة التنفيذية، وهي عبارة عن مجموعة من المهارات المعرفية التي تمنح الشخص القدرة على الإدارة والتركيز في المهمة. تخيل الوظيفة التنفيذية في كيفية تحكمك في أجوائك العقلية: كم عدد الطائرات لديك في هذه الأجواء؟ وكم عدد الطائرات الهابطة منها؟ وما المساحة المتوفرة في المطار؟ الذاكرة العاملة كما وصفتها هيلين، جزء مهم من الوظيفة التنفيذية.

يعرف العلماء أن هذه الأجواء العقلية تقع في قشرة الفص الجبهي، ولكنهم يعرفون القليل جدًّا عن مكان الانتقال بين اللغات. المنطقة التي تسمى القشرة الجدارية الخلفية، كانت مرشحة لتكون منطقة "موهبة اللغة" في الدماغ، وكان يعتقد أن هذه المنطقة لديها قدرة على التحكم بالانتقال بين اللغات.

وكمثال على الشخص المصاب بهذه المنطقة، نورد حالة رجل سنسميه (إتش بي)، وهو رجل بعمر الثمانين عالجته عالمة الأعصاب إلين بريكمن بعد أن تعرض لحادث سير تسبب في نزيف في الدماغ، وبعد شفاء (إتش بي) بدأ يثرثر بلا توقف وبطلاقة عن لا شيء. والأكثر إثارة، أنه خلط بين اللغة الألمانية (لغته الأم)، والفرنسية (اللغة الثانية)،



Twitter: @ketab_n

والإنجليزية (التي تعلمها كمهاجر إلى الولايات المتحدة). سألته الطبيبة: "لماذا كنت في المستشفى؟". أجاب: "Eine sprache to andern (لأغير اللغة)، للتحدث باللغة التي تأتي إليك". أغلب أقواله كانت مزيجاً من اللغات المتعددة.

الفكرة هي أن منطقة "موهبة اللغة" لم تكن صائبة. وسواء أكان الانتقال مسيطراً عليه من منطقة أخرى أو عملية أكثر اتساعاً، فإن الشخص متعدد اللغات المعافى يمكنه الانتقال بين اللغات بعفوية تامة. وللقيام بهذا لأهداف الترجمة، في المحكمة مثلاً، فإن هذه المهارة تتعلم وتصقل. ولكن، إذا تمكن الشخص من الحصول على مقدرة عالية من الانتقال، فهل أصبح مثل ميزوفانتي؟ هل هؤلاء الأشخاص، على سبيل المثال، ينتقلون بين لغات أكثر، مما يعني أن أكثرها بحالة نشطة مرة واحدة؟

الشخص ثنائي اللغة - في الأساس - متعددُ المهام اللغوية؛ وكنتيجة لذلك، تكون مهارات الوظيفة التنفيذية لديه أقوى. الأطفال الذين يتحدثون لغتين يحصلون على تقييم أعلى في مهارات الوظيفة التنفيذية أكثر من أقرانهم من ذوي اللغة الواحدة؛ يفترض أن ذلك بسبب أن عقولهم تتقاذف اللغات باستمرار؛ باختيار واحدة وتثبيط الأخرى. في اختبارات بسيطة، وصل البالغون من ثنائيي وأحاديي اللغة إلى المستوى نفسه، ومع ذلك فثنائيو اللغة الكبار في السن دائماً يؤدون أفضل عندما تتعرض الوظيفة التنفيذية لديهم للتحدي. خمن العلماء أن العيش الطويل بلغتين يمكن أن يحمي الأشخاص من التخلف المعرفي من خلال ممارسة الأشخاص المستمرة لذاكرتهم العاملة، والتركيز، وكبت التراكم "المخزون" الذي يحملونه معهم إلى عمر كبير. ليس على الشخص أن يكون ميزوفانتي ليدرك هذه الفوائد.

في بولونيا، تأملت حالة ميزوفانتي، الرجل الذي هرب من اللعنة اللغوية الأولى، من خلال الاستفادة من محيطه، والأغرب أنه اقترب أكثر



Twitter: @ketab_n

إلى شيء ما كامن في عقله لم يكن الذاكرة فقط. كان ميزوفانتي خرافة؛ هذا ما تمتم به إريك جنامارك. لم أوافقه بالتأكيد. حجم مخزونه اللغوي يمكن أن يطفح، ولكن من يعرف الحقيقة؟ فالعلم أنزله إلى ظاهرة تثير الفضول، ولم ينظر إليه أحد بجدية كما فعلت، ولم يوضع تحت مجهر اختبارات الفصاحة، ومقاييس الأداء، ومقاييس أخرى للحكم على طلاقته باللغة. الاختبارات التي وجدتها لم تناسب الدليل، والدليل كان غير كامل. الحل الوحيد كان البحث في حياته.

أفكر أن أقابل متعدد لغات شعبياً، وجدت شخصاً آخر بدلاً من ألكسندر؛ رجلاً يمارس تعددية اللغات بأسلوب حياة المبشر. ألكسندر لا ينشغل بالاتصال اللفظي، لذا يستطيع هذا الشخص - وهو الفنان رينر جانهل - قول الكثير من الأشياء بلغاته. في إحدى المرات، ليسليني، دخل (سكايب) مع صديق محب للغة، وانتقلا بالمحاورة من الإنجليزية إلى الروسية ثم الكورية والعربية. كان يقرأ كثيراً. إنه ينتقد نموذج تعلم اللغة الحديث القائم على التسوق والهجرة والسياحة؛ والتي وصفها بسمات عصرنا الحديث. فهو في المقابل، تعلّم اللغات للأسباب ذاتها التي قادت الرهبان والفلاسفة قروناً سابقة، وهي الرغبة شبه السحرية التي لديهم وتحفّزهم للغوص في أعماق النص المكتوب وفكّ رموزه. قرأ منذ فترة المراهقة العديد من المؤلفات المترجمة، وقال: "ولكني شعرتُ أنني لستُ منصفاً تجاههم، كان لديَّ رأي متأصل أنها إذا كانت تستحق القراءة، فإنها تستحق القراءة كما كتبها المؤلف".

أنا أيضاً أتوق للاطلاع على الأدلة الصعبة التي تشير إلى طلاقته من كتب المكتبة، ولكنه اعتذر عن اختبار طلاقته أو استعداداته قائلاً: "لا يوجد اختبار علمي يستطيع قياس خبراتي".

تابعته لبعض الوقت ثم تركته، اعتقدت أنني قد أجد شخصاً آخر للاختبار.



Twitter: @ketab_n

قدرة ألكسندر وهيلين الجيدة إلى حد كبير في إدارة وتنقيح لغتيهما الأصليتين تجعلهما يتجاوزان العقبات عندما يتعلمان الأصوات والكلمات الجديدة. كان من الصعب عليّ أن أسأل عن مدى جودة تعاملهما مع ترتيب الكلمات الجديدة، هذا الأمر حير كريستوفر أيضاً، إذ إنّ تعلم اللغة مهمة ليست سهلة وتأخذ عملاً. لقد اعترفا بأنهما يستخدمان أوقاتهما بفعالية، مع توازن من التحفيز والاستعدادات، إنهما يعرفان كيف يتعلمان وكيف تعمل اللغات. هذا التوضيح من الخبراء - في بعض الأوقات هما بلا شك يحصلان عليه بعد عمل مضنٍ - ربما، في تفكير بعض الناس، يقوم ببعض الفوائد بعد كل ما قيل، فقد كان هناك دائماً حادث مأساوي غيَّر مجرى حياة كل منهما إلى التشبع باللغات. بالإضافة إلى ألكسندر وهيلين، فإن كين هيل عانى من مرض طويل وراثي ومن إهمال والديه له. حتى إن إليهو باريت - النيويوركي متعدد اللغات - قام جزئيًّا بتعلم اللغات لينافس أخاه الأكبر العزيز على قلبه، وجزئيًّا للحزن الذي أصابه عندما وقع أخوه صريع الحمى في تكساس.

ومع ذلك، لا أستطيع التخلص من الشعور بأن ألكسندر وهيلين والآخرين كانوا على درجة أكثر من الخبرة. الخبراء الذين لا يبحثون عن الخبرة. إنهم يحبون اللغات، ليس كما يحب الكاتب أو الشاعر تحول الجملة عندما توزن القافية، بل إنهم يحبونها كأشياء، أو بالأحرى حب لقاء هذه الأشياء سواء أكان ذلك بشكل عرضي أو مقصود. هل خبير الجراحة يحب المشرط والشاش؟ هل يحب خبير البرمجة الرمز؟

هناك أيضاً الطريقة التي استمروا بها؛ بالرغم من العزلة الاجتماعية والصعوبات الاقتصادية (الكثيرة في حالة ألكسندر). ففي الحقيقة، إنهم يبدون ثابتين وفخورين. ماذا أيضاً؟ لم يكن المال أو المنجزات الشخصية وراء سعيهم. باريت وصف إنجازاته المحترمة كنتيجة للعمل الجاد، والصبر، والمثابرة بعملية تراكمية تشبه بناء مسكن النمل، ذرَّة بذرَّة، فكرة



Twitter: @ketab_n

بفكرة، وحقيقة بحقيقة. لماذا يشير باريت إلى مسكن النمل؟ هل يجد متعة في ذلك؟ هل تلك "المتعة" - أو الإثارة - هي التي تصيب أجهزتهم العصبية عندما يكونون جملاً، وأصواتاً، وينتقون الكلمات؟

قلت هذا الكلام لأحدهم، فضحك وسأل: "هل المتعة عمل عصبي؟".

قلت: "بالطبع، أي شخص باستطاعته أن يتعلم لغة أخرى أو اثنتين يقدّرهما إلى مستوى معين. ومتعددو اللغات المفرطون في الحقيقة يبحثون عن هذا. وأعتقد أن الطريقة الاعتيادية للتعبير عنهم أن تقول: نعم، إنهم يستمتعون باللغات، وإنهم بارعون بها، ولكن هذه الحقيقة تعتبر متأخرة بالنسبة لي. لماذا لا نعترف بالمتعة الفطرية التي تحفز رحلة النجاح؟".

وجدت جواباً واحداً في عمل إلين واينر، الطبيبة النفسية من كلية بوسطن، التي تعمل مع الأطفال الفنانين الاستثنائيين. حددت واحدة من خصائصهم وهي "الرغبة في الإتقان". قالت: "هذا المحفز هو الذي يجعل الشخص ينغمس في مهمة محددة؛ لأن الشخص يستمتع بمواجهة كلٍّ من المشكلات المعرفية وتجربة حلها". في تركيبة واينر، الشخص لا يطور الخبرة بسبب أنه لا يعمل كثيراً. الشخص يعمل كثيراً في المهام التي يجدها مجزية وتسبب ظهور الخبرة مع الوقت.

كما تجادل واينر وتقول: "إن التطور المبكر والموهبة جزء من مكونات بيولوجية فطرية. حتى إذا كنت لا تستطيع تحديدها بدقة في الدماغ - وعلى الإجمال، القليل فقط من العمليات المعرفية المعقدة يمكن أن تحدد مواقعها بهذه الطريقة - فهذا لا يعني أن هذه الاختلافات غير موجودة. الأطفال الموهوبون فنيًّا يتعلمون بسرعة أكبر من الآخرين، ويقومون باكتشافاتهم الخاصة بدون مساعدة كثيرة من البالغين، ويقومون بأشياء لا يقوم بها أقرانهم الأطفال الفنانون العاديون. مثلاً، لوحاتهم أكثر



Twitter: @ketab_n

واقعيـة، وتعيد إنتـاج حجم الصـورة والحجم النسـبي على نحـو أكثر دقة مما يقوم بـه أقرانهم، حتـى لو كانوا جميعهـم قد حصلوا علـى التعليمات الصريحة نفسها". والأكثر أهمية، هو ما أقرته واينر بقولها: "إنهم محفزون بالغريزة لاكتسـاب المهارة في هذا المجال (بسـبب السـهولة التي يحدثها التعلم).

هل تركيبة دماغ متعدد اللغات المفرط تعطي صاحبها قوة؟

هل يسـتخدم هؤلاء النـاس الدوائر العصبيـة بطريقة أكثـر فعالية، أو ينتجون دوائـر عصبية أكثر مـن الآخرين؟ ربمـا لديهم ذاكـرة طويلة الأمد قوية وأكثـر فعاليـة. يمكـن أن تنتج أجسـامهم محفـزات عصبيـة أكثر، أو أكثر حساسـية تجاه المحفزات العصبية. تقدم المعرفة الحديثة عن الدماغ العديد مـن الاحتمالات. وتسـتحق أدمغة متعددي اللغـات المفرطين مثل ألكسـندر وهيليـن النظـر إليهـا ودراسـتها، ولكنهمـا لايزالان يسـتخدمان دماغيهما، ربما يقدم لنا الدماغ المحفوظ في الجرّة أجوبة قوية.

والخبر السعيد هو أنني وجدت واحداً للتو...



Twitter: @ketab_n

# القسم الثالث

## الكشف

## همسات الدماغ



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل العاشر

في شهر مايو من عام 1917، وصل إميل كربس، الدبلوماسي الألماني ومتعدد اللغات المفرط، إلى سان فرانسيسكو مع زوجته (أماندا) وابنتيهما. كان يُعرف بالرجل غريب الأطوار، والشخص الفظ الذي يتبجح بكلام عن إرهاصات حرب عاصفة. وكانوا في آخر شهرين من ذلك العام على باخرة هولندية هاربين من الصين، وهي الدولة التي كان يعمل بها.

وعلى الباخرة المتجهة شرقاً سمعوا من المذياع أن الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على ألمانيا، فأصابه الخوف من مصير الأسر عند الوصول إلى شواطئ الولايات المتحدة؛ فقد يصبحون أسرى حرب. بدأ الدبلوماسي بالتفكير واهتدى إلى فكرة أن يرسل عائلته إلى الساحل الشرقي لتستقل من هناك سفينة إلى أوروبا. ولكن للوصول إلى هناك كان عليهم أن يسافروا على متن قطار مغلق عبر الولايات المتحدة؛ حيث لا زوار، ولا خروج، ولا حتى نوافذ مفتوحة لأسبوع كامل. الأمر الجيد أن محب الكتب كربس كان قد أحضر معه مكتبته الكاملة، ومن المحتمل أنه لم يعطِ الاهتمام الكافي للأرض الوعرة الممتدة أمام عينيه.

كان رجلاً يجيد العديد من اللغات، ويسافر عبر بلد مرَّ برحلة من نوع خاص إلى أن اقتصر سكانه على اللغة الإنجليزية فقط. كانت الولايات المتحدة في مرحلة انتقالية من الاعتزاز بكونها أرض متعددي اللغات المتسامحة، إلى فوبيا الخوف من الأجانب المتحدثين


Twitter: @ketab_n

بالإنجليزية؛ التغير الذي وجد نهايته السريعة في الصراع بين الولايات المتحدة وحكومة القيصر وليام الثاني التي يمثلها كربس.

دار كربس حول سان فرانسيسكو؛ المكان الذي يعيش فيه العديد من الأجيال الناطقة باللغة الصينية. إنه يستطيع التحدث بالعديد من اللغات الصينية المتخصّص فيها. لا يعرف كربس أي لغة من اللغات الأمريكية الأصلية التي أحصيت بالعشرات في كاليفورنيا؛ المنطقة التي وصفت ذات مرة بأنها من أكثر الأماكن المتنوعة لغويًّا في العالم. يقول اللغويون الآن، إنه حتى نهاية العام 1800، كان هناك أكثر من 100 لغة محكية في هذه المنطقة التي أصبحت ولاية في ما بعد. في الحقيقة، عندما وصل الأوروبيون إلى الأمريكيتين كانت الدول الشمالية والجنوبية تحوي نصف تنوع العالم اللغوي، أيْ ما يُقدر بحوالى 1800 لغة في الإجمال.

أثناء عبوره الوسط الغربي، كان القطار يمر بقرى ومدن آهلة بالألمان، والسويديين، والنرويجيين، وهولنديي بنسلفانيا، والبولنديين، والإيطاليين، واليونانيين، الذين يعيشون حياتهم بلغتهم الأم، وينشرون الصحف، ويعلمون أطفالهم، ويذهبون إلى دور العبادة، وفي النهاية يتعلمون الإنجليزية. عام 1910، كان 13 مليون مهاجر أبيض أعمارهم فوق عشر سنوات في الولايات المتحدة، وأغلبهم يتحدثون الإنجليزية، والألمانية، والإيطالية، واليديشية[1]، والبولندية، أو السويدية كلغة أم. و23 بالمائة من السكان كانوا لا يتحدثون الإنجليزية بشكل جيد أو بطلاقة. (الرقم لم يكن مرتفعاً مرة أخرى حتى في العام 1990، حيث إن هناك 26 بالمائة لا يتحدثون الإنجليزية بشكل جيد أو بطلاقة). أُجبر الأمريكيون الأصليون على التعلم باللغة الإنجليزية بدءاً من عام 1870 أو حتى قبل

(1) اليديشية: لغة يهود أوروبا، وقد نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة منها: الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدث بها ما يقارب 3 ملايين شخص حول العالم. (الموسوعة العربية العالمية - المترجم)



Twitter: @ketab_n

ذلك؛ فخفتت الأصوات المتباهية بالثقافات المهاجرة.

في خضم هوس المعاداة للألمان بعد إعلان الحرب، منع الوطنيون الأمريكيون تدريس اللغة الألمانية، ومنعوا الصحف الألمانية، وأحرقوا الكتب الألمانية. وأعلن الحكام في جنوب ديكوتا ولاوا أنه من غير القانوني التحدث بأي لغة باستثناء الإنجليزية عبر الهاتف أو في الأماكن العامة. وأقسم التلاميذ بالولاء للإنجليزية. في عام 1910 كان عدد الصحف الألمانية التي تنشر كل أسبوع 433 صحيفة، وبحلول عام 1960 هبط الرقم إلى 29 صحيفة.

هل كان كربس يعرف عن اختفاء اللغات في البلد الذي يعبره؟ كمحب للغة كان بالتأكيد سيشعر بالحسرة لفقدانها.

مثل ميزوفانتي الذي كان ابن نجار، بدأ اشتياق كربس إلى اللغة ذاتيًا، فعندما وجد صحيفة فرنسية قديمة، وبعد أن أعطاه المعلم قاموساً بالفرنسية، ظهر بعد أسبوعين أمام طاولة المعلم وهو يتحدث بالفرنسية؛ بلا محاكاة لوالديه ولا تأثر بمجتمع متعدد اللغات؛ ببساطة شديدة، مال الفتى إلى اللغات الأجنبية كما تتجه زهرة الشمس نحو الشمس.

عند تخرجه من الثانوية العامة، قال إنه يتحدث اثنتي عشرة لغة. وبعد تخرجه من كلية القانون، ذهب إلى مكتب المدرسة الأجنبية للمترجمين الفوريين في برلين وسُئل:

- ما اللغة التي تريد أن تدرسها؟

كان وقتها قد درس اللاتينية واليونانية والفرنسية والعبرية في المدرسة، واليونانية الحديثة والإنجليزية والإيطالية والإسبانية والروسية والبولندية والعربية والتركية بنفسه.

- أريد أن أتعلم جميع هذه اللغات.

- لا تستطيع أن تتعلمها جميعاً.

- حسناً، أريد أن أتعلم أصعب واحدة منها.



Twitter: @ketab_n

كانت تلك اللغة هي المندرينية الصينية. بدأ بدورات اللغة الصينية في العام 1887، وخاض بنجاح أول اختبار في العام 1890. وفي عام 1893، أصبح مترجماً دبلوماسيًّا بعد تزايد الوجود الألماني في المدن الصينية مثل تسينجتاو وبكين، ثم اجتاز اختبارين أكثر صعوبة في عامي 1894 و1895 بتقييم "جيد". وعند حلول عام 1901، رقي إلى مرتبة رئيس المترجمين. وهناك - وبفضل قدراته في اللغة - وصل بالفعل إلى رأس الإمبراطورية الصينية.

في أحد الأيام، تساءل المسؤول الصيني الإمبراطوري عن موظف المفوضية الألمانية الذي يكتب مثل هذه الوثائق الصينية المميزة؟ ذاك الشخص كان كربس، ومن وقتها، أصبحت الإمبراطورة الأرملة تسيشي تدعو كربس دائماً لتناول الشاي برفقتها في أكواب من الخزف الرقيق. كانت حريصة على التخاطب معه بعناية، خاصة لأنّه أفضل من يتحدث بالصينية من بين الأجانب.

وجه إليه المسؤولون الصينيون أسئلة عن لغات مملكتهم (الصينية، المنغولية، المانشو، التبت) لأنهم لا يملكون تقاليد تعددية اللغات، ولا يعرفون هذه اللغات بأنفسهم. إحدى القصص قالت إن كربس مسؤول صيني. وعندما كانوا يعجزون عن قراءة خطاب من المتمردين مكتوب باللغة المنغولية، كانوا يطلبون من كربس أن يترجمه.

قال فيكتور ماير عالم الحضارة الصينية في جامعة بنسلفانيا: "طوال التاريخ الصيني، عمليًّا يكون الصيني الوحيد الذي يتعلم السنسكريتية من الرهبان القلائل الذين يسافرون إلى الهند ويقيمون هناك لفترة طويلة من الوقت. أما التجار والآخرون (على سبيل المثال؛ بعض المسؤولين الذين يسافرون بعيداً داخل الصين) فقد تعلموا العديد من اللغات الصينية، وتعرفوا على لهجات العديد من الأماكن التي ذهبوا إليها. في الحقيقة، لم يكن هناك أي اهتمام بتعلم لغات أخرى لمجرد الفضول الفكري أو


Twitter: @ketab_n

اللغوي".

وأضاف ستيفن ووان أستاذ الأدب الصيني بجامعة هارفارد: "إن بعض السكان الصينيين تعلموا المانشو عندما حكمت سلالة تشينغ الصين (من عام 1644 إلى عام 1911)، ولكنهم كانوا عمالاً اختصاصيين للإمبراطور".

قال ووان: "وكمتعلم للغة لأهداف فكرية، بلا علاقة بالثقافة من قريب أو بعيد، فإنني لا أعرف أي حالة من بين نخبة المتعلمين (الصينين) قبل العصر الحديث".

أحد الأسباب كان في الأغلب ثقافيًّا؛ ففي الغرب، تضرب تعددية اللغات بجذورها التاريخية في الديانة المسيحية، والتي كانت من البداية ديناً بدون لغة واحدة والنصوص الأساسية نشرت في العديد من اللغات. كما أنّ تعددية اللغات نبعت نتيجة للاكتشافات الأوروبية، والاستعمار، وبناء الإمبراطوريات.

في الجانب الآخر في الصين، كان السعي الأساسي للطبقة المثقفة لآلاف السنين هو محاولة الانضمام إلى الخدمة المدنية أو الترقية فيها؛ وهذان يتطلبان قدرة كبيرة على القراءة والكتابة في أكثر من مائة ألف رمز، ولا يتبقى سوى القليل من الوقت لسائر المهام الأخرى. علاوة على ذلك، إن نظام الكتابة الواحد نفسه ربط الثقافات الفكرية عبر الوقت والمكان، في الوقت الذي يتطلب فيه بالغرب طلاقة في العديد من اللغات. الملاحظة الأوضح للعيان هي أن الصينية تقدم نفسها لتكون في بؤرة لغات العالم. لذلك، من الصعوبة أن يتوقع الصينيون تعلم اللغات البربرية. البربر أنفسهم عليهم تعلم بعض الصينية.

لا يجب على الشخص أن يعتقد أن متعدد اللغات المفرط يكون غربيًّا في أغلب الأحوال. على العموم، كانت عيني قد وقعت على وثيقة تاريخية من جزيرة جاوة تعود إلى القرن السادس عشر التي حددت



Twitter: @ketab_n

مسؤوليات شخص يدعى "متعدد اللغات"، أكان شخصاً حقيقيًّا أو خياليًّا في الطبقة الفكرية للبلاط الملكي. ويحمل متعدد اللغات هذا معرفة لغوية لجميع المجتمعات في عالم المحيط الهندي الذي ربما يتصل معه التجار السونديون[1]، وكذلك "جميع الأراضي الأجنبية الأخرى".

وهنا راودني سؤال: ما نوع هذه القدرات بالضبط التي تتواجد لدى متعدد اللغات في جميع هذه اللغات؟ (كان هناك حوالى ستين لغة غير معروفة).

كما لاحظ اللغوي بنجامين زيمر في تحليله الرائع للوثيقة، إنها تقدم "مثالاً خارجيًّا مثيراً أظهر عالم المحيط الهندي" لقرون قبل وصول الأوروبيين؛ تماماً في الفترة التاريخية نفسها التي ازدهر فيها متعددو اللغات في أماكن أخرى من العالم.

في عام 1913، عندما كان في عمر الخامسة والأربعين، تزوج كربس من أماندا، المطلقة الألمانية. وفي رحلة شهر العسل، وقفا عند قبر كونفوشيوس، حيث قرأ النقش بالمندرينية، والمانشور، والمنغولية، والكلميك[2]، والتركية، وهو يتقاضى دخلاً ثابتاً. كربس (أو كريسبي أو هش كما تسميه زوجته) ظل في العام التالي يكتب قائمة باللغات التي يمكن استخدامها. إنه يستطيع- مثلاً - الترجمة من وإلى الألمانية بائتين وثلاثين لغة[3]. وقال لاحقاً إنه "يعرف" خمساً وستين لغة. ابنة

(1) مجموعة عرقية تعيش في الجزء الغربي من جزيرة جاوة الإندونيسية. ويبلغ عددهم الآن حوالى 31 مليون نسمة. (المترجم)

(2) لغة مجموعة عرقية من المغول. (المترجم)

(3) وضع القائمة بكلٍّ من "العربية، والأرمنية، والبوهيمية، والبلغارية، والصينية، والدنماركية، والهولندية، والنرويجية، والإنجليزية، والفنلندية، والفرنسية، والجورجية، واليونانية، والهندية، والمجرية، والإيطالية، واليابانية، والجاوية، والكرواتية، واللاتوانية، والملاوية، والمانشو، والمنغولية، والفارسية، والبولندية، والرومانية، والروسية، والسويدية، والتايلندية، والصربية، والإسبانية، والتركية،



Twitter: @ketab_n

زوجته ذيلت القائمة بملاحظة كتبت فيها: "هناك فرق كبير بين ما إذا كان الشخص يتحدث ويكتب ويتقن اللغة، أو في ميسوره إنهاء ترجمة صحيحة كمترجم محترف". بهذا - وكما كان خلال حياته - اجتاز اختبارات الحكومة في اللغة الصينية، والتركية، واليابانية، والفنلندية، وأكثر.

كان يشبه متعددي اللغات المفرطين الآخرين ممن التقيتهم أو قرأت عنهم. إحدى ميزات كربس المدهشة كانت سرعته في التعلم. وصف واينر اووت هنتيج، الملحق الألماني في الصين، كيف أن كربس قفز إلى وسط القطار ليجد اثنين من الغرباء يتحدثان بلغة "غريبة بالنسبة إليه، وتضرب أذنيه"، فعرف أنها الأرمنية، وبعد أن طلب كتباً، اعتكف أسبوعين على القواعد، وثلاثة على الأرمنية القديمة، وأربعة على تمارين التحدث. وكتب هنتج: "ثم أصبح متقناً لها أيضاً".

إن الحكايات الغنية عن عبقرية لغة كربس - واستغراقه الغامر - تشبه ما قيل سابقاً عن ميزوفانتي، إلا أنهما يختلفان في الشكل؛ قالوا عن سمات كربس الشخصية مثلاً إنه كان سيئاً وغير صبور. قال هينتج عن هذا الأمر، إن كربس رفض التحدث مع زوجته ثلاثة أشهر لأنها طلبت منه أن يرتدي المعطف في ديسمبر! وفي سنة واحدة فصل ثمانية عشر طباخاً صينياً الواحد تلو الآخر؛ حيث لم يعجبه طهي أي واحد منهم! وفي إحدى المرات، استكمالاً لبعض المهام الروتينية، تقدم كربس لاختبار في

---

والأردو". وعند وفاته في العام 1930 كانت لديه أيضاً اللغة المصرية القديمة، والأفغانية، والألبانية، والأرمنية القديمة، والباسكية، والبورمية، والإستونية، والغيلية، والغوجاراتية، والأيسلندية، والإيرلندية، والكتالانية، (تلقب بالآشورية، البابلونية)، والقبطية، والكورية، واللاتفية، والعربية الحديثة، واليونانية الحديثة، والعبرية الحديثة، والفارسية الحديثة، والبرتغالية، والسنسكريتة، والصربية الكرواتية، والسلوفاكية، والسولفانية، والسواحلية، والسريانية، والتترية، والتيبتية، والأوكرانية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

كلٌّ من البولندية واليابانية، وأرعب الممتحن بمعلوماته، وأخاف الرجل الذي كان في الغرفة.

في الصين، كان هدف كربس واضحاً غاية الوضوح؛ إنه يحب دراسة اللغات أكثر من عمله (خصوصاً منذ أن كان دائم النوم أثناء النهار، ودائم السهر طوال الليل يدرس).

في قصة أخرى وصف هينتج استدعاء كربس إلى اجتماع.

"صاحب السعادة يريد أن يراك". (يصرخ هينتج بين جدران المجمع الذي يُقيم به كربس، وما من مجيب).

"كربس، ممثل البابا هيرر يريد أن يراك!". (لا إجابة أيضاً).

"الوزير هيرر يسأل عنك!". (أخيراً يسمع هينتج همهمة كربس).

"ممثل البابا يعرفني، دعني وشأني!".

"هل يمكنني أن أساعدك في اللباس؟".

"اذهب للجحيم!".

"إنهم حقًّا يريدونك".

"إنهم دائماً يقولون ذلك". (تمتم كربس).

قال أحد المعاصرين: "إن كربس لم يتعلم قطّ أسلوب الحياة الراقي" رغم أنه شخص يستطيع أن يحدثك بعشرات اللغات. كان يترجم العبارة البذيئة "قبل مؤخرتي" (التي تعرف بتحية الشوايين) إلى أربعين لغة. وبعضها بغرض المزاح، فقد أعطى صحفيًّا ألمانيًّا الاسم الصيني "بو زاهيدو" أي (الذي لا يعرف).

لم يكن يدرك أنّ لا أحد يريد التعامل معه في الحياة اليومية، بل أصبح سلوكه الفظ مع الوقت عائقاً في عمله، حيث لم يكن أحد يرغب أن يرقيه أو يقبل عمله في اللغات الأخرى غير الصينية.

كان كربس مثل ألكسندر أرغيليس، يراجع لغاته بالتناوب. فقد حدد جدولاً صارماً: كانت التركية في يوم الاثنين، والصينية يوم الثلاثاء،



Twitter: @ketab_n

واليونانية يـوم الأربعاء، وهكذا. تراه ممسـكاً بكتاب في يـده ويدور حول طاولة الطعام في الغرفة من منتصف الليل إلى السـاعة الرابعة فجراً، عارياً تقريبـاً، ويدخن السـيجار. كانت مكتبتـه مصنفة وفقاً للغـات ومجموعات اللغـات. فـي كل كتـاب دوَّن خلاصـة كان يراجعهـا باسـتمرار. ثـم يقف عند طاولته، ويرفض أكل أي شـيء مـا عدا اللحم، ويبحـث عن التواصل الاجتماعي فقط إن كان يستطيع أن يسـتخدم إحدى لغاته. كتب هنتج "إنه يعرف 32 لغـة، ليـس بالطريقة التـي دائماً نرى بهـا متعدد اللغـات، ولكنه يتحدث بكياسة وبشكل جيد بالعربية وكذلك بالروسية والإيطالية". لهجته التوسـكانية كانت جيدة جـدًّا، والسـفير الإيطالي في بيجين عـرض مازحاً قص شعر كربس فقط ليكون في وسعه الاستماع للتوسكانية.

ومن البديهي أن يقارنه الكتَّـاب في ذلك الوقـت بميزوفانتي، ولكنه كان الأسـمى في عيون الكتَّاب الألمان. كتـب فرديناند ليسـينغ، المترجم ألماني في تسـينجتاو، والأسـتاذ متعدد اللغات: "أنا ضد النقـد الذي وجِّه لتجـارب ميزوفانتـي الـذي يعـرف جميـع اللغـات، ولكـن لغاته لـم تكن جوهرية، وإنما هي مقتطفات لموهبة جميلة".

إذا كان باسـتطاعتهم التجـول بحريـة عندما يصلـون إلـى نيويورك، فإن أفـراد عائلة كربس سـيجدون مدينـة مكتظـة بالمهاجرين مـن أوروبا. فـي الحقيقـة، إن أغلـب الصحـف اليوميـة باللغـات الأجنبية كانت تنشـر بلغات أخـرى مثل (الإيطاليـة، الألمانيـة، الهنغارية، الفرنسـية، الكرواتية، الإسـبانية، إلخ) أكثر من الإنجليزية في ذلك الوقت. فبالإضافة إلى اثنتين وعشرين صحيفة بالإنجليزية، كانت هناك عشـر صحف بالإيطالية، وسبع بالألمانية، وسبع بالإيديش أو العبرية، وثلاث باليونانية، وثلاث بالمجرية، واثنتان بالفرنسية، واثنتان بالبوهيمية، واثنتان بالكرواتية، وواحدة بكل من الإسـبانية، والصربية، والسـريالية. وبافتراض أن عائلـة كربس حُجزت في جزيرة إليس، المركـز الرئيس للمهاجرين القادمين من السـاحل الشـرقي،



Twitter: @ketab_n

فبإمكانه هناك الالتقاء بمتعلمي اللغات المحترفين أمثاله، وأن يوظفوه للتعامل مع المهاجرين المحتشدين.

واحد من هؤلاء كان مهاجراً إيطاليًّا يدعى أنثوني فاربيسيلس، وهو عالم مشهور في فقه اللغة اليونانية من جامعة أثينا، وُظف في مركز جزيرة إليس كمترجم يوناني في عام 1909 ويعمل أيضاً بالإيطالية، والإسبانية، والفرنسية، والألمانية، والبولندية، الروسية، والتركية، والأرمنية. وقيل إنه يعرف خمس عشرة لغة، وجميعها يتحدثها بشكل جيد.

ومع بداية عام 1909، كان يُقدَّم اختبار للمترجمين العاملين في جزيرة إليس، وتُقاس قدراتهم في الكتابة، والقراءة، والتحدث، في بعض (أو كل) اللغات التي يرغبون في العمل بها، والتي بدورها قدمت دليلاً قويًّا عن وجود مجموعة من متعددي اللغات الحقيقيين في جزيرة إليس. موظف ترجمة آخر كان يدعى روبن فولفك، روسي الأصل، يعرف اليديش، والروسية، والروثينية، وربما لغات سلافية أخرى. وآخر كان يدعى بيتر ميكولنيس، ليتواني الأصل، يعرف سبع لغات. كانوا يلتقون المسافرين، ويرشدونهم إلى جهات الفحص الطبي والتحقيقات القانونية. وباستثناء الحالات الصحية النادرة، كانوا يسألون المهاجرين أسئلة محددة: ما وظيفتك؟ ما جنسك؟ ما انتماؤك العرقي؟ هل شاركت في فوضى سياسية من قبل؟ هل أنت متعدد الزوجات؟

في النهاية، ركب كربس وأفراد عائلته سفينة إلى أوروبا، وتركوا وراءهم مكتبة كربس الكبيرة، والتي بيعت في النهاية إلى مكتبة الكونجرس. هناك في ألمانيا، تحول كربس إلى دراسة اللغات بكامل قواه. كتب ابن أخيه الكبير إكيهايرد هوفمان: "وقع في أسر طموحه الكبير في دراسة اللغات". وزارة الخارجية كانت تعرض 90 ماركاً ألمانيًّا لكل لغة يستطيع الشخص أن يتحدثها. قال له أحد أصدقاء العائلة: "سوف تصبح مليونيراً"، ولكن المسؤولين أخبروا كربس أن اختباره محصور



Twitter: @ketab_n

في لغتين. لم يقم بجهد ليتمكن من قراءة الكتابة المسمارية في اللغات الأشورية، والبابلية، والسومرية.

بعد ظهيرة أحد الأيام في العام 1930، بينما كان يترجم شيئاً ما (لم يكن معروفاً)، سقط كربس على الأرض، ومات بعدها سريعاً. انتشرت الأخبار بسرعة، ولاحقاً في ذلك اليوم، تلقت عائلته اتصالاً يحمل طلباً قاسياً: هل تود العائلة التبرع بدماغه لأهداف علمية؟ جاء الطلب من أوسكار فوجت (1870–1959) المتخصص، والمولع بعلم تشريح الدماغ ومدير معهد القيصر فيلهلم لأبحاث الدماغ. سيصبح الدماغ إضافة ثمينة إلى مجموعة فوجت من أدمغة النخبة، والدماغ الوحيد لعبقري في اللغة Sprachgenie.

فوجت، العاكف على دراسة أدمغة النخبة، كانت وراءه تجربة من الصعوبات وتهرّب من موقف عصيب. في عام 1924 دعي إلى موسكو لدراسة دماغ فلاديمير لينين. في هذا الوقت، دهاة السياسة في الاتحاد الروسي الفتيِّ، وعلى رأسهم جوزيف ستالين، رأوا خلق عقيدة للينين العبقري الثوري والمحافظة عليها. وكتب أيغور كلاتسكو، كاتب السيرة لفوجت وزوجته سيسل: "وظهرت لديهم أيضاً فكرة ذكية للحصول، إذا كان ممكناً، على تأكيد لعبقرية لينين من مصادر موثوق بها، خصوصاً من الخارج". وفي العام 1927، نقع فوجت دماغ لينين في محلول الفورملين ومادة البارفين، ثم قطعه إلى 31000 قطعة. وإلى هنا، واجه تحدياً كبيراً: كيف يبقى ذا مبادئ علمية بدون التعرض إلى الراعي السوفيتي؟ كيف يمكنه أن يشرح ميزات دماغ لينين دون الإشارة إلى حقيقة أنه كان مصاباً بالزهري؟ (من الواضح أن لينين لديه تاريخ عائلي في تصلب الشرايين). وماذا لو كان دماغ لينين لا يطابق أدمغة النخبة؟

حل فوجت هذه المشكلة من خلال وصف مجموعة الخلايا العصبية ذات الشكل الهرمي في قشرة دماغ لينين، وشرح أنها السبب في



Twitter: @ketab_n

امتلاك الخيال الخصب، والتفكير المنطقي الذي ادعاه السوفيتي العظيم، نشرت الورقة في عام 1929، وانتقل فوجت إلى مشاريع أخرى.

لم يكن يعرف أنه سيجمع أدمغة متعددي اللغات المفرطين في السنة التالية. التقى أخت زوجة كربس وابنة زوجته في الكنيسة وقت العزاء، إذ يقتضي القانون أن يتم استخراج الدماغ من الجمجمة بحضور أفراد من العائلة. تونيا وشارولیت لويس، وقفتا بعيداً لأنهما لا تقدران على المشاهدة، والاستماع إلى فوجت وهو يطرق وينشر. كان مناخ الحجرة أقرب إلى روايات فرانشكتين؛ الكنيسة المظلمة، وشعلة الغاز المهتزة، وفوجت يبتعد حاملاً دماغ كربس، وهو يترجرج في الجرة الزجاجية.

هذا الدماغ - كما أتمنى - لديه شيء ما ليقوله عن نفسه.



Twitter: @ketab_n

# الفصل الحادي عشر

الأدمغة التي أضافت إلى معرفتنا أكثر عن القدرات اللغوية، ليست أدمغة الأشخاص مثل ميزوفانتي أو كربس، ولكنها أدمغة أشخاص خسروا قدراتهم اللغوية. واحد من هؤلاء الأشخاص المشهورين كان رجلاً عاملاً في باريس يدعى لابورج، كان يعاني من الصرع، ولم يكن يتحدث لسنوات عندما أحضر إلى المستشفى في العام 1861 لعلاج تورم ساقيه. يستطيع فقط أن يقول: "أسمر". (يقولها بتنغيم مختلف) ويومئ بيده اليسرى. اعتاد طاقم المستشفى على تسميته في التقارير الطبية باسم (أسمر، أسمر).

وبعد عدة أيام تالية من وفاة لابورج، قام طبيبه بول بروكا بتشريح دماغه، ووجد ضرراً في منطقة القشرة في الجانب الأيسر من دماغ لابورج سببه مرض الزهري. ولاحقاً جمع بروكا أدمغة أشخاص آخرين لديهم صعوبات التكلم نفسها التي كانت لدى لابورج (والتي نسميها الآن الحبسة)[1]، وإصابة في المنطقة نفسها في الدماغ. وهذه قادت بروكا ليقول - على عكس الرأي العلمي السائد - إنه وجد منطقة وظائف النطق في الدماغ؛ وهذا مخالف أيضاً لأفكار تلك الأيام التي كانت تقول إن التحكم بالكلام كان محدداً في منطقة واحدة من الدماغ (في أغلب الناس، هي المنطقة اليسرى). تأكيدات أكثر كانت مطلوبة، ولكن المبادئ

(1) الحبسة: فقدان جزئي أو كلي للقدرة على صياغة الأفكار، أو فهم اللغة ناتج عن ضرر في الدماغ نتيجة مرض أو إصابة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

العريضة لمفهوم بروكا أصبحت حقيقة بسرعة. أدرك العلماء الآن أن هذه المنطقة مسؤولة عن وظائف أكثر مما كان يُعتقد سابقاً، وتلك اللغات أيضاً يتحكم بها في مناطق أخرى بجانب (منطقة بروكا). ولكنه مع ذلك كان اكتشافاً لا يخلو من الأهمية.

ليكون معنى منطقة بروكا مفهوماً ومحدداً أكثر بالنسبة لك، تخيل مجسماً للكرة الأرضية - كتلك النماذج الكروية الزجاجية أو البلاستيكية التي تجدها في الفصل الدراسي أو المكتبة - يرتفع على دعامة معدنية، ورسم عليها اليابسة والماء عليه بألوان مختلفة. هنا سأستخدمه كنموذج قوي يمثل جغرافيا الدماغ، فهل أنت مستعد؟

للبدء، لف الجسم الكروي حتى تصبح القارة الأوروبية أمام وجهك، واجعل خط الشمال الغربي، خط الزوال الرئيس الذي يمر عبر جرينتش، إنجلترا، مستقيماً مع أنفك. هنا تقع قشرة الفص الجبهي، موضع الشعور البشري والتحكم المعرفي، في المنطقة التي تمتد من منطقة الاستواء شمالاً إلى القطب الشمالي، وشرقاً إلى الشرق الأوسط، وغرباً خلال المحيط الأطلسي على طول الساحل الشمالي للبرازيل.

هذا يعني أنني عندما أضع يدي على خط الاستواء على الجانب المقابل من الكرة الأرضية وأجعلها مقابلة لي (خط غرينتش على الخط مقابل أنفي) - بيدي اليسرى من الجانب الأيمن من الدماغ، ويدي اليمنى من اليسار - وطرف إصبع إبهام يدي اليمنى سيكون مباشرة بجانب شبه الجزيرة العربية والبحر العربي؛ هذه هي المنطقة من الدماغ التي ترتبط بها منطقة بروكا للتحكم بالنطق. (هناك قياسات في المنطقة اليمنى من الجانب الأيمن بجانب الساحل البرازيلي، ومع ذلك فإنها تلعب دوراً أقل في اللغة عند أغلب الناس، وهذا لا ينطبق على إميل كربس كما سنرى).

بعد ثلاث عشرة سنة بعد بول بروكا، قدَّم عالم آخر ويدعى (كارل فيرنيك) ملاحظاته، وقال: "إن الأشخاص المصابين بضرر في منطقة



Twitter: @ketab_n

أخرى في الجانب الأيسر لديهم أيضاً مشكلات في التواصل. إذا رجعت إلى مجسم الكرة الأرضية، فإن هذه المنطقة تقع بعيداً وشرقاً في منغوليا، أو في نهاية أراضي إصبع السبابة اليمنى".

تحظى منطقة بروكا بالاهتمام عندما يتحدث الأشخاص عن اللغة. ولكن العلم الحديث أظهر أنها في منطقة أوسع، والفضل في هذا يعود إلى استخدام أجهزة التصوير التكنولوجية، مثل جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي[1]، وجهاز الأشعة المقطعية بالانبعاث البوزيتروني[2]، وجهاز التصوير ممتد الانتشار[3].

في المنطقة الأوسع للغة في الدماغ، لا تكمن اللغة في منطقة واحدة محددة، بل تنتشر في مناطق من الدماغ في شبكة متوزعة بشكل أكبر مما كان يعتقد. هناك شبكتان رئيستان، واللتان تسميان أيضاً "التيارات". أحد التيارات يترجم أصوات الكلام إلى سلسة من الأوامر الحركية، وهكذا يستطيع الشخص تحويل الصوت الذي يسمعه إلى صوت ينطقه. في مجسم الدماغ الأرضي، تذهب هذه التيارات شمالاً، من شمال الهند إلى شرق منغوليا. ولدى أغلب الناس، يقع هذا التيار في الجانب الأيسر من الدماغ. والتيار الآخر يحوّل سلسة الأصوات إلى مفاهيم ويخزنها داخل

(1) التصوير بالرنين المغناطيسي أو التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI) نوع من التصوير بالرنين المغناطيسي المتخصص الذي يستخدم لقياس استجابة الدورة الدموية (التغير في تدفق الدم) المتصلة بالنشاط العصبي في الدماغ أو النخاع الشوكي في البشر أو الحيوانات الأخرى. (المترجم)

(2) الأشعة المقطعية بالانبعاث البوزيتروني (PET): هي وسيلة في الطب النووي تستخدم التصوير الذي ينتج صورة ثلاثية الأبعاد للعمليات الوظيفية في الجسم. (المترجم)

(3) التصوير ممتد الانتشار (DTI): تقنية من التصوير بالرنين المغناطيسي للدماغ، تعطي صوراً ثلاثية الأبعاد لانتشار الماء في أنسجة الدماغ، وطرق تدفقه بين مناطق الدماغ. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الدماغ، وهكذا تستطيع أن تفهم ما يقوله لك شخصٌ ما. هذه الشبكة تبدو ممتدة في كلا الجانبين، في الجانب الأيسر من شمال الهند إلى شمال تايوان، ومن اليمين، من جنوب تكساس إلى هاواي.

وضع عالما الأعصاب غريغ هيكوك (من جامعة كاليفورنيا في أرفينا) وديفيد بوبيل (من جامعة نيويورك) معاً هذا النموذج من "التيار الثنائي" في العام 2000، وسمي التيار الأول: تيار "كيف؟" (حيث إنه يفسر للنظام كيف ينتج المعنى في الكلام)، والتيار الثاني: تيار "ماذا؟" (حيث يقوم من خلال التفاعلات الكيميائية (الأيض) بتحويل تيار صوت الكلام، ويترجمه إلى معانٍ).

نموذج "كيف" و"لماذا" دُعما من دراسات تشريح عصبية تتبعت حزم الأعصاب التي تتصل بمناطق كل منهما وكأنها صورة كاملة عن شيء لغوي في الدماغ. ولكنها لا تخلو من الثغرات حيث إنها نموذج رئيس للكلمات، رغم أن اللغة البشرية تستخدم القواعد، ولكنها توضح أن اللغات لا تُعبأ مثل مكتبة الكتب في الدماغ. ليس هناك طريق عصبي "فرنسي" يعيش بجانب، أو يتداخل بين حين وآخر مع الطريق العصبي المخصص "للإنجليزية" لديك، وإنما هي معانٍ مع مجموعات مختلفة من تيارات الأصوات المرتبطة بها، بعضها يحدد العالم الخارجي بالفرنسية أو الإنجليزية. إنها تساعد أيضاً على توضيح ما يحدث عندما تتعلم اللغات.

تعلُّم (التحدث) بلغة جديدة سوف يقحم تيار "كيف؟"؛ المرتبط بالأساس بالجزء الأيسر من الدماغ (تحت يدي اليمنى)، وتعلم (استيعاب) لغة جديدة سوف يقحم تيار "ماذا؟" الذي يعمل في كلا الجزئين من الدماغ (تحت كلتا يدي). وبتنشيط واستخدام كلا التيارين ستحرز الكثير في تعلم اللغة الأجنبية.

مع أن هذه النظرية تبدو بعيدة جدًّا عن الحياة اليومية، إلا إنني



Twitter: @ketab_n

أجدها مفيدة لفهم لماذا قدرة ابني ذي السبعة عشر شهراً على فهم ما أقوله أكبر من قدرته على التحدث؟ ولماذا يفهم الكلمات التي لا يستطيع النطق بها؟ يعزى الأمر إلى أن تيار "ماذا" لا يحتاج إلى أي حركة ميكانيكية، في حين أن تيار "كيف" يستخدم الكثير من الأجزاء المتحركة. بالإضافة إلى ذلك، فإن دماغه المرن يساعد أيضاً على شرح سبب تغير نطق الكلمة نفسها بشكل ملحوظ من يوم إلى آخر، هذا لأن نمو الأوامر الحركية لم يكتمل بعد.

الحقيقة، إن اللغات الأولية - بصرف النظر عن عددها - التي تستفيد من التيارات نفسها، تدلّ على أن الدماغ لا يحتوي اللغة الأصلية. يمكن للدماغ فقط أن يعكس حقيقة أن مجموعة الدوائر العصبية قد بنيت ونشطت في فترة محددة من الوقت. ولا يهم الدماغ ما إذا كانت هذه الدوائر العصبية على الأشياء التي يسميها بقية العالم اللغات أو اللهجات. إنه مهتم فقط بتنشيط هذه الدوائر. وهكذا، يصمم الدماغ خصائص استخدام اللغة خلال مستوى من المهارات يمكن أن يحدد.

تكشف أجهزة تصوير الدماغ التكنولوجية كثافة الأوكسجين المستخدم حول الدماغ؛ استخدام الأوكسجين الأعلى يظهر طاقة أعلى تستخدم من استهلاك خلايا الجلوكوز. والدوائر العصبية اللغوية المتأصلة والعميقة سوف تظهر باهتة في جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي، لأنها تعمل بفعالية، وتتطلب "جلوكوز" أقل على الإجمال. وبالنسبة للغات الأحدث، وكذلك الأقل استخداماً، فإنها تجعل الدوائر العصبية أكثر وضوحاً، بسبب أنها تتطلب خلايا دماغ أكثر، وبالتالي "جلوكوز" أكثر.

باستخدام التصوير التكنولوجي لدراسة هذه الدوائر، سترى أيضاً موقع الأوكسجين المستخدم للتغيير، على حسب مستوى المهارة؛ فمتعلم اللغة الأحدث سيرتبط بالمناطق جميعها على المنطقة الأخرى في مجسمي البلاستيكي، نوعاً ما تحت يدي اليسرى. هنا دليل على أن



Twitter: @ketab_n

الدماغ يوظّف عملياته المعرفية في اللغات الجديدة نسبيًّا بمستوى عالٍ من الأداء، وليس بتلقائية، لتؤدي مهام اللغة في اللغات الجديدة نسبيًّا. ومن خلال إعطاء الوقت الكافي للتدريب، على كل حال، فإن هذه المهام ستتكون في التيارات تحت يدي اليمنى. وتجعلها مهامَّ تلقائية متوقعة ومتنبأ بها، والدماغ الخبير يحفظ المصادر المعرفية للتعامل مع المهام الإبداعية وغير المتوقعة.

بناء تيارات "كيف" و"ماذا" في أدمغة البالغين لا يحدث بدون تدريب شعوري. ولكن - كما لاحظ ديك هدسون- الأشخاص الذين يتدربون بالكمية نفسها يختلفون في أدائهم النهائي؛ فمن المنطقي أن يكون هناك نوع ما من السعة الخفية في أدمغتهم، والتي تجعل هذه التيارات أسرع وأقوى وأكثر تماسكاً، بسبب أن تشريح الوظائف في أدمغتهم ما زال يحيطه الغموض. تحديد هذا النوع من القدرة نوع من التحدي، أو بعبارة أخرى، إن عدم وجود تحديد تشريحي أو بنائي للاختلافات في الدماغ حتى الآن لا يعني بالضرورة أنها غير موجودة.

قال لي جون شومان، الخبير في علم اللغة التطبيقي من جامعة كاليفورنيا، والخبير في تعلم اللغة البيولوجية العصبية: "سيقول لك علماء الأعصاب إن الأدمغة مختلفة مثل الأوجه، وربما مثل الأجساد". أحد العوامل المؤثرة هو تحول الجين في فترة الإخصاب. إنك تكتسب 50% من جينات والديك، ولكنها ليست مثل الجينات البالغة نسبتها 50% التي تأخذها من أقاربك. العامل الآخر هو أن هذه الجينات لا تحدد المكان الدقيق للخلايا العصبية في الدماغ.

قال شومان: "خلال التكوين الجنيني، تتكون الخلايا العصبية وتغير أماكنها حتى يصبح الدماغ مسارات ومتغيرات عشوائية تعتمد على البيئة الكيميائية والتلقائية للدماغ".

إحدى النتائج المترتبة على ذلك أن الأدمغة تشابه التشريح العام،



Twitter: @ketab_n

في حين أنها في مرحلة الميكروسكوب تكون مختلفة بشكل ملحوظ. بعض هذه "التشعبات الدقيقة" يمكن أن تشير إلى الأداء العالي لشخص ما.

فكر شومان في احتمال أن لدى متعددي اللغات المفرطين أدمغة مختلفة عن متعلمي اللغة العاديين. "خلال التكون الجنيني، هناك بعض التحول في الخلايا العصبية، ربما إلى منطقة بين منطقة فيرنك[1] ومنطقة بروكا". هذا يمكن أن يتوافق مع مجسم الكرة الأرضية، في الرقعة الواقعة وسط آسيا بين المملكة العربية السعودية ومنغوليا. قال شومان: "وكنتيجة لهذا، إن هناك عوامل ذات أهمية تشكل قوة الدماغ ألا وهي الخلايا العصبية والشبكة العصبية، التشعب العصبي[2] والموثق العصبي[3]، والخلايا المساعدة. كل هذه العوامل كان عليَّ لاحقاً أن أعرف عنها أكثر".

أحد الأمثلة على مثل هذا الدماغ هو دماغ أينشتاين. يبلغ حجمه الكلي (1230 غراماً). كان عاديًّا، الفص الجداري السفلي كان أكبر قليلاً من الأدمغة الأخرى، وكان أيضاً أكثر تماثلاً من جانب إلى آخر. قال شومان: "هذا التوسع الضخم سمح له أن يفكر ويبرهن ويتخيل في مناطق الرياضيات والخيال". وأشار أيضاً - لحسن الحظ - إلى أن أينشتاين كان قد وُلد في وقت كانت فيه نظرياته قابلة للفهم، فلا تستطيع أن تفصل بين العبقري وسياق حياته الزّمني.

(1) منطقة فيرنك: منطقة في المنطقة الصدغية في الجزء الأيسر من الدماغ، تتحكم في لغات كل الذين يستعملون اليد اليمنى ومعظم الذين يستخدمون اليد اليسرى. (المترجم)

(2) التشعب العصبي: الجزء المتشعب لخلية عصبية يحمل السيالات العصبية من وإلى جسم الخلية العصبية. (المترجم)

(3) الموثق العصبي: يدعم النسيج العصبي في التفاعلات الكيميائية داخل الخلايا العصبية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

لذا، مثل حالـة الجنين، فالشـخص الذي يصبح متعـدد لغات مفرطاً يمكنه أن يحمل إمكانيـات عصبية إضافية في الأجزاء المسـؤولة عن تعلم الكلمات، أو إدراك تراكيب القواعد، أو تحليل وتقليد أصوات الكلام. قد يمتلكون قدرة في واحدة من هذه المناطق الثلاث، أو فيها جميعاً.

هذا ما كان يبدو عليه دماغ إميل كربس.



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثاني عشر

أثناء إقامتي في أحد الفنادق الفخمة في دوسلدورف، ألمانيا، سمعت طرقاً على باب غرفتي، لقد وصلت مرشدتي؛ كانت امرأة في نهاية الخمسين، بوجنتين مستديرتين وشعر رمادي، وتضع نظارة أنيقة. اسمها لورينا أوبلر، وهي طبيبة أعصاب أمريكية من جامعة مدينة نيويورك، وكانت تمضي جزءاً من الصيف وهي تدرس في بوتسدام. أخبرتني عن فريق علماء الأعصاب في دوسلدورف الذين استخدموا طرقاً حديثة لتحليل دماغ كربس، وأنهم وجدوا فيه آثار الفخر اللغوي المتدفق للألمانيين. إذا كنت تريد أن تعرف المزيد عن الدماغ لدى المتعلمين الاستثنائيين للغة - كما أريد أنا ولورينا - فإنه عمل مثير يبشر بالعديد من الإجابات. كنا ذاهبين لمقابلة علماء الأعصاب والسماع أكثر عن أعمالهم.

بدأت رحلة لورينا بمتعلمي اللغة الموهوبين في الكلية عندما كانت في إسرائيل تتعلم العبرية. كانت جيدة في الفرنسية في مرحلة الثانوية العامة ولم تكن كذلك في اللاتينية، وجدت العبرية كنسيم - تستنشقه - أثناء مشاهدتها زميل فصلها؛ الطفل المورماني الذكي الذي لا يستطيع تثبيت لغته العبرية. هذا التفاوت بقي معها. في المرحلة الجامعية درست العربية وتخصصت في اللغويات. كتبت رسالة الدكتوراه بالعربية، في الغالب في إسرائيل؛ المكان الذي بدأت فيه دراسة أولئك الأشخاص الذين لديهم أكثر من لغة واحدة وخسروا قدراتهم على إيجاد الكلمات


Twitter: @ketab_n

أو إنتاج الجمل المتصلة. أصبحت الأدمغة المتضررة، خصوصاً تلك التي مع أكثر من لغة، في بؤرة اهتمامها. ألفت بالمشاركة كتاباً مؤثراً، بعنوان "الدماغ الثنائي: أوجه ثنائية اللغة في علم الأعصاب النفسي وعلم الأعصاب اللغوي" (1978)؛ وهو إحدى المحاولات الأولية الهادفة لشرح كيف يعمل، وشاركت في تحرير كتاب بعنوان "الدماغ الاستثنائي: الموهبة والقدرات الخاصة في علم الأعصاب النفسي" (1988)، المجموعة الاكتشافية عن "المجموعة العصبية" للقدرات الموهوبة والاستثنائية، كيف تبدو عقول الموهوبين؟ وكيف تكونت؟ ومن يملكها؟ وما البيئة الاجتماعية التي نشأوا فيها؟

في مقدمتها لكتاب الدماغ الاستثنائي، شرحت النتائج الاستثنائية التي جاءت من وابل التفاعلات الصغيرة المتشابكة بين النزعة العصبية والإطار الثقافي، وتعزيز العلاقات الاجتماعية والمصادفة المحضة. بعض هذه العقد نفهمها، والبعض الآخر لم نجده إلى الآن، ولكن يمكن أن نكون قادرين على فهمها في ما بعد. العديد منها غير قابل للتتبع، خصوصاً بالوسائل الحالية المتاحة وأساليب التفكير المتعارف عليها. هذا كان أحد الأسباب التي دعتني لاختيارها مرشدة لي في دوسلدورف.

السبب الآخر أنها قد قامت بعمل مبكر في موهبة اللغة. إذ بدأت بدراسة فرط اللغة الشاذ؛ الاضطراب المعرفي الذي يجعل الأطفال الضعيفين عقليًّا قادرين على القراءة بسهولة في سن مبكرة، ومع ذلك فإنهم لا يستوعبون ما يقرأونه. إن لديهم قدرة كبيرة على تمييز الكلمات (أشير إلى أن كريستوفر كان لديه فرط اللغة الشاذ).

هذه الظاهرة استولت على تفكيرها: لماذا بعض الأشخاص أفضل في القراءة من أشخاص آخرين؟ وهي تتذكر الطفل المورماني، طلبت من زميل لها أن يوزع استبياناً حول أرجاء المدينة: هل أنت من القادرين على تعلم اللغات بسهولة؟ أو هل تعرف أحداً منهم؟



Twitter: @ketab_n

بهذه الطريقة عثرت على (سي جي)، كان طالباً أبيض في جامعة هارفارد، بعمر التاسعة والعشرين، نشأ في عائلة أحادية اللغة في الولايات المتحدة. تعلم الفرنسية أول مرة في الثانوية العامة، وبنجاحه فيها انتقل إلى الألمانية. ودرس اللاتينية والإسبانية في فصل دراسي لكل منهما، وتخصص باللغة الفرنسية. وذهب مع فريق السلام[1] إلى المغرب، وهناك تعلم العربية المغربية بشكل أسهل كثيراً من أقرانه، ثم أمضى وقتاً في إسبانيا وإيطاليا والتقط هناك لغاتهما. قال: "إن المتحدثين الأصليين لكل من لغاته الخمس الأصلية وجدوا لغته سهلة الفهم، مثل المتحدث الأصلي". (هذه الأبحاث أخذت بكلامه فقط، ولم تخضع طلاقته اللغوية للقياس).

وبشكل حاسم، لورينا وزملاؤها نظروا أيضاً إلى نسبة ذكاء (سي جي) والاختبارات المعرفية. ليس بالضرورة أن متعددي اللغات المفرطين أذكياء بشكل استثنائي؛ فقد كانت نسبة ذكاء (سي جي) متوسطة إلى حد ما 105 (في هذا يشبه كريستوفر الذي كان في اختبار الأداء أقل من الاختبار اللفظي الذي لم يكن في القمة). لذا، إن ارتفاع النسبة في اختبار الذكاء اللفظي أيضاً لا يدلّ بالضرورة على موهبة اللغة. وكمثله من الأطفال، كان (سي جي) بطيئاً في القراءة، كما أن درجته تشير إلى أنه كان متوسطاً في الثانوية العامة والأداء الجامعي. على كل حال، لقد حقق درجة عالية جدًّا[2] في أغلب أجزاء اختبار الاستعداد اللغوي الحديث؛

(1) فريق السلام: برنامج تديره حكومة الولايات المتحدة يهدف إلى تقديم المساعدات التقنية والاقتصادية والاجتماعية خارج الولايات المتحدة؛ بهدف نشر الثقافة الأمريكية ومساعدة الأمريكيين على فهم ثقافات الدول الأخرى. (المترجم)

(2) بناءً على ما قالته مادلين إيرمان، إن المقاييس الفرعية لاختبار الإدراك النحوي في الاستعداد اللغوي الحديث تتوقع نتائج أفضل في وقت لاحق، ولكن (سي جي) حسبت له نسبة خمسين بالمائة منها. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

هذا الاختبار الذي طور في الخمسينيات لمساعدة الجيش الأمريكي على إيجاد الأشخاص القادرين على تعلم اللغات الأجنبية. كما تفوق أيضاً في أداء أي اختبار يطلب منه وضع نماذج متشابكة في سلسلة من الأرقام، أو الحروف، أو الكلمات. كانت ذاكرته اللفظية جيدة جدًّا، مثل كريستوفر، يمكنك أن تقول: كانت لديه ذاكرة ماصَّة للنثر وقوائم الكلمات.

في الحكايات الشعبية، يقال إن القدرة الموسيقية والقدرة على تعلم اللغات الأجنبية متلازمتان؛ فالموسيقى واللغات نظام منهجي يدخل الترتيب بين الوحدات، والشخص يجب عليه أن يكون مُدرباً على الأداء على نحو جيد. والواقع أن أصوات الكلام والموسيقى تتشارك مناطق في الدماغ، وهناك أيضاً تشابه أساسي في إدراك الأنماط البصرية والسمعية. ولكن، عندما خاض (جي سي) اختبار "السي شور" للقدرات الموسيقية (الذي وضعه كارل سي شور في العام 1919) كانت درجته متوسطة في اختبار ذاكرة اتساق الأصوات والأنماط الموسيقية للإيقاع والنغمات. كانت الحكاية الشعبية غير صحيحة في حالته على الأقل.

الشروحات المحتملة لموهبة تعلم اللغة تقع في مجالين عامَّين؛ الرؤية الأولى تقول: في المعنى المهم في اضطلاع الشخص وتفانيه في تعلم اللغة، أنت لا تحتاج إلى وصف الأداء العالي في اللغة باعتباره استثناء بيولوجياً؛ لأن ما يقومون به هو نتيجة الممارسة؛ فأي شخص يمكن أن يكون متقناً للغة الأجنبية، والبالغون أيضاً. في الحقيقة، (تذهب القصة) إلى أن متعلمي اللغة لديهم القدرات نفسها، والناجح منهم هو من يقدم نجاحاً باهراً في نهاية المطاف. يمكن أن تكون لغاتهم الأصلية مثار حسد الآخرين، ولكن هؤلاء الأشخاص لا شيء يمنعهم من سماع وإنتاج الأصوات الجديدة، والكلمات، ونماذج القواعد. ويعتقدون أن تعلم اللغة ليس بالأمر السهل، وأنّه يحتاج جهداً، لذا أخذوا على أنفسهم عهداً للاستفادة من أوقاتهم بفعالية.



Twitter: @ketab_n

الرؤية الأخرى: موهبة تعلّم اللغة شيء ما عصبي. ربما لا نعرف ما هي هذه الآليات على وجه التحديد، ولكننا لا نستطيع تفسير هذه النتائج الاستثنائية على أساس التدريب أو التحفيز فقط. جاء (سي جي) ليلعب دوراً مهمًّا في هذه النظرة، بسبب أن لورينا قاست فيه الميزات المعرفية التي تساعد على تعلم البالغين اللغة الأجنبية بسرعة وسهولة. وبافتراض أن هذه الميزات محددة وراثيًّا أكثر من الأخرى، وعلى الرغم من قابلية التدريب، فهم يبدون قابلين للتطور فقط داخل إطار محدد.

في هذا الوقت، يظهر (سي جي) كحالة سهلة في دراسات أشخاص آخرين، ومن ضمنهم اللغوي بيتر شيكن من جامعة الصين في هونج كونج. أشار شيكن إلى ميزة (سي جي) قائلاً: "حالة تبدو أنها قادرة على التعامل مع كميات كبيرة من المواد، وتحفظ بسهولة وسرعة".

كلٌّ من كريستوفر و(سي جي) لديه موهبة ليست في اللغة بالذات. على العموم، يجادل شيكن: "بلى، إنهم يملكون قدرات معرفية ملائمة جدًّا لتعلم اللغات. هذا كل ما في الأمر، إنهم يستطيعون تمييز الأنماط وتذكر المواد المتعلمة. وهذه المهارات مناسبة للغات، وهي "رموز بسيطة نسبيًّا يمكن تعلمها وإدارتها بسرعة، ومن ثم يمكن أن تكون الأساس للمحافظة على المواد".

عندما سُئِل شيكن عمّا إذا كان يمكن أن تكون هناك موهبة استثنائية لتعلم اللغة، مختلفة نوعيًّا عن الكفاءة [اللغوية] العالية. كان جوابه المدوي: "(نعم)، كلا النوعين من متعلمي اللغة يتشاركان نوعين من الميزات". وكتب: "إن لديهم مستوى مرتفعاً من النماذج المعجمية القابلة للدراسة، وغزارة في أنظمة الذاكرة لديهم، وتمثيلات متعددة لعناصر المعجم... يفترض أن مثل هؤلاء المتعلمين لا يقدرون النموذج إلى حد كبير". لنترجم هذا الكلام: إنهم يعرفون الكثير من الكلمات، ولديهم الكثير من الكلمات للمعنى نفسه، ولا يبالون كثيراً بتجنب الخطأ. مثل


Twitter: @ketab_n

هـؤلاء الناس يكونـون مختلفيـن بيولوجيًّا. أشـار شـيكن: "يظهـر النجاح الاسـتثنائي لمتعلمي اللغات الأجنبية باستمرار متميزاً بامتلاكهم ذاكرة غير عادية، خصوصاً في تذكر المـواد اللفظية؛ مثل متعلمي اللغة الاسـتثنائيين هؤلاء لا يبدو أن لهم قدرات غير عادية مع الاعتبـار للمدخلات والعملية المركزية في تعلم اللغـة". أو بمعنى آخر: إنهم يتعلمـون اللغات بالطريقة نفسـها التي يقوم بها أي شـخص آخر. إنهم فقط يملكون ذاكرة أفضل في الاستعادة والاسترجاع.

ما الـذي تعنيه عبارة اسـتعادة أفضـل؟ يجد الشـخص العادي خلال حياته أن تعلـم الحقائـق الجديدة أسـهل من تعلـم المهـارات الحركية أو المعرفيـة. وبالطريقة نفسـها، سـيجد البالـغ العـادي متعلم اللغـة أن تعلم مفردات جديدة أسهل من تعلم قواعد اللغة. ونحن نعرف، على الأقل في المرحلة الأولى من تعلم اللغـة الأجنبية، أن البالغ العـادي يميل كثيراً إلى "الذاكرة الصريحة". هذا النوع من نظام الذاكرة الذي يسـاعدك على تذكر الحقائق والمفـردات يبقى قويًّا إلى حـد ما مع تقدم الإنسـان بالعمر، رغم أن المرونة في الذاكـرة الإجرائية - وهـي مكان حفظ المهـارات الحركية والمعرفية وكذلك قواعد اللغة - تصبح أقل ثقة في الاعتماد عليها.

إذاً "الاستعادة الجيدة" يمكن أن تعني أن متعددي اللغات المفرطين يمكنهم ترسـيخ الذاكرة الصريحة في أدمغتهم بسرعة أكبر، أو أن ذاكراتهم الإجرائية تبقـى مرنة لفترة أطول مـن معظم الناس، أو ربما لديهم مسـاحة ذاكرة متسعة.

يشير مستوى كريستوفر، العبقري المتوحد متعدد اللغات، في ذاكرته المتوفقة في الاستعادة إلى أنه أقل من متعلم اللغة العادي على غير ما يبدو عليه من النظرة الأولى.

بالنسبة للورنيا، فكرت أن شيئاً ما أكثر يمكن أن يحدث!

ينسـى (سـي جـي) الصـور والأرقـام كأي شـخص آخر وبالسـرعة



Twitter: @ketab_n

نفسها. لماذا يكون الشخص ذا ذاكرة جيدة في الأصوات والمفردات وأقل كفاءة في الأشياء الأخرى؟ في الموسيقى كان عاديًّا. وحيرته اختبارات القدرات البصرية المكانية، وقال إنه يستطيع قراءة الخرائط أو إيجاد الطرق الجديدة. هذا أثار فضولها؛ فقد كان الاعتقاد السائد أن القدرات اللفظية الاستثنائية مرتبطة بالقليل من المهارات البصرية المكانية، والعكس صحيح.

لمحاولة تنظيم هذا التداخل، بحثت في نظرية معقدة تعرف بفرضيات جيسكويند غالابوردا المرتبطة بعسر القراءة، وجنس الشخص، والبراعة اليدوية، وخصائص أخرى.

على سبيل المثال، إنّ عدد العسران (من يستخدمون أيديهم اليسرى) أكثر بين الموهوبين في الفنون البصرية. كما أن الذكور أكثر في اضطراب عسر القراءة والتوحد. في الثمانينيات من القرن الماضي، نظر عالما الأعصاب نورمان جيسكويند والبريت غالابوردا إلى تطور الدماغ للإجابة، ولاحظا أن الجانب الأيسر من أدمغة أجنّة الفئران يتطور بنسبة أكثر بطئاً إذا ثبت التستوستيرون عند لحظة نمو محددة. والخلايا المقيدة في الجانب الأيسر تنتقل إلى الجانب الأيمن؛ الأمر الذي يتطلب مواد أولية أكثر لبناء موصلات دماغ قوية.

أشار كلٌّ من جيسكويند وغالابوردا إلى أنه لو حدث الشيء نفسه للبشر، فإن عدم التماثل بين فصي الدماغ يمكن إلى يؤدي إلى خلق كتل من مواهب وقصور. نظريتهما يمكن أن تشرح لماذا الأطفال ذوو الصعوبات المرتبطة بالجانب الأيسر من الدماغ (مثل عسر اللغة أو التأتأة) لديهم قدرات أعلى من المتوسط في مهارات الجانب الأيمن من الدماغ مثل تركيب الأحاجي؟ ويمكن أن تفسر السبب الذي يجعل استخدام اليد اليسرى (أو كلتا اليدين)، والاضطراب الجنسي، واضطراب المناعة (مثل الربو، والحساسية)، وصعوبات التعلم، والموهبة في الموسيقى، والفن،



Twitter: @ketab_n

والرياضيات تبدو وكأنها متلازمة؛ إن لم تكن في الأشخاص أنفسهم، ففي عائلاتهم.

طابق (سي جي) الصورة. وعلى الرغم من كونه توأماً مماثلاً لأخيه، ورغم من أن أخاه لا يملك قدرات خاصة واضحة؛ فلا أحد منهما يستعمل اليد اليمنى بقوة (كان "سي جي" يستخدم اليد اليسرى، بينما كان أخوه بارعاً في استخدام كلتيهما). كما كان (سي جي) مصاباً بالحساسية والطفح الجلدي، وكان مضطرباً جنسيًّا، ويضيع بسهولة.

- ألا يدحض هذا النظرية؟ حيث إن توأم (سي جي) لا يملك قدرات لغوية ولم يكن مضطرباً جنسيًّا؟

- أجابت لورينا بقولها: "لا. فإن كثرة من يستخدمون اليد اليسرى بدون موهبة لا تُعَد طعناً في التعليل، بسبب أن الحزم العصبية تتوزع في أفراد العائلات".

إنك لا تبحث عن جين معين للمواهب أو القصور، بل تبحث عن الجين الذي يؤثر في عمل الهرمون. بناءً على نظرية جيسكويند غالابوردا، فإن جينات الجنين تحفز إنتاج التستوستيرون وتحدّد الضعف في النطاق الهرموني. لا يحدد الجين ولا الهرمونات نتائج عمل كل منهما، بل إنها تأخذ منهجاً متعرجاً: المدخلات الصحيحة في اللحظة الصحيحة تحت الظروف المواتية يمكن أن تنتج تماثلاً دماغيًّا محدداً يمكن أن يقوِّم السلوك الذي يوصف في الإطار الثقافي بأنه موهبة أو قصور. سواء أتعلم متعدد اللغات المفرط اللغة بسرعة، أم استخدم الكثير منها، أم قام بكليهما، فإن موهبته/ موهبتها كانت نتيجة تقاطع في عوامل خارجية.

وكأي رحلة جيدة تبدأ بالاستمتاع بتناول وجبة؛ ناقشت أنا ولورنيا موضوع متعددي اللغات المفرطين أثناء تناولنا وجبة السوشي. وقررنا أن نزور غداً معهد الدماغ، ولدينا الكثير لنناقشه.

- حتى إن لم يوافق الشخص على أن اضطراب الهرمون يصنع حزماً



Twitter: @ketab_n

من الميزات؛ فإن الحزم ما زالت مثيرة. أرادت لورينا أن تعرف إذا كان أي من هؤلاء الأشخاص الذين التقيتهم تظهر لديهم سمات حزم جيسكويند غالابوردا. قلت لها إن أغلب متعددي اللغات المفرطين رجال، وإنّ عدداً منهم من مضطربي الجنس، ويستخدمون اليد اليسرى. ألكسندر لا يستطيع قيادة السيارة، وهو يعلم نفسه الكتابة بيده اليمنى، ووالده كان توأماً مطابقاً. أخبرتها أيضاً عن المترجم الذي التقيته في المفوضية الأوروبية في بروكسل، البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً؛ غراهام كنساديل بريطاني المولد الذي نشأ في "عائلة أحادية اللغة بشكل صارم" (على حد تعبيره)، ومع ذلك درس - أو تعمق في - مجموعة من اثنتين وعشرين لغة (تتضمن الغورانية؛ إحدى اللغات البدائية في الباراغوي، والفيتنامية التي أرهقته)، إنه يستخدم أربع عشرة منها بشكل محترف (الفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، والسويدية، والروسية، والبرتغالية، والمجرية، والهولندية، واليونانية، والتشيكية، والسلوفاكية، والعربية، والتركية، والفنلندية). عندما التقيته كان يدرس العربية، والصينية، والتركية في وقت فراغه.

قال لي: "يعتقد الناس أن تعلم اللغات عملٌ مضنٍ بالتأكيد. بالنسبة لي، أنا لا أوافق على هذا الرأي، فأنا لا أقضي وقتاً كبيراً للقيام به، إنّه يأتي بسهولة ولا أشعر أنّه عمل صعب. في الحقيقة، أنا أتذكر اللغات فقط بعد أن تدخل رأسي، وأنا لا أقحم الأشياء في رأسي".

كان غراهام غير قادر على تعلم القيادة، ولديه ذاكرة متميزة في ما يتعلق باللغات، ولكن ليس للحقائق التاريخية. وكان مضطرباً جنسيًّا، ولم يكن مجمعاً للكلمات ولكنه باني نظام؛ إذ كان لديه هوس بفك رموز الأفعال في قائمة الطعام ذات الأحرف الطباعية الصغيرة، وقراءة إشارات الطرق التي تقابله في رحلاته الدولية الكثيرة.

هذا كان نموذج حكايات، ولكن فرضيات جيسكويند غالابوردا



Twitter: @ketab_n

ساعدت على إعطائها معنى. وكنظرية للبيئة البيولوجية والاجتماعية التي تتعلق بالأشخاص وكذلك العائلات، فإن فرضيات جيسكويند غالابوردا شرحت الكثير، ولديها الميزة بعدم الادعاء أن الأشخاص مع مميزات (أ) و(ب) لا بد وأن يكونوا (ج). إنها لا تغوص في تحديد أولي، ولكنها في المقابل تحاول وضع خريطة لمؤثرات محتملة. ميزة أخرى، إنها تتعامل مع العسر، وأمراض المناعة، والموهبة، والاضطراب الجنسي حسب موقعها في النطاق وتأثيرها.

ومع ذلك، فمن مميزاتها - أو بتعبير أصح: من مواطن قوتها - أنها تجعل تحديدها صعباً. وللخوض فيها، عليك أن تعرف الجينات، والعلوم المعرفية، وعلم الأوبئة، وعلم الغدد، وجميع التفاصيل المهمة. عليك أيضاً أن تجمع عينات كبيرة، والعديد من العائلات، وتسألهم أسئلة مقننة؛ كمحاولة لتأكيد بعض الارتباطات التي كونت النجاح.

إحدى الدراسات، على سبيل المثال، لم تجد ارتباطاً بين استخدام اليد اليسرى والقدرات المكانية والحسابية العالية. ومن ناحية أخرى، وجد الباحثون ارتباطاً بين استخدام اليد اليسرى ومشكلات الكلام. والعديد من الدراسات أظهرت أن الأشخاص المصابين بالتوحد لديهم معدل مرتفع من البراعة في استخدام اليد اليسرى. ومع ذلك، وجدت دراسة أخرى، متفقة مع فرضيات جيسكويند غالابوردا، أن الذكور يؤدون بشكل أعلى أو أقل بدرجة ملحوظة من الإناث في المهام العقلية التي تتطلب تحديد حركة الأجسام الدائرية. ولذا خارج عمل لورينا مع (سي جي)، فلا يوجد شخص آخر ربط بين القدرات اللفظية في اللغة الأجنبية وأيٍّ من مميزات جيسكويند غالابوردا.

ناقشنا كيف أنّه يجب عليَّ أن أحصل على المعلومات المشابهة عن حزم المميزات من العديد من الأشخاص حسب الممكن. وأخيراً، صممت استبياناً على شبكة الإنترنت لجمع المعلومات من حوالى



Twitter: @ketab_n

أربعمائة شخص من جميع أنحاء العالم من يناير 2009 إلى يناير 2010. وهم الأشخاص الذين يدعون أنهم يعرفون ست لغات أو أكثر، والذين وجهوا إلى الاستبيان في مدونة لغوية وموقع لتعلم اللغة، باللغة الإنجليزية مثل http: //how-to-learn-any-language.com، وهناك يعطون إقراراً للإجابة على الأسئلة التي تخص خلفياتهم، ولغاتهم المتعلمة، وأساليبهم المعرفية[1].

النتائج التي تم تحليلها باستخدام معالجة إحصائية علمية خاصة بهذا النوع من البيانات أثبتت بعض فرضيات جيسكويند غالابوردا. على سبيل المثال، الأشخاص الذين قالوا إنهم يعرفون ست لغات أو أكثر، والذين قالوا إن تعلم اللغات الأجنبية كان أسهل لديهم، كانوا أكثر قرباً إلى تكرير السلوك، وتفضيل و/ أو الميل للاضطراب الجنسي مما كان متوقعاً. نتائج هذه الإحصائيات كانت مثيرة!

كان أغلب أفراد المجموعة أيضاً لديهم تاريخ مرضي مع اضطرابات المناعة. على كل حال، لا شيء من هذه الميزات (البراعة اليدوية أو التوأمة) لديه أي علاقة مثيرة مع عدد اللغات أو سهولة التعلم[2]. لم تثبت أي دراسة عن موهبة اللغة ما تتناقله الحكايات الشعبية من وجود رابط بين الاضطراب الجنسي والقدرات اللفظية. مرة أخرى، هذا لا يعني أن الأشخاص الذين يتحدثون الكثير من اللغات أو يتعلمون بسهولة

(1) فقط ملاحظة عن الاستبيان: اخترت ست لغات كحد أدنى بناءً على نصيحة من ديك هدسون، حيث يرى أن التحدث بخمس لغات كان منتشراً في المجتمعات، لذا فالأشخاص الذين يتحدثون ست لغات يعتبرون خارجين عن المألوف. (المؤلف)

(2) أحد التنبيهات المهمة، أن الاستبيان وُضع للأشخاص على الإنترنت، لذا المجموع الكلي من مجموع العينة على الإنترنت يمكن أن يحرف النتائج. لتفاصيل أخرى، وللنقاش حول التحليل الإحصائي، أرجو زيارة www.babelnomore.com. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أكبر هـم بالضـرورة مضطربـون جنسـيًّا، ولكنه يعنـي أن هنـاك مضطربين جنسـيًّا وأشـخاص مصابين بأمراض المناعة بنسـبة أكبر بين متعلمي اللغة الموهوبين بخلاف ما يتوقع. اختبار هذا العدد يسـمح لنـا بالانتقال إلى ما هو أبعد من الحكايات الشعبية، والإشارة إلى سبب وجود هذه النماذج.

تعود نتائـج هذا الاسـتبيان الرائـدة إلى عدة أشـهر، منـذ أن كنت أنا ولورينا جالسين في مطعم السوشي نحضِّر لجولتنا في دماغ كربس.

قالـت: "ليـس هنـاك اختـلاف بيـن (سـي جـي) والأشـخاص مثل ميزوفانتـي، وكربـس، والأشـخاص الآخريـن المهتم بهم. (سـي جي) لم يبدأ في تجميع اللغـات عندما التقيناه، ولا نعرف مـدى تمكنه من الانتقال بينهم. في الواقع، كان مشهوراً بسرعته وسهولة تعلمه اللغات إلى مستوى مرتفـع جـدًّا. أنـا مهتمة بهـؤلاء الأشـخاص على وجـه الخصـوص". قد يكونون حقًّا متعدّدي لغات، وربما لا. وكان السـؤال: هل هم متشابهون؟ أو إن هناك نوعين مختلفين منهم؟

أعدت قراءة الجملة التي صاغها شـخص يدعى لورن كولمن، الذي كتب ملاحظاته عما يسـمى الحيوانات المخفية أو غيـر المعروفة من البيغ فـوت[1] إلى الضفادع المكتشـفة حديثـاً. جمع كولمن جميـع المخلوقات غير المصنفـة، والتي تعـرف أيضـاً بالمخفيات بقولـه إنها "خـارج الزمن، وخـارج المـكان، وخـارج القيـاس". مثـلاً، يقول عن أسـماك سـيلكانث التي تعيش في الأحفـار، ويعتقد أنها سـتنقرض إنها خـارج الزمن. والقرد الهارب من حديقة الحيوانات الذي يشاهَد وهو ينقب في صناديق القمامة

(1) بيغ فوت: أو القدم الكبيرة، هو كائن خرافي نصفه إنسان والنصف الآخر قرد، ادعى عدة أشخاص منذ خمسينيات القرن المنصرم مشاهدته، بل لقد وصل الأمر إلى زعم أحدهم أنه التقط له صوراً، لكن لم يثبت حتى الآن وجود هذا الكائن الخرافي، ولا يزال الكثيرون في الولايات المتحدة يؤمنون بوجوده. (الموسوعة الحرة - المترجم)



Twitter: @ketab_n

في القرية، يصفه بأنه خارج المكان. أما خارج القياس، فأعطى مثالاً عنه حيّات الأمازون الضخمة والماستودون[1].

المصطلح يناسب متعددي اللغات المفرطين بدقة؛ إذ إنهم يقومون بأشياء مع اللغة خارج القياس، مقارنة مع ما يقوم به الناس العاديون. إنهم في الغالب لا يعيشون مع متعددي اللغات المفرطين، إنهم أيضاً خارج المكان، بعضهم يحمل نفحة مميزة من الماضي أو معطرة من المستقبل، وهذا يأخذهم خارج الزمن. (سي جي) وميزوفانتي وألكسندر وهيلين وكين هيل وكريستوفر جميعهم خارج الزمن، وخارج المكان، وخارج القياس. شعرت أني موفور الحظ لأني أجدهم في أماكنهم، وأرى المقياس الذي أحتاجه لقياسهم.

غداً سنرى دماغ كربس في الجرة الزجاجية؛ قطعاً زائدة من الأنسجة في الفورمالديهايد السائل قاتم اللون. أتشوق لأن ألقي نظرة عليها، متمنياً أن يكون الأمر بسيطاً. اليوم التالي سيحمل لنا شيئاً ما يسعدنا ويفاجئنا.

(1) الماستودون: حيوان ثديي منقرض من الخرطوميات يشبه الفيل، ويختلف عنه في تركيب الأنياب. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثالث عشر

ونحن في سيارة الأجرة في طريقنا إلى معهد (أوسكار فوجت وسيسيل لأبحاث الدماغ)، قالت لورنيا:

"أنا متميزة جدًّا في العثور على نبتة البرسيم ذات الأوراق الأربع[1]، إنها موهبتي الوحيدة". (إنها تعثر عليها في أي مكان تذهب إليه، وخلال أسابيع قليلة منذ وصولها إلى ألمانيا، وجدت القليل منها). "هناك احتمالان، إما أن الألمان لديهم الكثير من نبتة البرسيم ذات الأوراق الأربع، أو أني أجيد التأمل والملاحظة!".

- أو ربما هي جينات؟

- حسناً، جدتي أيضاً يمكنها إيجاد الكثير منها.

جلسنا في المعهد إلى طاولة الاجتماع، وشربنا القهوة مع مسؤول الأرشيف، بيتر زيلمان الذي أحضر بعض المقالات، ومذكرات مختصرة، وصورة بالأبيض والأسود عن كربس، التي تشاهدها هنا.

إميل كربس

(1) نبتة يعتقد أنها تجلب الحظ لمن يكتشفها، لا سيما إذا وجدت عن طريق الصدفة. ووفقاً للأسطورة، إن كل ورقة تمثل شيئاً: الأولى تمثل الإيمان، والثانية الأمل، والثالثة الحب، والرابعة تجلب الحظ. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

فكرت في فرضيات جيسكويند غالابوردا... كان كربس يستخدم اليد اليمنى!

زيلمان الذي كان يتحدث إلى لورينا بالألمانية استمر بالقول: كربسّ، كربسّ؟ شرحت لورينا: في الألمانية، يشدّدون في نطق الحرف الساكن الأخير. آه، كربس. آه، لم أضطلع بأي ألمانية في هذه الرحلة.

لدى زيلمان صور أخرى: كربس يجلس إلى الطاولة في مكتبه في الصين متصلب الساقين وينظر عبر النافذة، ونخيل على الجدار، وصورة شاهدة قبره في بوتسدام بالقرب من برلين. وتوجد أيضاً صورة من دماغ كربس بعد الوفاة تُظهِر السكتة التي قتلته وعصفت بحفرة سوداء في الفص الصدغي الأيمن من دماغه (في مجسم الكرة الأرضية، تقع في شمال المكسيك). بدت الحواف السوداء الذابلة من جراء النزيف مثل المشروم الندي في جزئه الأسفل[1].

وصل مضيفانا؛ مدير المعهد، كارل زايلس. إنّه رجل طويل ونحيف، يبدو وكأنه خبير مالي أنيق، يرتدي معطفاً رماديًّا وقميصاً أزرق فاتحاً؛ وكاترين أمانتينس، أستاذة علم الأعصاب في المدرسة العليا في جامعة إكين في ألمانيا، امرأة أنيقة، بشعر مجعد، تضع على عينيها نظارة بلا إطار.

سألتها عندما جلسنا مرة أخرى نحتسي أقداحاً من القهوة: "لماذا كنتم تبحثون عن دماغ كربس في المقام الأول؟". أجابت أنها تريد أن تطبق بعض الأساليب عن خرائط الدماغ، واختارت أن تنظر إلى وظائف اللغة حيث إنها تُعرف بنسبة أكثر أو أقل عندما تظهر في الدماغ.

سألت زيلمان: "هل مجموعة الأدمغة تتضمن أيَّ عبقريات لغوية؟"[2].

---

(1) لأن السكتة أجهزت عليه بسرعة، والنزيف كان في الجانب الأيمن من الدماغ وليس في الجانب الأيسر من الدماغ، فإن الضرر لم يؤثر على نتائج التحليل. (المؤلف)

(2) القدرات الموسيقية يمكن أيضاً تحديدها. تحتوي المكتبة أيضاً على دماغ عازف الكمان البلجيكي يوجين ياسي (1931-1858). (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

- نعم!

ثم أحضر زيلمان لأمانتينس صندوقاً زجاجيًّا به شرائح من دماغ كربس. وبعد إخراج الشرائح من الصندوق وتجميعها معاً، قام أوسكار بتصويرها، ومن ثم أزال جذع الدماغ والمخيخ منها. الفصوص الأربعة المتبقية كانت مقطعة إلى مكعبات، وتلك المكعبات نقعت بمزيج من - الفورمالدهايد، والكحول، والكلوروفورم - ثم قويت بالبارافين. المكعبات الشمعية للأنسجة كانت مقطعة بمقطعة شرائح دقيقة، يستخدم معها سكيناً دائرية لتشريح الشرائح الميكروسكوبية من الأنسجة. هذه الشرائح تجمعت في الجوانب الزجاجية وتلطخت، ومن ثم حُفظت، وهذا يعني أن الدماغ لم يكن محفوظاً في الجرة. من البدهي أني شعرت بالإحباط، ولكن شرائح الدماغ ربما تكون هدية ثمينة لأمانتينس، لأنها يمكن أن تحدد شرائح من منطقة بروكا في اليسار واليمين. آخرون قبلها نظروا إلى منطقة بروكا لدى كربس، خصوصاً أن فوجت نفسه بحث في كثافة الخلية لشرح العبقرية، كما فعل مع دماغ لينين. أوضح فوجت أن كربس لديه كثافة غير عادية في الموصلات العصبية في هذه المنطقة.

وحتى في اختبارات أقدم، قام علماء آخرون بربط عدد كبير من اللغات المجمعة بمنطقة بروكا اليسرى الكبيرة الواضحة. في الستينيات من القرن التاسع عشر، قال الطبيب البريطاني روبرت سكورسبي جاكسون إن المنطقة السفلى فقط من منطقة بروكا كانت مهمة للغة الأم، والمنطقة العليا يمكن أن تحوي لغات أخرى. في النهاية، فنَّد ليدونغ ستيدا، المشرح الألماني الذي أجرى تشريحاً على جثة متعدد اللغات المفرط جورج سيرواين (1831-1904) هذا الرأي. كيف حصل ستيدا على الدماغ؟ وأين هو الآن؟ لا أحد يعرف! ولكنه قال إن منطقة بروكا في دماغ سيرواين كانت بالحجم الطبيعي. كما اختبر أيضاً أدمغة متعددي لغات آخرين (دون الإشارة إلى عدد اللغات التي يتحدثون بها)، مما



Twitter: @ketab_n

يتناقض أيضاً مع نتائج سكورسبي جاكسون، ومع ذلك فإن دراسة منطقة بروكا الكبرى لم تلقَ الاهتمام اللازم على مستوى تشريح كبير.

على خلاف سابقه، أوسكار فوجت ومساعدته (وزوجته في الوقت نفسه) سيسل (1875-1962) وآخرون، نظروا إلى الأدمغة في التفاصيل الميكروسكوبية؛ بالتحديد، في ترتيب الخلايا وأنسجة الدماغ الأخرى. كانوا قد قسَّموا الدماغ إلى مناطقه المختلفة، كل فص ونتوء مستقل باسمه ووظيفته، ولكنهم بحثوا عن الاختلاف الحقيقي تحت الميكروسكوب.

ولعقود تالية، جادل علماء الأعصاب حول أهمية مقارنة كثافة الخلايا العصبية بمجموع الأنسجة المحيطة التي تسمى "اللبد العصبي" (النسيج العصبي المتشابك الذي يشكل كمية كبيرة من المادة الرمادية في الدماغ). نظر فوجت وآخرون بدقة إلى منطقة النسيج، وخرجوا بآراء مختلفة حول ما رأوه.

في الثمانينيات، أُصيب كارل زايلس وزملاؤه بالإحباط من نتائج مسح المجهر غير العلمي لمناطق في الدماغ بحجم عشرين ميكروناً مربعاً (حوالى سُمك شعر الإنسان). مسح المجهر مواقع الخلايا والسوائل المحيطة، ثم حوَّل النسب إلى منحنى. وبنظرة خاطفة، كان بوسع الشخص رؤية كثافة الخلايا في كل طبقة من الطبقات الست في سطح الدماغ. كانت هذه الأداة هي التي استخدمتها أمانتينس على شرائح دماغ كربس.

لم تقم أمانتينس بأخذ شرائح من منطقة بروكا من دماغ كربس في الجانب الأيسر فحسب؛ بل أخذت أيضاً من المنطقة المرتبطة بالبصر. أطلق على هذه المناطق اسم (برودمان)، وهو مختصر من اسم كروبننان برودمان، أحد مساعدي فوجت؛ فقد قسَّم منطقة بروكا إلى منطقتين مسمّاتين الآن بمنطقتي برودمان 44 و45. ومثل خريطة الغرب الأمريكي، تسمى المنطقة في الدماغ باسم مكتشفها الذي لديه ولع بالتعامل مع



Twitter: @ketab_n

شـرائح منطقة المخيـخ. عينة البصر جـاءت مـن منطقة برودمـان 18 (في مجسـم الكرة الأرضية - الشبيه بالدماغ - سـيكون في المحيط الأطلسي، خلف الدماغ).

بفحـص دمـاغ كربـس، وجـدت أمانتينـس أن الخلايـا العصبيـة في منطقتي برودمـان 44 و45 تتشـكل فـي طبقـات مختلفة الخـواص مقارنة بشـرائح أحـد عشـر دماغاً قامـت بفحصهـا في هـذه الدراسـة. أشـار هذا الترتيب إلى أن الخلايـا لديها طرائق غيـر عادية للتفاعل مـع بعضها. ماذا يعني هـذا للطريقـة الفعلية التي عمـل بها دماغـه؟ الأمر غيـر واضح! إنها بحاجـة إلـى أن تجري مسـحاً علـى متعـدد لغات مفـرط آخـر. ولكن مع المقياس الميكروسـكوبي، حتـى أجهزة المسـح الحديثة ربما لا تسـتطيع التقاط أي شيء مثير.

مفاجأة أخرى كانـت في نمط التطـور في منطقتي برودمـان 44 و45 في دماغ كربس (منطقة بروكا الكبيرة في المنطقة اليسـرى لم تكن مفاجأة كبيرة، حيـث كان كربـس يسـتخدمها كثيـراً؛ كانـت نتيجة بنـاء موصلات أكثر بين الخلايا العصبية). فـي الواقع، الاختلاف الأكبـر بين دماغ كربس والأحد عشـر دماغاً التي تمت المقارنة بينها، لم يكن في منطقتي 44 و45 في اليسـار؛ بل كان في منطقة 45 في اليميـن. مثل هذا التماثـل في منطقة 45 وعدم التماثل في منطقة 45 عبر نصفـي الدماغ كان غير طبيعي، فكيف حدث هذا؟

أحـد الأجوبة أن كلاً مـن البالغيـن والأطفـال الذين بـدأوا للتو بلغة أخرى يرتبطـون أكثر بجانب دماغهـم الأيمن أثناء الاتصـال اللفظي. مهام محددة (مثـل إيجاد معـانٍ للكلمـات) تحتاج إلى مسـاعدة مـن العمليات المعرفية غيـر اللغويـة التي تمر شـبكتها في الدمـاغ عبر الجانـب الأيمن. جواب آخـر: إن فرضيات جيسـكويند غالابـوردا تتوقع أن متعلمـي اللغة الموهوبيـن يسـتخدمون مـن كلا الجانبيـن الأيسـر والأيمـن مـن نصفـي



Twitter: @ketab_n

الدماغ. من المعروف أن الجانب الأيمن يمكن أن يضطلع بمسؤوليات ترتبط باللغة عندما تتعرض منطقة بروكا في الجزء الأيسر للضرر بفعل سكتة دماغية. أيضاً في نموذج التيار الثنائي للغة، إن تيار "كيف" (الذي يدخل في إدراك أصوات الكلام) ينتشر في كلٍّ من نصفيْ الدماغ (ولكنه لا يصل إلى منطقة بروكا).

كان يُعتقد في وقت مبكر أن الجانب الأيسر من الدماغ فقط هو المسؤول عن اللغة. ومن ذلك الحين، انحصرت مسؤولية الجانب الأيمن من الدماغ - حتى بين العسران الأصحاء - في تثبيت الجمل غير المترابطة، وتخزين المعلومات العملية، والتفكير في اللغة نفسها. "في هذا السياق"، كتبت أمانتينس في تحليلها: "يمكن أن يكون أداء إميل كربس مرتبطاً بقدرات لغوية متطورة؛ أكثر من الكلام العفوي". هذا هو التفكير في اللغة الذي قام به من الجانب الأيمن من الدماغ.

أيضاً، قد يكون التطور الأكبر في منطقة بروكا اليمنى صنع شيئاً ما مع لغة كربس الصينية. في عام 2009، وجد فريق من علماء الأعصاب البريطانيين أن المتحدثين الصينيين لديهم مادة بيضاء ورمادية في الفص الصدغي الأمامي الأيمن (في المجسم، يقع في الساحل الشرقي من الصين) وفي القشرة الدماغية المعزولة (جزء من الدماغ مغطى داخل القشرة. في المجسم، الجزء الممتد في مكان ما أعمق أسفل البحر العربي)، بشكل أكثر كثافة من أولئك الذين لا يتحدثون الصينية. وهذا التأثير وُجد حتى بين الأشخاص غير الصينيين الذين يتعلمون الصينية؛ مما يعني أن اللغات النغمية مثل الصينية ربما تحتاج إلى الجانب الأيمن من الدماغ ليتم تحديد معاني الكلمات وفقاً للنغمة. ولكن، من غير المنطقي أن اللغة المفردة هي المسؤولة وحدها عن تطور الجانب الأيمن.

كل هذا يعني احتمال أن كربس امتلك مواهب خاصة به؛ إنه يستطيع استخدام تركيبات اللغة بطريقة مختلفة عن الآخرين، وكان أكثر إدراكاً



Twitter: @ketab_n

للتنغيم والنظم (التي تعتبر مهمة عند التحدث باللغة الصينية)، وكان على العموم يتمتع بإدراك أكثر رهافة تجاه أصوات الكلام.

شيء آخر أريد أن أعرفه عن دماغ كربس. نحن نعرف أنه يمكنك أن تعرف ميزات الشخص العصبية وطلاقته في اللغة من خلال ممارسته اللغة في حياته. ففي تلك التجربة التي قام بها فريق البحث الإيطالي عام 2009، أظهرت النتائج أن الأشخاص ثنائيي اللغة منذ فترة طويلة - ومن ضمنهم الأطفال الذين لديهم أنشطة عقلية أكثر ارتباطاً باللغة - تتمركز هذه الأنشطة لديهم إلى حد ما في موضع واحد في الدماغ، ولكن ثنائيي اللغة مع اللغات التي تعلموها لاحقاً، لديهم أنشطة أكثر انتشاراً، ومن ضمنها أنشطة الجانب الأيمن. هل من الممكن للدماغ أن يكون أكثر تعزيزاً، وأن يضع جميع لغاته في منطقة مركزية فعالة؛ حتى اللغات التي تتعلم لاحقاً؟ للإجابة على مثل هذا السؤال، أنت تحتاج إلى دراسة دماغ متعدد لغات مفرط. ولنكون عمليين أكثر، تحتاج إلى دراسة أكثر من واحدة.

يتضمن أرشيف فوجت تسجيلاً مكتوباً لمقابلة تمت مع أماندا هين، زوجة كربس، في العام الذي توفي فيه.

- كم عدد اللغات التي تحدث بها؟

أجابت أماندا: "تحدث ثماني وستين لغة".

- كم عدد اللغات التي يستطيع قراءتها ولا يتحدث بها؟

- كان يعرف أكثر من مائة لغة. عندما كان يتعلم اللغة، فإنه يريد أن يقرأ، ويكتب، ويتحدث بها.

- هل كانت لديه ذاكرة جيدة؟

- نعم، وبشدة.

- ماذا عن الأسماء؟

- نعم.

- والأرقام؟



Twitter: @ketab_n

- نعم.

- والأحداث اليومية؟

- فقط ما يثير اهتمامه منها.

- هل هو قارئ نهم؟

- هو يقرأ طوال الوقت، ويقرأ كل شيء. مؤلفه المفضل مصمم شخصيات كرتونية.

قال زايلس: "كان شخصاً غريباً جداً".

قالت أمانتينس: "لم يكن متحدثاً ثرثاراً".

قالت لورينا متعجبة: "لقد تعلم كل تلك اللغات، ولكنه لم يكن ثرثاراً!".

قالت أمانـدا هين إنه يستطيع التواصل اجتماعيًّا بسهولة، إذا أثار الأشخاص الآخرون اهتمامه.

عندما قال لي زايلس إنه يظن أن كربس ربما لديه أعراض بسيطة من متلازمة أسبرجر[1] تأوهت بداخلي. لم أكن أريد التفكير في العلاقة بين متلازمة أسبرجر وتعددية اللغات المفرطة. أتمنى أن تكون موهبة اللغة موجودة لذاتها، وليست شيئاً ما تجده لدى المتوحد العبقري مثل كريستوفر. لا أستطيع العودة إلى ألكسندر وهيلين لأخبرهما بارتياح أنهما متوحدان.

في الخارج، المطر يضرب النافذة. كان يوماً تقليديًّا من أيام الصيف الألماني، والسكرتيرة تمزح. ولكني كنت مصمماً على الإجابة على هذا السؤال، وغير مستعد لما حدث في ما بعد.

(1) متلازمة أسبرجر: هي نوع من الاضطراب الحيوي العصبي. والمصابون بهذا المرض لديهم صعوبات في القدرة على التفاعل الاجتماعي، ورغبات وأنماط سلوكية مسيطرة ومكررة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

# الفصل الرابع عشر

قبل لقائي لورينا أوبلر في دوسلدورف، قمت بمقابلة شخصية مع أعظم شخص مطلع على اللغات على قيد الحياة - بناءً على موسوعة غينيس للأرقام القياسية - أمريكي يسمى غريغ كوكس، يعيش بعيداً عن مدينة بريمن في ألمانيا حوالى 170 ميلاً. ومع أن كوكس كان يتحدث بأربع وستين لغة، أربع عشرة منها بطلاقة، فليس من الواضح لي من هو كوكس؟ هو الآن في نهاية الأربعين من العمر، ومتمكن بالعديد من اللغات التي يدعيها. عرفت على كل حال أنّ والديه منفصلان في لوس أنجلوس، وفي مرحلة مراهقته المغرمة باللغات التحق بمعهد وزارة الدفاع للغة؛ حيث يقدم الجيش الأمريكي لملتحقيه دورات تدريبية في اللغات.

أثناء خدمته في قاعدة القوات الجوية الأمريكية في أوروبا، جمع كوكس شهادات ونتائج اختبارات لعشرات الدورات في اللغات. أرسل حزم الأوراق إلى موسوعة غينيس للأرقام القياسية، والذي كان مثيراً بما فيه الكفاية تنصيبه في العام 1999 "كأعظم شخص مطلع على اللغات على قيد الحياة"، وبذلك أخرج (زياد فصاح) من القائمة. استنتجتُ أن موسوعة غينيس لا تستحق الكثير من المصداقية، ولكن أردت لقاء كوكس رغم ذلك. كنت قد وضعت إعلاناً في موقع نشرة خريجي معهد الدفاع لتعليم اللغات أبحث فيه عن متعلمي اللغة الموهوبين جدًّا، فاتصل بي كوكس بعد دقائق من نشر الملاحظة. توقعت أن أجده شخصاً يكافح



Twitter: @ketab_n

لكي يعيش - كما كان ألكسندر - لكني وجدته على النقيض، رجلاً يعيش حياة برجوازية دافئة، ويعمل مديراً تنفيذيًّا في شركة لزراعة الأسنان، تلك الوظيفة التي حصل عليها بسبب أن مؤسس الشركة مغرم بتعددية اللغات لديه. شهاداته محفوظة في منزله، وقال إنه كان مشغولاً جدًّا ولم يحضر الشهادات أثناء زيارتي.

عندما كنت أحضِّر لزيارتي كاترين أمانتينس، قلت لها إنني سأزور كوكس. فأجابت بحماسة ورقة، في رسالة إلكترونية: يمكننا أن نصور دماغه!

كان هذا مثيراً. أستطيع القول إن أغلب اللغات التي شوهدت أثناء العمل في جهاز تصوير دماغ واحد كانت أربعاً؛ في دراسة على مجموعة من الرجال والنساء السويديين. اللغات المختلفة تثير مناطق متشابكة في الدماغ، واللغات الأكثر طلاقة تثير المنطقة المركزية. دراسة شخص مع أكثر من أربع لغات ستضعنا على حافة حدود الحقيقة.

في اليوم التالي، كتبت لي أمانتينس: انسَ موضوع تصوير دماغ كوكس!

في هذا الوقت كنت متحيراً. والآن، فيما أنا جالس أمامها، سألتها: "عندما كتبتِ مرة أخرى تقولين (لا)، هل بسبب أنّ القيام بتصوير دماغ كوكس قد يقود إلى دراسة أخرى؟".

ابتسمت أمانتينس وقالت إنها شعرت في البداية بالحماسة نفسها عن كوكس مع ما قامت به مع دماغ كربس. "بالطبع أنا مهتمة، وبالطبع نستطيع أن نقوم بكل هذه الاختبارات الممتازة على اللغة، والقدرات المعرفية، والذكاء العام". ولكنها في النهاية، قررت ألاَّ تستمر، بسبب "إننا نعتقد أننا سنصل إلى النقطة نفسها التي وصلنا إليها في الحالة الأولى".

التاريخ السيئ في دراسة أدمغة النخبة ظهر على السطح؛ إذ إنّ العديد من العلماء قد أثاروا النقاشات الإيديولوجية عن الذكاء العالي،



Twitter: @ketab_n

والثقافة في المجتمع، والعرق. شرحت سيليس ما قام به المؤرخ الطبيعي ستيفن جاي في كتابه في عام 1981 "القياس السيئ للإنسان". قالت أمانتينس: "العديد من الدراسات السيئة على أدمغة النخبة جعلت الصحفيين فضوليين، لا أحد يريد أن ينشر دراسة عن عبقري ألماني واحد، خصوصاً المؤلفين الألمان".

رأيت الفرصة سانحة، ولكن لورينا بادرتني قائلة: "يفترض أن لديك ثلاثة أشخاص".

كان جو الغرفة متقلباً بشكل واضح، وأضافت بسرعة: "أنا على اتصال مع خمسة أشخاص يقولون إنهم يتحدثون على الأقل أربعاً وعشرين لغة، وأنا على يقين بأنني سألتقي المزيد". (وقد فعلت!).

همست أمانتينس: "يتحدثون أربعاً وعشرين لغة!". ثم التفتت إلى زايلس وتمتمت بالألمانية.

قال زايلس: "نريد أن ننظر إلى الموصلات الوظيفية والجلوكوز والأوكسجين المستخدم، وأن نعرف الأجزاء المتشابكة والمترابطة في موصلات الدماغ". وأشار إلى أنه يمكن أن تكون موهبة اللغة لدى الشخص عبارة عن موصلات أكثر أو أسرع في مناطق محددة؛ بخلاف الشخص العادي. "ونريد أن تختبر طلاقتهم في اللغة، بالطبع". ومن الجيد أن يكون لديك أشخاص من أعمار ولغات أصلية مختلفة، وظهر أثناء حديثنا أننا نستطيع القيام بهذا.

أول دراسة تصوير عصبي في العالم لمجموعة قابلة للقياس من متعددي اللغات المفرطين بزغت أمامنا، لقد فُتح للتو الباب إلى المستقبل. وإذا انتهزنا هذه الفرصة فقد نقوم بشيء ما لم يحاول العالم القيام به من قبل. ساد الصمت في الغرفة، ربما كان المطر يهطل ولكنني لا أستطيع سماعه، كنا في النهاية ذاهبين لأخذ أدمغة متعددي اللغات المفرطين لتتحدث عن نفسها.



Twitter: @ketab_n

عندما انتهى الاجتماع، أخذني زايلس بصحبة لورينا إلى الأعلى، إلى مكتبة الأدمغة، وهي غرفة هادئة رمادية اللون، تصطف فيها صفوف وصفوف من صناديق الخشب على الأرفف المعدنية.

قال زايلس: "هنا الأدمغة البشرية، وهناك أدمغة الثدييات الضخمة التي تعيش في الغابة (كان يبدو فخوراً بالمجموعة الكبيرة من آكلات الحشرات والخفافيش)... مجموعة نادرة للغاية".

أنزل أحد الصناديق من القسم البشري وفتحه، وسحب أحد الصحون الزجاجية، حجمه حوالى خمسة في سبعة إنشات، ووضعه تحت الميكروسكوب. أخذت أنا ولورينا نحدق في المادة الرمادية الزئبقية في شريحة قشرة الدماغ.

كان من الصعب عليَّ التركيز على ما يجري أمامي. فقد كنت أفكر في الأحياء؛ الأدمغة المتنفسة التي نريد أن نراها تعمل، والتي قد يسأل عنها أوسكار فوجت المستقبل، لتنضم إلى مجموعاتهم من الأدمغة.

ومع ذلك، إن بنية خلايا دماغ كربس تختلف كثيراً عن بنية الأدمغة العادية. ولم يكن من الواضح ما إذا كان الاختلاف موجوداً قبل تعلمه أول لغاته الأجنبية.

سألت ضيوفنا الألمان: "كم من الوقت يلزم ليتطور دماغ كربس بهذا الشكل؟ هل يستغرق عاماً؟ أو إنه يتغير باستمرار على مدى سنوات العمر؟".

ردت لورينا: "هذا سؤال مثير، ربما وُلد بهذا الشكل".

أما زايلس فقال إنه لا يعرف، وإن مثل هذه التغيرات تحدث بفعل التدريب، ويمكن أن تظهر بسرعة أيضاً على مستوى الخلية في أدمغة الرسامين. على سبيل المثال، يمكن أن تظهر في غضون أسبوع. والتدريب المكثف يعطي الموسيقيين أدمغة مختلفة عن أدمغة غير الموسيقيين. الدراسات على النسب أظهرت أن التدريب يرفع عدد



Twitter: @ketab_n

الموصلات العصبية والخلايا الدبقية، ويجعل الشعيرات الدموية تمد الأكسجين بتدفق أكثر؛ فالبهلواني وسائقو سيارات الأجرة لديهم أدمغة تختلف عن غيرهم. الاستخدام المفرط يمكن أن يكون سبباً أوليًّا في ترتيب الخلايا الغريبة، وكذلك تماثل الدماغ الاستثنائي.

قال: "عندما تنظر إلى المقطع النسيجي، سوف ترى أجسام خلايا مصبوغة. وفي أجسام الخلايا هناك نسيج غير مصبوغ. ولكن، يوجد هنا شيء ما في هذه المنطقة غير المصبوغة؛ إذ توجد تشعبات عصبية[1]، وهناك مشابك عصبية[2]، بالإضافة إلى الخلايا الدبقية[3]، والأوعية الدموية. والجزء الأكبر من هذا الحجم تشغله التشعبات العصبية، والمشابك العصبية. واتصال هذه الموصلات ذو سرعة انتقال فائقة. لذا، إنّ مثل هذه المشابك العصبية يمكن أن تتغير خلال ساعات. عندما تتدرّب، سوف تكتسب الأثر الذي يظهر على المشابك العصبية، ولذا فالمساحة بين أجسام الخلايا يتغير حجمها".

لا توافق أمانتينس زميليها. فبالنسبة لها، بدلاً من هذه النتائج، فإن التهندس الخلوي[4] في دماغ كربس قد يكون السبب الذي يقف وراء استعداده اللغوي. لم يكن أبواه متعلمين أو غنيّين، وتكفل آخرون بدفع رسوم دراسته. إذا صدقت قصة كربس والصحيفة الفرنسية، فقد قدم أساساً معرفيًّا أوليًّا لتعلم اللغات الأجنبية في وقت مبكر جدًّا.

(1) التشعب العصبي (dendrite): إنّه الجزء المتشعب لخلية عصبية الذي يحمل السيالات العصبية من وإلى الخلية العصبية. (المترجم)

(2) المشابك العصبية (synapse): وصلة تمر عبرها نبضة عصبية من نهاية محور عصبي إلى خلية عضلية أو غدية. (المترجم)

(3) الخلايا الدبقية (Glial Cells): هي خلايا مساندة للعصبونات في الجهاز العصبي، ولا تشارك في نقل الإشارات العصبية. (المترجم)

(4) التهندس الخلوي (cytoarchitecture): ترتيب الخلايا في الأنسجة، خاصة ترتيب أجسام الخلايا العصبية في قشرة الدماغ. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

قالت: "أنا مقتنعة أن ثمة شيئاً ما في جيناته، ولا نستطيع أن نعزو الأمر بالكامل إلى أثر البيئة، ففي هذا تسطيح للموضوع".

هذه القصة عن قدرات كربس يمكن أن تستمر في دائرة غير منتهية من النقاش عن عامل الصدارة؛ أهو الطبيعة أو التنشئة؟ في العقل الجمعي، إن واحداً من هذين العاملين يمكن أن يسبب النتائج، وليس كلاهما. في هذه الأثناء، يحاول العلماء وصف كيفية تفاعل المصادر البيولوجية والخبرات في البيئة، وبأي ترتيب، وبأي أثر. اتضح أن آليات الجينات لا تصنع سماتك فقط، وإنما تحدد أيضاً مدى ما يمكنك اكتسابه من بيئتك.

إحدى الميزات الوراثية التي يملكها كربس كانت الطريقة التي ينظم بها دماغه مرونته؛ من خلال استجابة دماغه القابل للتشكيل والتكيف مع بيئته. وبصورة عامة، إن ميله إلى قابلية التطويع ترجع إلى عوامل وراثية إلى حد ما. وبدون تدريب هذه المرونة من قبل الشخص، فلن تكون هذه العوامل قادرة على زيادة سرعتها أو تماسكها أكثر. فمن المتعارف عليه بشكل عام أن الأطفال وصغار الحيوانات الآخرين لديهم "مرونة هائلة"؛ تلك التي تسمح لهم بالتعلم عن عالمهم بسرعة. ومع ذلك، يعتقد علماء الأعصاب الآن أيضاً أن جوهر الدماغ، وفي أي عمر، قابل للتغير. ما يحدث في مرحلة البلوغ هو أن المرونة "تتوقف" لسبب واحد وجيه؛ للبقاء والنجاح. على البالغين أن تكون لديهم كمية محددة من بنية عصبية فعالة للاستخدام لأشهر وسنوات. أحد العوامل التي ربما جعلت دماغ كربس غير طبيعي هو احتفاظه بمرونة الطفولة لفترة أطول.

حتى بين المتعلمين العاديين، هناك الكثير من التنوع بين الأشخاص عندما تتصلب قابلية التطويع في الطفولة. الأطفال ثنائيو اللغة أيضاً يستمتعون بميزة البقاء منفتحين إلى مدخلات اللغة الجديدة. وفي بعض الحالات النادرة يستمتع متعلمو اللغة بالمرونة التي تجاوزت النقطة



Twitter: @ketab_n

وانطفأت لدى الآخرين - لسوء الحظ - بسبب شغف اللغويين باكتساب مهارات المتحدث الأصلي. لذا، إنّ هناك معلومات أكثر عن الأشخاص القادرين على تعلم لغة أو اثنتين بإتقان، من أولئك الذين يكتسبون معرفة جيدة وفعالة في مجموعة لغات أكبر. وهذا الشغف يعتبر تحيزاً لنظرة "كل شيء أو لا شيء" في قدرات اللغة، على حساب نظرة "بعض الشيء وبعض الشيء".

الصغار من البشر يستخدمون مرونتهم الهائلة لتعلم العديد من الأشياء أهمها اللغة. مفهوم الفترة في تعلم اللغة صيغ في بداية الستينيات من قبل اللغوي إريك لينبرغ. كتب لينبيرغ: "هو اكتساب تلقائي من مجرد التعرض إلى لغة معطاة، ويبدو أنه يختفي بعد البلوغ. واللغات الأجنبية تُتعلم وتدرس من خلال الشعور والجهد الواعي". الطبيعة الدقيقة للفترة الحاسمة في تعلم اللغة نوقشت طويلاً. ومع أن الآليات البيولوجية غير معروفة؛ إلاّ أن أحد القيود هو المراهقة؛ والتي تعني تدخل الهرمونات. ولكن، هل المراهقة هي نهاية المرونة؟ أو إنها ببساطة بداية النهاية؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة.

ومن بعد لينبرغ، اعتبر الباحثون في اكتساب اللغة الثانية أن انخفاض المرونة لدى البالغ - إغلاق نافذة الفترة الحاسمة - تأكيد على استحالة تعلم اللغة مثل المتحدث الأصلي. ومع ذلك، ليست للدماغ لغات أصلية، فالدماغ يركز فقط على الأنشطة في الدوائر العصبية المحددة. نظر اللغويون فقط إلى كيفية إنتاج اللغويين من الداخل". دافع بعض الباحثين بقوة عن الادعاء القائل إنّ لا أحد يبدأ بتعلم اللغة خارج الفترة الحاسمة يستطيع أن يصل إلى قدرات المتحدث الأصلي. وفي دراسة حديثة عن المتعلمين السويديين، لم يجتز أحد من المتعلمين البالغين اختبار الطلاقة للغة الأصلية، فقط 3 من 107 أطفال من المتعلمين استطاعوا هذا. إذا كان الطفل السويدي متعلم اللغة لا يستطيع أن يكون متحدثاً أصليًّا، فمن


Twitter: @ketab_n

سيكون إذاً؟

رد المعارضون لفرضية الفترة الحاسمة هذا الادعاء مباشرة؛ من خلال محاولة العثور على بالغين وصلوا في الحقيقة إلى مرحلة المتحدثين الأصلين للغة ولم يكونوا قد نشأوا عليها. البعض وجد أن 5% من المتعلمين البالغين يستطيعون القيام بهذا، والبعض هبط بالرقم إلى أقل من 1%. ومع ذلك، إن هؤلاء المعارضين مرتبطون "باللغة الأصلية" كمعيار وحيد للنجاح في تعلم اللغة، وتركوا مؤيدي هذه الفرضيات يضعون المصطلح للنقاش حوله.

في تجربة لأطروحة علمية جديدة، طُلب من ثلاثة وأربعين شخصاً من غير المتحدثين الأصليين للغة الهولندية الذين بدأوا بالتعلم بعد سن الثانية عشرة القيام ببعض المهام في نوع من الجمل التي من الصعب تعلمها عادة[1]. إذا كنت تعرف لغة قريبة من الهولندية مثلما يعرف بعض المشاركين في هذه التجربة، يمكن أن تستعير وتطبق الذي تعرفه. إذا كانت لغتك الأصلية مثل التركية، فلا شيء لديك لتقيس عليه؛ لأن لغتك تفتقد إلى كيفية بناء هذه الجمل بشكل كامل. من الثلاثة والأربعين شخصاً، كان تسعة عشر منهم فقط قادرين على إنتاج هذا النوع من الجمل مثل المتحدث الأصلي. وأغلبهم كانوا نساءً؛ وبعض المشاركين كانوا يعرفون الألمانية والفرنسية أكثر من التركية، وسبق لهم أن تحدثوا الهولندية لفترة طويلة. من المثير أن الجميع كانوا دارسي لغة ثالثة كذلك،

(1) هذه الجمل تسمى جمل "بدل المسند إليه"، والتي يكون فيها المسند إليه في الجملة، الفاعل في الجملة الفعلية، ليس في مكانه المعتاد نحويًّا. مثل هذه الجملة في الإنجليزية "it is the man who threw the ball"، أو هذه الجملة في الهولندية "In de krant wordt beweerd dat hij dronken achter het stuur gezeten heeft" (أُدِّعِيَ في الصحيفة أنه كان ثملاً أثناء قيادته للسيارة) من الصعوبة بمكان تحديد بدل المسند إليه من قِبل المتحدث الأصلي، وهو أمر لا تستطيع تعلمه من المدرسة أو الكتب، ولكن فقط من خلال السماع والاستخدام. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أو كانوا معلمين أو مترجمين أو يعملون بوظيفة مرتبطة باللغة. هذا كان مثيراً، فقد كانت إجابة الجميع عن سبب اهتمامهم باللغات: إنهم يحبون تعلم اللغات.

في مشروع آخر، أُعطي تسعة أشخاص من غير المتحدثين الأصليين للغة الإنجليزية مجموعة كبيرة من اختبارات الطلاقة، وكانوا قد قالوا للباحث إن لغتهم الإنجليزية ممتازة. كان التسعة جميعاً قد تعلموا الإنجليزية بعد عمر السادسة عشرة، وعاشوا في الولايات المتحدة على الأقل خمس سنوات. ثلاثة منهم فقط أدوا كمتحدثين أصليين للغة الإنجليزية في اختبارات القواعد، والنطق، وسعة المفردات، واللباقة الثقافية، والسرد. الثلاثة كُنَّ نساء (إحداهنَّ عزباء). وكنَّ جميعاً من شرق أوروبا، درسن الإنجليزية خمس سنوات على الأقل قبل المجيء إلى الولايات المتحدة، وعشن مع المتحدثين باللغة الإنجليزية، واستخدمن أيضاً لغتهن الأولى بشكل متقطع. في هذه الحالات، يتوقع أن تكون اللغة الإنجليزية جيدة بسبب كثرة استخدامها، وليس بسبب بيولوجي آخر كالجنس أو العمر مثلاً.

للحصول على لغة إنجليزية جيدة أو سعة في المفردات عليك أن تعيش فترة أطول في الولايات المتحدة، مع متحدث أصلي للغة. ظاهريًّا، يبدو أن قوة الممارسة والخبرة الغنية هما العاملان الرئيسان في إثارة التغيرات في الدماغ. ولكننا نجد أن أشخاصاً عديدين يمكن أن يتشاركوا العوامل البيولوجية نفسها من دون أن يتحدثوا اللغة الإنجليزية بالشكل الجيد الذي يشار إليه في الدراسة. لم تقدم هذه الدراسات صورة معرفية للأداء العالي، ولم تتحدث عن مهاراتهم المعرفية التي استخدموها في هذه المهمة، ولم تعلل كيف يمكن لدماغ شخص ما أن يكون أكثر مرونة من الآخر؟ هل مقياس مرونة الدماغ سيكون أفضل طريقة لتوقع نتائج تعلم اللغة الإنجليزية؟



Twitter: @ketab_n

في أحد الأيـام - بعد رحلتي إلـى ألمانيا - كنت فـي المنزل أحاول إصلاح السـباكة فـي دورة الميـاه، فجـاء صاحب المنـزل مع ابـن زوجته لمساعدتي. وفي أثناء الحديث سألني صاحب المنزل:

- ما الذي تقوم به حاليًّا؟

- أعمل على تأليـف كتاب عن الأشـخاص المتحدثيـن بالعديد من اللغات.

- حقاً؟ إنه يتحدث الكثير من اللغات - وأشار إلى ابن زوجته الذي كان نصفه مختبئاً تحت المغسـلة - هو من إيران، وعاش في أماكن كثيرة، ويتحدث ستّ لغات أو سبعاً. إنه عبقري.

- هل هذا صحيحٌ؟ (سألت الابن).

- نعم، صحيح. (جاءني صوته من تحت المغسلة).

كم عدد اللغات التي يستطيع الشخص تعلمها؟ حتى الآن لا أعرف، قد أحصل على الإجابة من متعلمي اللغة بكثافة ومجمعي اللغات الكثيرة؛ العديد منهم جاءوا مـن مجتمعات تتحدث لغة واحـدة. عرفت القليل عن الأماكـن التي يكون الأشـخاص العاديـون فيهـا وارثي مميـزات بيولوجية عادية، ويتعلمون بشكل اعتيادي العديد من اللغات. كنت أعلم أن عليَّ أن أغامر لأرى عن قرب ما يمكن أن أتعلمه عن الأدمغة في بابل.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# القسم الرابع

## الإسهاب

## أدمغة بابل



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الخامس عشر

الشمس تتسلل ببطء من بين أعالي شجر النخيل، والغبار أزيل من مفترق الطريق من أمام فندق ديموند بوينت بفعل حركة السيارات. سيول من السيارات الصغيرة والدراجات النارية، عربات صغيرة لامعة صفراء ذات ثلاث عجلات، وعربات دفع تلقائي، ودراجات بخارية، ودراجات هوائية، ومشاة، وعربات تجرها ثيران؛ كلها تأتي بغير اتفاق من خمسة اتجاهات، وتتجمع في نقطة واحدة فتخلق دوامة من الفوضى في وسط التقاطع. لا إشارات توجه هذه الفوضى، ولا ضوء يتحكم به، لا خطوط أرضية، ولا حتى قيود.

كنت أشاهد هذا في الشارع في مدينة سيكوندرأباد في جنوب الهند. بدا لي وكأن سكان المدينة جميعاً في هذه اللحظة يحاولون المرور من أمام الفندق بحشد لا ينتهي. عندما تكون في العربة تشعر وكأنك تعرضت لحادث، وعندما تدرك أنك لم تُصدم، تتقدم بحذر نحو هدفك. بعد يومين من التجول في مثل هذه الطرق في سيكوندرأباد ومدينة حيدر آباد (مع سكان يبلغ عددهم أربعة ملايين) تدرك أن الفوضى التي تشاهدها نماذج متوقعة، وربما هذا ما يجعل السائقين هادئين بشكل مثير أثناء قيادتهم داخل الدوامة. لتبقى سليماً؛ حافظ على سرعتك ولا تقم بحركة مفاجئة. ربما يكون رجل المرور - الرجل الوحيد المعتمر عمامة بيضاء - هو من تسبب في هذا الاندفاع. لا، أدركت أنه فقط شاهد على دهشة الجمود. في ملصق عملاق أعلى المبنى تطالع وجه رجل دين سوامي



Twitter: @ketab_n

مبتهج يحدق في أمواج من الفوضى.

على بعد شارعين، يقع بيت مضيفَيّ سيري وكالا[1]؛ الزوجين المتقاعدين. كانا في الستين من العمر، عادا للتو من حصة اليوغا وها هما ويتناولان وجبة الفطور. إنهما يعيشان في بيت كبير بحديقة مغطاة، ومراوح في السقف، وتلفزيونات، ومطبخ على طراز المقام المقدس الذي يناسب عقيدتهما البرهمية. كان (سيري) يعمل مديراً في مصنع شركة. وهو رجل قصير ومكتنز مع نتوء في شفته السفلى. يضحك بسهولة، ويحب الفكاهة والأكل. في أثناء تناول الفطور، سحب جرة من الفخار وأضاف كمية من الكريم إلى إنائي، كل وجبة تنتهي بالسمن المغمور بالهيل أو الآيسكريم التي يمتنع من أكلها لأسباب صحية. (كالا) النحيفة، والمتخصصة في علم النبات تمضي صباح كل يوم وهي تخيط الياسمين المتفتح في الإكليل المعلق في مطبخها أثناء مشاهدتها مسلسلات التلفزيون الهندي.

متحمساً للبدء، سألت مضيفَيّ في صباح أول يوم عن مخزون لغاتهما. هذه اللمحة تركتني متشوقاً لما سأراه في ما بعد. فرغم أن لغتهما الأم هي التاميلية، إلا أنهما يتواصلان في ما بينهما بالهندية. عند بداية زواجها، فوجئت كالا بأن اللغة الهندية هي اللغة التي يتحدث بها أهل زوجها خارج العائلة. قالت: "فكرت، لماذا يتحدث إليَّ كما يتحدث مع الأصدقاء؟". إنهم يتحدثون الإنجليزية أيضاً، احتجت إلى يوم كامل حتى أتبين لكنتهما، أما هما فلم يجدا صعوبة في فهمي أو فهم زوجتي التي رافقتي في هذه الرحلة.

دوائر اللغات أصبحت أكثر تداخلاً وتعقيداً. سيري أيضاً يستخدم الهندية مع ولديه البالغين، ويستخدم التاميلية والإنجليزية مع ابنة زوجته،

(1) تقديراً لكرم الضيافة، سأستخدم فقط الأسماء الأولى لهما ولأقربائهما. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

ويتحدث الكنادية[1] مع الآخرين، ومع إخوته يستخدم التاميلية، حتى إنّه يتحدث مع واحد من أبناء أخيه التيلجو[2]، ويتحدث الكنادية مع أخوات كالا. إذاً، هو يتحدث الهندية والكنادية والتاميلية والتيلجو والإنجليزية، ويقرأ ويكتب فقط بالهندية، والإنجليزية.

لغات كالا في الحياة كانت موزعة بشكل أسهل قليلاً؛ فهي تتحدث إلى أولادها وابنة زوجها بالتاميلية، ومع الآخرين بالكنادية، ومع أخواتها تستخدم الكنادية أيضاً، وهي تعرف أيضاً التيلجو والهندية والإنجليزية، وتشاهد المسلسلات الهندية، وتقرأ الصحف بالهندية والإنجليزية، وفي السوق تستخدم (التيلجو) لغة الولاية.

في هذا الصباح، شعرت بالدوار عندما استمعت إلى هذه التفاصيل. بدا لي الأمر وكأنه يشبه ازدحام التقاطع أمام فندق ديموند بوينت. كيف يعرفان أي لغة تستخدم ومع من؟ كيف يعرفان هؤلاء الناس أنفسهم في كل لغة؟ هل هذا متصل ببعضه؟ ما السبيل إلى ترتيب هذه الفوضى الظاهرة؟

العديد من الأساطير نفسها عن متنوعي اللغات طبقت على متعددي اللغات المفرطين. ربما من خلال النظر إلى واحد يمكن أن تكون أقرب إلى الآخرين. إحدى الأساطير عن متنوعي اللغات تقول إنهم يستطيعون استخدام جميع اللغات على مستوى عالٍ بالتساوي. والأسطورة الأخرى تقول إن لديهم خلفية ثقافية واحدة لكل لغة. وهناك من يقول إنهم يعرفون

(1) اللغة الكنادية: هي إحدى اللغات المنتشرة في الهند، وتنتشر في ولاية كارناتاكا. وهي إحدى اللغات الرسمية فيها بجانب الهندية والإنجليزية. (المترجم)

(2) لغة التيلجو: تستخدم في ولاية آندهرا برديش في جنوب الهند، وتعتبر هناك لغة رسمية. وهي اللغة التي يتحدثها أكبر عدد من الناطقين بها سواء أكانت لغتهم الأم أو يجيدونها بدرجة أقل، وثاني أكثر لغة استخداماً في الهند بعد اللغة الهندوستانية، وهي أيضاً من بين اللغات الثلاث والعشرين الرسمية في الهند. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

اللغات على نحو غير دقيق، وهذه المعرفة غير الدقيقة لا تُحسب.

أخمن أن متعددي اللغات المفرطين كانوا أكثر اختلافاً عن متنوعي اللغات، على الرغم من أن عددهم كبير ويعيشون في مجتمعات تطور المعيار المشترك في معنى أن تتحدث هذه اللغات. وعندما يتأصل هذا الإدراك في المجتمع، تنجب متنوعي لغات أكثر. وحيث إن متعددي اللغات يظهرون ويتلاشون على مدار التاريخ، فإن المجتمعات متنوعة اللغات ماكثة في الجوار إلى الأبد، تُسيِّر الأجيال طوال الوقت قبل أن تروض الحضارات ألسنتنا.

الهند ليست البلد الوحيد الذي يجد به الشخص تعدد اللغات؛ فواحد من أهم الأماكن المشهورة بتعدد اللغات موجود - أو كان موجوداً - في الشمال الغربي من حوض نهر الأمازون. في نهاية الستينيات، كشف الأنثروبولوجي الأمريكي آرثر سورنس النقاب عن القبائل التي تعيش هناك. كتب سورنس في مقال عن المكان: "في الجزء الأوسط في الشمال الغربي من الأمازون، هناك منطقة كبيرة من تعددية اللغات؛ تحوي العديد من القبائل بلغاتها المختلفة، وتقريباً كل شخص فيها متنوع لغات ويعرف من اللغات ثلاثاً أو أربعاً أو أكثر، بشكل جيد". هناك يعيش حوالى عشرة آلاف شخص بمحاذاة نهر فاوبيس، في منطقة تساوي مساحة إنجلترا الجديدة[1]، ولدى كل واحدة من القبائل الخمس والعشرين لغتها الخاصة، والتي (مع أمور أخرى) تحدد زواج أي شخص، بسبب أن الشخص عليه أن يتزوج من خارج مجموعته اللغوية. وكنتيجة لذلك، ينشأ الأطفال ثنائيي اللغة على الأقل، ويفترض أنهم يتعلمون لغات أخرى من الأشخاص الذين يعيشون حولهم. نظام الزواج من الخارج يقوي رباعية اللغة التي لاحظها سورنس، ومع ذلك يتحدث بعض الأشخاص

(1) إقليم في الولايات المتحدة يضم ست ولايات. مساحة هذه الولايات 172,454 كيلومتراً مربعاً. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بلغات أكثر. اللغوية ألكسندرا أكانفلد قدمت تقريراً عن لقائها شخصاً ما في فاوبيس يتحدث عشر لغات بشكل جيد.

ولذا، إن تعددية اللغات الأزلية في الأمازون لا تزال تعتمد على الصيد والالتقاط (الصيد والالتقاط أيضاً في طريقهما إلى الاندثار). تحضيراً للذهاب بنفسي إلى هناك، قمت بمقابلة شخصية مع جين جاكسون، الأنثروبولوجية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، التي قامت بدراسة ميدانية في فاوبيس في السبعينيات من القرن الماضي. قالت لي جاكسون إن نظام الزواج هذا لم يعرف منذ القدم، ولكنه ظهر قبل مائة عام نتيجة ضغوط الهجرة وقلة السكان. هذا النظام نفسه في طريقه إلى الاندثار نتيجة ضغوط خارجية. هناك عدد قليل من الناس الذين يتحدثون أربع لغات بشكل جيد. إنّ تعددية اللغات ما زالت منتشرة، مع ملاحظة ازدياد عدد الأشخاص المعتمدين على التوكانو؛ لغة أكبر قبيلة من حيث عدد السكان، والتي أصبحت لغة مشتركة. حتى لو تجاوزت مشكلة عدم معرفتي بأي من اللغات المحلية، فقد لا أجد هناك إلا القليل مما أتمنى أن أراه.

وهناك مكان آخر مهم في العالم، وهو جبال المندارة في شمال الكاميرون، حيث يتحدث الشخص العادي في قبائل الجبال ثلاث لغات، وليس من العسير أن تجد من يتحدث خمس لغات أو ستًّا.

– ما الذي يعنيه هذا في الحقيقة؟

قالت ليزلي مور الأنثروبولوجية من جامعة أوهايو إن الشخص المثالي سوف "يتحدث لغتين أو ثلاثاً بشكل جيد، وستكون لديه مهارات قوية في الاستقبال والإنتاج في اللغات الأخرى"، مثل متعددي اللغات المفرطين. وهذا لا يبدو غريباً؛ على الأقل بالنسبة لمتنوعي اللغات في هذا الجزء من العالم؛ أي أن يعرفوا أجزاء وعبارات كثيرة عن العديد من اللغات.



Twitter: @ketab_n

خبير آخر في الحقل نفسه، الأنثروبولوجي سكوت مكيتشرن، وصف تعددية اللغات بأنها قديمة جدًّا. فقد أمضى الناس قروناً في التجارة، والحروب، والتزاوج، والمناورات لأهداف سياسية، والاتصال بالعالم الخارجي؛ مما شجع بعض الأشخاص على تعلم اللغات.

خذ مثالاً رجلاً في منتصف العشرين من عمره، هو مايكل كوردابي الذي يعمل مترجماً لمكيتشرن. كتب مكيتشرن عنه قائلاً: "يتحدث لغة[1] بلسلا والوزلام والفرنسية بطلاقة، ويتحدث أيضاً المادا وادالا وفيولب بمستويات متعددة من الطلاقة. وكالمعتاد، يستطيع فهم لغات الخطاب أكثر من التحدث بها. كما يستطيع أيضاً فهم بعض الميان. إنه يصر على أن إمكانياته اللغوية ليست غريبة في منطقته". (تأكيد مكيتشرن). أضاف الأنثروبولوجي: "هذا المخزون الكبير معتاد بين الفتية الذكور الذين يتعلمون أكثر من لغة بهدف الحصول على فرص أكبر للعمل خلف الجبال. قبل الاتصال بأوروبا، كان التحدث بثلاث لغات أو أربع هو السائد".

بينما كنتُ أفكر في قرار الذهاب إلى نيروبي، المدينة متعددة اللغات، تذكرت العبارة اللاذعة للدكتور بتانيك؛ اللغوي الهندي وبطل الجمعية الهندية لتعدد اللغات (هناك 428 لغة يتحدث بها هناك)، وكيف أن تعددية اللغات دائماً تكتشف من منظور أن المجتمع يستطيع فقط أن يحتفظ بعدد محدود من اللغات وعدد محدود من التنوع الثقافي.

إنه يطرح سؤالاً يحاول أن يقلب فكرة هذا الافتراض: "كيف يبدو النظام السياسي المطبق عند وجود الإثنية والتنوع الثقافي".

كانت الهند هي المكان الذي تستطيع فيه الإمساك بتصور أكثر وضوحاً عن العيش مع العديد من اللغات، ولهذا أردت الذهاب إليها.

(1) لغات من عائلة اللغات الأفريقية الآسيوية. يتحدث بها في الكاميرون. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

قررت الذهاب جنوباً إلى مدينة حيدر آباد - حصن المسلمين السابق - المكتظة بالسكان الناطقين بالأوردية. في ولاية أندرا برديش؛ كانوا يتحدثون التيلجو. ما اللغة التي تعلمت مقتطفاتٍ منها قبل الذهاب؟ لديَّ القليل من الهندية في رأسي؛ ثمرة أسلوب التتبع مع ألكسندر. ولكن، في جنوب الهند، الهندية ليست الاختيار الأمثل؛ فجنوب الهند هو المكان الذي يتحدث فيه باللغات الدرافيدية[1] بفخر، والهندية كانت في السابق تقاوم علناً[2]. جنوب الهند فيه أربع لغات رئيسة من عائلة اللغات الدرافيدية؛ اثنتان منها الكنادية والتيجلو، ويتحدث بها في ولايتين هنديتين سأذهب إليهما. قال لي صديقي: "لا تقلق بشأن ذلك، فالجميع يتحدث الإنجليزية". لم تكن عبارته دقيقة، ولكن كان هناك الكثير من الإنجليزية؛ الأمر الذي أفادني كثيراً.

في صباح أول يوم في إسكندر أباد، عندما أنهيت كتابة نقاط الحوار مع ضيوفي، طلب (سيري) أن ألتقي ابن أخيه، وهو سفير سابق للهند يتحدث الكثير من اللغات التي تتضمن لغات غير هندية؛ مثل الصينية. بسرعة وعبر هاتفه النقال، أخذ يرتب زيارتنا إلى مدينة أخرى. كنت مندهشاً من العائلة التي تتحدث العديد من اللغات، ومن المدينة التي تتوقف على وجودك فيها كتابة الإشارات المعروضة بالأوردو والإنجليزية، أو الهندية والإنجليزية، أو الهندية والتيلجو، ومن الدولة التي يتحدث فيها مئات الملايين من البشر لغتين أو ثلاثاً أو أكثر. تعدّد اللغات

(1) اللغات الدرافيدية: هي إحدى أكبر العائلات اللغوية، وتضم نحو ثلاث وعشرين لغة، ويتحدث بهذه اللغات نحو 220 مليون نسمة. موطنها الحالي جنوب الهند، غير أنها انتشرت في جميع أنحاء آسيا الجنوبية. (المترجم)

(2) في العام 1965، اشتعل الشغب في الولايات الجنوبية في مدراس (لاحقاً سميت تاميل نادو) عندما أوشكت اللغة الهندية أن تكون اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد. ولم يحدث في ولايات الدرافيديون منذ الثمانينيات أي شغب بسبب اللغة، وخمدت اللغة الوطنية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

ما زال قويًا، لم تكن هذه الدولة مثل أمريكا أحادية اللغة.

كنت أتحدث أكثر وأكثر عن حالة ميزوفانتي، ويهز الناس رؤوسهم غير مصدقين!

أول الأشياء التي حاولت فهمها كان: كيف يعرف الناس لغة من يقابلهم. على سبيل المثال، في المكان الذي أعيش فيه في الجنوب الغربي من أمريكا، كان اختيار التحدث بالإنجليزية أو الإسبانية يعتمد على نظرتك إلى الشخص المقابل، ولكنها نظرة لا تخلو من المخاطرة؛ فإذا بدأت بالإنجليزية وكان لا يجيدها فبإمكانك الانتقال إلى الإسبانية إذا كنت تعرفها. ولكن، إذا بدأت بالإسبانية، فربما تكون قد أسأت الاختيار، ولسان حال محدثك يقول: "هل تعتقد أنني لا أتحدث الإنجليزية؟". هذا يمكن أن يحدث إذا كنت أنجلو - أمريكي[1]؛ حتى لو كنت تتحدث الإسبانية بشكل جيد وسمعت للتو شخصاً آخر تحدث بالإسبانية. عندما وصفت مثل هذا السيناريو للهنود لم يأبهوا له كثيراً؛ فاختيار اللغة الخاطئة لا يثير الخجل أو يعني عدم اللباقة، أو هكذا قالوا.

سألت الطبيبة التي جاءت مع سيري للقائي: ألم يتعرض أي شخص للإساءة؟

- لا، لماذا يُساء إلينا؟ (يبدو أنها ارتبكت من السؤال).

سيري - الذي سمعني أسأل هذا السؤال كثيراً - تدخل في الحديث منزعجاً قليلاً: "لا. لقد قلت للتو لشخص ما: أنا آسف، لا أستطيع التحدث بلغتك، رجاءً تحدث بالإنجليزية".

في أحد الأيام قمنا بجولة بالباص إلى الأماكن المشهورة في حيدر آباد: المعبد الرخامي الأبيض في فيشينا، والمتحف الأنيق المضاء بالإشعاع الفلوري والمليء بمجموعات كبيرة كانت سابقاً في قصور

(1) الأنجلو - أمريكي: هو المتحدث بالإنجليزية؛ خاصة الشخص أبيض البشرة من أمريكا الشمالية، وليس من أصول فرنسية أو إسبانية أو لاتينية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الأغنياء من القادة المسلمين. باستثناء زوجين من الأجانب كنت أجلس بجانبهما في الباص، كان الجميع من الهنود. وأثناء انتقالنا من مكان إلى آخر، كان المرشد السياحي الشاب يتشبث بسلة الحقائب كلما اهتزت الحافلة، وينطق بسرعة الشرح والتعليمات بالإنجليزية. كنت متحيراً عند نهاية اليوم عندما أضاف الهندية إلى رواياته. عندما وصلت الرحلة إلى محل مجوهرات اللؤلؤ (حيدر آباد مشهورة بتجارة اللؤلؤ)، انتحيت به جانباً، وسألته:

- لماذا غيَّرت اللغة؟

فأشار إلى امرأة مسنة ترتدي الساري، وقد وقفت متأمّلة عقداً معروضاً من اللؤلؤ، وقال: "لقد عرفتُ من بداية الرحلة أنهم يريدون الهندية في مرحلة ما".

- كيف عرفت؟

- بناء على مشية الشخص ولباسه ومظهره، يمكن أن أعرف لغته الأصلية.

هو أيضاً يتحدث الكنادية، والتيلجو، وبعض المارثية. آخرون قالوا لي إنهم يحكمون (أو يتوقعون) بناءً على لون البشرة. فالأشخاص من الجنوب يميلون إلى اللون الأغمق من أولئك الذين يعيشون في الشمال. (هذه مشاكل نمطية، ولذا يمكن أن يكون التحدث عن لون الجلد رمزاً لاستعداد آخر). يمكن أيضاً أن تختار اللغة إذا سمعت لكنة اللغة الهندية في اللغات الأم المتنوعة لدى الهنود. فإذا كان أحد الأشخاص يفهم الكنادية وشخص آخر يستطيع سماع الهندية فسيقولان: "دعنا نتحدث بالكنادية، أيًّا كان الأمر، فأجمل ما يرغب به الأشخاص هو التحدث بلغتهم الأم". في هذا البلد الشاسع الممزّق بالاختلاف، يمكنك التواصل بالعديد من اللغات.

بعد ظهيرة أحد الأيام، صحبنا سيري وكالا إلى المنطقة التجارية



Twitter: @ketab_n

في حيدر آباد؛ المكان الذي تنتشر به أكشاك تجار المنسوجات الكشميرية وشيلان الصوف، وأقمشة الراجستان المُخاطة مع مرايا صغيرة؛ الشيكان المطرز بالكنو. أفواج من النساء كنّ - أغلبهن يكتسين بالشادر الأسود، والأخريات بلباس مبهرج من السراويل والأغطية - يدرن، ويتفحصن نوع القطن والحرير المزركش اللامع.

توقفنا عند أحد الأكشاك لتشاهد زوجتي أحد القمصان. البائع الشاب اكتشف أن سيري من بنغالور. رفع سيري رأسه وتحدث إليه بالكنادية، وبعد أخذ ورد قال لنا البائع بالإنجليزية: "ما دمتم تتحدثون الإنجليزية فسوف أعطيكم حسماً" فضحك الجميع: "الملاذ الآمن".

قال لي (سيري) ونحن نسير بعيداً: "انظر كيف تبني اللغة الجسور بين البشر؟! بدأنا بالتحدث بالكنادية وشعرنا ببعض التقارب".

في الأيام التالية، التقيت المزيد من أفراد العائلة الذين يتحدثون لغات متعددة. كانت بعض اللغات حصرية على جلسات وأناس محددين، وهناك لغات جديدة فقط من أجل الحصول على الوظائف. حتى إنّ حفيدة الأخت - الطفلة ذات السنوات الأربع كانت تعرف الهندية، والإنجليزية، والتيلجو. قالت والدتها - وهي في بداية الثلاثين من عمرها - إن طفلتها تتحدث التيلجو، والهندية، والمارثية، والسنسكريتية، والتاميلية، والبنجابية، والبنغالية، واللغة الإنجليزية. ولكن، ما مستوى طلاقتها؟ يفترض الشخص أنها ربما تستخدمها فقط عند الحاجة. كنت أميل لأن أقول إنه من الصعب في هذه البيئة أن يعبِّر تعدد اللغات عن علو الطبقة. وكما هو الحال في الغرب، تلعب اللغات الأجنبية هنا دوراً خطيراً، بما في ذلك السنسكريتية رغم أنها ليست من اللغات الحية الآن. وأحياناً، يكون سرد قائمة اللغات تعبيراً عن تحديد الطبقة والطائفة، كما في حالة خال الطفلة ذات السنوات الأربع، ويدعى رومو. هو أيضاً في الثلاثين من عمره، ويعمل بائعاً في شركة تصنع أنوال حياكة الأقمشة.



Twitter: @ketab_n

نشأ وهو يسمع التاميلية في المنزل وفي المدرسة الابتدائية، وعاش لفترة في بومباي؛ المكان الذي تعلم فيه المارثية وعرف الهندية والإنجليزية والسنسكريتية. وفي الكلية تعلم الألمانية، ولاحقاً تعلم اليابانية ليتمكن من التحدث مع المهندسين اليابانيين الزائرين. ولحسن الحظ، كانت معلمته يابانية الأصل وتعرف الهندية أيضاً، فكانت فرصة كبيرة لم تسمح له فقط بتعلم اللغة اليابانية عن طريق اللغة الهندية، وإنّما بإلقاء الضوء على التشابه النحوي مع اللغة اليابانية أيضاً.

وعلى انفراد، قال لي رومو إنه يفهم التيلجو، وقال ضاحكاً: "هناك العديد من اللغات، التي نسيتها". وأخبرني أنه تعلمها من عمله؛ لأن الرئيس التنفيذي يريد منه أن يتحدث بها. قال رومو: "ليس المهم أن تكون لغتك ممتازة إذا كنتَ ممن لا يعرفونها؛ فالآخرون سيكونون سعداء من محاولتك". أغلب المهام في الشركة تدار باللغة الهندية، في حين أن الرسائل الإلكترونية تكتب دائماً بالإنجليزية. ومع ذلك، فخلال اجتماعات العمل، عندما يدرك الحضور أن الجميع يعرفون التيلجو فإنهم يتحولون إليها.

في مدينة ميسور، التقينا ابن عم سيري. كان رجلاً نحيفاً، أصلع الرأس، في الثانية والتسعين من عمره، واسع المعرفة، ولد وتعلم في الخارج. سأسميه سيدهارتا. قال وهو يتنفس بقوة: "أتحدث لغة شكسبير وميلتون وجورج شو. أنا مقلد؛ تماماً مثل الببغاء التي تستطيع التحدث بأي لغة تلتقطها وتحملها معها". يخيل إليك وأنت معه وكأنك في لقاء مع جورج برنارد شو مرتدياً الدوطي (الرداء الذي يرتديه الرجال الهندوس في الهند) ويدير روضة أطفال في الدور الثاني في منزله، ومن الصعب أن تعرف كم عدد اللغات التي عرفها في حياته ومدى تمكنه منها.

إنه لا يعترف بمجمعي اللغات الآخرين الهواة، ومنهم ذلك الموظف الحكومي الذي يعرفه ويدعي معرفته بستين لغة رغم أنه لا



Twitter: @ketab_n

يعرف من كل منها إلا كلمات قليلة غير ذات قيمة. ولذا، أنا لم آت لأجد متعدد لغات مفرطاً آخر مثله. طوال الوقت كان يتعمد تجاهل الشيء الموحد بيننا المسمى "الإنجليزية"؛ مما يعكس حساسيته وتقديره للغته.

في صباح أحد الأيام، استقللنا السيارة مع سيدهارتا لمسافة حوالى عشرة كيلومترات خارج ميسور، قاصدين المدرسة الابتدائية التي أسسها. وأثناء سيرنا إلى ساحة الطابور ترامت إلى أسماعنا أصوات الأطفال وهم ينشدون من الفيدا[1]. كانت أصواتهم الجميلة تزداد قوة كلما شارفنا على الوصول. وبعد الإنشاد، ألقى كلمة على الطلاب المصطفين المرتدين الزي الرسمي تتضمن الأخبار السياسية، والاقتصادية الحالية (العالم من منظوره)، وشجعهم أيضاً على استخدام السنسكريتية المثيرة للجدال في المدرسة - لأنها لغة كلاسيكية مرتبطة أكثر بالنخبة - (يقابل ذلك في الغرب تعليم طلاب المدارس اللغة اليونانية القديمة). قال لي لاحقاً: "اتصلوا بي لأكون سفيراً للهند، وبعد ذلك عرفوا أنني لست الشخص المناسب".

بعد الطابور، كان عليه التقاء بعض المعلمين، وانتظرت أنا وزوجتي في المكتبة - المكتظة بمجموعاته الشخصية من الأدب الإنجليزي - والتقينا طالبة اسمها أنينا التي قالت إن أباها يعرف عشر لغات، جميعها هندية. وهي تعرف ثلاثاً، وتتعلم السنسكريتية أيضاً.

بعد أن اتسعت قدرتنا على دخول عالم اللغات الأجنبية من مجرد الضغط على (الفأرة)، وبعد أن أصبح إحساسنا بالعالم كقرية صغيرة يتحدث فيها بالعديد من اللغات - وربما نكون يوماً ما قادرين على التحدث بها - فهل الهند وجهتنا الصحيحة؟

قال سيدهارتا مازحاً: "سأدع جانباً فكرة توحيد الهند للتركيز على

(1) الفيدا: أحد أقدم النصوص الهندوسية، وهو مكتوب باللغة السنسكريتية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

جنوب الهند. هناك نماذج من تعددية اللغات، بعضها على الأقل تطور من خلال ظروف استمرت لآلاف السنين؛ بتأثير الهجرات، وصعود الإمبراطوريات وانهيارها، وموجات الاستعمار. كل هذه الاضطرابات ساعدت على صنع ظاهرة لغوية فريدة تسمى شبراخبوند Sprachbund، حيث يكون الأشخاص متحدثين بالعديد من اللغات التي تعلموها كلها بالطريقة نفسها التي يتحدثها كل شخص[1]؛ إذ نظراً لتعايشها بجانب بعضها على مدى قرون، ذابت اللغات واندمجت؛ ليس فقط في الكلمات المستخدمة، ولكن في القواعد التي تبنيها.

إذا كنتَ تعيش في منطقة يتحدث فيها الناس بلغة (أ) ولغة (ب) ولا يخلطون بينهما، فيمكن أن يكون من الصعب معرفة التغيير الاجتماعي في هذه الحالة؛ لذا من المفيد جدًّا مراجعة ثلاثة من الأحداث المهمة في التاريخ اللغوي للهند، والتي لم تتكرر في أي مكان آخر.

الحدث الأول: كان توسع هجرة الشعوب الهندوأوروبية إلى جنوب الهند، والتي بدأت عام 1500 قبل الميلاد. وقد جلب المهاجرون معهم اللغات الهندوإيرانية مثل السنسكريتية، والتي فُرِضت على المتحدثين باللغات الدرافيدية في الجنوب. وغرست في اللغات الدرافيدية (المجموعات الكبرى الآن هي من المتحدثين بالتاميلية، والكنادية، والتيلجو، واللغة الماليالامية)، وهذه قصة كيفية تعلم هؤلاء الأشخاص اللغات الهندوإيرانية وتغييرهم لغاتهم، على الرغم من أنها لغات المحتلين القادمين. وبعد ثلاثة آلاف سنة ذابت العائلتان اللغويتان بالتدريج، وأصبح التبادل والمقايضة بين المجموعتين أكثر تعقيداً، وامتد هذا التبادل في جميع النواحي؛ فقد انتشر في الأسماء ثم في

(1) ظاهرة شبراخبوند (والتي تعني حرفيًا بالألمانية "اتحاد اللغة") موجودة في جميع أنحاء العالم؛ ومن الأماكن المشهورة بها: البلقان، وجنوب المكسيك، وأقصى الجنوب الآسيوي، وأماكن أخرى. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

الأنماط اللغوية إلى متحدث اللغة نفسه. استعارت العائلتان اللغويتان أنماط الأصوات، فأغلب اللغات الهندية - سواء أكانت الدرافيدية أو الهندوإيرانية - تحوي أحرفاً ساكنة ينطق بها المتحدث بالضغط على الأسنان، وتتعارض مع الحروف الساكنة التي ينطق بها المتحدث واللسان ملتف إلى الخلف. أشكال المفردات، ونوع المفردات، وأساليب القواعد كلٌّ منها استغرق وقتاً طويلاً للاندماج بين اللغات. وكذلك اكتسبت السنسكريتية - وهي إحدى اللغات الهندوأوروبية - مميزات قواعد من غير الهندوأوروبية التي جاءت بالتأكيد من المجموعة الدرافيدية.

تختلف اللغات في تنوعها، فمنها ما يشبه التفاح في أناقته وتفرده، ومنها ما يشبه دقيق الشوفان في كثرته واختلاطه؛ اللغات في الهند تذكرني دائماً بدقيق الشوفان الذي تندمج أجزاؤه رغم الضغوط السياسية التي تمارس لفصلها كما لو كانت قطعاً حجرية صماء. اللغات التي يتحدثها الأشخاص في ما بينهم تحفر بحدة حدوداً داخل تنوعات المناطق للغة المشابهة (مثل الهندية)، فتتفاعل لهجات كل طبقة، وتولد اللغة المبسطة عندما يتواصل المتحدثون في اللغات المختلفة معاً.

تطوُّر شبراخبوند ضخم ويشبه التحرك الجليدي؛ وهو بالأساس غير ملحوظ لأنه يتحرك ببطء. ويمكن للناس أن يعطوا الاختلافات اللغوية التي يستخدمونها أسماء منفصلة. هذا ينتج حالة غريبة؛ أشخاصاً يتحدثون خمس لغات، ولكنها في حقيقة الأمر ليست خمس لغات! بتعبير آخر: هي من الناحية الثقافية خمس لغات، ولكنها من الناحية المعرفية ليست كذلك. وكما هو الحال مع متعددي اللغات المفرطين، لا يمكن أن يكون عدد اللغات وحدات مترابطة قابلة للقياس. الوحدة ذات الصلة هي الوحدة اللغوية الكاملة "بعض الشيء وبعض الشيء" التي يعرِّفها فيفيان



Twitter: @ketab_n

كوك[1] بأنها "كفاءاتهم المتعددة".

الحدث الثاني المهم كان توالي دخول جيوش المسلمين المتحدثين بالفارسية إلى جنوب الهند، بدءاً من العام 700 بعد الميلاد. وبعد امتزاج اللغة السنسكريتية بلهجة جنود الجيش الفاتحين، ولدت اللغة السنسكريتية لغة جديدة تسمى الهندوستانية. ولأسباب سياسية معقدة في منتصف القرن العشرين انقسمت الهندوستانية إلى الهندية والأوردية.

أضف إلى هذا الخليط الحدث الثالث، وهو الاستعمار الإنجليزي. بدأت تطلعات الإنجليز إلى الهند عام 1583؛ عندما أرسلت الملكة إليزابيث البعثة الاستكشافية الأولى إلى الهند، وأصبحت اللغة الإنجليزية لغة رسمية مع ازدهار الإمبراطورية البريطانية في العام 1757. وعلى مدى السنوات المائتين والخمسين التالية، أصبحت أكثر من كونها مجرد لغة أجنبية. عدد الهنود المتحدثين للغة الإنجليزية مثار جدال، على الرغم من أن الرقم يتراوح بين 5 إلى 50 في المائة من السكان. الطبقات العليا مثل البراهمة[2] كانت تاريخيًّا متعاونة مع بناء الإمبراطورية البريطانية. ولاحقاً، سمح أفرادها بتعليم اللغة الإنجليزية، وورثوا بناء قويًّا مع الاستقلال.

وجد كلٌّ من المسلمين والبريطانيين الأرضية الثقافية خصبة باللغات. المسؤول البريطاني جورج غريرسون قام بمسح عن لغات المستعمرة في نهاية القرن التاسع عشر، ووجد أن "مناطق المستعمرة في الهند تستدعي الاضطراب الذي حدث في أرض شنعار؛ المكان الذي بُني

(1) فيفيان جيمس كوك (ولد عام 1940) أستاذ اللغويات التطبيقية في جامعة نيوكاسيل في المملكة المتحدة. وهو مشهور بأعماله على اكتساب اللغة الثانية، وتعلم اللغات. (المترجم)

(2) البراهمة: عضو في الطبقة الأولى من الطبقات الهندوسية الأربع (وهي البراهمة، الكشاتريا، الويشاش، الشودر)، ومسؤول عن ترؤس القداس في المراسم الدينية ودراسة وتعليم الفيدا، وهي كتب الهندوس الأربعة أو أحدها. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

فيه البرج (برج بابـل)، وتقريباً كل مجموعة صغيرة مـن قبائل القرى لديها لغتها الخاصة المستقلة". ووجد أيضاً "أرضاً شاسعة" تمتد آلاف الآلاف من الأميال المربعة "التي يتحدث فيها من أولها إلى آخرها بلغة واحدة".

إن محاولـة إحصـاء اللغـات الهنديـة بشـكل كامـل ودقيـق الآن مهمة سـترهق جيـلاً من موظفـي الإحصـاء والتعـداد. ولكن هنـاك بعض الإحصائيات التي تعطي لمحة عـن الأرضية اللغوية. في عام 2005، كانت اللغة الأكثر مـن حيث عـدد المتحدثيـن بها هـي الهندية، مـع 180 مليون متحدث بهـا كلغـة أم، و120 مليون متحـدث بها كلغـة ثانيـة (ينافس هذا الرقم عدد المتحدثين باللغة الإنجليزية في أنحاء العالم البالغ عددهم 328 مليوناً). اللغـة التالية كانـت البنغالية ويتحدث بهـا 70 مليوناً، ثـم التيلجو مع 69 مليون متحدث. خمسـة وتسعون بالمائة من السـكان يتحدثون لغة واحدة من مجموع اثنتين وعشـرين لغـة، ولا يُعرف على وجـه الدقة عدد المتحدثين بأكثر من لغة واحدة.

بناء على التعداد السـكاني في عام 1991، يوجد فـي الهند 20 مليون شـخص ثنائي اللغة، وسـبعة ملايين شـخص ثلاثي اللغة؛ وهـو عدد قليل ربما يـزداد في التعـداد الوطنـي التالـي. ولكنك لا تحتـاج إلى تعـداد؛ إذ يكفيـك أن تنتقل بيـن المحطـات التلفزيونية أو تقـف أمام بائـع الصحف لتشـاهد النمـوذج الحديـث مـن أولئـك الذيـن قابلهم جريرسـون. تنشـر الصحف على الأقل بنحو 34 لغة، والراديو والتلفزيـون يذيعان بنحو 104 لغات.

جلسـتُ في غرفتـي فـي الفنـدق أشـاهد التلفزيـون الهنـدي، حيث تختلـط الكلمات والجمـل الإنجليزيـة مع الهنديـة. الاختـلاط اللغوي له تاريخ طويل فـي الأدب الهندي، ولكني غيـر ملم به. كنـت أتطلع لمعرفة قدر من اللغـات الكنادية والتيلجـو والهندية، حتى أسـتطيع أن أحدد مدى اندماج هذه اللغات.



Twitter: @ketab_n

تنوعت الثقافات الهندوسية على مدى آلاف السنين، وتعرضت العلاقة بينها لموجات من المد والجزر فنشأت التعددية اللغوية كتطور طبيعي. أحد التشبيهات اللغوية الهندوسية التي تصور هذه الميزة أطلقه رجل الدين واندي دونغر، حيث قال: "إنها بيت واحد به العديد من الملاحق". وهذا التشبيه يصلح أن يطلق أيضاً على الحياة اللغوية التي شاهدتها في جنوب الهند. في الغرب، الشخص ذو الهويات والولاءات المتعددة لا يملك إلا المقاومة أو الشعور بالحيرة. أما هنا، فالأمر أكثر بساطة.

أستطيع أن أتبين عناصر/ عوامل التوسع اللغوي في تاريخ عائلة سيري وكالا. فمنذ حوالى ثلاثمائة عام ترك أسلاف سيري جنوب مملكة ميدراس (حاليا نادو ولاية التاميلية) وهاجروا شمالاً إلى بنغالور، حيث أخذوا اللغة التاميلية معهم، وببساطة أضافوا إليها لغة بنغالور الكنادية، وبعد حوالى مئتي عام من هذا التاريخ - وتحديداً في العام 1911 - انتقل جده إلى حيدر أباد. وبدلاً من إسقاط التاميلية والكنادية، وسع أعضاء العائلة مخزونهم اللغوي مرة أخرى من خلال إضافة التيلجو. وبتأثير التعليم الرسمي والعمل المهني أضافوا الهندية والإنجليزية. وفي الوقت الذي ولد فيه ابن سيري وكالا، في بداية السبعينيات من القرن الماضي، كانت العائلة قد جمعت العديد من اللغات، ولم تكن لديها لغة واحدة "كلغة أم".

قالت إحدى بنات أخي سيري: "نتحدث الهندية كثيراً، وكلنا نتحدث التيلجو. وعندما نتسامر كمجموعة فإننا نتحدث التاميلية، أما في الاجتماع العائلي فإننا نفضِّل الكنادية". إنهم يتعرضون للعديد من اللغات منذ سن مبكرة، وأضافت أنهم لا يعرفون كم عددها على وجه الدقة. عندما كانت في الخامسة، كانت تتحدث خمس لغات (التيلجو، والكنادية، والتاميلية، والهندية، والإنجليزية) والآن يمكنها أن تفهم ثلاث



Twitter: @ketab_n

لغات أخرى (الماليالامية، الغوجاراتية، المارثية). تفترض أن كل لغة لها صدى أي ذكرى وأثر، والتحدث بها جميعاً بمثابة إعادة تمثيل لتاريخ العائلة، أو وسيلة لاستحضار الماضي.

على كل حال، الهند ليست المدينة الفاضلة متعددة اللغات، ولا هي النموذج الأمثل لكيفية بناء مجتمع مسالم بلغات متعددة، ولا عجب في ذلك. ففي جميع أنحاء العالم، يشعل اختلاف اللغات شرارة الصراع والعنف، فلماذا على الهند أن تكون مختلفة؟ هل الاختلاف يعكر صفو اللغات في بلد ذي تاريخ حافل بالعصبيات والولاءات المختلفة؟

تحتاج فقط إلى نماذج قليلة لتتبين المشكلة. في عام 1999، رفض مراقبو اللغة في ولاية كارناتاكا وضع لوحة كانت مكتوبة بثلاث لغات وثلاثة خطوط، بالترتيب التالي: الإنجليزية، والهندية، والكنادية بكلمات مكتوبة من الأعلى إلى الأسفل. وتجادل المراقبون حول: هل من الجائز أن توضع الكنادية على اليسار مكان الشرف، لأنها تقرأ أولاً؟ أو هل تكون الكنادية في الوسط، المكان المحترم، لأنها مجنحة بين اثنتين؟ في الحقيقة، إن وجود "مراقبي اللغة" الذين يراقبون اللافتات هو الذي يخلق التوتر، أو ربما هم مجرد قطاع طرق يشبهون ذلك الشخص الذي ضرب أصحاب المحلات في مومباي لأنهم كتبوا لوحاتهم بالإنجليزية، وليس المارثية!

في حيدر أباد، قالت كالا إنه في الستينيات من القرن الماضي، لم توافق جدتها لأبيها على زواج أختها من رجل يعتقد أنه من الطبقة نفسها، ويتحدث الكنادية. وبعد خمس عشرة سنة، عندما أرادت الأخت الأخرى الزواج من رجل يتحدث التيلجو، شجعتها زوجة أبيها على إتمام هذا الزواج. لماذا على الناس أن يكونوا منفتحين على اختلافات اللغة عندما تكون مؤشراً لمواقف أخرى؟ (عرفت لاحقاً أن اختلاف اللغة يؤخذ كمؤشر على أن الزواج لم يكن زواجاً تقليديًّا أكثر من كونه زواج حب



Twitter: @ketab_n

مثير للجدل).

في الأسابيع التي أمضيتها في الهند، هجم متعصبون هنود على نساء يرتدين لباساً غربياً في أحد المحلات في بنغالور، وقاموا بسحبهن خارج المحل وأوسعوهن ضرباً؛ بتهمة أنهن غير محتشمات ولا يتحدثن الكنادية. في حادثة أخرى، أُنزلت فتاة - وهي ابنة أحد البرلمانيين - من الحافلة عُنوة، وضُربت بسبب علاقتها بشاب مسلم. وجاء على لسانها في تقرير إعلامي أنها لم تستطع تخليص نفسها لأنها لا تتحدث الكنادية.

ومن تعقيدات التعددية اللغوية في الهند كذلك أنها لا تنتمي إلى طبقة اجتماعية أو طبقة اقتصادية واحدة. فأولئك الذين يتحدثون اللغات العالمية يميلون إلى أن يكونوا في الطبقات الاجتماعية الأعلى من أولئك المتحدثين الأصليين المجيدين للغة الأم (هذا المعنى ليس في الهند على الإطلاق). الإنجليزية واللغات المحلية الأخرى مثل التيلجو، والكنادية، والتاميلية تتصارع في حرب باردة. في هذه الحالة، العامل البنائي ليس القواعد بل السياسة الحالية في إعطائها إحصائيات غير دقيقة عن أعداد المتحدثين باللغات. لا يبدو أن أيًّا من هذه اللغات مهددة بالانقراض. فالكنادية لديها 35 مليون متحدث، والتيلجو 74 مليوناً، والتاميلية 68 مليوناً. ولكن الصحفي سوغاتا سرينفاسا راجو كتب في كتابه "الإيمان باللغة الأم"، أن اللغة الكنادية (وتقريباً اللغات الدرافيدية الأخرى) مهددة على نحو ما من الإنجليزية نفسها بسبب "الهوية الفوضوية للتكنولوجيا العالمية" التي تسمى "الكونية"؛ فلكي تصبح عضواً في المجتمع العالمي، ومواطناً عالميًّا عليك أن تتعلم الإنجليزية. وحتى يصل الناس إلى العالمية التي يعتقدون أنها هدفهم الوحيد، سوف يتركون لغاتهم المحلية وراء ظهورهم.

كتب سوغاتا: "يبدو أن اللغات المحلية واللغات الأم تنزلق بعيداً إلى عوالم الحنين الماضي بدون أهداف عملية جادة في العالم الخارجي،



Twitter: @ketab_n

أصبحت اللغات تدفع إلى أن تكون قطعاً يصل بها الحال إلى أن تحتفظ في لوحات في غرف الرسم والمطابخ". إنه الشعور بالفخر لتحدثه بالكنادية. لاحظ سوغاتا كيف أن الكتابة بالإنجليزية لم تترك له وقتاً للتعمق في حركة الآداب الكنادية من النخبة نفسها التي تتناقص. عندما تخسر الكثير على العموم، فإن اللغة تبدأ بخسارة قوتها.

كتب شيلدون بولوك باحث اللغة السنسكريتية في جامعة كولومبيا في 2008 مقالة في صحيفة (ذا إنديان) جاء فيها: "إن العديد من النصوص الكلاسيكية في اللغات الهندية يهددها خطر النسيان بسبب عدم وجود باحثين يتعلمون قراءتها. وخلال جيلين، إن الأدب الهندي القديم - أحد أكبر الآداب التي ساهمت بفعالية في الحضارة الإنسانية - يمكن أن يكون غير قابل للقراءة عمليًّا من قِبل الهنود".

قال لي السفير سيدهارتا، وهو يشير إلى الهنود: "لسنا شعباً واحداً؛ نحن طبقات وقبائل، وكل هذه الاختلافات محببة إلينا".

قد يكون عملاً أخرق تحديق سائح أمريكي ببله في صحيفة (صانـدي)، التي تصنف على صفحاتها إعلانات طالبي الزواج حسب المهنة (مهندس معماري، طبيب)، وفي صفحات أخرى حسب الحالة الاجتماعية (مطلق، زواج ثانٍ)، أو حتى حالة الهجرة (هندي غير مقيم، حاصل على البطاقة الخضراء الأمريكية). عند النظر إلى تلك الصفحات لا تستطيع أن تقول إن هذه الطبقة، أو تلك اللغة، أو المنطقة غير مهمة؛ فهناك أقسام للزوجات من التاميل والتيلجو، وكذلك الزوجات من البراهما. في الأسابيع التي بحثت فيها، كان أكثر الإعلانات من البراهما ومن المواطنين المقيمين في دول أخرى: "مطلوب فتاة من أصل هندي ذات مظهر جميل، نحيفة القوام، متعلمة، نباتية، العمر من 30-35، الطول 165 سم، مقيمة في الهند أو الولايات المتحدة، لمواطن أمريكي أصله تاميلي". وفي إعلان آخر: "أبوان مقيمان في دبي يطلبان شريكة حياة



Twitter: @ketab_n

لابنهما المولود عام 73، طوله 180 سم، وسيم الشكل، يقيم في الولايات المتحدة، ويحمل شهادة في هندسة الحاسب الآلي، ويعمل في شركة ذات سمعة في مجال البرمجيات".

يؤيد سوغاتا ما يسميه "بالكونية المتأصلة"؛ وهي فكرة ثنائية اللغة التي يعتمد فيها البشر على هوية مركزية، أو على الأقل تطوير جزء واحد منها بشكل محايد. ويحتاج النظام السياسي إلى جمع مثل هذه الهويات المحايدة كقواعد طبيعية لتحقيق الوحدة السياسية بين المواطنين. في المكان الذي تتدفق فيه العديد من الهويات غير المحايدة، فإن كل لغة، وكل توجه ديني، وكل ممارسة ثقافية، تمثل عبئاً على شخص ما، في مكان ما.

تعتبر الإنجليزية الآن إحدى اللغات المحايدة، بل إنها في الواقع إحدى اللغات الرسمية في الهند. في عام 2006، أثار الكاتب الداليتي والناشط شاندرا باهان براساد عاصفة من الجدال في وسائل الإعلام عندما دعا طبقة الداليت (يعرفون أيضاً "بالمنبوذين")[1] للتخلي عن اللغات الهندية، واتخاذ اللغة الإنجليزية كلغة أم. ماذا كان مبرره؟ إن أي هندي - وكذلك اللغات الهندية - تفوح منه رائحة العنصرية، والإنجليزية هي المفتاح إلى الفرصة.

الإنجليزية ليست بإجمالها محايدة، والمفهوم برز كاملاً في لوحة (إله الإنجليزية) التي أزاح عنها براساد الغطاء بعد حديثه؛ والتي تصوِّر تمثال الحرية يقف على جهاز الحاسب، ويمسك بقلم ورديٍّ. بناء معبد خاص لهذا الإله بدأ بالفعل في قرية بانكا؛ المكان الذي قال عنه مذيع قناة (BBC): "يمكنك الآن سماع صوت المرأة التي تغني (المجد للإله الإنجليزي)".

(1) الداليت: تأتي الداليت في الطبقة الأخيرة في نظام الطبقات الهندي. وأتباعها من المنبوذين الذين يحاولون الخروج منها باعتناق ديانات أخرى (البوذية، المسيحية، الإسلامية). (المترجم)



Twitter: @ketab_n

كتب براساد: "الإله الإنجليزي يعبر عن المساواة، وهو ثورة كبيرة ضد الطبقية؛ ضد الشيطان اللغوي مثل الهندية، والمارثية، والتاميلية، والتيلجو، والبنغالية على سبيل المثال. اللغات الهندية تميل أكثر إلى الغرور والتفرقة والكره، وهي أقل ميلاً للشرح والاتصال. يجب على اللغات الهندية أن تختفي تماماً".

تعطيك الإنجليزية فرصة للتعلم، ووظائف أفضل، وأسلوب حياة عالميًّا؛ خصوصاً في صناعات التقنية العالية، عندما يكون الأصل الطبقي غير ذي صلة، كما قال أحد الصبية من الداليت: "إنهم يفترضون أن أي شخص يعمل في مجال الحاسب هو من البراهما فقط".

قال سوغاتا في مقابلة مع إحدى الصحف: "كل ما أقوله إذا تحدثت بالهندية ليست له أي قيمة على الإطلاق وسيقابَل بالتجاهل. ولكن، إذا قلت الأشياء نفسها بالإنجليزية، فسيستمعون إليَّ وأقابل بالثناء! ويمكن أن تلاحظ أيضاً أن الأشخاص المتحدثين بالإنجليزية متأنقون، ويميلون إلى اختيار أحذية تتناسق مع ملابسهم؛ فالمظهر الحسَن يرفع من منصبك ويجعلك شخصاً جديراً بالاهتمام".

العديد من الهنود أيضاً يُظهرون شهية لغوية لا تشبع، ويتحدثون عن تعلم اللغات كما لو كان نشاطاً طبيعيًّا مطلوباً لوظائف الجسد؛ مثل التنفس والأكل. كانوا يجاملون إحساسي بالدهشة؛ (وهو ما لم أحاول إخفاءه). فربما أسأل مرة تلو الأخرى: كيف تعلمت اللغة (س)؟ وأحصل على الجواب نفسه: أوه، لقد عرفتها!

قالت لي معلمة اللغة اليابانية في جامعة اللغات الإنجليزية والأجنبية في حيدر أباد، إن طلابها "متعلمون جريئون"، وإنهم لا يخافون الوقوع في الخطأ، ويفخرون بما يستطيعون إنجازه. قال أحد الأشخاص: "جميعنا مهيّأون للتحدث باللغات في سياقات مختلفة، ومنفتحون على الأصوات الجديدة، وعلى طرق جديدة في التفكير". قال لي مسؤول العلاقات



Twitter: @ketab_n

العامة في معمل مايكروسوفت للأبحاث في بنغالور، وهو ينتمي إلى مدينة كولكاتا إنه يتحدث البنغالية والتاميل كلغته الأم، وتعلم الهندية والإنجليزية في المرحلة الابتدائية والمتوسطة، ثم تعلم الإسبانية في الكلية. إنّ عرض مخزون اللغات هذا (كما أفعل الآن) قد يبدو لك تكراراً غير مبرر إلى أن تدرك أنه يعرف لغات من أربع عائلات لغوية.

ثم أضاف أنه يتحدث الكنادية.

سألته: "كيف تعلمتها؟".

أجاب: "حسناً، عشت في بنغالور".

"بلا دروس؟".

"لا، فقط التقطتها، والكثير من الهنود سوف يقولون لك ذلك". ثم صمت. حسناً، سوف تجد هذا كثيراً في لغات جنوب الهند، فالهنود من المناطق الشمالية يتجنبون قليلاً لغات الهند الجنوبية، ويتصورون دائماً أن اللغات الدرافيدية أصعب، بالإضافة إلى أن الناس في الشمال يميلون إلى الأحادية في اللغة الهندية.

في بنغالور، تناولت طعام العشاء مع (زينب باوا)؛ متعددة اللغات والباحثة في الدراسات الحضرية، والتي تتعلم اللغات - من أجل أبحاثها - من خلال التجول والعيش مع العائلات. قالت لي: "أفضل طريقة لتعلم اللغة هي الجلوس مع طفل في عمر الرابعة؛ لأنه لا يتحدث عن أمور معقدة، وليست لديه توقعات كبيرة عن كيفية قضاء وقتك معه، إنه يريد اللعب فقط". وأخبرتني أنها تعلمت الكشميرية والبنغالية بهذه الطريقة. ومن أجل تعلم الكنادية، ذهبت إلى اجتماعات رسمية، ومعها قائمة من الكلمات التي يدار بها الاجتماع، ثم سألت الأصدقاء إن كانت هذه الكلمات ذات أهمية. قالت: "إنك لا تلتقط اللغة بأسلوب تسلسلي"، وأضافت: "فقط التقطها".

في هذا المجتمع الذي يبدو أنه بُني على قاعدة مرونة الدماغ



Twitter: @ketab_n

اللغوية، أتساءل عمّا إذا كان الهنود لديهم الإمكانيات نفسها مع اللغات غير الهندية؟ زرت في حيدر أباد مركز "الأليانس فرانسيز" الذي تديره الحكومة الفرنسية، والذي يقدم دروساً بالفرنسية وبرامج ثقافية حول العالم. جلست في المكتب مع فريدريك داغك، وهو رجل فرنسي، يعمل مديراً لمكتب حيدر أباد. قال لي: "إن الهنود متحمسون بشكل مدهش لتعلم أساسيات اللغة الفرنسية، ولكنهم لا يستمرون إلى المراحل المتقدمة. يمكن أن يكون هناك ألف متعلم في بداية الدروس، ولكن يبقى فقط ثلاثون طالباً في المراحل المتقدمة. إنهم أسرع المبتدئين الذين رأيتهم في حياتي، ولكنهم يغادرون بعد الساعات المائة الأولى؛ لأنهم اكتسبوا القدر الذي يحتاجونه للعيش". أخبرني أنه كان في اليابان قبل أن يأتي إلى الهند، حيث كان الوضع بالعكس؛ القليل من اليابانيين بدوا الدروس الفرنسية، ولكنهم ارتبطوا بها إلى الأبد.

سألت ابن أخي (سيري) - وهو مستشار إداري وصحفي، وتعلم في بريطانيا - عمّا إذا كان يعتقد أن سكان الجنوب الهندي لديهم استعدادات وراثية لتعلم اللغات؟ فقال: "إنها ليست استعدادات وراثية، بقدر ما هي استعدادات اقتصادية. إذا كنت لا تتحدث لغات فلن تأكل. إنها هكذا بكل بساطة". بالقرب من منزله بائعٌ سمعه يتحدث ثماني لغات في خمس دقائق.

ما يمثل صعوبة هنا - وهذا ما أيّده قول الأمريكيين والأوروبيين الذين التقيناهم في البداية - كان تغير لكناتهم. في الهند، اللكنة القيمة هي اللكنة المحايدة التي لا تثير غضب المتصلين الأمريكان المتحدثين بالإنجليزية. قال لي جوشي إيبن مالك ومؤسس مدرسة بنغالور للغة الإنجليزية، والذي ينحدر من بنغالور: "لدى الهنود الكثير من مشاكل النطق. الكثير من الهنود لا يفهمون الهنود الآخرين إذا تكلموا بالإنجليزية، بسبب أن لكل منطقة لكنتها الخاصة بها".



Twitter: @ketab_n

أحد الأمثلة على هذا كلمة Zoo "حديقة الحيوانات"، لأن اللغة الهندية لا تحتوي على الحرف Z، فإن الكلمة تنطق "Soo" في الجنوب أو "Joo" في الشمال. هذا النوع من التغيير في الصوت يمكن أن يحرم الأشخاص من الحصول على الوظائف في صناعة خدمات الاتصالات الهاتفية المزدهرة في حيدر أباد وبنغالور. هاتان المدينتان الهائلتان مقرّان للشركات ذات التقنية العالية، والتي تمثل نموذجاً ناجحاً في "إدارة الأعمال بالاستعانة بالمصادر الخارجية".

تعتبر مدرسة إيبن واحدة من عشرات المدارس التي تعلم "المهارات الناعمة": بناء الفريق، والتفاوض، والنطق باللغة الإنجليزية. يدفع له الطلاب 6000 روبية (تقريباً 126 دولاراً) لمساعدتهم على تطويع لغاتهم مع اللكنة الإنجليزية، هو بنفسه لديه لكنة بريطانية مميزة، والتي شحذها أثناء عمله في الكويت ودبي. تستمر الدورة ثلاثة أشهر على مدى خمسة أيام في الأسبوع. قال إيبن: "إنّ مدرستي هي المكان الوحيد الذي يعلم الألفاظ، أما المدارس الأخرى فهي تدرس القواعد فقط". وقال أيضاً إنه يبدأ من الصفر، ويدربهم على أشباه الجمل الفعلية والعبارات الشائعة.

أثناء تجولنا في المدرسة، رأينا مجموعة من النساء جالسات أمام شاشات الحواسب وهنّ يتدرّبن على اللفظ، ثم بدأ الطلبة في الدخول إلى الفصل. كانت معظم النساء في العقد الثاني من العمر؛ منهن ممرضات من مستشفيات محلية يردن السفر إلى كندا أو إنجلترا أو أستراليا أو جنوب أفريقيا، وزوجات يرغبن في الالتحاق بسوق العمل. أغلب الشباب كانوا مهندسين، وأحدهم كان قسيساً كاثوليكيًّا. أصبحت المدرسة - الجزء المسيحي في المدينة - ترسل الناس عبر المحيطات. طالبٌ واحد منهم كان أحادي اللغة، والآخرون جميعاً قالوا إنهم يعرفون لغتين إلى خمس لغات.

حاولت أن أجذبهم إلى الحوار، ولكن وجدت فهم لغتهم



Twitter: @ketab_n

الإنجليزية أمراً صعباً. لم أتوقع منهم أن يتحدثوا مثل الأمريكان أو البريطانيين ولكن لغتهم لم تكن واضحة في سمعي. تحتاج التهيئة في اللفظ الهندي إلى أسابيع، وكان من الواضح أنها ستأخذ وقتاً أكثر في الإنجليزية.

الدافع وراء التحدث بالإنجليزية يعتبر عامًّا، ولكن التدرّب على الإنجليزية ذو ثقل سياسي؛ فإذا ذهبت إلى مدرسة للتعليم العام في الهند، فهناك ثلاثة أنواع من دروس اللغة: اللغة الأم، أو لغة المنطقة؛ وهي واحدة من اللغات الرسمية الأخرى في البلد، ولغة هندية أخرى حديثة أو لغة أجنبية[1]. هذا التنوع اللغوي جاء ضمن قائمة مناهج مثقلة بدروس بالرياضيات والعلوم.

كنت أبحث في مكتبة المعهد المركزي للغات الهندية في ميسور، حين وقعت عيناي على دراسة تعود إلى السبعينيات تبحث عن مشكلة الثقل اللغوي عند طلاب المدارس الابتدائية والعليا. من المثير أن 69 بالمائة من الطلبة قالوا في مسح إحصائي إنهم يفضلون تعلم ثلاث لغات أو أربع في المدرسة؛ وهي اللغات التي ستساعد على تعليمهم، وستعطيهم درجات عالية، ووظائف جيدة. 28 بالمائة منهم قالوا إنهم يريدون دراسة ثلاث لغات فقط، ولذا كانوا جميعاً متحمسين لتعلم اللغات، وقالوا أيضاً إن تعلمها لم يكن سهلاً. نحو نصف الأولاد والبنات قالوا إن الاختلاف في القواعد كان العائق الأساسي، حيث إن هناك نقصاً في فرص الممارسة. أراد 61 بالمائة من الآباء الذين أجري عليهم المسح مع أطفالهم أن يتعلم أطفالهم ثلاث لغات أو أربعاً، مرة أخرى، لأسباب عملية جدًّا، كالحصول على وظيفة أو السفر أو الحصول على تعليم

(1) في إحدى المدارس، إذا كانت اللغة في المنطقة هي التاميلية أو التيلجو أو الأوردية أو المارثية، فإن عليهم أن يتعلموا الكنادية مع السنسكريتة أو العربية أو الفارسية. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أعلى؛ فقد سيطرت عليهم النزعة الاقتصادية.

الأدمغة البشرية لا تتعامل مع اللغات، بل إنها تتعامل مع حزم من الإشارات الكهربائية المتباينة إلى حد ما، والتي لا يسمح لها بالتداخل في ما بينها. وهي تخبو أو تقوى على مدى العمر. عندما سألت هذا السؤال: "كيف يتعامل الدماغ مع العديد من الحزم؟" بدا الأمر وكأني أتعجب من جنوب الهند (أو العديد من متعددي اللغات) من خلال عدسة أحادية اللغة.

كتبت الباحثة بالإنثروبولوجيا ليزلي مور (التي قامت بدراسات ميدانية على القبائل في الكاميرون) في رسالة إلكترونية: "إذا كنت تؤلف كتاباً عن سكان الجبال في الكاميرون أو الشعب الهولندي، فقد تسأل أسئلة مختلفة، مثل: لماذا القليل من الأمريكان يتحدثون لغة ثانية؟".

أنا أعرف لماذا يتحدث القليل من الأمريكان أكثر من لغة؛ إنها الجغرافيا الشاسعة والحدود الممتدة، والاستيعاب الثقافي، ونظام التعليم الموحد، واللغة الأم التي أصبحت - على الأقل في وقتنا الحالي - اللغة العالمية. بالنسبة إلى الهولنديين أو شعب الكاميرون، إنّ أحادية اللغة الأمريكية قصة مملة، والذي يجدونه مغرياً هو شرح سبب معرفتهم ست لغات فقط، وليس عشراً أو اثنتي عشرة لغة؟!

الإجابة البسيطة هنا هي أن الأشخاص يرجعون إلى ثقافتهم وبيئتهم اللغوية، ويتحدّثون بالعديد من اللغات المنتشرة حولهم. ولكن، في الجزء من الكاميرون الذي تعرفه ليزلي مور وسكوت مكيتشرن، هناك ثلاثون لغة متحدث بها، ولا أحد منهم أورد حالة شخص يعرف كل اللغات الثلاثين؛ حتى باختلاف المستويات. مجموعات السكان في نظام الزواج للقاطنين بمحاذاة نهر فاوبيس تتحدث خمساً وعشرين لغة، ولا أحد يتحدثها كلّها.

لِمَ لا؟ إذا كان الشخص المعين في تلك المجتمعات قد تعلم بقدر



Twitter: @ketab_n

ما يحتاج إليه من لغات، فلِمَ يتوقف هذا التحفيز لاكتساب اللغة عن التوسع بالضبط عند انتهاء الحاجة؟ هذا يشبه القول إنّ جوعك سيتوقف بناءً على كمية الطعام في طبقك. الاستفادة لها حدود معينة، ولكنها مخصصة لتشير إلى أن التحفيز الفردي يقود إلى طلاقة لغوية عالية ومن ثم الادعاء بأن الدافع قد انتهى حِيث نفد المخزون اللغوي.

ربما يكون هناك حد اقتصادي، أو نوع من "اليد الخفية"، فيحسب الشخص الفائدة التي ستعود عليه من معرفة اللغة (تتضمن ما يكسبه من تعلمه مقابل ما سيخسره بسبب جهله بها). وباستخدام نظرية اللعبة، أشار الباحث في العلوم السياسية جوسب كولمر في إحدى المرات إلى العدد الأمثل للغات التي قد تستخدمها بهدف التحدث في أغلب علاقاتك مع عينات عشوائية من الأشخاص الذين يمكن أن يتحدثوا بعض اللغات الأخرى بنجاح. "التفاعل الناجح" يُعرف بأنه معرفتك بلغة الشخص الذي تلتقيه. (اللعبة لا تحسب القدرات الحقيقية المختلفة الموجودة في المجتمعات متعددة اللغات). بناء على هذه اللعبة (أحادية اللغة)، إن أحاديي اللغة ستكون لديهم تفاعلات فاشلة، خصوصاً إذا كانت مجتمعاتهم ذات لغات متعددة. جمع كولمر العدد الأمثل للغات للتحدث بها، فوجد أنه إذا كان مجتمع معين فيه عشر لغات، فالعدد الأمثل هو ثلاث لغات.

الشخص الذي يعيش في تلك البيئة ويتحدث ثلاث لغات سوف يتفاعل بنجاح بنسبة 89 بالمائة. السبب في أن العدد ثلاثة سيكون عدداً مثاليًّا أن الفائدة من تعلم اللغة الثالثة أكثر بكثير لدى ثنائيي اللغة في هذا المجتمع ذي اللغات العشر مقارنة مع فائدة تعلم أربع لغات عند ثلاثيي اللغات.

ومع ذلك، فإن العديد من الناس - كما رأيتهم في جنوب الهند - يتعلمون أكثر من ثلاث لغات.



Twitter: @ketab_n

الإجابة الأكثر وضوحاً ممكنة إذا كنتَ تسأل عن حجم الارتباط باللغات في دماغك. ما هو الحجم المعرفي الأمثل في هذه المجموعة اللغوية؟ ما حجم الكمية التي يستخدمها الشخص ليصبح متعدد الكفاءات؟ ولأن علينا أن نستخدم أدمغتنا في أشياء أخرى، فإن المجموعة اللغوية لا يمكن أن تكون كبيرة جدًّا. وكنتيجة لذلك، إننا نوازن الفوائد الاجتماعية من معرفة اللغات مع الثمن في جعلها مصنفة في عقولنا. يمكن للشخص أن يتخيل المزايا التطورية التي يحصل عليها الأشخاص الأكثر كفاءة (زملاء مميزون، فوائد اقتصادية أكثر، وربما قوة اجتماعية أكبر). وبالطبع تتفاوت قدرات الأشخاص حتى في لغة أو اثنتين؛ فبعض الأطفال يتحدثون في وقت مبكر عن الآخرين، وبعض البالغين يتحدثون أكثر وأسرع، وآخرون يتحدثون أقل ويستخدمون مفردات أقل ومفردات متشابهة. حتى في تجربة الاختلافات التعليمية، إنهم يختلفون في القدرات اللغوية، ومع ذلك فجميعهم يُحسبون كمتحدثين أصليين للغة.

كميات كبيرة جداً من الحبر أريقت لتوبيخ مستخدمي هذه اللغة أو تلك لسوء استخدامهم للقواعد أو للدفاع عن الاستخدام الأمثل للغة. هذه حقيقة، في الإنجليزية (كتاب عناصر الأسلوب "1918" للمؤلف وليام ستنك، والكتاب الأحدث "يأكل، يُطلق النار، يرحل" (2003) للمؤلفة لين تروس، من النماذج الأولى التي ترد إلى الذهن)[1]. وبالهولندية (Schijfwijzer أو "دليل الكتابة" للمؤلف يان رنكما). وفي الروسية، والتشيكية، والبولندية، والعبرية. يُوبّخ اليافعون من قبل البالغين اليابانيين لعدم معرفتهم الحديث المناسب في المناسبات الرسمية، ويتجادل الناس في ما بينهم في بر الصين الرئيس عن اللفظ الصحيح. كل ما سبق والعديد أكثر، ومن ضمنها جهود الأكاديمية الفرنسية، والأكاديمية

(1) الكتب مختصة بتصحيح الأخطاء الإملائية الشائعة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

الإسبانية، والأكاديمية السويدية تحاول التوفيق بين عدة طرق لتكون متحدثاً أصليًّا للغة. وليس الأمر مقتصراً على لغة واحدة فقط في الخيمة الكبيرة، ولكنها كلها مفتوحة على مصاريعها والزوار يدخلون ويخرجون.

ثم لديك أماكن مثل سنغافورة، فيها أربع لغات رسمية، وعدد كبير من الهويات الطبقية والتاريخية، والكثير من تعددية اللغات. كلها مختلفة، بسبب أن الجماعات الثقافية المختلفة تتحدث الإنجليزية على مستويات مختلفة. والمعايير المتنوعة توجد هنا في كيفية دمج لغتين. كيف؟ وبأي معيار اجتماعي يستطيع الدماغ البشري التعامل مع جميع هذه الاختلافات؟

في جنوب الهند، تكمن الإجابة عن هذين السؤالين بالحركات الاجتماعية التي تنظم بوضوح الخطوط المعرفية. إحدى الطرق التي تجعل الأدمغة الهندية قادرة على إدارة العديد من اللغات وفقاً للغوي من جامعة شيكاغو والباحث في اللغة التاميلية (أي. إينميلي) هي الشبراخبوند، هذا التداخل بين اللغات نتيجة محاولة الأجيال لتقليل الثقل المعرفي، وبالتالي يجعلها تتعلم وتتذكر العديد منها. طريقة أخرى للشبراخبوند هي في التكيف الثقافي لاثنين من القيود الثابتة: مجموعة المفردات اللفظية التي لا تطمس حدودها لأسباب ثقافية وسياسية، وحدود الدماغ البشري. تحتاج أن تعطي شيئاً ما، الذي تعطيه هو التعقيد اللغوي بحد ذاته.

قال إينميلي إن التكيف يحتاج إلى وضع "قواعد موحدة" لجميع اللغات. قال: "رغم أن أصواتها مختلفة وتستخدم مفردات مختلفة، إلا أن القواعد تقريباً تتشابه؛ ولذا عند تعلم لغة درافيدية جديدة، فإنك تبدل كلمات جديدة من القوالب نفسها التي تتشارك بها بعض اللغات. وإذا شبهنا الأمر بالراديو، فإنه مثل التقاط القناة نفسها على تردد مختلف. وفي هذا المعنى، الدماغ ليس حاوية، بل إنه جهاز استقبال يسمح لك "بالتقاط اللغة"".



Twitter: @ketab_n

هنـاك طريقة أخـرى يسـتخدمها الهنود للتعامـل مع التنـوع اللغوي، أكـد إينميلي ذلـك من خـلال الحكـم على القـدرة اللغويـة التي يسـتطيع النـاس القيام بها باللغـة، وليس مـن قبيل المعاييـر المؤسسـاتية التي تقدم نظرة "كل شـيء أو لا شـيء" لمـا تعنيـه جملة "أن تعـرف اللغـة". يمكن أن تكون الطلاقة فـي اللغات المتعـددة الهندية أقل بالمعاييـر التي تضعها المدرسـة أو الشـركة، ولكن إذا حكم عليهـا (حكماً محايداً) بما يسـتطيع الشخص الحصول عليه منها وكيف يفهمه الآخرون، فسيكون أداؤه جيداً. مثل هذا الـكلام محل تجاهُـل دائماً؛ إنه "مطبخ هندي"، و"سـوق شـعبية للتيلجو". ولكن هذه مقارنة بين التفاح أحادي اللغة والبرتقال ثنائي اللغة. في الحقيقـة، كتب فرانسـوا غراسـجين الباحث البـارز في ثنائيـة اللغات: "الناطقون بلغتين يعرفون لغاتهم بالقدر الذي يحتاجون إليه".

لا أريد أن أقلل من شـأن الغنـى الثقافي لهـذه المجتمعـات أو حياة الأشـخاص، ولكن عندما تعرف الحقائق اللغوية، فإنها تساعد على وضع الادعاءات عن تعددية اللغات في المشهد؛ وهذا شيء ما لا تملكه أحادية اللغة بطريقة ما. وإذا كانت تعتبر تثبيطاً للحماسة في إحصاء اللغات، فإنها تسـاعد في البحث عن مقاييس أخرى لمجموع كفاءات الشخص اللغوية. أنا لم أتعمد أن أجعل الأشـخاص الذين ألتقيهم، أو الحـالات التي رأيتها أو قرأت عنها تعبر عن جميع المجتمعات متعددة اللغات، حيث إن آليات اللغات في الأماكـن الأخرى سـتكون مختلفـة بالتأكيد. ذهبـت إلى الهند لأتعلم شيئاً ما عن متعددي اللغات المفرطين، وقد حصل ذلك.

في ظهيـرة أحد الأيـام في مكتبـة المعهـد المركزي للغـات الهندية، وسـط قراءتي لأعمال علماء هنود متنوعين عن تعدديـة اللغات، كتبت في دفتـر ملاحظاتي: "إن متعـددي اللغـات المفرطين هم متنوعـو اللغات في الغرب في ظل وجود التدفق اللغوي هناك". هناك حقيقة لهذا الأمر، ولذا لا أستطيع هز هذا المفهوم بقولي إنهم يقومون بشـيء مختلف من تعددية



Twitter: @ketab_n

اللغة الهندية التي لاحظتها على أرض الواقع.

أحد الاختلافات أن الأشخاص الذين يعيشون في المجتمعات متعددة اللغات يعتادون الثقل المعرفي الأمثل. يملك متعددو اللغات المفرطون المجموعة نفسها من الطلاقة في اللغات، ومع ذلك فقد يتجاوزون الحد الأمثل من خلال استهلاك واضح للطاقة العقلية.

اختلاف آخر هو: كيف يربط تعلم تلك اللغات الشخص بمجتمعه؟ بالنسبة لمتعددي اللغات، إن تعلم اللغات نشاط يربطهم بالمجتمع. ليس هناك من تحفيز، ولا "إرادة مرونة" منفصلة، وهذا واضح في ما يعنيه أن تكون جزءاً من المجتمع؛ فممارسة تعددية اللغات المفرطة في العديد من اللغات يمكن أن تكون جسراً إلى العالم وتخرج الشخص من لغة المجتمع الحالية.

بعد أخذي بنصيحة ديك هدسون، بدأت مشروعي بتحديد متعددي اللغات المفرطين كأشخاص يعرفون لغات أكثر مما يحتاجون إليه، وأنهم مجرد "منتمين" أو يعيشون في مجتمعاتهم المحلية. قد أذهب إلى أبعد من هذا، على كل حال، وأقول إن "متعددي اللغات المفرطين" هم الأشخاص الذين لديهم كفاءات متعددة للانتماء إلى مجتمع عالمي حقيقي أو مجازي. ومن أجل تعلم لغات أكثر، فقد استعاروا أساليب وتبنوا وسائل ليخففوا الثقل المعرفي عن الأشخاص المقيمين في البيئة متعددة اللغات: وضعوا لغاتهم على مستويات مختلفة من الطلاقة؛ فكانوا يقرأون ويكتبون ببعض هذه اللغات، ويطورون معرفتهم في استقبال بعض اللغات، ويميلون إلى معرفة اللغات الأخرى التي تتشارك المفردات والقواعد المعتادة. في بعض الأوقات، كانوا يعدون اللغات التي درسوها منذ فترة طويلة ولكنهم لم يستخدموها (أو استخدموها نادراً)".

عندما وصفت متعددي اللغات المفرطين قطّب بعض الأشخاص أجبنتهم؛ فلديهم اقتناع بأن متعددي اللغات المفرطين يقومون بأعمال



Twitter: @ketab_n

سحرية! قال أحدهم: "إنهم لا يتواصلون اجتماعيًّا رغم أن الهدف الأساسي من اللغة هو التواصل، أليس كذلك؟". وبقدر ما يكونون محترمين، يُنظر إليهم كمنعزلين اجتماعيًّا، ومجردين من ثقافتهم. ولكن متعددي اللغات المفرطين الذين قابلتهم ليسوا خجولين أو منعزلين بسبب هذا الأمر أكثر من أولئك الأشخاص الموهوبين المهووسين، وأي شخص خجول آخر. غير صحيح أنهم لا يتواصلون اجتماعيًّا؛ ففي الحقيقة هم يقومون بهذا وبطريقة واحدة، وذلك لأن جميع متعددي اللغات المفرطين يمررون المعنى المرة تلو الأخرى؛ مثل الشخص الذي يرمي الكرة فوق شبكة التنس. أتذكر أن ميزوفانتي كان يعرف أساليب البدء في الحوار؛ على الأقل في لغة واحدة - ألغونكونية - وربما في لغات أخرى كذلك، أو كريستوفر الذي لديه صعوبات مع ترتيب الكلمات التي تختلف عن الإنجليزية. أو القصة المتحفظة عن زياد فصاح الذي لم يجب عن أسئلة في اللغات التي قال إنه يعرفها بسبب أنه لم يكن يتوقع مثل هذه الأسئلة أو تلك اللغات. حتى أيفن أرغيليس الذي يقرأ التاميلية في محل البقالة، كان التواصل الذي يقوم به نتيجة محتومة، مثل معايشة النص. فالتفاعل بين المتحدثين يمكن أن ينكشف بسلاسة بالطريقة نفسها التي ركب فيها.

تشمل اللغة، على كل حال، أكثر من الاتصال الذي نقوم به في بعض الأوقات؛ فإذا كانت اللغة تتطور بمفردها نتيجة الاتصال، فقد يكون من النادر أن نفهم بعضنا. في المقابل، لدينا نظام المفردات التي تعني أكثر من شيء واحد، وهذا الأمر يتيح للشخص تركيب العديد من الجمل للتعبير عن الفكرة نفسها؛ والتي قد تعبر فيها لحظة الصمت الواحدة أكثر من آلاف الصور. لا تستطيع الكائنات الحية العيش في هذا الغموض الشديد. والأكثر من ذلك، لا يُقدِّر الناس كيف أن المعاني قليلة في مفرداتنا، حتى عندما نفك شيفرة إيماءات اليد، وتعبيرات الوجه،



Twitter: @ketab_n

ووضعية الجسم بشكل تلقائي كل يوم. الذي نعنيه هو التضمين في كلامنا والاستدلال من مستمعينا؛ أي المعنى خارج المفردات وأبعد منها، وهذه القدرات ليست لدى الأشخاص الذين التقيتهم حتى الآن.

أيضاً، إذا كنتَ من متعددي اللغات المفرطين فإنك تعيش خارج تطور اللغة. فاللغة تتغير بسبب الأشخاص الجدد الذين يتعلمونها (في الأساس الأطفال) ويعدلونها بما يناسبهم. متعدد اللغات المفرط الذي يتلقى المستقبَلات في أي لغة يعرفها لا يقوم بالنشاط بالطريقة نفسها التي يقوم بها الطفل ذو السنوات الأربع في حيدر أباد عندما يتعلم الهندية بشكل جيد. أن تصبح متعدد لغات مفرطاً يعني أيضاً أنك مناسب لها. إنك تحفظ النكات والألفاظ الحميمية في القليل من اللغات فقط، ولا تقصد أن تكون قادراً على الاستمتاع بها جميعاً في لغاتك الأصلية. وإذا كنت خارج المجتمعات التي تشكل لغات محددة فليكن. بسبب هذه النقطة، "أن تكون دخيلاً محترفاً، يعني أنك لا تظهر على أي خريطة جغرافية".

بالنسبة لأشخاص مثل هؤلاء، اللغة "الأصلية" ببساطة معيار خاطئ لاستخدام المعنى في ما يحاولون فعله. هم بوضوح متحدثون غير أصليين للغة. في استبيان وضعته، قال الأشخاص إنهم يركزون على البقاء واضحين (إذا كانوا يتحدثون). عد اللغات "الشبيهة بالأصلية" مقياس مختصر في اكتساب اللغة، ذو صلة بالعالم الذي لم يعبر فيه الناس؛ والذي كان في ذلك الوقت ذا حدود وفواصل واضحة بين المجتمعات المتحدثة. وليس هو نفسه العالم الذي نعيش فيه الآن، وربما لن يكون العالم سنعيش فيه غداً.

ما البديل لمعيار "اللغة الأصلية" كهدف للطلاقة اللغوية؟ أشرت إلى أننا نحتاج إلى شيء ما يقوم على الدماغ؛ شيء ما يزن كفاءة الشخص في كل تلك اللغات، غير متساو إلى الآن مع مثل هذه الآلية التي تكوِّن



Twitter: @ketab_n

هذه المجموعة من الأشياء.

بدأت بحثي عن متعددي اللغات المفرطين مع إدراكي عدم أهمية ما قد أجده. إن المعرفة الحقيقية عن عباقرة اللغة يمكن أن تخفف القلق الذي يعتري بعض الأشخاص عندما يشرعون في تعلم اللغة. في الحقيقة، أؤكد أننا نحترم بشدة مثل هؤلاء الأشخاص ويخامرنا تجاههم شعور مختلط من الحسد، والرهبة، والمتعة. نحاول أن نتنبأ بما يحمله لنا المستقبل اللغوي، وما هي أفضل التحضيرات لنزود بها أطفالنا. تعلمت الكثير عن نفسي أيضاً. إنني أشتاق للغات التي كنت أود تعلمها عندما كان دماغي أكثر مرونة، ورغبتي في كشف الأسرار الغوية الغامضة ربما تتجاوز قدراتي على التعامل معها.

في النهاية، سأكون قد التقيت عدداً من متعددي اللغات المفرطين - ربما أكثر من أي شخص آخر ممن بحثوا الأمر قبلي - وأجريت دراسات عن آخرين. وعرفت الآن عن المبتهج ميزوفانتي، والمتذمر كربس، والمشاكسة لومب، والمنغمس ألكسندر، والسعيدة هيلين، والخجول هيل، وغيرهم. وكوَّنت صورة عن الميزات التي تتجمع وتصنع متعدد اللغات. في هذه اللغات المتجمعة، هم اتبعوا اهتماماتهم واحتياجاتهم، ورفضوا الانصياع للتطور المنطقي أو التحفظ الاجتماعي. استعداداتهم - ونجاحهم - تجعلهم نماذج من إرادة المرونة التي تتغلغل في عصرنا.

لا يزال من غير الواضح ما تقوله قصة الجهاز العصبي عنهم؟ تشير فرضيات جيسكويند غالابوردا بقوة إلى بيئة محددة يمكن أن تنتج الدماغ اللغوي عالي المواهب اللفظية والذي سوف يترافق مع النقص في المهارة البصرية المكانية، بالإضافة إلى الميزات الأخرى. الأشخاص الذين التقيتهم ينطبق عليهم هذا. أي نتائج حقيقية تتطلب دراسات أكثر.

شاهدت وتأكدت أن إميل كربس لديه دماغ غير عادي. هذا يثير أسئلة أكثر على كل حال؛ هل كان دماغه مدهشاً حتى قبل مواجهته



Twitter: @ketab_n

اللغة الفرنسية؟ هل كان من أدمغة متعددي اللغات المفرطين الآخرين؟ دراسة الصور الدماغية لهذه الفئة بهدف تأكيد الاختلاف في بناء ووظائف الدماغ، تنتظر الرواد. فحتى كتابة هذه السطور، المشروع مع زايلس وأمانتينس لم يقف على قدميه بعد، وتهكم فرانكو باستي ما زال صداه يتردد في رأسي. قد أكون متفائلاً ولكني لست خياليًّا.

كيف أشرح هذا السؤال: لماذا متعددو اللغات المفرطون لا ينجبون متعددي لغات مفرطين؟ وهذا يقود إلى السؤال التالي: "هل الأشخاص ذوو الذاكرة الاستثنائية، خصوصاً في المواد اللفظية، مغرمون بكمية اللغة إلى حد أكبر من الحالات الفردية العشوائية؟ هل هناك ظاهرة واسعة النطاق تستحق البحث؟ إذا كانت كذلك، فما هي؟

في أحد الأيام، عندما كنت أكتب هذا الكتاب، أعدت قراءة مقدمة لورينا أوبلر في كتاب "العقول الاستثنائية". أشارت لورينا إلى أن الموهبة لا تكون ببساطة نتاج الجينات؛ إذا كانت الأنشطة التي تجعل الشخص "موهوباً" تحدد من قبل الثقافة. إذ إنّ موهبة برمجة الحاسب لم تكن معروفة قبل الحاسب. مما لا شك فيه، أن الميل الهوسي موجود قبل الحاسب. المهارات موجودة في البشر جميعاً، ولكنها تنتظر التطور الثقافي ليعطيها مرحلة الازدهار. من يستطيع أن يحدد عدد المواهب التي يتمتع بها الجنس البشري؟

متعلمو اللغة الاستثنائيون يبدون لي مثل الموهوبين، عندما تكون مواد اللغة متاحة بشكل عام، والسفر رخيصاً، ودخول الاتصالات سهلاً، وعندما تختفي الحدود بين الدول.

تاريخ الثقافة يعنى عملية الكشف عن موهوبين محددين أثناء دفن آخرين، مع إبعاد السياق الذي يعطي قيمة لقدرات محددة. ماذا لو كانوا قبيلة عصبية؟ مجموعة أشخاص يملكون جهازاً عصبيًّا مناسباً بشكل استثنائي لأنشطة محددة، ولديهم الإحساس بالمهمة للاضطلاع بالنشاط،



Twitter: @ketab_n

وبتعزيز هويتهم الشخصية كشخص واحد يقوم بهذا النشاط. قدرتهم العقلية قد تسبق حضارتنا وتقف خارجها، ولذا قد توضح نفسها بناءً على التعديل الاجتماعي والثقافي مع الوقت.

وبناءً على ما قرأته، تبينت أن متعددي اللغات المفرطين لا ينتمون إلى دولة، بل إنهم يعملون خارج مؤسسات أبعد حتى من مجتمعاتهم، إنهم قبيلة عصبية.



Twitter: @ketab_n

# الفصل السادس عشر

إذا كنت قد أجريت اختبارات القياس - لترى إن كان عليك أن تكون طبيباً أو مدرساً أو عامل أنابيب - ثم واجهت أساسيات مفهوم القبيلة العصبية؛ فإنك أيضاً ستواجهها في تاريخ علم النفس الطويل الهادف إلى تحديد الاختلاف في الدماغ: اختبارات معدل الذكاء، "الذكاءات المتعددة"، الأساليب المعرفية؛ وهي لا تتنوع بين القوة والضعف بين البشر، ولكن التطور العصبي يسلك أكثر من طريقة.

ستكون قد عرفت أيضاً مفهوم القبلية العصبية إذا كنتَ قد سمعتَ عن "التنوع العصبي"، المصطلح الذي صاغته جودي سنغر، الأسترالية المعوّقة الناشطة، وقد استخدم أول مرة مكتوباً من قِبل هارفي فاليم، الكاتب الأمريكي. منذ وقت مبكر، كان المفهوم يُنسب بالأساس إلى الأشخاص الذين يعانون اضطراب طيف التوحد. ولاحقاً أصبح يشمل مجموعات الأشخاص الذين يعانون اضطراب طيف التوحد والذين يبنون هويات وحتى مجتمعات تتسم بالمثالية العصبية أيضاً. وبتعريف أدق، إن نطاق "التنوع العصبي" قد اتسع في العام 2010، كما وصفه توماس أرمسترونغ في كتابه "التنوع العصبي" ليشمل الأشخاص المصابين بالتوحد، وفرط الحركة، وتشتت الانتباه، وصعوبة القراءة، واضطراب المزاج، والإعاقة العقلية، والفصام. وأكد أرمسترونغ أيضاً على الإطار الاجتماعي الذي يُستخدم لتعريف هذه الحالات كإعاقة أو موهبة. البشر ذوو الجهاز العصبي السليم سيزدهرون تقريباً في أي ثقافة أو أي وقت،


Twitter: @ketab_n

وغير السليمين عصبيًّا منهم يتطلبون سياقات محددة؛ وبطريقة أخرى إما أن يُهمشوا أو يُستثمروا. هذه الأيام، العالم ممزق بين متعددي اللغات المفرطين.

الآن، قبيلة متعددي اللغات المفرطين ضاعت طويلاً بسبب النظر إلى فكرة وجود هؤلاء الأشخاص التي تطفو على السطح من وقت إلى آخر. لاحظت الباحثة العلمية مادلين ايرمان - وهي حالياً متقاعدة من مدرسة تعليم اللغة في معهد الخدمات الأجنبية - أنه رغم كثرة عدد متعلمي اللغة المتميزين الحاصلين على 4 (من 5) في اختبارات الطلاقة في معهد الخدمات الأجنبية في القراءة، والتحدث، أو كليهما - ومنهم من وصل إلى المستوى الرابع - إلا أنه من الصعوبة بمكان الحصول على معدل عالٍ (فقط واحد في المائة من الأشخاص الذين خاضوا الاختبار حصلوا على درجة عالية مثل المتحدثين الأصليين للغة).

ووجدت مادلين أن بينهم قاسماً مشتركاً؛ فهم يميلون إلى المعنى الموجه أو متابعة الأنماط، وغالبيتهم مفكرون انطوائيون مبادرون. وباستخدام وصف مؤشر مايرز بريغز لأنماط الشخصية[1] فإن أغلبهم يتصفون بـ INTJs (الانطواء - المبادرة - التفكير - الحكمة)؛ هذا يعني أنهم أشخاص تحليليون بدرجة عالية ومنطوون ومبادرون ومنطقيون ويتسمون بالدقة ويميلون إلى التفكير المنطقي.

(1) مؤشر مايرز بريغز لأنماط الشخصية: استبيان صمم لقياس التفصيلات النفسية، وكيف يدرك الناس العالم ويتخذون القرارات. ظهر للمرة الأولى في كتاب "أنماط الشخصية" عام 1921. وتم استقراء هذه التفصيلات من النظريات التي قدمها كارل غوستاف يونغ. حيث تقول نظرية يونغ إن هناك أربع وظائف نفسية رئيسة ندركها: الإحساس، والحدس، والشعور، والتفكير. واحدة من هذه الوظائف الأربع المهيمنة تكون سائدة معظم الوقت. ويعتبر نمط الشخصية INTJs من أندر الأنواع في العالم، ويتصف به حوالى 4-1 % من سكان العالم. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

وجدت مادلين أيضاً ميزة أخرى أطلقت عليها هي وزميلها اسم "المتعلمون الشاملون"، وهم الذين يستدعون المعلومات بشكل غير شعوري، "ويثقون بشعورهم الداخلي". يمكن للمتعلمين الشاملين أن يصلوا بسرعة إلى المستوى المتوسط؛ لأن إحساس المبادرة لديهم يحفز المرونة والاكتشاف. في الجانب السلبي، هم يميلون إلى الاستقرار عند مرحلة معينة. وفي النهاية، ربما يتفوق عليهم الأشخاص الذين يتعلمون بتحكم شعوري والذين أطلق عليهم اسم "الوسطاء الروحانيون".

الأكثر تكراراً بين المتعلمين البالغين من ذوي المستوى العالي جدًّا في الطلاقة اللغوية هم أولئك الذين سمَّتهم مادلين "المتعلمون ذوو النظرة الشاملة الحادة"، الذين يندمجون في أفضل تكامل - مرن ومفتوح - مع أسلوب في الانتباه، والذي يعرف بالأسلوب الحاد؛ عندما يكون الانتباه عن قرب في الاختلافات الدقيقة بين الأصوات، والمفردات، والمعاني. ليس كافياً بالنسبة لهم أن يصفوا شيئاً ما بأنه "أخضر"؛ الصفة الواضحة تحدده لهم بدقة على أنه: "لون زيتوني يشوبه اللون الرمادي". ولاحظوا (وهذا هو مفتاح المهارة التي يقترحها كلٌّ من إريك ولومب كيتو) أن النظرة الشاملة مفيدة للاستراتيجيات التي تجعلهم - عندما يستخدمون اللغة في الحقيقة، وفي الوقت نفسه - يلاحظون التفاصيل اللغوية في هذه العوالم.

سواء أسميت هذه السمات أسلوباً معرفيًّا أو شخصيًّا، فإن هناك عناصر لكل منها تولد معنا، وقد نمررها إلى ذريتنا.

قدم استبياني نظرة موجزة عن هذه القبيلة العصبية؛ حيث يقول أغلب متعددي اللغات المفرطين إن تعلم اللغات أسهل بالنسبة لهم من الآخرين. وسوف يقولون أيضاً إن هذا بسبب أنهم يملكون موهبة فطرية. إنهم لا يملكون درجة عالية في اختبارات قياس الذكاء وليسوا متوحدين عباقرة. وإذا كانوا يبدون منعزلين، فليس السبب في ذلك أنهم معاقون



Twitter: @ketab_n

اجتماعيًّا. وجدت بعضهم أكثر الأشخاص الخجولين الذين التقيتهم ثرثرةً. بعض متعددي اللغات من النساء، ولكن الغالبية من الرجال. الأشخاص الذين أجابوا على استبياني والذين يدعون أنهم يتحدثون ست لغات وأن تعلمهم للغات سهلٌ، 75 بالمائة منهم كانوا رجالاً. تجدر الإشارة إلى أن فرضيات جيسكويند غالابوردا لا تتنبأ بأن المائة بالمائة سوف يكونون رجالاً، ما دام هرمون الرجال الذي يؤثر على تطور الدماغ موجوداً في البيولوجيا الأنثوية أيضاً.

البعض فقط يقرأون لغاتهم، والآخرون يهدفون إلى تطوير مهاراتهم الشفهية. كل شخص من متعددي اللغات المفرطين لديه تنوع في استخدام اللغة. ولذا، فالنسبة العظمى منهم متعلمون ذاتيًّا، وآخرون يشعرون بالسعادة عندما يتعلمون مع معلمين وطلاب آخرين، كما أن أساليبهم تختلف كثيراً. (انظر إلى الملحق، عن الوسائل التي استخدمها الأشخاص الذين قالوا إنهم يتحدثون إحدى عشرة لغة أو أكثر). مخزون اللغة في حياتهم يمكن أن يكون كبيراً. لذا، إن الحد الأعلى في الطلاقة الشفهية وقابلية التزامن في اللغة يتراوح ما بين خمس إلى تسع لغات. واللغات الكامنة الأخرى يمكن أن "تَستَعِدّ" أو "تنشط". وكما وصفت، إنّ الحصول على مخزون فعال يحتوي على كلٍّ من اللغات "النشطة" و"المتدفقة" ميزة شبه شاملة في هذه القبيلة.

إنهم أيضاً نادرون، حتى بين نسبة متعلمي اللغة المحترفين ذوي الدوافع العالية. إدغار دونوفان ضابط سلاح الجو الأمريكي والمتخرج من معهد الدفاع في اللغة الفارسية، والذي تعلم العديد من اللغات، أرسل لي درجاته في الاختبارات الرسمية في مستوى الطلاقة في الاستماع والقراءة في خمس عشرة لغة. وهذه الاختبارات تقاس في معهد الدفاع للغة، وتدرجت القدرات اللغوية في مقياس من 0 إلى 5 (الدرجة العليا 5، تعني أنك "متساوٍ وظيفيًّا" مع المتعلم ذي اللغة



Twitter: @ketab_n

الأصلية في القراءة والاستماع).

يفترض أن معهد الدفاع للغات مدرسة جادة جدًّا، يرتادها أشخاص طموحون؛ عليك أن تتوقع أن العديد من المتخرجين لديهم لغات متنوعة. ومع ذلك، إن 402 فقط من ألف شخص حضروا إلى المعهد حصلوا على درجة 2 أو أعلى في كلٍّ من الاستماع والقراءة في ثلاث لغات على الأقل. وحيث إن هناك ثلاثة وخمسين شخصاً حصلوا على الطلاقة اللغوية في أربع لغات؛ فقد كان دونوفان واحداً من عشرين شخصاً حصلوا على الطلاقة اللغوية في خمس لغات. فقط عشرون من الألف. (حقيقة، ربما يكون هناك أشخاص آخرون لم يكترثوا بأداء الاختبار، ولكن عندما وجدوا ما يثبت أن هذه النتائج تترتب عليها رواتب أعلى ووظائف أفضل، فإن عدد الأشخاص الذين لم يكترثوا قليل جدًّا).

حصل الاستبيان الذي صممته على شبكة الإنترنت على معلومات من مجموعتين متداخلتين؛ أولئك الذين قالوا إنهم يعرفون ست لغات أو أكثر، وأولئك الذين قالوا إن تعلم اللغة الأجنبية أسهل بالنسبة لهم من الآخرين. كانوا مجموعتين بسبب أن الموهبة في التعلم ليست دائماً عسيرة على الإدراك، ولأنه ليس كل شخص متعدد اللغات يجد تعلمها سهلاً، والصورة الأكثر وضوحاً تظهر إذا عزلت الإمكانيات عن المنجزات الحقيقية.

المستند رقم 1 يلخص بعض الحقائق عن هاتين المجموعتين. كلهم تقريباً رجال بين عمر الخامسة والعشرين والأربعين. ليس من الضروري أن يكون متحدثو الإنجليزية من متعددي اللغات المفرطين، ولذا نشأ أغلبهم مع لغة واحدة فقط، وليس من الضرورة أيضاً أن تكون كل المواهب أو الإنجازات مرتبطة بمقياس معدل الذكاء (يحتمل أن ينتج الانحراف العالي من حقيقة أن معدل اختبار الذكاء جاء من تقرير ذاتي للشخص).



Twitter: @ketab_n

**المستند رقم 1**

**العدد الكلي للمشاركين 390**

| | الفئة رقم 1<br>عدد الأشخاص الذين قالوا:<br>"أعرف أكثر من 6 لغات" من المجموع الكلي 172 | الفئة رقم 2<br>عدد الأشخاص الذين قالوا:<br>"أتعلم اللغة بسهولة أكثر" من المجموع الكلي 289 |
|---|---|---|
| الجنس | 69.2% ذكور | 65.6% ذكور. |
| العمر | 44.8% بعمر 25 إلى 40. | 41.7% بعمر 25 إلى 40. |
| اللغة الأم | 43 قالوا إن لديهم أكثر من لغة أصلية، و84 لديهم الإنجليزية كلغة أصلية وحيدة. | 53 قالوا إن لديهم أكثر من لغة أصلية، و162 لديهم الإنجليزية كلغة أصلية وحيدة. |
| معدل الذكاء | 45.7% قالوا إن معدل الذكاء لديهم أكثر من 140، و42% قالوا إن معدل الذكاء لديهم 120-140. | 35.3% قالوا إن معدل الذكاء لديهم أكثر من 140، و50.4% قالوا إن معدل الذكاء لديهم 120-140. |
| الأصل | شخص واحد من كلٍّ من: جنوب أفريقيا والصين وأستراليا، وشخصان من الهند، و167 شخصاً من أوروبا والولايات المتحدة وكندا أو أمريكا الجنوبية. | شخص واحد من كلٍّ من: فيتنام وباكستان وسنغافورة والصين والهند، وشخصان من الفلبين، وثلاثة أشخاص من جنوب أفريقيا، و279 شخصاً من أوروبا والولايات المتحدة وكندا أو أمريكا الجنوبية. |

كنت قادراً أيضاً على جمع معلومات عن عدد اللغات التي يعرفها الأشخاص. المستند رقم 1 يعرض توزيع مجموع اللغات بين الأشخاص المشاركين في الاستبيان. سألتهم: "كم عدد اللغات التي تقول إنك تعرفها" (تحدثاً وكتابة)؟".

يوضح المستند رقم 1 أن الأشخاص الذين يعرفون أكثر من ست لغات نادرون، ولكن ليس بندرة من ادعوا أنهم يعرفون إحدى عشرة لغة أو أكثر؛ الذين يعرضون الحقيقة الحالية القصوى في تعلم البشر للغات. شخصان فقط لديهما أكثر من اثنتي عشرة لغة (باستخدام تعريفهما "أعرف" اللغة). هذه النتائج تضع التقارير عن حجم لغات ميزوفانتي



Twitter: @ketab_n

بين متعددي اللغات المفرطين المعاصرين في المشهد. في كامل المنحنى، من خلال التقارير الذاتية عن عامل الموهبة ساهمت بوضوح أكبر في تجميع اللغات من عامل النشأة على ثنائية اللغة. على كل حال، إن الأشخاص السبعة عشر الذين قالوا إنهم يعرفون إحدى عشرة لغة أو أكثر؛ ستة منهم نشأوا مع لغة أم واحدة. ولذا، يمكن القول إنّ ثنائية اللغة المبكرة تقوم بمساهمة أكبر في مجموع اللغات من كامل المشاركين.

هذه بعض الحقائق عن مجمعي اللغات المعاصرين (المزيد من الحقائق والمعلومات على موقع www.babelnomore.com). بالنسبة لهؤلاء الأشخاص السبعة عشر، 82 بالمائة منهم كانوا ذكوراً. وكان الذكور الخمسة في المملكة المتحدة، وهناك أربعة في الولايات المتحدة، واثنان في كندا (واحد من إقليم كيبيك) وألماني، وواحد في كلٍّ من الهند والدنمارك وهولندا ولاتفيا. ومن غير المهاجرين عمليًّا، قال 62.5 بالمائة منهم إنهم يعيشون في المكان نفسه الذي نشأوا فيه. اثنا عشر منهم كانت اللغة الإنجليزية هي اللغة الأم الوحيدة لهم، وأحد عشر منهم قالوا إن الإنجليزية هي اللغة التي يستخدمونها حالياً. وقالوا إنّ لغاتهم مشتقة من معدل تسع عائلات لغوية. كمجموعة، عائلاتهم اللغوية تتراوح بين خمس لغات إلى سبع عشرة لغة. افترضوا أنهم طورا مهارات الكتابة والقراءة؛ كل واحد يعمل بالمعدل على خمسة أنظمة من الكتابة، تتراوح بين لغتين إلى تسع لغات.

نظراً لحجم مخزونهم اللغوي، قد يكون من المفاجئ أن يكونوا قادرين على تعلم اللغات العالمية الأساسية فقط. إنّ إحدى تلك المجموعات اللغوية مجموعة لغوية تتكون من اللغات الأوروبية (عائلة اللغات الرومانسية، والجرمانية، والسلوفاكية، واللغات الفنلندية



Twitter: @ketab_n

الأوغرية[1]، والسلتية[2]، والهيلينية[3]، أغلبها لغات وطنية باستثناء (المقدونية، اللاجتين، الويلزية، البافارية[4]، الكتالانية، القسطانية، ولغات عتيقة من الألمانية العليا القديمة). ومع ذلك، ظهرت أيضاً لغات غير أوروبية وهي: العربية (في لهجات مناطق مختلفة) والهوسا، والإيبوء[5]، والأفغانية، والفارسية، والهندية/ الأوردية، والكازاخستانية، والكينيارواندية[6]، ولغة هاواي البولينيزية، واليابانية، والصينية المندرينية، والكنتونية، والمنغولية، والفيتنامية، والملايو/ الأندونيسية، والكورية، ومان الجنوبية[7]، والوو الصينية[8]، والتايلندية، والهندية، والمارثية، والغوجاراتية، والسنسكريتية، والإينوإمن[9]، والكري[10]. وبخلاف الفارسية، واليابانية، والمندرينية، والكنتونية، والكورية، والتايلندية، والهندية، فإن كل هذه اللغات قدمت من شخص واحد لكل منها. على الإجمال، هناك فقط اثنتان من اللغات الأمريكية الأصلية: الإينوإمن، والكري.

(1) اللغات الفنلندية الأوغرية: عائلة من اللغات تشكل اللغة الفنلندية والهنغارية، ومجموعة لغات من أوروبا الشرقية وشمال غرب روسيا. (المترجم)

(2) اللغات السلتية: عائلة فرعية من عائلة اللغات الهندوأوروبية، تشمل الإيرلندية والأسكتلندية والويلزية. (المترجم)

(3) الهيلينية: فرع من اللغات الهندوأوروبية، وتشمل اللغة اليونانية فقط. (المترجم)

(4) اللهجة الألمانية لسكان بافاريا والنمسا. (المترجم)

(5) لغة لسكان الشمال الغربي من نيجيريا. (المترجم)

(6) إحدى اللغات في رواندا. (المترجم)

(7) مجموعة من اللغات الصينية التي يتحدث بها 60 مليون شخص في إقليم فوجيان بجنوب شرق الصين. (المترجم)

(8) إحدى اللغات في الصين، يتكلمها حوالى 77 مليون شخص في مدينة شانغهاي والمناطق المحيطة بها. (المترجم)

(9) لغة يتحدث به أكثر من 8,000 شخص في شرق كندا. (المترجم)

(10) لغة يتحدث بها حوالى 117,000 شخص في جميع أنحاء كندا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

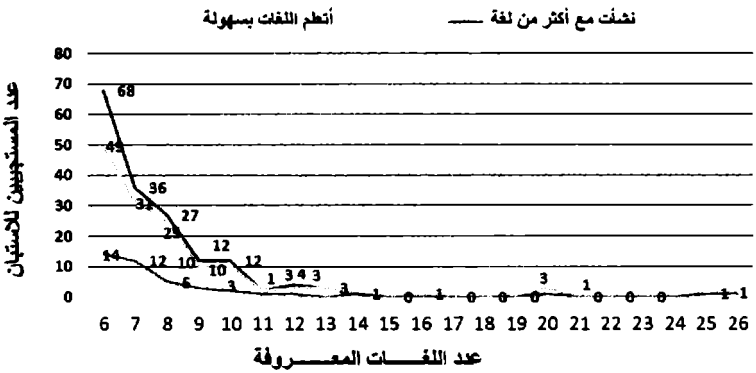


**مستند رقم 2: مجموع لغات متعددي اللغات المفرطين**

سألتهم: بأي ترتيب تعلمتم هذه اللغات؟ الافتراض العام أن متعلم اللغات يتعلم داخل عائلة اللغة بهدف (رفع العدد)، ومن خلال التحليل الذي قمت به، ظهر أن هذا الافتراض ليس دقيقاً؛ إذ كان متعلمو اللغات يميلون إلى الانتقال من لغة في عائلة لغوية ما إلى لغة في عائلة أخرى (على سبيل المثال من الإنجليزية إلى العربية)، ثم الانتقال بين اللغات داخل العائلة الواحدة (من الإنجليزية إلى الألمانية، ثم إلى الدنماركية). كانوا يمضون حوالى ربع الوقت وهم يدرسون اللغات من العائلات التي سبق لهم أن تعلموها من قبل. والنمط الآخر المثير للاهتمام هو أن اللغات الآسيوية، وغير الرسمية، واللغات التي يتحدث بها القليل من السكان كان من المناسب أكثر أن يؤجل تعلمها ريثما يتمّ تعلّم غيرها.

قال جميعهم إن تعلم اللغة كان أسهل بالنسبة لهم مقارنة مع الآخرين. وحين سألتهم: لماذا؟ 62 بالمائة قالوا إنها تعود إلى الموهبة الفطرية، و69 بالمائة قالوا إن السبب هو أنهم محفزون أكثر أيضاً، و88 بالمائة قالوا إن سبب ذلك أنهم يحبون اللغات. في دراسات أخرى



Twitter: @ketab_n

توصلت إلى النتائج نفسها. كان عامل التحفيز مثل الميزة البشرية التي تعني أنك لا تستطيع التنبؤ بمن يحصل عليه ومن لا يحصل عليه. على عكس نظرية القبيلة العصبية، التي جاءت من وصف إلين واينر للأطفال الموهوبين والتي تشير إلى أنك تولد وبداخلك قدرة تحفز على تعلم اللغات الأجنبية، وإن تطوُّر هذا التحفيز يعتمد على التفاصيل البيولوجية والبيئة التاريخية.

في منزل غريغ كوكس في بريمن في ألمانيا، رأيت شهادة من موسوعة غينيس للأرقام القياسية "غريغ كوكس من أورغن، الولايات المتحدة الأمريكية، أعظم شخص مطلع على اللغات على قيد الحياة، قادر على القراءة، والكتابة والتحدث بنحو 64 لغة، 11 لهجة مختلفة، منها 14 بطلاقة". كانت في السابق معلقة على الجدار، ولكن زوجته أزالتها ووضعتها في المخزن بسبب أن زبائنها (وهي خبيرة تجميل) يسألون دائماً عن زوجها.

"لا يجب عليك أن تحكي لكل زبون تاريخ حياتك الكامل، وممن أنت متزوج!".

قالت سابين: "أقصد، إنني فخورة به، ولكن...". ولم تكمل جملتها!

كنا نحن الثلاثة في مكتب كوكس: كانت تتحدث بينما كان كوكس، الأصلع القصير، يفتش في الأوراق على طاولته.

قالت: "تعبتُ منها، وعلقتها في مكان آخر". "عندما كنت أذهب إلى التسوق في بعض الأوقات كانوا يقولون: أوه، كوكس، هل أنت زوجته؟ فأجيب: نعم".

سألتها: "هل يتوقعون منكِ أن تتحدثي الكثير من اللغات؟".

"حصل هذا كثيراً، وكنت أقول إنني أتحدث بلغتين فقط. ولكن، بعدها أقول إنه ليس مهمًّا كم عدد اللغات التي أتحدثها، لأنه لا يفهمني



Twitter: @ketab_n

على كل حال".

عندما جلستُ مع كوكس نتحدث مرة أخرى، سألته عمّا إذا كانت هناك أي أساطير عن متعددي اللغات المفرطين. أجاب مباشرة: "إنهم يستطيعون القفز المرة تلو الأخرى بين لغاتهم. هذه أكبر أسطورة. التقيت العديد من متعددي اللغات الآخرين، وكنا قادرين على القفز مرة تلو الأخرى بين سبع أو ثماني لغات، ولكن ليس أكثر من ذلك. أكثر عدد لغات أستطيع أن أنتقل بينها مع شخص ما يبلغ سبع لغات". (لا أستطيع أن أؤكد ذلك، فقد سمعت كوكس يتحدث الإنجليزية، والألمانية، والإسبانية فقط في الأيام التي قضيناها معاً).

كما يعرف كوكس جيداً، هناك أسطورة تقول إن متعددي اللغات المفرطين قادرون على المحافظة على أعلى مستوى في المهارات والطلاقة في كل لغة من لغاتهم. وعندما يكون هذا غير صحيح، فإنه ينظر إليهم كفاقدي المصداقية. يمكن رسم هذا من خلال وضع محور (س) بعدد اللغات، ومحور (ص) لقياس المهارات والطلاقة في اللغات، والذي يبدو على النحو التالي:

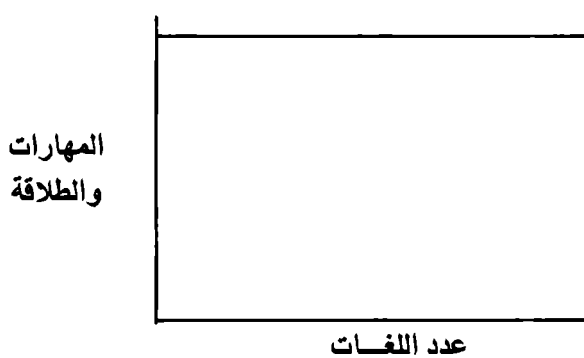


**مستند 3: توزيع متخيل للقدرات اللغوية لمتعددي اللغات المفرطين**



Twitter: @ketab_n

ومع ذلك، إن متعددي اللغات المفرطين ليسوا فريدين في هذا، إذ تنطبق الأسطورة نفسها على ثنائيي اللغة. الحقيقة - كما لاحظ الباحث في ثنائية اللغة فرانسوا غراسجين - أن "بعض ثنائيي اللغة يغلب عليهم استخدام لغة واحدة، وآخرين لا يعرفون كيف يقرأون ويكتبون في إحدى لغاتهم، وآخرين لديهم معرفة سلبية عن اللغة، وأخيراً، إن عدداً صغيراً جدًّا منهم لديه طلاقة متساوية ومثالية في لغاته".

وكما اكتشفت، يبدو المنحنى الحقيقي للمهارات والطلاقة على عدد من اللغات (تقريباً) على النحو التالي:

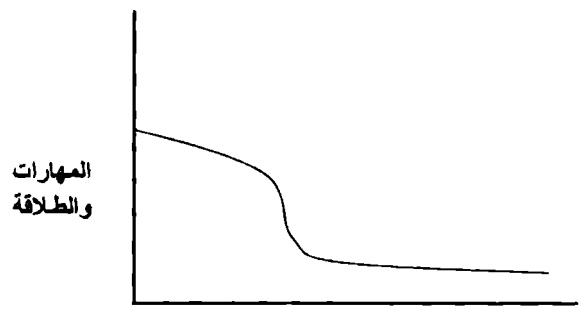


**مستند 4: توزيع واقعي للقدرات اللغوية لمتعددي اللغات المفرطين**

عندما تستطيع الحصول على البيانات عن أشخاص محددين يمكن وضعهم في المنحنى. دعنا نستخدم حسابات تشارلز روسل المتأنية لتصميم منحنى واحد عن ميزوفانتي. نحن نعرف أنه لا يتحدث أو يقرأ جميع لغاته على درجة واحدة متساوية؛ إحدى المجموعات لديه كانت على درجة عالية (على الرغم من أن الرقم ثلاثين قد يكون مبالغاً فيه).



Twitter: @ketab_n

ثم "يندفع" بلغاته إلى مرحلة متوسطة، مع "أجزاء من اللغة" في نهاية المنحنى.

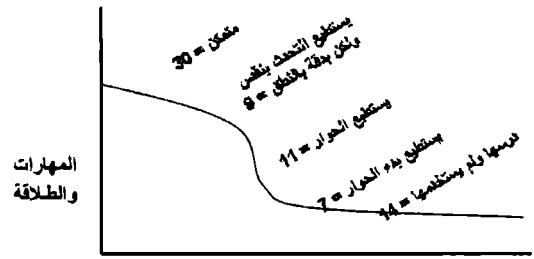


**عدد اللغـــات**

**مستند 5: توزيع قدرات ميزوفانتي في اللغات**

يمكنك أن تنتج منحنى مشابهاً من خلال وضع معايير حديثة وبيانات من متعددي اللغات المعاصرين. على سبيل المثال، ضابط سلاح الجو الأميركي إدغار دونوفان، حصل على 3 (من 5) في الاستماع والقراءة في الإسبانية والإيطالية والفرنسية والبرازيلية والبرتغالية، ودرجة 2 (من 5) في البرتغالية الأوروبية. وفي اللغات الأخرى لديه طلاقة متواضعة، وتلقى مجموعة من الأصفار (هذا يعني عمليًّا أنه لا يعرف شيئاً) في العربية والعبرية والتركية والصربية الكرواتية.

الصورة الأكثر اتساعاً جاءت من غراهام كانسيل، مترجم الهيئة الأوروبية الذي وصفته (للورينا أوبلر). يملك غراهام مجموعة من ميزات جيسكويند غالابوردا (الاضطراب الجنسي، محدودية القدرات البصرية والمكانية، الموهبة اللفظية). بعد الاجتماع مع غراهام في مكتبه، بقيت معه على اتصال. في النهاية، وافق على تقييم قدراته في جميع اللغات التي يعرفها باستخدام استبيان التحدث والاستماع والقراءة الذي وضعه المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية. يقوم الاستبيان على مقياس



Twitter: @ketab_n

صممه لأول مرة المعهد الأمريكي لخدمات اللغة الأجنبية في وزارة الخارجية في الخمسينيات (في العام 1958 أصبح الاختبار إجباريًّا على جميع ضباط الخدمة الخارجية) وتطور خلال العقود التالية من خلال مؤتمر الوكالات الحكومية للغة، والمجموعة الفيدرالية غير الرسمية الهادفة لمشاركة معلومات تعليم اللغة واختباراتها.

كما هو الحال مع اختبار الطلاقة في معهد الدفاع، جعل المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية مقياس المتحدث الأصلي على قمة الإنجاز. ولا يزال الميزان يناسب أهدافي بشكل جيد؛ خصوصاً إذا كان كل واحد يعرف الاختصارات. ولكن استخدام النسخة الكاملة من اختبار الطلاقة قد يكون مكلفاً ومضيعاً للوقت. ونحن نعرف أيضاً أن هناك ارتباطاً جيداً بين المهارات التي يقدمها شخص ما ومستوى مهاراته الحقيقية[1].

قمت بمقابلة مع غراهام وسؤاله عن تاريخ تعلمه للغة، والتي قدمت أسس محور (س) في المستند رقم 6. أمّا محور (ص) فهو مقياس اختبار مؤتمر الوكالات الحكومية للغة. ثم قام غراهام بملء التقييم الذاتي. درجة المعيار هي من 0 إلى 5. في التحدث على سبيل المثال، صفر تعني لا طلاقة، أكثر من صفر يشير إلى القدرة على استخدام الكلام المكرر. و5 "طلاقة أصلية عملية".

المستند رقم 6 يقدم مجموعة غراهام الكاملة باللغة، وهي مختلفة الطلاقة والتمكن. هو متحدث أصلي للإنجليزية. نشأ أحادي اللغة، ويعيش الآن في بروكسل الناطقة في الغالب بالفرنسية ومع متحدثين أصليين للسلفوكية (وهذه تفسر مهاراته اللفظية القوية في هذه اللغات الثلاث) ويستخدم تدرجاً من اللغات في عمله. هناك درجات في القراءة

(1) كنت أيضاً مقتصراً على اختبار قدرات غراهام في القراءة والتحدث والاستماع لأن المهارات فقط هي المستهدفة للتقييم الذاتي. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أعلى منها في التحدث لكونه مترجماً. ومع ذلك، قال إنه وصل إلى "الكتلة الحرجة" في بعض لغاته، لذا قدراته تهبط ببطء أكثر. ليس فقط لأسباب عملية، ولكن لوجود بعض اللغات القوية، مثل الإسبانية، من خلال العيش في مكان يساعده (إحدى ميزات عمله وجود فرص السفر والتطور المهني).

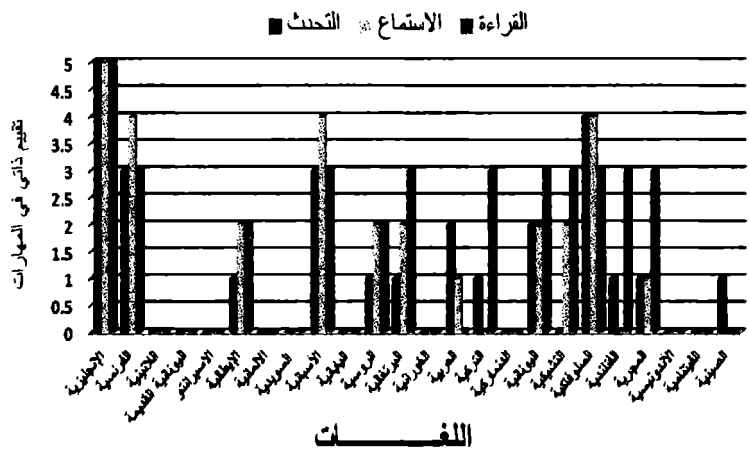


**مستند 6: توزيع مهارات غراهام كانسيل في التحدث، والاستماع، والقراءة، مرتبة باللغات (2010)**

المستند 7 رسم بياني يوضح توزيع مهارات غراهام في التحدث.

من الجدير بالذكر أنه لا يدعي امتلاك أي درجة مثالية في أي لغة عدا الإنجليزية، وفي ثلث إلى نصف اللغات التي درسها، ليست لديه مهارات التحدث، والقراءة، والاستماع.

يُظهِر المنحنى خريطة لغات غراهام، وتظهر اللغات التي تعلمها لاحقاً أقل على المنحنى. وأيضاً يمكن أن يدلّ المنحنى على حجم التدريب الذي حصل عليه في كل لغة. الحقيقة، يظهر أن هناك ثلاث



Twitter: @ketab_n

مجموعات من القدرات - مجموعة عالية جدًّا، ومجموعة وسطى، وذيل طويل من القدرات المنخفضة جدًّا - تعكس المستويات الثلاثة في الاحتفاظ بالمعرفة؛ المعرفة التي وضعها كل من اللغويين كيز دي بوت وساسكا ستيسل، لشرح كيف يخسر الأشخاص اللغات ويعيدون تعلمها. في أعلى مستوى من المعرفة يبقى نشطاً، بينما في المستوى الثاني مواد مدركة بشكل غير فعال، وفي الثالث معرفة يعتقد أنها فقدت ولكن ما زالت هناك الأشياء التي "حفظت". حفظ اللغات مهم لمتعددي اللغات المفرطين. مراراً وتكراراً، يشير الأشخاص إلى "تدفق" لغاتهم بفخر، ولكن مثل هذه المعرفة لا تحدد كميًّا في عالم اختبارات اللغة الحديثة، والاستعدادات لا يمكن قياسها أيضاً.

أشرتُ من قبل إلى أن نشاطي القراءة والترجمة يتطلبان جهداً عقليًّا أقل من التحدث. بالطبع في المستند رقم 8 يظهر كيف قيَّم غراهام تمكنه من القراءة. لاحظ أن الخط لم يسقط بحدة مثلما حدث في مهارة التحدث. هو قادر على قراءة لغات أكثر من تلك التي يستطيع التحدث بها.

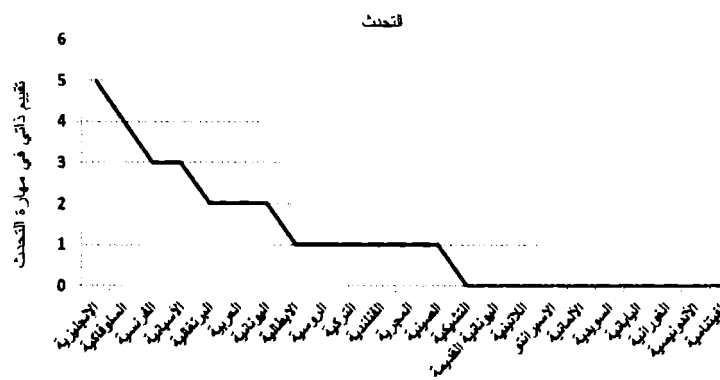


**مستند 7: توزيع مهارات غراهام في التحدث**



Twitter: @ketab_n

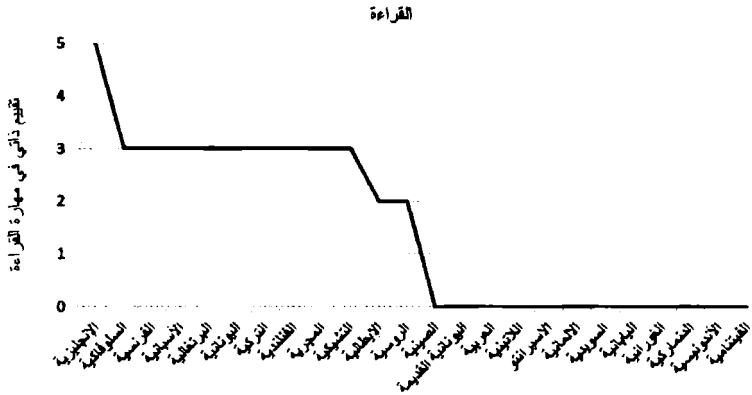


**مستند 8: توزيع مهارات غراهام في القراءة**

سألت الخبراء كذلك: كم عدد اللغات التي يستطيع الشخص التحكم بها؟ وكم عدد تلك التي يستطيع الانتقال منها وإليها بسهولة وبدون أن تلتبس عليه؟ فقالوا إنه ليست هناك حدود فرضية لعدد اللغات التي يستطيع الشخص تعلمها، وإن الوقت - وليس المعرفة - عامل محدود كما يبدو. قالت سوزان فلين، الباحثة في علم النفس اللغوي من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والتي تدرس ثنائية وثلاثية اللغة: "لا يوجد هناك حقاً حد للقدرة البشرية في اللغة؛ باستثناء العوامل المتعلقة بالحصول على وقت كافٍ للتعلم والتعرض إلى اللغة، وتكون اللغات التي تعرفها أكثر سهولة". ويوافقها الرأي ستيفن بينكر العالم اللغوي النفسي في جامعة هارفارد. وحين سُئل إن كان ثمة سبب نظري لا يسمح للشخص بتعلم العشرات من اللغات، أجاب: "لا يوجد سبب نظري أستطيع أن أفكر به؛ باستثناء التداخل النهائي للمعرفة المشابهة؛ فالأنواع المتشابهة من المعرفة يمكن أن تتداخل مع بعضها".

ولكن، هل هناك حدود حقيقية فعلاً كما يسأل متعددو اللغات المفرطون أنفسهم. تقديراً لإيرك جنامارك، سوف أحسب فقط المتعلمين



Twitter: @ketab_n

الاستثنائيين المعاصرين للغة. كتب جنامارك في رسالة إلى ألكسندر هذا: "إذا قرأت أو سمعت أن شخصاً محدداً يمكنه "التحدث" (أو يتحدث) بعدد كبير من اللغات (على سبيل المثال، يتحدّث عشرين لغة أو أكثر) فعليك دائماً أن تكون متشككاً قليلاً". أصر جنامارك أنه يعرف فقط ثلاث عشرة لغة تنسب إليه؛ تلك التي يتحدثها بطلاقة أو بشكل جيد، لم يعد قطّ اللغات الخمس عشرة التي يتحدثها على الحد الأدنى. قال لي أموري جاثين، الذي شارك مع جنامارك في كتاب "فن وعلم تعلم اللغات"، عبر الهاتف: "لا أعتقد أن إيرك يستطيع التحدث بشكل جيد بالعديد من اللغات، ولكنه يستطيع قراءتها؛ إنه يستطيع أن يقرأ بقليل من اللغات".

الحد الواضح جاء من استبياني. من بين 167 مستجيباً للاستبيان، قال ثمانية وعشرون شخصاً فقط إنهم يعرفون عشر لغات أو أكثر، وسبعة فقط قالوا إنهم يعرفون خمس عشرة لغة أو أكثر، وصاحب أعلى رقم ادعى صاحبه أنه يعرف ستًّا وعشرين لغة. أحد الأشياء الجديرة بالإشارة إليها هو أن معياري كان عريضاً جدًّا، ليس على الأشخاص التحدث بهذه اللغات (يمكن أيضاً أن يكتبوها) وتفسير معنى "المعرفة" كان كما يرونه. أنا لا أعلم إن كانوا قد عدُّوا جميع اللغات التي تعلموها أو تلك الجاهزة لاستخدامها. في كلتا الحالتين، إذا كنت تعتقد أن زياد فصاح وغريغ كوكس قد بالغا، فعليك الآن أن تثق بهذا الاعتقاد، إذ إنه بتوزيع اللغات بأقصى الحدود الممكنة، حتى مع المبالغة؛ لا يبدو أنها تصل إلى تسع وخمسين (لفصاح) وأربع وستين (لكوكس) من اللغات المتزامنة. وبالإضافة إلى أشياء أخرى، هذا سيبطل رقم غينيس لكوكس. (ومع ذلك، أنا لا أميل تماماً إلى أن أقلل من شأن رقم غينيس كما سترى).

بدأت البحث عن ماهية حدود البشر في الممارسة، وليس في النظرية. النظرية الخالدة ملايين الأعمار لتعلم كل شيء يضيف لنا لفهم



Twitter: @ketab_n

ظاهرة متعددي اللغات المفرطين بمثل ما يقوم به المتحدث الأصلي في لغة واحدة، هذه النظرية تقول إن تعلّم اللغة الاستثنائي يقع داخل قيود عالمنا الحقيقي. وما دام الأمر كذلك، فعلينا أن ننظر إلى متعددي اللغات المفرطين ونتائج تجاربهم الطبيعية.

بسبب أن الذاكرة العاملة محدودة القدرة، فإن الشخص يمكن أن يتنبأ بأن هناك حدوداً لعدد اللغات التي يمكن للشخص أن يجعلها نشطة. شبهت كيتو لومب اللغات النشطة بشخص "يعيش" داخلها؛ ووصفتها كليرا كرامست كلغات "تردد الصدى" معها. في الحقيقة، إذا كنت تريد أن تفهم الحد الأعلى من التحكم باللغة أكثر من فهم اللغة أو الذاكرة، فعليك أن تنظر إلى متعددي اللغات المفرطين. قالت كيتو أيضاً إن لديها فقط خمس لغات "تعيش" داخلها. أخبرني كوكس أنه يستطيع الانتقال المرة تلو الأخرى بين سبع لغات فقط. وقال جنامارك إنه طلْق في ست لغات.

من المحتمل أنهم يستطيعون التحكم بلغات أكثر إذا كانوا يحتاجونها؛ بالنظر إلى أنهم يدَّعون "تدفق" اللغات لديهم كذلك. هذه يبدو أنها تتراوح بين خمس لغات وتسع، على الرغم من أن متعددي اللغات المفرطين قادرون على إدارة لغات أكثر في فترة أقصر. عندما كانت هيلين أبازادي تعمل في الترجمة الفورية في أولمبياد أثينا، قالت: "إنني أعمل مع عشر لغات بالتزامن، ولكني أحمل المساعد الرقمي (PDA) المحمل بالقواميس. وفي مسابقة متعددي اللغات التي شاركتُ فيها، لأربح المسابقة، كان عليَّ أن أجعل العديد من اللغات نشطة على الأقل ليوم أو اثنين (وليس أكثر)".

مثل هذه الحدود ظهرت من قبل. فقد اعتبرها ديميتري سبيفك العالم النفسي الروسي ومتتبع متعددي اللغات "القانون "7. في كتابه "kak stat poliglotom" (كيف يصبح الشخص متعدد لغات؟)، المتاح



Twitter: @ketab_n

فقط باللغة الروسية، قابل سبيفك متعددي اللغات في روسيا وسأل عن عدد اللغات التي يشعرون أنهم يعرفونها. وعلى الرغم من أن نظريته محل خلاف، إلا أن أحداً لم يقدم دليلاً معارضاً. أضاف سبيفك أنه ليس مهمًّا إذا كانت اللغة متحدثة أو مقروءة، وقال في رسالة عبر البريد الإلكتروني: "يميل الدماغ إلى معالجة كل المجموعة المتجانسة من الوحدات كمجموعة بسيطة، وليس هناك اختلاف جوهري بين الحفظ والاستعادة من الذاكرة طويلة الأمد في سبع لغات، أو سبعة أنظمة كتابية".

السؤال هو: لماذا هناك حدود؟ أشارت إحدى الدراسات العلمية التي تناولت حدود الذاكرة العاملة إلى أن المواد المحفوظة في الذاكرة تبدأ في التنافس في ما بينها، وتعرِّض قدرات العقل للخطر في جعلها كل مادة تبدو في مظهر واضح. لا يعرف العلماء حقيقة السبب في أن هناك حدوداً يبدو أنها لا تضفي أي ميزة تطورية. على كل حال، هذه الدراسة دعمت باستنتاجات من اللغوي بيتر سكاهن الذي قال إن متعلمي اللغة الموهوبين (مثل سي جي وكريستوفر) هم "متعلمون ذوو ذاكرة مدفوعة". يمكنهم وضع الكثير من الأشياء في الذاكرة والاحتفاظ بها. إنهم يستطيعون أيضاً استعادتها بفعالية دون الخلط بينها. ومع ذلك، إن هذه الدراسة لا تشرح كيف كان ميزوفانتي قادراً على المناورة بفعالية بين اللغات. ربما هم أشخاص غير مكتشفين يملكون ذاكرات عاملة فعالة.

قال لي ألكسندر في إحدى زياراتي: "لا أعرف العديد من النساء اللاتي يجمعن الطوابع أو العملات". إنه يريد أن يعرف إن كنت أنظر إلى تعددية اللغات كنوع من سلوك الالتقاط، ربما كسلوك استحواذي، هذا النوع من السلوك الذي يمكن أن يشرح السؤال: لماذا العديد من متعددي اللغات كانوا رجالاً؟

لقد قرأت عن متعدد لغات مفرط واحد وهو جورج هنري بارو (1803-1881)، الذي درس اثنتين وأربعين لغة. تبدو سيرته الذاتية مناسبة



Twitter: @ketab_n

لشخص يعاني من الوسواس القهري[1]؛ المرض النفسي الذي يصيب نسبة 1-3 بالمائة من البالغين. كان سلوك بارو يتمثل بتوصيل سلسلة من المواد العادية في التسلسل الصحيح، ومن ناحية أخرى كان يخاف من أن مكروهاً ما قد يصيب والدته.

كان على متعددي اللغات الآخرين أن يوصلوا تلك السلسلة أيضاً. وضع ألكسندر قائمة - يمكن للشخص أن يقول إنها مفصلة كثيراً - وكان ينزعج بشكل واضح إذا لم يسعفه الوقت لإتمامها. وعدَّ فيها أيضاً إليهو برايت القوي في الدراسة والحدادة، وكريستوفر وكربس. بالتأكيد، كان هناك اهتمام وتركيز، ولكن لم يكن أحدهما مصاباً بالوسواس القهري.

أنا أيضاً لم ألتقِ متعدد لغات مفرطاً يعاني من الرغبة المرضية في الاكتناز؛ ممن يجمعون كمية كبيرة من الأشياء عديمة القيمة (الصحف، علب الطعام، قطع غيار السيارات، علب أعواد الكبريت) التي تتداخل مع حياتهم اليومية وعائلاتهم. ويشعرون أيضاً بالفخر من كثرة كتب القواعد والقواميس التي يكدسونها. ومع ذلك، إنّ تكديس الكتب مجرد حقيقة تشير إلى حب القراءة، وليس إلى تعددية اللغات المفرطة. المكتنز الذي قرأت عنه في الأبحاث الأدبية لا يمكنه الابتعاد عن أشيائه التافهة إلى الحياة العادية.

لماذا هناك ذكور أكثر بين متعددي اللغات المفرطين؟ أحد الأجوبة كان أن التحدث كثيراً عن اللغات هوس ذكوري أيضاً. بالإضافة إلى استبياني عن متعددي اللغات المفرطين، كانت لدي مجموعة من الأسئلة عن أحادية اللغة أيضاً. قد تكون مصادفة أن هذه المجموعة من الأسئلة

(1) الوسواس القهري: هو اضطراب عصبي حيوي، والسمة الأساسية لهذا الاضطراب هي الأفكار القهرية والتصرف القهري غير المحتمل؛ حيث يشعر الشخص أنه مضطر للتفكير أو القيام بتصرف ما، حتى على الرغم من أنه يدرك أن هذا التصرف لا معنى له. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

أجيب عليها في الأغلب بواسطة نساء، أكثر من 30 بالمائة منهن قلن إنهن درسن ثلاث لغات أو أكثر، ومع ذلك كان الاستبيان يسأل عن الأشخاص الذين يتحدثون لغة واحدة فقط. يبدو أن النساء أقل ميلاً إلى القول إنهن "يتحدثن" أو "يعرفن" اللغة إذا كنَّ قد درسنها على نحو ما في الماضي، بينما الرجل تدفعه دائماً الرغبة في استعراض مخزونه الكبير منها.

فرضيات جيسكويند غالابوردا أثارتني كثيراً؛ الفكرة أن هرمون الذكورة في الجنين يؤثر على تطور الدماغ، التأثير على النمو اللامتماثل بين جزئي الدماغ الذي يشاهد أكثر لدى الذكور. الإناث لديهن أيضا هرمون الذكورة، ولكنه أقل نسبة، وأضعف تأثيراً.

أدمغة الذكور، الهرمونات، وضعتني مباشرة على عتبة الأشياء التي كنت أتجنبها دائماً.

هل القبيلة العصبية لمتعددي اللغات تتداخل مع عينة المتوحدين؟ إنّ هذا السؤال مثل العديد من الأسئلة الجيدة لا يخلو من الفخاخ. بعد كل شيء، هناك شخصية مشهورة لمتوحد عبقري قام بمهام لغوية مبهرة. دانيل تاميت، الكاتب والمعلم المصاب بالتوحد ذي الأداء الوظيفي العالي، قوبل بتحدٍّ في إحدى المرات أن يتعلم اللغة الأيسلندية في أسبوعين، ثم يذهب إلى التلفزيون الأيسلندي للتحدث بها[1]. من المثير، أن كارل زايلس أشارت إلى أن إميل كربس يبدو وكأنه شخص مصاب بمتلازمة أسبرجر. ومع ذلك، لم أكن أريد أن أذهب إلى التاريخ المرضي للأشخاص، والقيام بالتشخيص الذي لم أكن مؤهلاً لفعله. ولم أكن أرغب في أن أتبع العادة السائدة في إلصاق التوحد بكل شخص ذي ميول غريبة.

أعتقد أنني سأكون قادراً على تمييز الشخص المصاب بالتوحد أو

(1) تعتبر اللغة الأيسلندية من أصعب اللغات اكتساباً بسبب مفرداتها القديمة وتراكيبها النحوية المعقدة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بمتلازمة أسبرجر بسهولة؛ وهو الشخص الذي يبدو منطوياً اجتماعيًّا، وذا مشاعر ثابتة، والذي يطلب التكرار ويخشى التغيير، والذي يكون قادراً على الأداء بدقة عالية في أحد المجالات، مثل الحسابات العقلية. وإحقاقاً للحق، لقد عرفت هذه الأعراض من فيلم (رجل المطر). كانت شخصية المتوحد العبقري ريموند بابيت التي لعبها الممثل داستن هوفمن تقوم على لمحات من حياة المتوحد العبقري كيم بيك، ولكن متعدد اللغات المفرط لا يشبه أيًّا من بيك أو شخصية هوفمن.

ومع ذلك، يمكن أن يطلق على هؤلاء المتوحدين "مرضى الأعصاب"، والشخص المريض بأحد الأمراض العصبية قد تظهر لديه سمات التوحد، خصوصاً الأداء الوظيفي العالي. جادل عالم النفس البريطاني وخبير التوحد سيمون بارون كوهن في أن التوحد يقدم نموذجاً متطرفاً من الأسلوب المعرفي البارع والذي يؤدي إلى "التنظيم"، حيث يراقب الشخص (في الأغلب يكون ذكراً) المدخلات والمخرجات في النظام، ويربط بينها ذهنيًّا، ويلاحظ كيف تختلف. حدد بارون كوهن التنظيم كمشاركة "للدماغ الذكوري" الذي يتكون أكثر من البيولوجيا الذكورية (واعترف بأن الإناث بيولوجيًّا يمكن أن تكون لديهنّ أدمغة ذكورية)، ومن هنا جاءت نظرية بارون كوهن في التوحد؛ "الدماغ الذكوري المتطرف".

إنّ الميل إلى التنظيم يمكن أن يساعد على شرح سبب حصول العلماء على درجة أعلى من غيرهم في الاختبارات التي تقيس الميزات المشابهة لميزات المتوحدين. وربما يمكنه أن يفسّر أيضاً لماذا علماء الرياضيات والفيزياء وبرمجة الحاسب والمهندسون يحصلون على علامات أعلى من الأطباء والبيطريين، وعلماء البيولوجيا؟ وجد بارون كوهن أيضاً أن التوحد يتواجد بتكرار أكثر في ذرية طلاب الفيزيائيين والمهندسين والرياضيين من وجوده في ذرية دارسي الآداب.



Twitter: @ketab_n

قام بارون كوهن بعمل مرتبط أيضاً بالاهتمامات الاستحواذية لدى الأطفال الذين يعانون التوحد، واضطراب طيف التوحد، ومتلازمة أسبرجر، وافترض أن المنظمين يمكن أن يجدوا أنظمة ميكانيكية أكثر إثارة من الأنظمة الاجتماعية، أو على حد تعبيره: إنهم سيهتمون بسهولة "بالفيزياء العامة" - المعرفة العامة عن كيفية عمل الأشياء في أنظمة العالم - أكثر من اهتمامهم "بعلم النفس العام". في استبيان عن الأطفال المصابين بمتلازمة توريت[1]، والتوحد أو أسبرجر، كان الأطفال المتوحدون مستغرقين مع الأشياء الميكانيكية، والسيارات، والأنظمة الفيزيائية، والحاسبات، وعلم الفضاء، والمباني، والقطع الدائرية، والإضاءة أكثر من استغراقهم في المعتقدات، والأعمال الفنية، والطعام، والرياضة. كانوا أيضاً أكثر استغراقاً مع الفيزياء العامة من الأطفال المصابين بمتلازمة توريت.

هل يمكن اعتبار اللغة ضمن الاهتمامات الاستحواذية؟ سأل بارون كوهن الآباء إن كان يظهر لدى أطفالهم "ترديد الكلام"[2]، وتجميع الكلمات والجمل، واهتمام بتعلم اللغات. كان ربع الأطفال فقط لديهم هذا كاهتمام استحواذي، والعدد نفسه من الأطفال يستحوذ عليه الاهتمام بالرياضة والألعاب. الرغبة في وضع قائمة "تصنيفات" كانت أكبر بثلاث مرات. ومن المثير، أن 35 بالمائة فقط من الأطفال المنظمين مهتمون

(1) متلازمة توريت (Tourette syndrome): اضطراب عصبي وراثي يبدأ في الظهور في سن الطفولة، ومن خصائصه لزمات حركية بدنية متعددة، وعلى الأقل لزمة صوتية واحدة، وتأتي هذه اللزمات على هيئة نوبات متتابعة تعقبها فترات هدوء، ثم سرعان ما تباغت الحالة مرة أخرى وهكذا. وغالباً ما تقترن بإصدار كلمات فاحشة أو بذيئة وغير مقبولة اجتماعيًّا مصحوبة بعبارات وعلامات الاستهزاء والسخرية. (د. محمد السعيد - المترجم)

(2) ترديد الكلام (Echololia): إعادة آلية للكلمات أو الجمل من قبل المرضى العقليين. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بالرياضيات والأرقام.

كانت هذه نبذة بسيطة عن الأطفال المصابين بالتوحد، ولكنها تلقي بعض الضوء على نوع الأدمغة التي يمكن أن تكون استثنائية في تعلم اللغات.



Twitter: @ketab_n

# الفصل السابع عشر

تصادف توقيت زيارتي إلى بيركلي لمقابلة ألكسندر أرغيليس مع انعقاد مؤتمر عن التخطيط الدماغي في سان فرانسيسكو. كنت أتمنى وأنا أستقل القطار بمحاذاة الشاطئ من بيركلي أن أجد شيئاً ما هناك يساعدني على ربط معلوماتي التي أعرفها عن متعددي اللغات المفرطين بما يعرفه الآخرون عن الأدمغة.

في المؤتمر، كنت أتوقع أن ألتقي سوزان رايترر، عالمة الأعصاب السويسرية، والباحثة في الأساس العصبي الذي تسميه "موهبة اللغة اللفظية". تخصصها هو موهبة التقليد، أي الأشخاص البارعون في تقليد الأصوات، ومقلدو المشاهير والممثلين. كانت سوزان سوداء الشعر، تضع نظارة ذات إطار أسود، وصفت موهبتها اللفظية، وكيف أن بحثها محاولة لتفسير هذه الموهبة التي لديها.

في جامعتها في ألمانيا، قارنت هي وفريق البحث بين التقليد الجيد والتقليد السيئ، باستخدام الاختبارات النفسية والتصوير الدماغي. بعض الألمان بدون أي مهارات في اللغة الهندية يمكنهم تقليد المتحدثين الأصليين بالهندية لدرجة الاعتقاد أنهم أنفسهم متحدثون هنود. كل من هؤلاء المقلدين الاستثنائيين لديه قدرة لفظية قوية، وذاكرة عاملة جيدة، وقدرة مميزة على التمييز بين النغمات الموسيقية والألحان؛ خصوصاً في الغناء.

قالت لي إنهم كانوا يتوقعون قبل الدراسة إيجاد الكثير من


Twitter: @ketab_n

الأشخاص مثل المؤلف جوزيف كونارد[1] الذي تعلم لغة جديدة عند الكبر، ورغم القدرات العالية في قواعدها، إلا أن مخارجه كانت ثقيلة.

قالت لي: "لم نجد العديد من النماذج الواضحة مثل جوزيف كونارد!". في المقابل، لاحظت على سبيل المثال مقايضة معرفية؛ شخصاً موهوباً في اكتساب القواعد والمفردات وضعيفاً في التقليد. ووجدت أيضاً شيئاً ما مميزاً عن أدمغة المقلدين الناجحين؛ فعندما قامت بالتصوير بجهاز الرنين المغنطيسي الوظيفي، وجدت أن المقلد الموهوب لديه مستويات أقل نشاطاً في مناطق الدماغ المتعلقة بالكلام. في الأساس، أدمغة المقلّدين لم تحاول بقوة أكبر لأنها تستخدم الأكسجين بكفاءة. وعلى العكس من ذلك، المقلدون الذين لا يستطيعون تقليد المتحدثين الأصليين للغة (والذين يفترض أنهم أقل موهبة) يستخدمون الأكسجين بكفاءة أقل؛ إن مناطق الدماغ المتعلّقة بالكلام عليها أن تعمل أكثر لإنتاج الكلام.

من المثير أن الأدمغة الجيدة في التقليد أكثر كفاءة، سواء أتحدثت بالألمانية (اللغة الأم) أو أنتجت أصوات اللغة الإنجليزية أو التاميلية أو الهندية. والمقلدون الأقل موهبة يستخدمون الجلوكوز والأكسجين بأقل كفاءة عند إنتاج أي لغة.

كان لدى سوزان شك بأنه يمكن تركيب الاختلاف البنائي في الطرائق العصبية في الأدمغة الأكثر موهبة؛ الأمر الذي يقود إلى تعزيز الموصلات العصبية بين أجزاء مختلفة في الأدمغة خلال مهام التفكير، وهذه الموصلات بدورها تسمح للدوائر العصبية بالمشاركة في عملية اللغة للعمل بفعالية أكبر.

(1) جوزيف كونارد (1857-1924)، مؤلف بولندي الأصل، وحصل على الجنسية البريطانية في العام 1887، يعتبر من أعظم كتّاب الروايات المكتوبة باللغة الإنجليزية؛ التي لم يتعلمها حتى بلغ سن العشرين. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

عالج عمل سوزان مكوناً واحداً في الاستعداد اللغوي، وهو مكون القدرة على سماع وإنتاج الأصوات. إنّ منطقة محددة في الدماغ هي التي تشارك في هذا، وهي اللحاء السمعي الأساسي (تُعرَف أيضاً بتلافيف هيشل). تقع على مجسم الدماغ الشبيه للكرة الأرضية في يمين الهند مباشرة. درس عالم الأعصاب نارلي جولستين بناء الدماغ لدى علماء الصوتيات - أولئك الذين يعملون مع الأصوات وتحليلها ودراساتها في العديد من اللغات ولا يتحدثونها بالضرورة - ووجد أن اللحاء السمعي الأساسي لديهم أكثر تعقيداً من الناحية التشريحية من غيرهم. بتعبير أدق، إن اللحاء السمعي لديهم فيه تلافيف مثل الأصابع، مكونة من المادة البيضاء؛ مما يعطيهم مساحة أوسع.

ورغم الاختلافات في الأنواع الأخرى من الأدمغة (مثل ترتيب أجسام الخلايا في دماغ كربس)، فليس من المحتمل أن تنشأ هذه الخلايا نتيجة الممارسة أو التدريب. على الأقل، لم يلاحظ أحد نمو تلافيف الدماغ البشري في هذه المنطقة بعد الولادة. هذا يمكن أن يفسر ميل بعض الناس للعمل في الأصوات أكثر من غيرهم، ويمكن أن يقدم تفسيراً أيضاً لشعور بعض الناس بمتعة عند الاستماع إلى اللغات الأجنبية أكثر من الآخرين.

في دراسة سابقة، نظر جولوستاني إلى بناء أدمغة الأشخاص الذين تعلموا الأصوات من اللغة الأجنبية بسرعة أكبر من الآخرين. ووجد أن أدمغة المتعلمين الأسرع لديها تلافيف هيشل أكبر حجماً، وتُعزى إلى زيادة المادة البيضاء.

بصمة عصبية أخرى لدى متعلمي اللغة المتقنين حددت في القشرة الجزيرية اليسرى، والتي تقع في مكان ما أسفل البحر العربي (في مجسم الكرة الأرضية المستعار). كان ينظر إلى القشرة الجزيرية لفترة طويلة كمنطقة غامضة تقوم بوظائف في الجسم، وبعد تطور أجهزة تصوير



Twitter: @ketab_n

الدماغ، اكتشف أنّ للمنطقة دوراً جديداً يتمثل في التحكم بالعواطف والشعور والذاكرة العاملة. وفي دراسة، ظهرت القشرة الجزيرية اليسرى في جهاز التصوير بأشعة الرنين المغناطيسي الوظيفي أكثر نشاطاً لدى ثنائيي اللغة الذين كانت لديهم قدرات متساوية في اللغتين[1]. أما الأشخاص الذين كانت لغاتهم غير متساوية، فإن هذه المنطقة تعرض مستويات نشاط أضعف.

تلعب القشرة الجزيرية اليسرى دوراً رئيساً في ما يعرف "بالإعادة غير الصوتية". أحد الأمثلة على الإعادة غير الصوتية هو سماعك صوت كلمة أجنبية في رأسك قبل أن تنطقها. ولذا، إن الدوائر العصبية الأكثر في هذه المنطقة يمكن أن تطبع أصواتاً جديدة داخل الدماغ بسرعة وبشكل دائم. كتب الباحث مايكل شيي: "الارتباط الناجح في مثل هذه الدوائر العصبية، يمكن أن يرتبط بنمو في المفردات".

من هنا، يأتي نجاح ألكسندر مع أسلوبه في التتبع. يتعلق التتبع في محاولة لفظ الأصوات في اللغة الأجنبية (غالباً من جهاز التسجيل) في اللحظة نفسها التي يسمعها الشخص. حاولت أنا شخصيًّا أداء التتبع، وأستطيع القول إنّ التأثير كان قويًّا. وهو يختلف كثيراً عن أسلوب "استمع ثم أعِد". يمكن للتتبع أن يستثمر الروتين العقلي في تخزين المعلومات والمسمى "الحلقة الصوتية"؛ وهي جزء من الذاكرة العاملة المخصصة لأصوات الكلام. قدرة شخص ما على التذكر التلقائي والإعادة الدقيقة للكلمات بلا معنى أفضل متنبئ على مدى قدرته على تعلم اللغة الأجنبية. والعكس صحيح أيضاً: الأشخاص ذوو الحلقة الصوتية المعطلة أو المصابة لا يستطيعون تعلم كلمات لغة جديدة. إذا مارست أسلوب التتبع فستعتمد على الحلقة الصوتية؛ وعندما تتبع أكثر، يمكنك أن تبني حلقة أقوى.

(1) هؤلاء كانوا طلبة من سنغافورة اختبروا في معرفتهم باللغة الصينية والإنجليزية، وقورنت دقة التحدث، ودرجات الامتحان، والمهارات بأدائهم. (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

من الأجزاء الأخرى للاستعدادات - القدرة على تحليل القواعد، وتعلم كلمات جديدة - تعلم الكلمات التي دُرست دراسة وافية، ومن المعروف أين تكمن هذه القدرات في الدماغ. هنا أيضاً بصمة عصبية مميزة في الأداء العالي. لاحظ فريق من الألمان أن الأشخاص الأفضل في اكتساب الكلمات الجديدة لديهم أنشطة ثابتة أكثر في جزء واحد من الدماغ، وهو "قرن آمون الحصين" (الذي يرتبط بقوة بنشاط الذاكرة طويلة الأمد).

يظن الباحثون أن الأدمغة تختلف في طريقة استجابتها للمهام في تعلم اللغة بسبب أنه ربما يكون هناك اختلاف في قرن آمون بين الأشخاص، وكيفية ارتباطه بالمادة البيضاء، أو ما يسمونها "الاختلافات الوراثية في وظائف الموصلات العصبية".

في الحقيقة، لا أحد يقول إن موهبة اللغة تكمن في منطقة واحدة فقط في الدماغ. قالت سوزان رايترر إن موهبة التقليد ليست "مهارات مشتتة"، فأداؤها العالي ينتج أداء مستويات عالية في القدرات اللغوية الأخرى؛ والتي تشير إلى أنها مرتبطة معاً وتشترك في مناطق مختلفة من الدماغ. إنّ دور الحلقة الصوتية والذاكرة العاملة يشير إلى مهارات معرفية عالية المستوى تلعب دوراً كبيراً في تعلم لغة إضافية واحدة بشكل جيد وفي تعلم العديد من اللغات. وما دامت الأسس البيولوجية في هذه المهارات موروثة، فإن جميع العائلات يمكن أن تنتمي إلى القبيلة العصبية لمتعددي اللغات المفرطين.

دُعمت الفكرة في الجزء الوراثي لدى متعددي اللغات المفرطين بأدلة على أن القدرة المعرفية - مثل الذاكرة العاملة، والوظيفة التنفيذية، والذاكرة، وكذلك السعة البنائية مثل المرونة - موروثة.

بالعودة إلى العام 2004، عندما وضع ديك هدسون خبراً عن (س) وعائلته على موقع قائمة اللغوي، أحد المجيبين كان ريتشارد سبراوت،



Twitter: @ketab_n

اللغوي الذي يعمل الآن في جامعة أورغن للصحة والعلوم، والذي كان مهتمًّا بفكرة أن موهبة اللغة بحد ذاتها يمكن أن تكون ميزة موروثة. منذ التسعينيات، ربط العلماء بين العجز اللغوي والمكونات الجينية، كما في حالة عائلة (كي. أي)، فقد أدى عجزها عن إنتاج عبارات نحوية واضحة إلى تكوين موقع جيني مسمى FOXP2 في منتصف التسعينيات، ثم تحور الجين في عام 2001.

ولكن، عندما يكون الحديث عن موهبة اللغة الاستثنائية بدلاً من العجز اللغوي، فإنه من الصعب الحصول على عائلات لإجراء دراسات وراثية عليها؛ لأن أفرادها لا يعانون خللاً محدداً يحتاجون إلى العلاج منه.

تبادل سبراوت بعض الرسائل الإلكترونية مع (س)، ثم توقفت استجابات (س). عندما اتصلت بـ (س)، قال إنه ناقش هذا الأمر مع عائلته ولا يريد إجراء المقابلة.

قبل أن يتوقف (س) عن الكتابة، قدم إلى سبراوت بعض التفاصيل عن ترحال جده متعدد اللغات. قال (س): "عندما وصلنا إلى تايلند، كنت متأكداً أنه لا يعرف أيًّا من لغات هذه الدولة". ولكن بعد أسبوعين كان جده يجادل بائعي السوق بالتايلندية. في نهاية الستينيات، قضى (س) ثمانية عشر شهراً في تايلند مع الجيش الأمريكي، المكان الذي تعلم فيه بعض اللغات، وعندما حاول تالياً الحوار بالتايلندية مع جده، قال (س): "كان قادراً على التواصل بمستوى أعلى مما أعرفه".

اختفاء (س) كان أمراً محبطاً؛ لأنه في رسالته الأصلية، أشار إلى أعضاء آخرين من عائلته؛ منهم حفيدة بعمر السابعة، كتب عنها: "هي تستطيع العد بثلاث لغات إلى الرقم 100، وتستطيع التقاط الكلمات المتحدث بها في اللغات الأخرى في الشارع وتخبرك بمعانيها". لقد انسحب (س) وأفراد عائلته متعددة اللغات المفرطة، من المشهد العام في



Twitter: @ketab_n

الوقت الراهن. ولكنهم، ومن يشابههم، يمكن أن يقدموا رؤى أكثر جاذبية للقدرات اللغوية التي لدينا جميعاً.

إذا كان دماغ متعلم اللغة الاستثنائي لديه نوع من التصميم المثالي، فهل من الممكن أن يحصل الشخص على الفائدة من خلال التصميم نفسه؟ الجيش الأمريكي مهتم بدرجة فائقة بالتعزيز العصبي الذي يدعم تعلم اللغات. وقعت عيني على تقرير يوضح أثر مثل هذه المعززات على قوات الجيش، ويطالب بأبحاث أكثر لتحقيق تنوع القدرات المعرفية للبالغين، ومن ضمنها تعلم لغات متعددة.

في المؤتمر الذي التقيت فيه سوزان رايترر، دُهشتُ مما عرفته عن تكنولوجيا تسمى التحفيز المباشر عبر الجمجمة - وهي تقنية قد تجد طريقها للانتشار في المستقبل القريب - فباستخدام جهاز صغير يمكن ببساطة صنعه في المنزل (تحتاج فقط إلى بطارية بقوة 9 فولت، وقطب كهربائي، ومقاوم كهربائي) يمكنك نقل كمية صغيرة جدًّا من التيار الكهربائي إلى بعض المناطق في دماغك من خلال الجمجمة. تقوم هذه التقنية على كيفية وضعك للتيار؛ إذ يمكنك إما أن تحفز أو تكبح مدى قوة إطلاق الخلايا العصبية. إذا كان القطب الكهربائي مرتبطاً بالجزء الموجب في البطارية فإن الخلايا العصبية تتحفز، وإذا كان مرتبطاً بالجزء السالب فإن الخلايا العصبية تخمد. يمكن أن يساعد الشاحن الكهربائي البالغين في التحكم بمرونة الدماغ من خلال إزالة الكوابح التي تمنع المرونة بعد البلوغ.

في بعض الدراسات الأولية في اختبار السلامة في الجهاز، كان الأشخاص الذين استقبلوا تيارات من الجزء الموجب في البطارية يستطيعون استعادة كلمات غير ذات معنى أفضل بنسبة 20% من الأشخاص الذين استقبلوا تيار اختيار مزيّفاً أو من تعرّضوا إلى التيار من الجزء السالب من البطارية. بعد أسبوع اختفى التأثير الإيجابي.



Twitter: @ketab_n

في دراسة أخرى، زادت قدرات الأشخاص على إنتاج مفردات من بدايات حروف محددة بنسبة 20% كذلك. كما ظهر للتيار المباشر تأثيرٌ على زيادة الذاكرة البصرية للأشخاص بنسبة 110 بالمائة.

قبل أن تهرع لشراء البطاريات والأقطاب الكهربائية، عليك أن تعرف أن الأقطاب الكهربائية توصل الكهرباء إلى الدماغ بشكل عرضي. تتبع المهندسون البيولوجيون مسار تدفق التيارات في الجمجمة، ولاحظوا أنها تسري في جميع الأنحاء، وتتدفق من محجري العينين وتنتشر أسفل الفص الصدغي الأمامي. الجمجمة المسلّط عليها تيّارٌ كهربائي قد تصاب بضرر غير متوقّع.

وما زالت زيادة 20% تمثل زيادة جوهرية، خصوصاً إذا جاءت بعد تعرض للجهاز مدته عشرون دقيقة. هل هناك من يريد تجربته؟

سألتُ هيلين أبادزي (التي لديها اهتمام بالتكنولوجيا التي تساعدها في تعلم اللغة) عمّا إذا كانت ترغب في تجربة الجهاز!

أجابت أنها قلقة من المخاطر؛ خصوصاً لأن التطور الذي يحدثه ليس كبيراً جدًّا. وقالت: إذا كنت تريد التغيير الكبير، فامضغ العلكة!

- علكة؟!

- بالتأكيد. إنّ مضغ العلكة أظهر تطوراً مباشراً لدى الشخص في استعادة المفردات التي تم تعلمها بمعدل 24%. والاستعادة طويلة الأمد تطورت إلى 36%. للحصول على الفائدة عليك أن تمضغ العلكة أثناء دراستك. اكتشفت أيضاً أن شرب شاي المرمرية يزيد من استعادة الشخص الكلمات بشكل قليل، وكذلك استنشاق رائحة إكليل الجبل. شيء ما بسيط مثل القهوة له فائدة أيضاً؛ حيث إن شرب كوبين من القهوة يزيد من الأنشطة العصبية في الفص الصدغي الأمامي؛ مكان التحكم بالذاكرة العاملة، ومنطقة الحزام الأمامي (في المجسم الشبيه بالدماغ يقع تحت الشرق الأوروبي) وهي منطقة التحكم بالتركيز.



Twitter: @ketab_n

جمعت تفاصيل أخرى أشار إليها بعض الأشخاص بارتجال. على سبيل المثال، الأوكسيتوسين، والذي يسمى هرمون الحب؛ حيث يظهر أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل في المكان الذي يشعرون فيه بالاهتمام الذي يعني استقبال الكثير من الأوكسيتوسين باستمرار. يمكنني أن أنصحك باستنشاق الأوكسيتوسين قبل البدء في دراسة اللغة.

وأيضاً، الدوبامين موصل عصبي في إشارات المتعة في الدماغ، ولديه كذلك ارتباط مهم بالوظائف المعرفية. أشير أيضاً إلى أن هبوط مستويات الدوبامين - كأحد أعراض تقدم العمر - يعتبر مسؤولاً جزئيًّا عن إغلاق المرونة الدماغية في تعلم اللغة. لذا، إنّ التلاعب بمستويات الدوبامين أثناء التعلم يمكن أن يسمح لك باستعادة أفضل للمفردات الجديدة.

التلاعب بأنشطة قرن آمون يجعل تعلم اللغة أسهل. إحدى الطرق لتحفيز قرن آمون تكون بتناول الأمفيتامين[1]. في إحدى التجارب، استخدم الأمفيتامين والليفودوبا (المادة الأولية لإنتاج الدوبامين الذي يستخدم كدواء في علاج مرضى الباركنسون) لتسريع تعلم المفردات بنسبة 20 بالمائة لدى الأشخاص الأصحاء. العكس شوهد أيضاً إذا أخمدت أنشطة قرن آمون بتأثير أدوية معينة؛ إذ يتعطل التعلم الترابطي.

ثم هناك تداخلات أخرى جريئة قد تسهم بقوة في هذا الأمر ويمكن تطبيقها فقط على الحيوانات. حقن البروتين المسماة "العامل العصبي المغذي، الناتج من المخ" (BDNF) الذي يلعب دوراً أساسيًّا في تكون

(1) الأمفيتامين: عرف سنة 1930 كدواء لعلاج احتقان الأنف والزكام. في سنة 1937، أنتج الأمفيتامين كأقراص لعلاج اضطرابات النوم، وكان المحاربون في الحرب العالمية الثانية يتناولونه للتغلب على الإجهاد ليظلوا يقظين. وفي عام 1960 شاع استعمال الأمفيتامين بين سائقي الشاحنات ليحافظوا على انتباههم أثناء قيادتهم في المسافات الطويلة. (الموسوعة الحرة - المترجم)



Twitter: @ketab_n

الذاكرة طويلة الأمد، يمكن أن تطور نسبة القدرة على الملاحة في الضباب، بسبب أن التمارين البدنية تزيد من إفراز (BDNF). على الأقل في المعدل، يمكن أن تساعد هذه في تطوير الذاكرة (على الرغم من أنه أشير إلى أن تعزيز الذاكرة يأتي من الأدرينالين).

ما دام من الممتع التفكير في أثر البروتين والتعزيز العصبي في تعلم اللغة، فإن النتائج المتوقّعة تبقى غامضة. قالت كاترينا برتستين، عالمة الأعصاب الألمانية التي اختبرت الأمفيتامين والليفودوبا، إن العقار في دراستها أثر تأثيراً أقل، ولم يستجب جميع الأشخاص إلى المادة؛ بافتراض أن المستخدمين يريدون تعزيزاً كيميائيًّا يعمل بفعالية لهم، ويستحق تحمّل أي آثار جانبية بسببه.

ولكن، هل تستطيع أن (تصمِّم) متعدد لغات مفرطاً في المختبر؟

جون شومان المتخصص في علم اللغة التطبيقي من جامعة كاليفورنيا، في لوس أنجلوس، أجاب إجابة موارية: "أفترض أنه في وقت ما في المستقبل، يمكن أن يكون من الممكن تعزيز البيئة الكيميائية في رحم الأم أثناء تطور الطفل، وتوجيه عدد كبير من الخلايا العصبية إلى منطقة الجانب الأيسر من الدماغ". وأشار إلى أن هناك مشكلة واحدة يمكن أن لا تنتج متعدد لغات مفرطاً؛ وهي الدماغ. فهو شيء معقد، وليس مجرد آلة محكمة على الإطلاق. لن تكون متأكداً إن كان في موضع التنفيذ. حبكة سيئة في الخيال العلمي، بكل تأكيد.

"إذا عززت جوانب منطقة فيرنك، يمكن أن تنتج مغنياً جيداً، أو شخصاً ذا قدرة سماعية مميزة. منطقة بروكا منطقة تحكم، ومنطقة نمط تعلم. يمكن أن يتحول الرجل إلى شخص يعد البطاقات في الكازينو". ثم قال شيئاً ما أثبطني: "أنا لست متأكداً كيف يمكن أن تعزز هذه الجوانب بدون صنع وحش كامن؟".

أشارت بعض الدراسات عن المتعلمين الناجحين للغة إلى أنهم



Twitter: @ketab_n

"أكثر انفتاحاً على التجارب الجديدة" من بقيتنا. من المغري - يفترض عالم النفس ألكسندر جيوري - أنّ لدينا ذات مرتبطة مع لغتنا الأصلية؛ "الذات اللغوية" التي تحتاج إلى أن تُرخى وتنفذ أكثر في تعلم لغة جديدة. أولئك الذين لديهم ذوات ذات حدود سلسة، مثل الأطفال، والأشخاص الذين يشربون بعض الكحول، لديهم استعداد أكبر لكي يكونوا مختلفين عن ذواتهم؛ والذي يعني أن لهم ألفاظاً أفضل في اللغة الجديدة.

مثل هذا الافتراض كان يظهر في الأجوبة التي استلمتها في استبياني على شبكة الإنترنت. كتب أحد الأشخاص (متحدث أصلي باللغة الإنجليزية، يعيش في تايوان وقال إنه يتحدث عشرين لغة): "عليك أن تكون قادراً على الملاحظة الجيدة، وفعل وتقليد الطريقة التي يتحدث بها الآخرون؛ ليس فقط في اللكنة ولكن في لغة الجسد والتنغيم والنغمة. أغلب متعلمي اللغات يشعرون بالخجل من هذا "الفعل" ويتوقفون في بداية الطريق ويفوتهم الكثير. ابدأ فقط بفعل هذا وستذهب أبعد في لغتك حقًّا، لأنه يعتبر تبنِّي هوية جديدة لذاتك". وأضاف: "أنا مثال للتبني. أغلب الأشخاص الذين يقابلونني لا يستطيعون تخمين من أين أنا، بسبب أن جسمي وأفعالي تبنَّت الثقافة التي أنا بصددها".

وكتب شخص آخر: "متعلم اللغة الجيد لديه القدرة على قبول دور الطفل عند التحدث والكتابة باللغة الجديدة؛ وهو يتسم بالسذاجة والطيش والتعثر، وهو غير منظم ولكنه فضولي أيضاً ومتفتح الذهن ومليء بالطاقة".

لقد أذهلني أن النموذج المثالي من متعدد اللغات المفرط يمكن أن يكون نوعاً من بيتر بان[1]. طالما أنك حديث العهد باللغة المعطاة،

(1) بيتر بان: شخصية أسطورية، جاءت في رواية للكاتب المسرحي الأسكتلندي باري جي، عن صبي شقي يستطيع الطيران، ولا يكبر في العمر، ويعيش حياته السرمدية على جزيرة. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

فلا يجب عليك أن تقدم نفسك كشخص ضليع فيها. لن تُقاس معرفتك بمعرفة المتحدثين الأصليين للغة. ربما، مثل بيتر بان نفسه، تتجنب الحقيقة. للحصول على بعض من التحليل النفسي هنا، عليك تذكر تجارب طفولتك في شفاه وآذان الأمهات، ذلك الوقت عندما كانت الحدود بين ذاتك والآخرين أقل.

ولكن نظرية القبيلة العصبية تشير إلى ميزات نفسية مثل الحدود الذاتية والاضطرابات العصبية لا تحدد متعدد اللغات المفرط، حيث إن القدرات والأساليب المعرفية تلعب دوراً أكبر في نجاح المخرجات. في الحقيقة، لدى بعض متعددي اللغات المفرطين، مثل ألكسندر وكن هيلين، كان الغوص في اللغة استجابة لألم عاطفي. وربما كانت هوية مفيدة لهما. ومع ذلك يبقى السؤال: لماذا انتقلوا إلى اللغات؟ لأنها مفيدة - كما أعتقد - عند النظر إلى بعض خصائص اللغة بهدف رؤية مدى جاذبيتها بالنسبة إلى الأشخاص المنطبق عليهم تعريف بارون كوهن في "المنظمين".

في عقل المنظم، سعة اللغة مرتبة بطريقة واضحة، وترتب نفسها في مجموعات لا تعد ولا تحصى، ولا يمكن أبداً أن تكتشف بالكامل. بعض هذه الترتيبات يمكن أن تضعها؛ إذ يمكنك أن تقرر وضع كل الكلمات التي تعرفها في قائمة بناءً على الأصوات التي تبدأ بها، وعدد المقاطع الصوتية فيها، ومتى تعلمتها، وعدد تكرار استخدامها، وما الذي تعنيه، أو الكلمات مختلفة اللغة التي تحمل المعنى نفسه. يمكن أيضاً أن تعد الكلمات، والصفحات، والدقائق، والساعات، والعبارة الاصطلاحية، والأخطاء، وأجزاء الكلام: كم عدد الأسماء التي تعرفها؟ كم عدد الأفعال؟ وإذا أصابك الملل من ذلك، يمكنك ترتيب الحروف الأبجدية في القواميس والقواعد وكتب العبارات، أو تنظيمها حسب عائلات اللغات والنوع والناشر.



Twitter: @ketab_n

يمكن أن تلاحظ الأنماط أيضاً، وتحاول "فك الرمز"، وتستنتج القاعدة، وتقوم بالتنبؤ والبحث عن الاستثناءات في القواعد. تعلم اللغة يُدخل أنظمة فنية في إعادة الجمل من خلال الكتابة أو التحدث بالكلمات، وهذه يمكن أن تستعار أو تتبنى (من خلال أدوات تعليم اللغة مثل مناهج Assimil، Pismsleur، Rosetta Stone) أو تصميم وسيلة جديدة (مثل ما قام به ألكسندر ولومب كيتو). وعلى ضوء الوسيلة الجديدة يمكنهم اختبار طريقة أداء أدمغتهم، ومدى جودة ارتباط اللسان واليد. اللغة أيضاً نظام طبيعي: يمكنك أن تشاهد الأطفال يكتسبونها؛ أكثر من التفكير في اكتسابك لها، وفي فقدانها الحتمي. إنه نظام اجتماعي، مرتبط بالثقافة، والأوطان، والمناطق.

لا يمكن الاستهانة بثراء المعلومات في اللغة التي تنشأ من مجموعة محدودة من الوحدات الأساسية؛ حيث إن معدل الأحرف الساكنة في اللغة حوالى اثنين وعشرين حرفاً، ومعدل عدد حروف العلة خمسة أو ستة[1]؛ لذا إنّ المجموعات المحتملة كبيرة. بناء على ما قاله المتخصصون في دراسة التصنيف الترتيبي لرموز اللغة Typologists، إن هناك سبع طرق رئيسة لترتيب الفاعل، والفعل، والمفعول به في الجمل

(1) أطلس العالم لتراكيب اللغة قال: إن عدد الأحرف الساكنة في اللغة يتراوح بين 2 إلى 122، وعدد أحرف العلة يتراوح بين 2 إلى 14. لغة روتكسا؛ اللغة في بابوا غينيا الجديدة لديها فقط 6 أحرف ساكنة، ولغة جنوب كوشين؛ التي يتحدث بها في البوستوينا تحوي 122 حرفاً العديد منها أصوات انفجارية (الصوت الانفجاري يصدر بالتقاء أقصى اللسان مع الحنك اللين ثم إغلاق الشفتين أو لمس الأسنان بطرف وجانبي اللسان تلقائيًا - المترجم) http://wals.info/feature/1. لغة ياماس، اللغة التي يتحدث بها في بابوا غينيا الجديدة، تحوي حرفيْ علة، في حين أن الألمانية تحوي 14 حرفاً. http://wals.info/feature/1 (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

(الغالبية العظمى تضع الفاعل أولاً)[1] وفقط ستة أنواع من كلمة (لا)[2].

دعنا نقول إنك لست منظماً فقط، ولكنك أيضاً خجولٌ. التفاعلات الاجتماعية الدقيقة تعتبر بالنسبة لك تحدياً وربما تتعبك. والاستجابة لها بسيطة: تجنب الناس. الاستجابة الأخرى هي الاضطلاع باللغة باعتبارها طريقة القانون الطبيعي للتعامل مع الناس، وتتبع المدخلات والمخرجات في روح العلاقات الاجتماعية. إذا كانت القدرة القوية على التعاطف مع الآخرين تعوزك، فيمكن أن تستخدم ميزة الشعور في اللغة كعكاز تستند عليه. وكنتيجة لذلك، خلال الحياة، اكتشافاتك تجعلك متآلفاً مع اللغات أكثر من الناس الذين تتحدث معهم. ولذا، النموذج المهيمن لتعلم اللغة في عمرك يؤكد على الاتصال، وتمضي وقتاً في التواصل، ولا تترك التعاطف؛ أنت تحفز أداة التعاطف.

عدد قليل آخر من القدرات المعرفية يرافق تنظيمك؛ إحداها الذاكرة؛ ربما الذاكرة الصريحة القوية والحلقة الصوتية. ولديك أيضاً مهارات وظائف عضلية تنفيذية. ولكن ليس منها ما يرتبط مع ميولك إلى التنظيم. ما حدث على كل حال، هو أنك قادر على التلاعب بالمرونة في دماغك. بالنسبة للبالغين، يجب أن تضبط المرونة مع "كوابح" مثل ضبط بناء الخلايا الجديدة والتلاعب بالمسارات الكهربائية بين الخلايا العصبية.

يرغب العلماء الآن في العودة إلى طرق تحفز بها الكيمياء الحيوية الفترات الزمنية الحاسمة للأشخاص و"مرونتها الغزيرة". (حالياً جهاز الرؤية – في الجهاز العصبي المركزي – أفضل دراسة، يفترض الخبراء

(1) موضوع ترتيب الكلمات أكثر تعقيداً، ومناقشته بالتفاصيل يمكن الاطلاع عليها في الموقع http://wals.info/chapter/81 (المؤلف)

(2) أو كما وضعها أطلس العالم، هناك ستة (مقاطع من وحدات صوتية صغيرة تشير إلى النفي الشرطي في الجمل التقريرية)، انظر http://wals.info/chapter/112 (المؤلف)



Twitter: @ketab_n

أن الآليات نفسها أيضاً تنطبق على اللغة). هذه التغييرات هي في الكيمياء الحيوية، ويمكن أن تأتي من الخارج إلى داخل الجسم. كتب دافني بفلير، الباحث في العلوم الاستعرافية من جامعة روستشر، في عام 2010 مقالاً قال فيه: "قد يكون من المثالي إعادة التطور الجيني الطبيعي لحالات الأدمغة التي تقود إلى المرونة بطريقة موسعة ولكن بشكل موجه". أو في عبارة أخرى، سيكون من الأفضل إذا استطعت إثارة الحالات العقلية المفيدة للتعلم بدون فعل أي شيء مضر للجسم. والتي يمكن أن تنتج "الوحش".

إحدى الطرق غير المؤذية - الأنشطة الغامرة - يمكن أن تثير التعلم على نحو أفضل. في العالم البصري، يتم هذا من خلال ألعاب الفيديو، خصوصاً ألعاب الإثارة. في مستوى الكيمياء الحيوية، مثل هذه الأنشطة القوية ولمدة طويلة من الوقت تقتحم الموصلات العصبية خصوصاً الدوبامين الذي يشير إلى أن هذا السلوك المحدد سلوك ممتع. كتب بفلير: "ترتبط الألعاب أيضاً "بالتدفق" أو شعور الشخص أنه قادر على مواجهة التحديات في بيئته مع مهارات مناسبة". هذا التدفق يثير عوامل الكيمياء الحيوية التي تشجع على المرونة. هذا المفهوم للتدفق "تجسيد لمعنى عميق من المتعة التي تذهب أبعد من مجرد إشباع الحاجات، وتظهر أيضاً عندما يحصل الشخص على شيء ما غير متوقع فيه معنى الإبداع". قال فلير إن المبشر في هذه الطريقة في أسلوب التفكير، أن العلماء لا يفصلون العوامل الداخلية أو الخارجية، ولكنها محاولة لرؤية كيف تتفاعل هاتان المجموعتان.

في عالم اللغة، لا أحد يعرف ما هو أفضل تنظيم للخلايا في الدماغ يمكن أن يعطي الشخص أعظم قدرة على تعلم اللغة. ولكن، يمكن أن نفكر أن متعددي اللغات المفرطين - وبدون شك - لديهم قدرة على التحكّم باللغة. وبشكل آخر، لا يستمرون في الأنشطة المتكررة التي



Twitter: @ketab_n

تزعج أغلب الناس الآخرين.

السؤالان اللذان يراودانني دائماً عن متعددي اللغات المفرطين: لماذا يتعلمون اللغة بالطريقة التي يقومون بها؟ وكيف؟ لم أجد جواباً عن السؤالين لبعض الوقت. أعترف أني قلقٌ من أنني قد لا أكون أعرف بما فيه الكفاية، أو من أنني أسبح في أجزاء الكيمياء الحيوية وفقدت فرصة اكتشاف الصورة الكبيرة. تخيلت أمين المكتبة الإيطالي فرانكو باستي يدفعني في كتفي قائلاً: "كانت دراسة حالة، دراسة حالة".

كنتُ على حق في قلقي، بسبب أن البشر يميلون إلى تفضيل ربط التفسيرات المختزلة. ليس هناك أساس تُعزى إليه ظاهرة متعددي اللغات المفرطين. من خلال البحث والتحقيق والشرح في أصل تعددية اللغات المفرطة، اكتشفت أن الدماغ والثقافة وسيرة حياة الشخص تتفاعل معاً لتنتج شخصاً مثل ميزوفانتي أو غراهام كنساديل. لا يمكن التنبؤ من نمط شخصية الفرد بأنه قد يكون جيداً أو غير جيد في تعلم اللغات (على الرغم من مخالفته الانطباع العام الذي يقول إن الشخص الانطوائي أكثر نجاحاً من الشخص المنبسط).

تلعب الخلفية الثقافية دوراً في احتضان المزايا المعرفية وتعطي الموهوبين مصادر ينشئون عليها. كما أن القوى التاريخية والاقتصادية تقوم بدور مهم أيضاً في القصة، ليس فقط من خلال تحديد أي اللغات تتعلم وما الذي يجب فعله معها، ولكن من خلال استدعاء وتوجيه المميزات العصبية التي تخدم التعلم والتحدث، واستخدام الكثير من اللغات. مثل هذه القوى أيضاً تساعد على الاستفادة من الفرص في المدرسة، وفي السفر، وحتى في القراءة والكتابة. وتتضح هذه الصورة عندما نتذكر كيف استعان الأوروبيون بميزوفانتي للتعامل مع الجنود الجرحى في المستشفى متعدد اللغات، وكيف أن المستعمرات الأوروبية أعطت الكاميروني الصغير حاجته من خلال تعلم لغات أكثر.



Twitter: @ketab_n

بوضوح، يعتبر الدماغ جزءاً مهمًّا من القصة، ويبدو أن متعددي اللغات المفرطين لديهم أسس عصبية غير عادية. ربما يبدو هذا استغراقاً في ذكريات الماضي عندما كان الناس يعتقدون في أدمغة النخبة، ولكنه ليس كذلك. علم الأعصاب الحديث حدد المواقع العصبية المسؤولة عن الأداء العالي، ويبحث عن كيفية التلاعب في مرونة أنظمة محددة في الدماغ، ويحاول فهم العوامل الجينية التي تؤثر على القدرات المعرفية، وكذلك التي تسبب الإعاقات.

أضف إلى هذا أنّ القبيلة العصبية كانت توجد من قبل ولكنها أصبحت أكثر وضوحاً في اتجاهات الثقافة السائدة. اشتد طموح متعدد اللغات في الوقت نفسه الذي تستطيع فيه التكنولوجيا مسايرته. حاولت أن أصف كيف تطور تعلم اللغة الأجنبية واتخذ نماذج مختلفة عبر التاريخ، وكيف أنه في بعض الثقافات، تكون أدمغة الأشخاص مشغولة بأنواع مختلفة من المواهب المعرفية. حاولت تعليل الطريقة المحددة التي تعرف من خلالها القدرات باعتبارها مواهب أو إعاقة بناءً على السياق التي تكون فيه. وحاولت شرح لماذا الأشخاص في المجتمعات متعددة اللغات يميلون إلى تعلم لغات أقل من الموجودة في محيطهم.

يظهر متعددو اللغات عندما يظهر نظام الكون اللغوي في أدمغة معينة وعندما يظهر في الأدمغة المعينة أي نظام لغوي في العالم، لا يمكن مساعدتهم باعتبارهم متعددي لغات مفرطين، ولكنْ يمكن مساعدتهم باعتبارهم متعلمي اللغة من خارجها، بسبب أنهم متعددو لغات يتعلمون لغات أكثر مما يحتاجون إليه للمشاركة في المجتمع المحلي ولكن أبعد قليلاً من المشاركة في المجتمع العالمي المتخيل؛ إلى درجة أن يصبحوا متعلمين نخبة، فهم أناس تعتبر الممارسة في المرونة العصبية بالنسبة لهم اختيارية، وليست مكتسبة. الإنجليزية يتحدث بها على نطاق واسع في العالم، وإذا كان الشخص يتحدث الإنجليزية كلغة أم، فإن دراسته للغات



Twitter: @ketab_n

الأخرى تعتبر إلى حد ما للرفاهية، إذا جاز التعبير.

عندما تنظر إلى مرونة الدماغ في سياق الاقتصاد العالمي، فإن السؤالين التاليين: "لماذا يقومون بهذا؟ وكيف يقومون به؟". يأخذان معنىً أعمق.

لماذا يقومون بهذا؟ بهدف تطوير المرونة العصبية لديهم.

كيف يقومون به؟ من خلال تطوير المرونة العصبية لديهم.

إنهم ليسوا خجولين من أنهم قد لا يبدون مثل المتحدثين الأصليين. بل الأكثر من ذلك، إنهم يشعرون بالخوف من أنهم قد يصبحون متحدثين أصليين فقط. فهم ليسوا مهتمين أنه ليس هناك مجتمع متعدد لغات، بل إنّ هدفهم هو البقاء خارج المجتمع المتحدث بالضبط.

ماذا عن بقيتنا؟ نحن نستسلم لتصلب الدماغ، ونبقى سعداء كمتعلمين للغة من الداخل؛ ونبقى في أمان، في المكان الذي نشعر فيه بالانتماء.



Twitter: @ketab_n

# القسم الخامس

## الوصول
## متعددو اللغات المفرطون في الفلاندرز


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الثامن عشر

غاية ما يمكنني قوله، أن القبيلة العصبية لمتعددي اللغات المفرطين تجمعت فقط مرتين، وكلتا المرتين كانتا في بلجيكا. وبقليل من الحظ، وجدت اسم الرجل الذي جمعهم معاً.

كان اسمه إفوين هيرمانز، والتقيته في ميدان المدينة في ليفيان، مدينة عالمية بالقرب من بروكسل، جلسنا خارج المقهى. كان أصلع ووسيماً، ولد في عام 1943 وهو الآن متقاعد، يحمل ذكريات جميلة عن عمله كمدير مدرسة للغة في هاسيلت، المكان الذي يأتي إليه رجال الأعمال الفلمنكيون لإيجاد أسواق أكبر لبيع بضاعاتهم، وربات البيوت لتوسيع مداركهن. في عام 1986، قال لي إنه حضر حفلاً مع القنصل الأمريكي الطلق في سبع لغات. يعتقد هيرمانز، أنه لا يمكن أن يكون الرجل الوحيد في هذا العالم المنعزل من البلغاريين وربما النرويجيين والهولنديين الذين يتحدثون الكثير من اللغات الأجنبية. لماذا لا أحاول اكتشاف إن كان هناك أحد مثله؟ دعنا نبدأ مع سكان منطقة الفلاندرز[1] ولنرَ.

بعد أن وجد بنكاً يرعى المسابقة، عقد هيرمانز مؤتمراً صحفيًّا

(1) منطقة الفلاندرز منطقة تاريخية في الجزء الشمالي الغربي من "أوروبا"، تشمل جزءاً من شمالي فرنسا وجزءاً من غربي بلجيكا - وهو الجزء الأكبر - وجزءاً من جنوب غرب هولندا، وتقع على بحر الشمال. هذا، ويستخدم مصطلح الفلمنك للدلالة على أكثر من ستة ملايين شخص من ساكني منطقة الفلاندرز-الجزء الشمالي من بلجيكا - وللدلالة أيضاً على غالبية البلجيك. ويعتبر الإقليم الفلامندي بالمعنى المعاصر فلاندرز واحداً من الأقاليم الفيدرالية الرسمية الثلاثة التي تشكل المملكة البلجيكية. (موقع مفكرة الإسلام - المترجم)



Twitter: @ketab_n

دعا فيه المتسابقين الذين لديهم مهارات لفظية في سبع لغات على الأقل. وضع بعض القوانين البارعة وإن لم تكن مبتكرة، ومنها: غير مسموح باللهجات؛ أي يحب أن تكون جميع اللغات معترفاً بها من الحكومة. لا يسمح بأي لغة ميتة، ولا لغات مصطنعة (لغة الإسبرانتو خارجاً). وحتى مع هذه القيود، فقد دعا هيرمانز جميع الأشخاص الذين يريدون المشاركة، بهدف فصل جمع المتسابقين الستة والعشرين الذين سيختبرون في مجموع سبع وأربعين لغة. يمكن للحكام منح ما يصل إلى عشرين نقطة في كل لغة. ويمكنكم أيضاً تقليل النقاط إلى حد التجاهل. المتحدث بالهولندية يمكن أن يتظاهر بالتحدث باللغة الأفريقية؛ اللهجة القريبة من الهولندية (طالما أنها لغة وطنية مؤهلة) وإن لم يستطع بحديثه إقناع الحكم، فإنه يخسر نقاطاً. في الحصيلة، جدول النقاط يعطي العديد من المسارات للفوز، يمكن للشخص أن يحقق الكثير من النقاط في مجموع اللغات القليلة المرتبطة. ويمكن أن يحقق نقاطاً أقل لكل لغة على حدة على مجموع عدد اللغات الكلي.

يعرف هيرمانز أنه سيحرز شيئاً ما مميزاً بتجميع أعضاء من القبيلة معاً بهذه الطريقة. قال: "جعلت الناس الذين ينظر إليهم بمجتمعاتهم على أنهم نادراً ما يجتمعون معاً، والذين وجدوا أنفسهم فجأة أرواحاً شقيقة، مع أشخاص أقل أو أكثر تشابهاً، لديهم الاهتمامات نفسها، ولديهم المهارات نفسها، يتبادلون في ما بينهم احتراماً كبيراً".

سألته: "هل كان يتنبأ بمن سيكون الفائز؟".

"أنا رأيت العديد من الطلبة في مدرستي الذين يتحدثون خمس لغات وستًّا، وكنت أتوقع أن الفائز سيكون واحداً من أولئك. ولكني كنت مندهشاً من الشخص الذي فاز".

بين متعددي اللغات، تعتبر الأسطورة الخارقة مماثلة للعلم. في مساعدتي في البحث عن مميزاتهم، كنت بين الحين والآخر ألقي النظر



Twitter: @ketab_n

على كتاب عالم الحيوانات الفرنسي برنارد هيفلمنز "تتبع الحيوانات غير المعروفة"، الذي قال إن الثدييات الكبيرة غير المكتشفة من الممكن أن تكتشف، كما لو كان عالِم حيوانات يرغب في الاستماع إلى القصص الشعبية.

انظر إلى أوكابي، ذلك الحيوان ذي الأرجل الأربع في وسط أفريقيا. إن وصفك له يعتمد على مدى معرفتك عن الثدييات الأفريقية، يمكن أن تقول إن أوكابي يشبه الحمار الوحشي الرصاصي مع طول غريب في الرقبة، أو إنه يشبه الزرافة مع قصر غريب في الرقبة أي بحسب معرفتك بالحيوانات الأساسية المجلوبة إلى حديقة الحيوانات المعاصرة. ولكن، ماذا لو كانت اللوحة المكتوبة على حديقة الحيوانات تقول لك إن علماء الطبيعية الغربيين في القرن التاسع عشر رفضوا أن يكون أوكابي حقيقة. كانوا يعتقدون أن رجال القبائل في أفريقيا ادعوا وجوده أو أنهم شاهدوا حماراً وحشيًّا مشوهاً. ولكن عندما لمس علماء الحيوانات جلد أوكابي وشاهدوا الحيوان الحقيقي بأم أعينهم، أصبح هذا المخلوق حقيقة.

ناقش هيرمانز حالات أخرى: الدب البني في كامتشاتكا، وغوريلا الجبل، والحية كومودو، والقرد بونوبو، وأسماك سيلكانث؛ جميع المخلوقات التي كان وجودها مثار شك من قِبل العلماء، ولكنها شوهدت من قِبل السكان المحليين. كان لديه اعتقاد يقيني بالعمليات العلمية، ولكنه نظر بريبة إلى حد ما إلى العلماء أنفسهم، الذين (في رأيه) يفتقدون إلى الحس في أن العالم الذي يسمعون عنه ويعتقدون أنه خرافة قد يكون موجوداً بالفعل. لإيجاد تلك المخلوقات، عليك أن تكون مستعدًّا للاستماع إلى السكان المحليين.

كان هيرمانز نفسه مرتاحاً مع حياة الأساطير. وكان عليَّ أن أتعلم الشيء نفسه.

شرعت في كتابة (وداعاً بابل) على غرار، دعنا نقول، كتاب يقول



Twitter: @ketab_n

بوجود بعض المخلوقات الخرافية مثل وحش لوخ نس[1]. مثل هذا الكتاب يعترف بارتباطه بالأسطورة، والتاريخ، والعلم وراء الوحش من خلال التحقيق بالتقارير القديمة عن مشاهدة الوحوش، هذه التقارير التي - بأي سبب من الأسباب - أهملت أثناء البحث. ذهب المؤلف إلى لوخ نس بنفسه، وحمل معه الكاميرات وجهاز السونار، وقام بإجراء مقابلات مع السكان المحليين. عبر المؤلف البحيرة بالقارب، متمنيًّا أن يلتقي الوحش وجهاً لوجه. جرب المؤلف شعور أن يكون المرء باحثاً في الماء، كان مستمتعاً حقًّا، وأحب جمع المعلومات من الباحثين عن لوخ نس، مع تقييمهم الجاد عن الأساطير والقصص الشعبية. من هذه التجربة طوَّر المؤلف قائمة من الأسئلة ومجموعة من الاستنتاجات عن نماذج عادية من التنوع البيولوجي. وعاد من رحلته الاستكشافية، ولكن من دون أن يحمل المخلوق داخل قفص.

وسيراً على هذا المنوال نفسه، أصبحت أشعر أن هيرمانز كان شقيق روحٍ. على كل حال، مشروعي يختلف عن المعيار والاعتبار الأساسي لعلم دراسة الحيوانات الخفية Cryptozoology، فقد قمت باكتشاف حقيقي، وهذا الاكتشاف لم يكن فرديًّا، بل كان قبيلة كاملة.

إنني أريد نموذجاً معاصراً، شخصاً ما بمهارات لفظية (ليس فقط في القراءة والترجمة) قدراته لم تذكر فقط من مراقبين، أو بادعاء من المتحدث نفسه، بل قُيمت ممن تدرب من مراقبين متعلمين. أريد دليلاً، ونتائج عن التجارب الطبيعية لتعددية اللغات، وإجابة عن سؤال: ما الحد الأعلى للقدرة على التعلم والتحدث باللغات؟

(1) وحش لوخ نس (لوش نس) مخلوق غير مؤكد الوجود، يُعتقد أنه سليل مجموعة باقية من الزواحف البحرية، على الرغم من أن وصفه يختلف من شاهد لآخر. ويُقال إنه يسكن بحيرة لوخ نس في أسكتلندا التي تعتبر أكبر بحيرة مياه عذبة في بريطانيا العظمى. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

قد يكون يوهان فانديفال إميل كربس في القرن الحادي والعشرين؛ هذا الشخص الذي يظهر بشكل متقطع في وسائل الإعلام منذ 1987، ولكن لا يستطيع أحد مقابلته بسهولة. لم يجب على رسائلي الإلكترونية التي كانت تطلب منه مقابلة شخصية، وعندما سلكت الطريق المباشر واتصلت به هاتفيًّا، أجابني رجل أشار عليَّ بالاطلاع على الموقع الإلكتروني، المعروض باللغة الدنماركية. الصحف الألمانية صورته كشاب منعزل في الوقت الذي أجريت فيه مسابقة متعددي اللغات، وكمتدرّب على الهندسة ومستغرق باللغات. أردت بلطف دفع هذه الصورة جانباً وأخذ تصوره عن مسابقة الفلاندرز لتعدد اللغات. أخيراً استطعت التواصل معه عن طريق زوجته، ورتبنا موعداً للاجتماع في مدينة آلست الصغيرة، بالقرب من بروكسل، المكان الذي يعيش فيه.

وصلت إلى آلست قبل يوم لرؤية المكان؛ منطقة صناعية قديمة، ثم تجولت في الأحياء المكتظة، وأنا أفكر في تناول القهوة بعيداً عن الفرقة الموسيقية التي نصبت معداتها وسط الميدان. وفجأة، لفت نظري رجل يلبس لباساً فضفاضاً، وتميل كتفاه إلى الأسفل بسبب حمل ثقيل في يديه، ويبدو مشتت الذهن؛ كما لو كان جسمه يتحكم به عن بعد. لم أدرِ لماذا لفت نظري! لم أكن أنظر إليه، ولم أكن قد تذكرته من صورة رأيتها من قبل، ومع ذلك عرفته، إنه هو متعدد اللغات المفرط، أو هكذا أعتقد، ثم قلت: "هذا سخيف، أنت تعلم أن العلماء المولعين بالكتب ليسوا بهذه الهيئة!". فكرت أن أتبعه وأرى إلى أين يذهب. ولكن حتى لو كان هو، فما الجدوى من أن أسير خلفه، باستثناء معرفة كيف يحمل أغراض البقالة؟

جاء يوهان لأخذي في صباح اليوم التالي، من الخان الأيرلندي المجاور للفندق الذي أنزل فيه، عرفته مباشرة عندما دخل الخان متثاقلاً، ليس من الصورة، ولكن من ميدان المدينة يوم أمس.



Twitter: @ketab_n

كنتُ سعيداً لأنني لن أضطر إلى أن أتبعه سيراً على الأقدام إلى منزله المتصل بأبنية أخرى مطلية باللون الأصفر. كان يقود السيارة، وساد بيننا الصمت. عرفت أننا لن نجلس في القبو المظلم، ونرتشف الماء من أكواب ورقية. في الحقيقة، جلسنا في مطبخ منزله الأنيق المريح، مع زوجته ليندا التي وضعت كعكة وقهوة، وجلسنا نأكل مع طفليهما، (ولد وبنت). تحدثنا لوقت طويل في أثناء العشاء عن الجبن، والفاكهة، واللحم، والخبز، وناقشنا اللغات، وحياة متعدد اللغات المفرط.

شعر يوهان بني، ويضع نظارة ذات عدستين مربعتين، ويتحدث بصوت هادئ. يشغل حاليا منصب مدير قسم اللغات التركية في كلية جامعة غانت، الجامعة التي أنهى فيها دراسة الدكتوراه عن قواعد اللغات التركية، والأوزبكية، والروسية. ويبدو متمتعاً بالصحة الجسمية والعاطفية. عيناه تدلان على الاتزان، ويضحك على النكت، وينتظر حتى تكمل ليندا تعليقاتها؛ إذ كانت لديها ملاحظات دائماً لتكملها. هي نفسها مغامرة في اللغة، درست المندرينية والروسية تحضيراً لرحلة بالقطار إلى سيبيريا. في بداية التسعينيات كانت تتودد إلى يوهان من خلال كتابة كارت الميلاد بلغة كان قد اخترعها هو. كان إلى حد ما محظوظاً لعثوره على واحدة من النساء القليلات في العالم التي تناسبه. نشأ يوهان في أسرة فلمنكية، لذا لديه خبرة مبكرة مع ثلاث لغات. قال: "هناك الآلاف من متعددي اللغات في الفلاندرز. تعلّم اللغات الأجنبية يحمل الكثير من الحظوة، ومن المعتاد تعلم اللغة الأجنبية في وقت المتعة، أثناء التريض مثلاً". أولى لغاته غير البلجيكية هي التركية، التي اكتشفها عندما كان في الثالثة عشرة، في رحلة قام بها مع والده، معلم الرياضيات، وفي رحلة أخرى بعدها بعامين وتحديداً في عام 1975.

اللغة التركية لغة مركبة، حيث تضيف أجزاء نحوية إلى نهايات الأسماء والأفعال. وبسبب أن اللغة التركية تطورت في الثلاثينيات، فإن



Twitter: @ketab_n

أغلب الاستثناءات التي كانت مصدر قلق لمتعلم اللغة قد أزيلت. فهي بعبارة أخرى اللغة المثالية للشخص المنظم المتمتع بذاكرة قوية. قال لي يوهان: "التركية حفظت حياتي". (تالياً قال هذا: إن العبارة كانت قوية جدًّا. وأراد مني أن أنقل عنه قوله إنّ التركية دخلت حياته لتبقى).

عندما أعلن عن مسابقة متعددي اللغات في فلاندرز في العام 1987، دفعه والده للمشاركة فيها. وقتها كان يعرف التركية واللغات القريبة منها، والأوزبكية، والقيرغيزستانية، والكازاخستانية، والتركمانية، والأذربيجانية؛ أغلبها كانت لغات يتحدث بها في مناطق الاتحاد السوفيتي، لذا كانت القواميس والقواعد بالروسية. وللوصول إليها تعلم الروسية؛ لأن كل واحدة منها كانت لغة رسمية في الجمهورية السوفيتية، ثم تعلمها يوهان كلها. ومن أجل تعلم الكلمات العربية والفارسية المستعارة في التركية والتي حذفت في الثلاثينيات، تعلمها أيضاً.

عندما استدعاه منظمو المسابقة، أعطاهم قائمة باللغات التي درسها. عندها فقط، قال إنه أدرك أن لديه إحدى وثلاثين لغة. سبع منها لغات ميتة، ووصف معلوماته في سبع لغات أخرى بأنها سطحية. في وقت خدمته العسكرية وقبل أن تبدأ المسابقة وجد ثكنة مهجورة وضع فيها كتبه وقضى أسابيع وهو يتمرن على لغاته كل ليلة.

عندما سمعت هذا أصابني الإحباط؛ فمن ناحية الطريقة لم يكن مختلفاً عن متعددي اللغات المفرطين الذين حددوا ست لغات أو ما يقاربها نشطة، والعديد منها محفوظة، كنت أتمنى لو أنتقل من حياته مباشرة إلى المسابقة، وجميع لغاته جاهزة. متعدد اللغات في الفلاندرز لم يعمل بهذه الطريقة.

سألته: "هل من الممكن جعل جميع هذه اللغات نشطة؟".

سخر جون من الفكرة وقال: "وما الفائدة من هذا؟ لغتي القيرغيزستانية ليست جيدة كما كانت. ولكن لا أتوقع أن أتذكر اللغة



Twitter: @ketab_n

القيرغيزستانية اليوم أو غداً".

جَعْلُ كل اللغات نشطة يحتاج إلى جدول: القيام باكراً عند السادسة صباحاً والتدرّب على اللغة الطاجكستانية، ثم التحول إلى التركمانية عند السابعة، وهكذا.

قال: "وجدت مثل هذا الشيء سخيفاً".

إنه لم يكن يهدف إلى معرفة اللغات بقدر ما يستطيع.

- "ما أحبه هو السفر إلى الدول والتعامل باللغة في تلك المجتمعات".

(تذكرت نموذج رينر جانهل في تعلم اللغات للسياحة والتسوق).

أخبرني أنهم في الصيف الماضي سافروا إلى مصر، واشترى كتاباً عن الهيروغليفية، وكان سعيداً عندما فك الرموز المكتوبة على جدران المعابد والمسلات. قال: "بعض الناس غير مختلفين في ذلك. ولكن بالنسبة لي، وجدته مهمًّا، للحصول على هذا النوع من المتعة. ولتبقى متمتعاً باللغة".

كان يعتقد أنه يمكن لأي أحد أن يتعلم اللغة، والأمر لا يحتاج إلى أن يكون مميزاً للقيام به. كان يقول هذا كثيراً في المقابلات الشخصية الأولى. والآن له رأي مختلف. بعد عشرين سنة من تعلّم اللغات، إنه لا يعتقد أن العمل الجاد المركز فقط هو السبب الرئيس للنجاح. قال: "أعتقد أن بعض الناس لديهم حقًّا ميل إلى تعلم اللغات، أو إنهم أفضل استعداداً من الأشخاص الآخرين".

في يوم المنافسة، والتي عقدت في قاعة الاجتماعات بأحد المباني الحكومية، كان المتسابقون يتنقلون من طاولة إلى أخرى ويتحدثون لمدة عشر دقائق في كل لغة مع مُحكم من اللغة الأصلية؛ مع استراحة لمدة خمس دقائق لالتقاط الأنفاس بين الاختبار في كل لغة وأخرى. اختبر يوهان في اثنتين وعشرين لغة؛ خمس منها كان يعرفها بشكل



Twitter: @ketab_n

سطحي. وبعد عدة أسابيع، استقبله والده في محطة القطار بسيارة مزينة. قال يوهان: "عرفت في تلك اللحظة أني فائز". كان في عمر السادسة والعشرين، وقد فاز بالمسابقة بمجموع 251 درجة، مع تسع عشرة لغة التي "أثبت كفاءة امتلاكه مهارات التواصل فيها". في حين أن المتسابق الثاني روسي حصل على 181 نقطة. بعض اللغات، مثل الغيلية، لم يسجلها يوهان (إذ يستطيع القول فيها فقط "أنا جندي")، وهناك لغات قديمة أخرى مثل اللاتينية والسلافية القديمة، لم تحسب.

إنّ ذاك الطالب الخجول الآن ملك اللغة، ومتعدد اللغات فانديفال، كان فوزه في المسابقة نقلة كبيرة في حياته. قام بأكثر من سبعين مقابلة في الراديو والصحف والمجلات والتلفزيون. أثناء ظهوره في التلفزيون التركي تلقى العديد من عروض الزواج؛ فقد كانت شهرته عظيمة لدى الفتيات التركيات، في ما بعد حمل مكتب البريد البلجيكي الكثير من خطابات المعجبات إلى متعددي اللغات في فلاندرز، فينسيا الشمال[1].

**يوهان فانديفال**
**بعد الفوز بجائزة متعددي لغات**
**الفلاندرز/بابل 1987**

(1) فينسيا الشمال: تشير إلى مدن شمال أوروبا والتي تشتهر بقنواتها المائية المشابهة لمدينة البندقية في إيطاليا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

لدى فانديفال في عقله معنى واضح عن الذي حدث. وضع هيرمانز القوانين، وطبقت القوانين، وربح. ومع أسس مختلفة، يمكن أن يربح شخص آخر أيضاً. وسط الهوس الناتج عن الاهتمام، تم التغاضي عن هذا الأمر. كتبت الصحف في العناوين الرئيسة "يوهان فانديفال يتحدث 22 لغة بطلاقة". أدهشه الاهتمام، ولكنه أصابه بالضجر في الوقت نفسه. قال لي: "سُئلت الأسئلة نفسها مئات المرات، ولم أرد البدء مجدداً. هذا هو حقاً السبب في عدم مشاركتي في المسابقة الثانية!".

"المسابقة الثانية؟".

في عام 1990، انتهى الاهتمام الكبير بمسابقة متعدد اللغات في فلاندرز، وإفوين هيرمانز، المحفز، كان يبحث عن نجاح آخر. قال: "لم نستطع القيام بالشيء نفسه، فلو دخل فانديفال المسابقة، فسوف يربح مرة أخرى".

قرر توسيع المسابقة لتشمل (الاثني عشر) بلداً في الاتحاد الأوروبي، فغيرت بلجيكا بعض القوانين. الآن عليك أن تحصل على تسع لغات للدخول في المسابقة، وأن تقدم الشهادات والمؤهلات أو خطابات من الأساتذة يقرون فيها بدراستك لهذه اللغات. التقييم الآن مختلف أيضاً؛ فبدلاً من الحصول على عشرين نقطة في كل لغة، كان على الحكام استخدام ميزان من خمسة مستويات: (مستوى "المبتدئ" على الأقل ألف وخمسمائة كلمة، ومستوى "قبل المتوسط، والمستوى المتوسط"؛ والتي تكون فيها الأخطاء عرضية وتقاس المفردات بخمسة أو ستة آلاف كلمة، في المستوى "المتقدم" الذي حصل عليه خريجٌ جامعيٌّ في دراسة اللغات الأجنبية"؛ ومستوى متحدثي اللغة الأم) وهناك أرقام محددة من النقاط لكل مستوى.

يمكن أن يعطي الحكام أيضاً نقاطاً إلى المجموع الكلي. قال هيرمانز: "إذا كنت قد تعلمت اللغات الجرمانية وجميع اللغات



Twitter: @ketab_n

الرومانسية، فسيعتبر هذا سهلاً نسبيًّا. ولكن، إذا كان لديك العربية والصينية والإسبانية فسيعتبر هذا أداءً عقليًّا أكبر من الإسبانية، والفرنسية، والإيطالية" فمن حقك عندئذٍ أن تحصل على نقاط أكثر. يمكن أن يلغوا الفائز المحتمل رغم استخدامه اللغات بشكل جيد لأنها جميعها من عائلة لغوية واحدة. يمكن أن يكون الفائز شخصاً مثل فانديفال.

أرشد هيرمانز الحكام أيضاً إلى مقاطعة المتسابقين بأسئلة من عندهم، ليأخذ النقاش مساراً حقيقيًّا وتفاعليًّا في لحظته. في المسابقة الأولى، كان متعددو اللغات المفرطون الأفضل من لديهم بدايات ماهرة في التفاعل؛ "لأنهم يعرفون بالضبط ما عليهم قوله أو عدم قوله".

التحق حوالى مئتي شخص في مسابقة متعدد اللغات الأوروبية، وصل منهم عشرون شخصاً إلى النهائيات، وكانوا على الشكل التالي: ثلاثة من اليونان (كانت هيلين أبادزي واحدة منهم)، وثلاثة من إنجلترا، واثنان من أسكتلندا، وثلاثة من بلجيكا، واثنان من إيطاليا، واثنان من الدنمارك، وشخص من كلٍّ من فرنسا وألمانيا والبرتغال وهولندا ولكسمبورغ. لم يكن يوهان فانديفال واحداً منهم؛ فقد سئم من تكرار القصة المرة تلو الأخرى لكل صحيفة، ولكل مجلة أسبوعية، وكل محطة راديو محلية، والإجابة على الأسئلة نفسها، والتعامل معه بفضول، ونادراً باهتمام علميٍّ. كم عدد اللغات التي تتحدث بها؟ لماذا تتعلم اللغات؟ ما طريقتك في التعلم؟ دائماً التركيز على الطريقة. ما الطريقة؟

كان هيرمانز مصمماً على دفع يوهان للمشاركة، ثم بدأ يتساءل إن كان يقوم بشيء ذي قيمة. ألم تكن هذه المسابقة مثل عروض المشاهير؟ هل كان هذا الشخص يُعرَّض إلى اهتمام أكبر؟ هل كانت تستحق ذلك حقًّا؟

ديرك هيرنغ، الرجل الأسكتلندي الذي نشأ في شمال أدنبره والذي يعيش الآن في (يرويك)؛ وهي مدينة صغيرة في جزر شيترلاند، ربح



Twitter: @ketab_n

المسابقة الأوروبية لمتعددي اللغات بعد أن امتحن في اثنتين وعشرين لغة. ونظراً إلى أنّ القانون في المسابقة الثانية كان أكثر شدة، يمكن أن نقول إن هيرنغ كان أكثر نبوغاً من فانديفال. ولد عام 1932 وهو الآن في نهاية العقد السابع. يقوم بزيارة الكنائس، ويعزف على الأورغن (يعتنق المسيحية ويصف نفسه "باليسوعي") ويعتمد على زوجته، الفنانة الروسية، "لتفتح شبكة الإنترنت" له (عبارة مشاكسة ببراعة، أنا متأكد بأن هيرنغ صاغها متعمداً).

في مكالمات متتالية عبر الهاتف، وصف حياته كمتعلم للغة - العبارة المألوفة التي سمعتها من قبل - كان لديه اهتمام مبكر باللغة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، التي سمعها في دعاية (بي بي سي) لأنها كانت لغة الأعداء. في الثانوية العامة تعلم الفرنسية (والتي رفضها في البداية لأنها لغة "ناعمة" ولكنه أجبر على دراستها) والكثير من الألمانية. اللاتينية (التي كانت مملة في ذلك الوقت، ولكنها ساعدته على المدى الطويل) قدمت له مفردات اللغات الرومانسية، وهيّأته للاستفاضة في قواعد اللغة الروسية والفنلندية والأستونية والمجرية.

في جامعة أدنبره تخصص في اللغة الألمانية، وعلم نفسه الدنماركية، واستهوته اللغة الفارسية وتعلمها. دخل الجيش وتعلم الروسية (لغة الأعداء الأخرى)، ثم عمل بالاستخبارات. سافر كثيراً إلى روسيا وألمانيا، ووقع في حب امرأة ألمانية وعاش في ألمانيا أربع سنوات، وتعلم الرومانية للتحضير لرحلة إلى مولدوفيا، ثم علم نفسه الغيلية.

انتقل إلى يرويك في نهاية الستينيات، وتعلم السويدية والأيسلندية واللغة الفاروية[1] ومجموعة اللغات المشتركة بين السويدية والدنماركية

(1) اللغة الفاروية: لغة مستخدمة في جزر فارو. وهي من اللغات الجرمانية الشمالية، يبلغ عدد المتحدثين بها 48 ألف نسمة في جزر فارو، و12 ألفاً في الدانمارك. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

والنرويجية، ولغات سلافية أخرى. بالنسبة لي تعتبر يرويك نهاية العالم، ولكن ديرك أثبت لي أنها مرفأ عالميٌّ مليء بالجنود والصيادين وأصحاب اليخوت، من جميع أنحاء أوروبا. في منتصف التسعينيات سمى نفسه مترجم الجنود البلغاريين الذين كانوا في إضراب على متن سفينة؛ في إحدى المرات رافق جندياً روسيًّا مصاباً بالذهان إلى موسكو.

سألته: "كيف رأيت الفرصة، في حين أن الآخرين يرون حواجز اللغة؟".

فكر ديرك للحظة ثم قال: "أعتقد أنها مثل إدمان أشخاص آخرين على المخدرات. إنها حقاً شكل من أشكال من الإدمان الصحي".

"إنها مقارنة مثيرة، لأنه عندما لا يستطيع الأشخاص الحصول على الشيء الذي أدمنوا عليه، تكون لديهم ردة فعل جسمية سلبية".

ثم روى لي القصة التالية: "في إحدى المرات، تقدمت لوظيفة مدير مدرسة خاصة في جزر أوترهبريدس[1]، وكنت من المرشحين لهذه الوظيفة. وكلما فكرت بها أكثر أغرتني أقل. حسناً، أن أكون مدير مدرسة أمر جيد. أوه، ممتاز. ثم فكرت: ما الذي سأقوم به في تلك الليالي؟ اللغة الوحيدة التي يمكنني استخدامها هي الغيلية. يمكن أن أكون مخطئاً بشدة في هذا، ولكن، لا أعتقد أن في الجزر الغربية البيئة المتنوعة نفسها الموجودة في يرويك. ومن الناحية الشخصية، كانت تعتبر إنجازاً عالياً. فكرت: حسناً، ما الذي سأقوم به عدا عن الذهاب إلى الحانة المحلية والتحدث بالغيلية؟ يمكن أن أجد زوجة تتحدث بالغيلية، ولكن فكرة التحدث بالغيلية في المنزل، والتحدث بها خلال اليوم والليل لا تشجعني أيضاً".

في عام 1990 أخذت حياته منحنى مختلفاً. أصبح هناك رابط بين

(1) وتعرف أيضاً باسم الجزر الغربية ولونغ آيلاند، وهي سلسلة من الجزر قبالة الساحل الغربي لبر أسكتلندا الرئيس. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

المسابقة وشهرته التي ظهرت فجأة بأسلوب من الغضب والفخر. كان يعلم الألمانية وبعض الفرنسية في مدرسة يرويك عندما تحدث المدير مع ديريك عن مسابقة بروكسل:

- أعتقد أنه يجب عليك الذهاب.

- لا، ليست لديَّ فرصة.

- لا، ديرك، حاول.

وهكذا تقدم للمسابقة.

سرعان ما اتصل به هيرمانز، وقال إنهم سيتصلون خلال أسبوع ليسألوه في أكثر من عشر لغات. قال: "كان من الصعب المشاركة في هذا الملتقى، فقط لغة واحدة تلو الأخرى بدون توقف. وكأنك تحت وابل من الرصاص". ولكنه قام بأداء مُرضٍ ودُعي إلى بروكسل.

ومثلما كانت حال كل من يوهان فانديفال وهيلين أبازدي، لم تكن العديد من لغاته نشطة للاستخدام. قال: "في الشهر الأخير قبل المسابقة، كان عليّ القيام بالكثير من التركيز. كان عليّ النهوض كل صباح قبل ساعتين من المعتاد والعمل على اللغات الواحدة تلو الأخرى. وعندما أعود إلى المنزل في الليل أقوم بذلك مرة أخرى. وهكذا فعلت كل يوم حتى أصابني الإعياء من اللغات". وضحك.

عندما انتهى يوم المسابقة في حوار متعددي اللغات، خرج المتسابقون وكشفوا بعض الحقائق عن أنفسهم. قال ديرك: "الكثيرون منا ولدوا في منتصف الصيف. القليلون منا يستخدمون اليد اليسرى".

سألته: "هل تستخدم اليد اليسرى؟".

أجاب: "نعم".

وفي نهاية ذلك اليوم، عرف أنه قد يفوز؛ فقد حصل على درجات في اثنتين وعشرين لغة، ولديه لغات من الأقلية أكثر من أي متسابق آخر. ولكن، كانت هناك أخبار سيئة أيضاً. فبطولته كمتعدد لغات لم تنتهِ مع



Twitter: @ketab_n

الفوز، إذ كان عليه التحدث بتسع لغات في الأيام التالية، بدأ في الساعة العاشرة مساءً وهو منهك، على الرغم من أنه "ضاق باللغات ذرعاً" وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأ بتدوين الكلام الذي سيلقيه في الأيام التالية، وأصبح الأسكتلندي المتهيج غير قادر على النوم. وفي الحفل، استلم تمثالاً برونزيًّا، الذي شكا منه لاحقاً وهو يبتسم، بالإضافة إلى أشياء أخرى في التجربة: "أخذت التمثال إلى الفندق، لم يعطوني حتى صندوقاً أضعه فيه. كان حادًّا، وكان عليَّ حمله إلى الطائرة".

سألته: "هل لا تزال محتفظاً به؟".

"أوه، نعم. تستخدمه زوجتي لتعلق عليه قبعتها".

دخل ديريك موسوعة جينيس للأرقام القياسية في عام 1991، وبقي رقمه قياسيًّا حتى عام 1994؛ حتى ظهور زياد فصاح. في يرويك يُعرف "بالرجل الذي يعرف كل اللغات"؛ وهي مبالغة لا يحاول أحد تعديلها. قال إن الأشخاص الأذكياء لديهم علاقة بسيطة بأكثر من ثلاثين لغة ولكن اثنتي عشرة منها فقط جاهزة للتحدث بها، والبقية تحتاج إلى دورات مكثفة لتكون جاهزة للاستخدام. ولكنّ تلك اللغات الاثنتي عشرة لم تكن بمتناول اليد. "ومن أجل تنشيطها، وجدت نفسي متعدد لغات مفرطاً وأحوم حول الحمى".

- كم عدد اللغات التي تقول إنها جاهزة لديك للتحدث بها الآن؟

- حسناً، اثنتا عشرة لغة. دعنا نقول إنها اثنتا عشرة.

- بدون أي دورات مكثفة؟

- أوه، دعنا نقول إنها عشر. أنا لا أحاول رفع عدد هذه اللغات، مستحيل.

- لذا جعلت عشراً منها في حالة نشطة؟

- لا، لا. إنها تعتمد على اللغة. (أجاب ضاحكاً)

في بعض اللغات يحتاج إلى القراءة لتنشيط الذاكرة، ولكن في



Twitter: @ketab_n

الألمانيـة والدنماركيـة والروسـية لـم يكـن بحاجـة للإحمـاء. وبالنسـبة للفرنسية قال إنه يحتاج إلى سـاعات معدودة. وهو يستخدم الغيلية بشكل متكرر. ماذا عن اللغات الأخرى؟ عليه أن يحضِّر لاستخدامها كما أخمن.

- من السهل بالنسبة لي تعلم اللغة الأجنبية. وأدرك ذلك عندما أرى أغلب الأشخاص المختلفين عني بشدة.

- هل تقول إن أي شـخص يمكنـه التعامل مـع اللغات علـى النحو الذي تفعله؟ (سألته):

- ربما لا.

- لِمَ لا؟

همهم وصمت لفترة طويلة، ثم قال: "يمكنك القول إن أغلب الناس قادرون على السـباحة. أنا لا أسـتطيع السـباحة بشـكل جيد، أنا سبّاح بلا أمل".



Twitter: @ketab_n

# الفصل التاسع عشر

ما الذي يحتاجه الشخص لتعلم العديد من اللغات على مستوى عالٍ من الطلاقة؟

هذا السؤال أُرسل إليَّ من قِبل أندرو كوهين المتخصص في علم اللغة التطبيقي في جامعة مينسوتا، وهو متعدد لغات مفرط أيضاً. أندرو قوي العضلات، أصلع، في نهاية العقد السادس، متحدث سريع وغزير بالمفردات، تعلم أربع لغات إلى مستوى عالٍ (من اللغات الثلاث عشرة التي درسها) كان هدفه في الغالب الاستفادة منها أثناء رحلات التدريس حول العالم. عندما أخبرته عن متعددي اللغات المفرطين الذين التقيتهم، أصر على أن أولي اهتماماً أكبر بما يستطيعون فعله في الواقع. معياره الذهبي هو العمل بمهنية في لغاته، والتدريس وتقديم المحاضرات، وهو ما يقوم به.

قال: "أنا جيد في حفظ المفردات وإيجاد القواعد. لديَّ شخصية منبسطة، وأحب السفر إلى الخارج والتدرب. أستطيع الاحتفاظ بالأشياء وأميل للضحك، إحدى المواهب التي تظهر لديّ موهبة جمع الكلمات، فأنا أبحث عن الكلمات باستمرار ولا أتوقف عن تعلم المزيد منها. وللطلاقة، إنني أتعلم القواعد وأستخدمها كمهارة وظيفية، وأنا مهتم باللغة من الناحية العملية وبممارستها أثناء استخدامها، ولهذا أعرف كيف أعتذر وأشكو؛ في محاولة لاحتوائها وأكون معها مثل الحرباء، لديَّ موهبة في إيجاد الأشياء والتحدث عنها".



Twitter: @ketab_n

وأضاف: "ولكن الكثير منها نتيجة العمل الجاد. إنها فقط الرغبة في الاستفادة من جميع الساعات الطويلة التي أمضيتها في دراسة اللغة".

وبالرغم من حقيقة أنه قد أجاب على سؤاله، فقد أجبت على كل حال. قلت بناءً على ملاحظاتي، إنك تحتاج إلى ثلاثة أشياء: جهاز عصبي استثنائي مناسب لنشاط تعلم اللغات، والقدرة على استخدام العديد منها، وإحساس بالمهمة التي يقوم بها في تعلم اللغات؛ وهوية كمتعلم لغة. هذا "الجهاز" عبارة عن مجموعة من مميزات تركيبية أو تشريحية كمادة أساسية لنتائج استثنائية؛ إذا وظفت هذه المميزات من خلال الأنواع الصحيحة من الممارسة وفي نوع السياق الصحيح (وفي هذه الحالة، قد يقول الشخص إن القدرات على إدراك اللغة الأجنبية تعتبر صفات جذابة). هذه المواد الأساسية يمكن أن تتضمن حلقة صوتية عالية الأداء، ولحاءً سمعيًّا أساسيًّا أكبر من الناحية التشريحية؛ هذه المواد تجعل المتعلم قادراً على تمييز الاختلافات في الأصوات من كلام متحدثي اللغة غير الأصليين بكل سهولة؛ الاختلافات في قرن آمون تسمح للمتعلم باستعادة سهلة لمواد اللغة الجديدة، وبعض القدرات التي لم تحدد بعد؛ للتحكم في تعددية اللغات، أو بعض الاختلافات في الهرمونات أو الموصلات العصبية التي يمكن أن تزيد من المرونة وتشجع بناء الدوائر العصبية للغة.

ربما ليس هذا هو الجواب الحاسم كما يظن البعض. ولكن، لا تزال هناك دروس لتؤخذ من متعددي اللغات المفرطين والتي يستفيد منها متعلمو اللغة الأجنبية من البالغين.

إذا كنت ترغب في أن تكون جيداً في اللغة، فعليك أن تجد أو تصنع بيئة ملائمة لك.

يعرف نادي هيبو العائلي أنه ليس من السهل أن تكون متحدثاً للغة من خارجها؛ فما تحتاج إليه هو خلق مجتمع داخلي، وهناك يمكن أن



Twitter: @ketab_n

تصبحوا جميعاً متحدثين للغة من الخارج؛ معاً.

الانتماء إلى هذه الطريقة ربما ساعدني في مراهقتي الحمقاء لأن أكون أكثر من متحدث قليل المعرفة باللغة الفرنسية؛ ويمكن أن يساعدني أيضاً في الاحتفاظ باللغات الأخرى عندما أعود للمنزل. أنا أحترم الأشخاص المغرمين بالرسوم الكرتونية اليابانية الذين يلتقطون اللغة من خلالها. العيش والعمل في السياق الذي تستخدم فيه العديد من اللغات، وتعلمها واستخدامها تعتبر مجزية اجتماعيًّا وماديًّا، وتعتبر أصولاً ثمينة؛ خصوصاً إذا كان المكان يحترم نظرة "بعض الشيء وبعض الشيء" للغات، ويقدّر مهارة الشخص في اللغة سواء أكانت عالية أم منخفضة باعتبارها محاولة جادة للتواصل باللغات.

هذه الملاحظة جاءت بعد ملاحظة حياة العديد من متعددي اللغات المفرطين. في المكتبة وفي جمعية الدعاية المقدسة بنى ميزوفانتي "محرابه"، ووجدت هيلين أبازادي نفسها في البنك الدولي، وغراهام كنساديل في الهيئة الأوروبية. عندما التقيت ألكسندر في المرة الأولى، كان بلا بيئة ملائمة وكان يائساً إلى حد ما، وثائراً أكثر من أي وقت مضى. كان يريد أن يُنشئ كلّية متعددي اللغات التي يحلم بها. هو يبدو أسعد في سنغافورة بين متعددي اللغات الذين يقدرون لغاته وجديته.

كما جاءت أيضاً من الذي رأيته في جنوب الهند؛ المكان الذي تتمتع فيه بعض الطبقات في المجتمع بتعددية اللغات، ولا يبدو أن هناك طريقة لتعيش حياتك إلا بها.

إذا كنت تريد أن تكون أفضل في اللغات، يمكن أن تضع المتحدث الأصلي مقياساً للتقدم، وليس هدفاً. حاول أن تستشعر ما الذي يمكن لثنائي اللغة أن يفعله بلغاته. احضن لغتك الخارجية؛ إنها الطريق إلى العالم.

لا تُحصر اللغة في مقياس المتحدث الأصلي المثالي؛ فالكلمات



Twitter: @ketab_n

لها تداول حتى وإن كانت غير مكونة بشكل صحيح. لا نحتاج إلى الادعاء بأن الطهاة في المطعم الياباني للمعكرونة في مانهاتن الذين سمعتهم مصادفة، أو آلاف الملايين من الناس الآخرين الذين يتحدثون (أو يشيرون) برمز مدمج يبدون كمن يرقص بتناسق ويضرب قدميه بالأرض. في الحقيقة هم يرقصون بسعادة.

هل هذا يعني أن التحدث بمقياس المتحدث الأصلي ليس مهمًّا الآن؟ إنّ ذلك يعتمد على اللغة. الإنجليزية مثلاً أصبحت لغة عالمية؛ والفضل لميكي ماوس والجنرال باتون. اللغة العالمية هي تلك التي يتحدث ويكتب بها في طرق كثيرة شتى، ويجب أن تكون متسامحة مع الأخطاء، وتعلمها ميسر على الجميع، حتى مع متحدثي اللغة الأصليين أنفسهم. بالطبع، بعض الأشكال من الإنجليزية مستمر في الحصول على مستويات أفضل من البعض الآخر. مؤخراً سمعت عن الأستراليين والأيرلنديين الذين يجب عليهم أن يكتسبوا اللكنة الأمريكية إذا أرادوا الحصول على عمل في تدريس اللغة في كوريا الجنوبية. الفكرة هي: في أي مكان نعيش في العالم؟ هناك العديد من اللهجات الإنجليزية ومن متحدثي الإنجليزية.

في الجانب الآخر، اللغات الأقل انتشاراً لن تكون متفقة مع هذه المعايير. اللغة اليابانية مثلاً يتحدث بها عدد جيد من الناس - تقريباً 127 مليوناً - ولكن حوالى مليون متحدث فقط يتحدثون بها كلغة ثانية. الهولنديون يمثلون واحدة من أكبر ثلاثة وعشرين جماعة من المتحدثين الأصليين في العالم، ولكن لا يوجد إحصاء لعدد من يتحدث الهولندية باعتبارها لغة ثانية. لن تبدو مثل المتحدثين الأصليين غير المعتادين على سماع الأجانب وهم يتحدثون بلغتهم. لذا عليك ألاّ تتوتر.

إذا أردت التطور في اللغات، عليك التحكم بالدوبامين.

الدوبامين ناقل عصبي يتحكم بالدوائر العصبية المكافئة في



Twitter: @ketab_n

الدماغ عندما نقوم بأشياء محددة، وهو يفرز بكمية قليلة في أدمغتنا. يثير الدوباميـن إحساساً بالمتعة لدينا من جرّاء القيام بعمل ما؛ الأمر الذي يشجع على أن نقوم بهذا العمل مجدداً. الأشخاص الذين يتعلمون العديد من اللغات يقومون بها لأنهم يشعرون بالمتعة. أكثر من خمسة وتسعين من المجيبين على الاستبيان قالوا: "أنا أحب اللغات"، كسبب لقدرتهم على تعلم اللغات بسهولة أكثر من الأشخاص الآخرين.

جادلت وقلت إن هذا الربط متعلق بالدماغ، مثل: "أحب ما يحدث في دماغي عندما أتعلم اللغة". بالطبع، قال البعض إنه "يحب اللغات"، ويمكن أن يكون ذلك اعترافاً ضمنيًّا بأنه يحب الوضع الاجتماعي لدى الأشخاص ذوي العديد من اللغات. لم يراودني هذا الشعور وأنا أطلع على نتائج استبياني. ومع ذلك، كتب أحد الأشخاص في الاستبيان: "المتعة في العالم الداخلي الكبير، وتقدير الجمال في أصوات البشر"؛ رحلة في الدماغ من أجل المتعة فقط. هؤلاء لا يبدون أشخاصاً مُحفزين لتسلق السلم الاجتماعي، بل إنهم يستمتعون بالمكافأة العصبية للتعلم.

إذا كنت تريد تعزيز المرونة العصبية للدماغ، فعليك إيجاد التدفق.

ربط المجيبين عن هذا الاستبيان بكيمياء الدماغ يشير إلى أنهم قادرون على تعزيز مستويات التدفق لديهم بهدف تعلم اللغات. تذكرت هذا عندما التقيت ألكسندر أول مرة. كان يبدو مرتبكاً قليلاً عندما أُخذ من "غرفة النساخ"، إنه يعشق الدراسة. قال ديريك هيرنغ: "إن التحدث باللغات الأجنبية احتياج بدني لي". تمارين هيلين أبادزي والاستماع إلى أشرطة اللغات ترفع التدفق كلما تم تعلمها أكثر. وقال آخرون الشيء نفسه. إنتاج هذه الحالات من التدفق هو الطريق لاستخدام قوة الجسم لإزالة كوابح المرونة في الدماغ؛ وهذا يفسر سبب حصول بعض البرامج التجارية في تعلم اللغات على الشهرة العالية بسبب بساطتها وأسلوب الإعادة التي تساعد أي شخص على اكتساب اللغة.



Twitter: @ketab_n

إذا كنت تريد التطور في اللغات، فعليك أن تنمي مهارات الوظيفة التنفيذية، والذاكرة العاملة.

عرضت العديد من الدراسات أن الأشخاص لديهم مهارات معرفية ووظائف تنفيذية على مستويات متعددة، وأن هذه المهارات موجودة في عائلاتهم. المختصة في علم الوراثة نعومي فيردمان أعطت مهمّات وظيفية تنفيذية لحوالى ثلاثمائة من التوائم (مقسمة على التوائم المتطابقين الذين يتشاركون الجينات نفسها، والإخوة التوائم الذين يتشاركون نصف الجينات)، ووجدت أن كل الاختلافات تقريباً بين مهارات الأشخاص يمكن أن تشرح من خلال الجينات الموروثة. في رسالة إلكترونية، كانت نعومي حذرة في قولها إنّ الأشخاص يمكن أن يطوروا الوظائف التنفيذية من خلال التدريب. ولكن المواد الأولية للتدريب محددة وراثيًّا، مثل قدرة الشخص على التدرّب، أو بعبارة أخرى قدرة الشخص على المرونة. الذاكرة العاملة يمكن أن تدرب أيضاً بعض الشيء. المشكلة هي أن التطور ليس كبيراً؛ إذ يمكن أن تحصل على أداء أفضل في مهمة واحدة مراراً وتكراراً، ولكن لا يسعك نقل هذه المهارات إلى حالات أخرى.

إذا كنت تريد التطور في اللغات فعليك تطوير الإحساس باللغة.

يقول متعددو اللغات المفرطون إن لديهم "شعوراً باللغة". ويقول غراهام كنساديل: "أستطيع أن أرى بعض الأشخاص في دروس اللغة العربية. في الواقع، ليس لديهم إحساس باللغة". كنا نجلس في المكتب، وأراه شابكاً ذراعيه. هذا "الإحساس" باللغة يسمى Sprachgefühl حرفيًّا: "الشعور باللغة". قال: "في كل لغة عليك أن تلتزم بشروطها الخاصة. وعندما تسألني لماذا، يبدو أنك لم تفهم ما أقوله. يمكنك فقط السؤال: لماذا هناك شروط خاصة في اللغة؟

هذا المعنى صاغته لومب كيتو بشكل أفضل: "تمضي الوقت وأنت



Twitter: @ketab_n

تُرقع هذه اللغة كل يوم". كلمة "ترقيع" أعجبتني.

بعض هذه "الأحاسيس" تعتبر توقعاً لكيفية عمل اللغة، فهي على سبيل المثال تحوي أسماء وصفات، ولكن بأي ترتيب تكون؟ ربما كانت هناك حروف جر، وإضافات. ينتبه متعددو اللغات المفرطون أكثر إلى التراكيب المشتركة عندما يعملون داخل العائلة اللغوية نفسها، وكذلك إلى القواسم المشتركة والاستثناءات المنفصلة. (قال إميل كربس في إحدى المرات: عندما يعرف الشخص خمساً وعشرين لغة، فإن اللغة السادسة والعشرين تأتي بلا جهد). عند العمل بين العائلات اللغوية، يسأل متعددو اللغات المفرطون: هل الصفة تأتي قبل الاسم أو بعد الاسم؟ هل جنس الصفة يتغير تبعاً لجنس الاسم؟ الطريقة للحصول على Sprachgefühl "شعور اللغة" تكون من خلال تعلم كيف تعمل اللغة، وإحدى الوسائل للقيام بهذا من خلال دراسة العديد منها.

في إحدى الملاحظات عن الارتباط بين حركة اليد والتحدث، حتى بين أحاديي اللغة، لاحظ العلماء أن تحرك الذراع (والحركات الأخرى) والتحدث باللغة تتحكم بهما منطقة واحدة في الدماغ. إشارة غراهام بحك أصابعه، المشابهة لحركة زياد فصاح الغريبة في حك شعره في برنامج التلفزيون التشيلي، يمكن أن تكون أكثر من مجرد إشارة، يمكن أن تكون إشارة إلى أن هذه المنطقة في الدماغ متحفزة باستمرار.

كمحبين للأنماط، إن متعددي اللغات المفرطين مرتبطون باللغات مثل البناء. قال لي ألكسندر: "لا أتخيل أنني لا أعرف الفرنسية. هذا مستحيل بالنسبة لي، لقد عرفت الفرنسية في حياتي كلها". تقليصه اللغات لأنه لا يجد الوقت الكافي لذلك يعتبر مؤلماً بالنسبة له خصوصاً عندما عرفها وقدرها. يعرف متعددو اللغات المفرطون أيضاً الكلمات التي يتذكرونها والتي لا يتذكرونها؛ هذا نوع من الذاكرة المتطورة عمّا عرفوه مرة، وما لا يملكونه الآن.



Twitter: @ketab_n

قال غراهام كنسـاديل عندما زرته في مكتبه في بروكسـل: "أنا أعرف إذا كنت أعرف كلمة ما في السابق ونسيتها". فكر للحظة وقال: "أرنب، أنا أعرف أنني تعلمت الكلمة العربية "أرنب"، ولكني لا أستطيع التفكير في الحياة بما تعنيه بالنسبة لي. "تمسـاح"، أعرف أنني لم أصادف هذه الكلمة بالعربية".

إذا كنت تريـد أن تكون ماهـراً في اللغـات، فعليك أن تجـد قبيلتك العصبية.

قبيلـة متعـددي اللغـات المفرطيـن وجـدت نفسـها وأصبحـت غير ضائعـة، وارتبطت بالمجتمع الحقيقـي. في المنتديات مثـل www.how-to-learn-any-language.com يسـتطيع متعـددو اللغـات المفرطون أن يعرضوا أنفسهم مباشرة، ويطلبوا التقدير لأنهم لامسوا الموضوع المشترك الذي تعمل من خلالـه اللغات، والتي لولاها ما كانـوا معروفين. في مكان تجمعهم في موقـع "اليوتيوب"؛ المكان الذي يرسـل إليـه المزيد والمزيد من الأشخاص مقاطع الفيديو عن أنفسهم، يتحدثون بلغات متنوعة (سواء أكانوا يلقون كلاماً محفوظاً، أو يقرأون كلاماً مكتوباً، أو يتحدثون بعفوية، من الصعـب تحديـد ذلـك). المجتمـع هنـاك وليد، ولكنـه ينمـو، تحمل هـذه المقاطع محتوى تباهـي المحارب تجـاه الخصـوم أو بالأحرى تجاه الطامحين. الرسـالة هي: هذا هو الدرع الذي عليك أخـذه إذا كنت ترغب في الانضمام إلى القبيلة.

فـي النهايـة، إذا كنـت تريد تطويـر اللغـات - بـأي وسـيلة كانت - فالتصق بالوسيلة، أو كما صاغ راينر جانهل عبارته "في درجة معينة، عليك أن تتكيف مع غياب النجاح السريع".

في أحد أيام رحلتي إلى بولونيا، بينما كنت أسـير فـي فياملكونتنتي، لفتت نظري عوامة زرقاء مسـحوبة بجانب القناة. في الحقيقة، كانت عدداً من القـوارب المصطفـة والمحتشـدة بالركاب، تطفـو في القناة في وسـط



Twitter: @ketab_n

بولونيا - القناة البنية في المياه الموحلة التي تسمى موليـن، التي تمر عبر وادٍ ضيق فـي المدينة - القنـاة كما أراها تنحنـي عبر زاوية طولهـا مئتا متر ثم تختفـي، ظننت أن جـولات الطوافـات تمر من تحـت المدينة نفسـها. أسرعت للحاق بحشد الركاب، وسـرعان ما اعتمرنا خوذات حمراء هناك مصابيـح فـي مقدمتها تشـبه تلك التـي يعتمرهـا مكتشـفو الكهـوف. كان الرجال يخوضون في الماء ويمسـكون كل طوافة في المكان الذي اقتربت منه وأنـا أهرول بيـن قضبـان الحديـد والطوافـات والمجاذيـف والركاب الآخرين. عشـرون منا تقريباً استقروا فـي الطوافة، ثم صـدرت ضحكات مكبوتة من بعض النسوة في القارب. استدارت الرؤوس، فرأينا شخصين متأخرين يصعدان القارب؛ شابًّا يلبس الجينز وقميصاً مهلهلاً، وامرأة شابة ذات شـعر أسـود طويل، وتلبس قميصاً قصيراً وتنتعل حـذاءً بكعب عالٍ، هل ستثقب القارب بعد أن تصعده؟ هل ستترنح وتسقط بين هذا الحشد؟

استقررنا على سـطح الماء. ولكن، نظراً لضيق القناة ولتزايد سـرعة القـارب الصغير، وفي ظـل عدم وجـود مجاذيف بـدأ القـارب بالتأرجح. بدأ صوت التذمر يُسمع من الركاب، وبدأ الشـاب بالصراخ وهو يشير إلى رأسـي! Attento! Attento" انتبه! انتبه! نظرت إلـى الأعلى فرأيت عمود الجسـر فوقي ونحن مندفعون إليه مباشـرة. فأمسـكت به ودفعـت القارب بعيداً. ابتسمت له، وشـكرته، لا وقت للمجاملات! القارب الآن يسبح في الاتجاه الآخر، جهز الشاب عصاه لدفعنا بينما كانت صديقته ترتب شعرها وتتأمل طـلاء أظافرها. وراءهـا كان عمود الجسـر من الجانـب الآخر من القارب، كنا متجهين إليه مباشـرة، فاسـتخدمت كلمتـي الإيطالية الجديدة Attento! Attento، فانحنـت ومررنـا تحت العمـود، وسـحبتنا القناة إلى الأسفل، قالت: Grazie (شكراً).

وراء الجسـر، كان الماء هادئاً، وكانت الطوافـات مجموعة ومربوطة معاً حيث يمكننا فهم درس قصير عـن الممرات المائية في بولونيا، بعدها،



Twitter: @ketab_n

استأنفنا العوم، وتساءلت: ما الأشياء الخفية في هذه المدينة التي سيكون من المفيد الاطلاع عليها؟ عرفت اسم الموسيقي جيرولامو، وطالبة الاقتصاد زينيا.

وما إن استقررنا حتى سُحبت الطوافة بمحاذاة القناة، فنزلنا كما طُلب منا. بجانبنا، كانت المياه تتدفق من القناة من خلال ممر مفتوح وشلال لا يُعرف مداه. وكانت كشافات الخوذات تُصدر أزيزاً، فيما شعاعها يضيء في الظلام، أمّا صوت فرقعة المكنات اليدوية فقد غاص بفعل هدير الماء واختفى في ممرات المدينة الضيقة. خرجنا من الطوافة ومشينا بتثاقل في الممر، وبعد أكثر من ثماني خطوات على الممر الحجري الذي كان يشبه السلم بارتفاعه، بدا صوت القناة هادئاً بشكل غريب، وتلاشى صوت هدير الماء.

أكنا نسير إلى الأعلى أم إلى الأسفل؟ هل سنقابل مزيداً من الطوافات في الجهة الأخرى لتستمر رحلتنا؟ الشعاع الصادر من مصباح الخوذة كان يسبقني ويسير أمامي. توقعت أن الدرج سيتحول إلى الأسفل. لماذا ما زلنا مستمرين في الصعود إلى الأعلى؟ فُتِح الباب المعدني ودخلت من خلاله، ووجدت نفسي في أحد شوارع بولونيا. رفعت خوذتي ورأيت السماء أكثر قتامةً وأضواء الشارع أكثر اصفراراً مما رأيته من قبل. توقفنا لنخمن إلى أين نتجه. قلت لجيرولامو وزينيا: "سأخبركما بشيء عن مدينتكما". كنا بالقرب من فياملكونتنتي، وعندما وصلنا إلى الزاوية التي تحمل اسم الشارع، أشرت إليها وقلت لهما شيئاً ما عن ميزوفانتي.

قال جيرولامو: "واو! هذا شيء لا يصدق!".

نعم، إنه شيء لا يصدق، أليس كذلك؟ أعتقد أنه شيء لا يصدق أن يقوم شخص ما بما يريده في العديد من اللغات. إنه شيء لا يصدق أن يمضي شخص ما حياته وهو يجمع ما يزيد عما جمعه عشرات



Twitter: @ketab_n

الأشخاص العاديون في حياتهم. إنه شيء لا يصدق أن تعطيه مدينته التي نشأ فيها القليل فقط من أجل إحياء ذكراه.

- صباح الخير" buongiorno".

في كل صباح، في غرفة الأرشيف في مكتبة آرشي جناسيوا يجلبون صناديق جديدة تحوي كنوزاً حقيقية؛ كتحليل ميزوفانتي غير المنشور للكودكس كوسبي، أو وصف عن لغة ليزينوا، التي كتبها الطالب الشاب بابلو تاك[1] من جنوب كليفورنيا. وجدت قوائم من اللغات، ليس واحدة وإنما ستًّا منها موزعة بين صناديق مختلفة، وغير مؤرخة، وبدون عناوين، وغير مستخدمة. بالتأكيد هي لميزوفانتي، فقد كانت مكتوبة بيد الكاردينال، ولكنها غير متناسقة. إحداها تحتوي 24 لغة، والأخرى 123 لغة. يمكن أن تكون كتباً في مكتبته أو أشعاراً لأكاديمية متعددي اللغات المفرطين. هناك قائمتان لم تشيرا حتى إلى اللاتينية أو الإيطالية.

مفاجأة في اللحظات الأخيرة!

في يومي الأخير في الأرشيف، وجدت شيئاً ما غير متوقع على الإطلاق. كان هناك صندوق أخير، كُتبت عليه كلمة "منوع". بعد يوم من النظر إلى الملفات والصفحات المسطحة، كنت مندهشاً. وعندما فتحت الغطاء طار قلبي فرحاً لدى رؤيتي مربعات مقطعة. أخذت حزمة، كانت كتلة من الورق، يبلغ ارتفاعها تقريباً ثلاث بوصات، وعرضها بوصة لكل جانب، ملفوفة بورق جاف ومربوطة بخيط شمعي. أزلت الخيط والغلاف، إنها تتضمن أوراقاً غامقة بفعل الزمن. في كل ورقة كُتبت كلمة على أحد الجانبين لها علاقة بالكلمة المكتوبة في الجانب الآخر بلغة مختلفة.

(1) بابلو تاك (1822-1841) أحد الأمريكيين الأصليين الملقبين باليزينوا، قدم رؤية معاصرة لسكان أمريكا الأصليين. كتب قاموساً وكتاباً نحويًّا عن لغة ليزينوا. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

بطاقات تعليمية؛ أهي كذلك؟ هل كانت هي الكأس المقدسة التي قال ستارشفسكي إنه وجدها؟

كتب تشارلز روسل: "لا يبدو أن الكاردينال يملك أي أسرار استثنائية، أو على الأقل لم يشرح بوضوح لأيٍّ من زواره (السر) الذي وظفه البعض مثل الروسي ستارشفسكي، تجاهل هذا واستمر في البحث. وأخيراً، ابتسمت لي الدنيا في رحلتي تلك، فقد اكتشفت حقيقة ثمينة عن طريقة تعلم متعددي اللغات.

في وقت ميزوفانتي، كان يجب أن تكون أساليبه في التعلم واضحة ومعقولة. ميزوفانتي نفسه قال في إحدى المرات: البالغ يتعلم اللغة مثل طالب المدرسة. فهو يكتب الأسماء والأفعال وأدوات الربط بينها ثم يحفظها، ويستخدم وقته جيداً وعلى نحو مثمر، ويتحدث إلى نفسه في لغاته عندما يكون وحيداً. كما أنه يقرأ القواميس، والتعاليم المسيحية، والمفردات، والأدب بتنوع كبير، ويبحث عن الأشخاص ليتحدث إليهم، ويدوّن الملاحظات في أثناء نقاشه. وهو أيضاً يترجم بين لغاته المختلفة، ويعمل ويلعب بها، ويكررها ويحورها، وأيًّا كانت وسيلته، فهو يلتزم بها. قصة حياته تقول إنه أُنقذ من النجارة. إذا كانت حياته اللغوية كدحاً حقيقيًّا فقط؛ فإن الشخص يتساءل إذا كانت تساوي الإنقاذ على الإطلاق!

إنّ اكتشاف الأعمال الكبيرة محبط إذا كنت مثل ستارشفسكي تبحث عن تركيبة من جرعة سحرية أو روحية. ولكن العمل الجاد، والقدرة المميزة على الانتقال بين اللغات، والذاكرة المتميزة للغات ليست محبطة إذا كان لديك بعض الفهم لمميزات العلوم العصبية.

لذا، ما الذي وجده ستارشفسكي؟ أنا مقتنع أنه لم يجد شيئاً! ما هو إلا مستحضر عديم القيمة؛ محاولة روسية للبحث عن آثار متعددي اللغات المفرطين، وترويجها تحت علامته الخاصة المزيفة.

أغلب البطاقات التعليمية كانت بخط ميزوفانتي. الأولى كانت



Twitter: @ketab_n

معنونة بالجورجية، والتالية كانت أنحف، كانت بالمجرية. كان أمناء المكتبة مندهشين من هذا الاكتشاف بقدر دهشتي، بدوا منتبهين وأنا أفتح البطاقات جميعاً لألتقط صورة إيمائية بعرض حماسي وأتفحص كل حزمة على حدة.

الورق كان هشًّا، والخيط كان جافًّا، والخيوط الشمعية لمجموعة أخرى من البطاقات كانت مفتتة. في المجموع، عددت ثلاثين حزمة، جميعها بأحجام مختلفة: الجورجية، المجرية، العربية، التركية، الفارسية، ألغونكونيه، الروسية، والتاغالوغية[1]، وثلاث مجموعات غير موسومة مكتوبة بالعربية. بعض الحزم كانت نحيفة وتحتوي اثنتين وعشرين بطاقة بالأرمينية، ولكن حزمة البطاقات الروسية كانت بسماكة عشر بوصات، أما التاغالوغية (لم تكن بخط ميزوفانتي) فكانت بسماكة ثلاث بوصات.

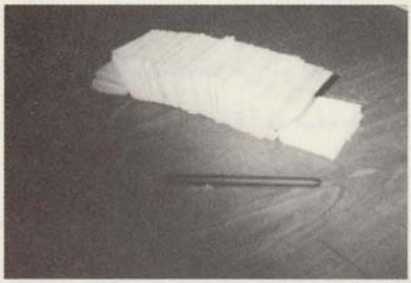

**حزمة من البطاقات التعليمية من أرشيف ميزوفانتي**

**صندوق يحتوي على بطاقات تعليميّة من أرشيف ميزوفانتي**

(1) التاغالوغية: لغة الفلبين الرسمية. (المترجم)



Twitter: @ketab_n

أحد الأسباب التي جعلت ميزوفانتي والأشخاص المشابهين مثيرين جدًّا هو أنهم يبدون وكأنهم تجاوزوا الوسائل المألوفة في تعليم اللغة؛ حيث إنهم لا يتعلمون اللغات بل "يلتقطونها". إنهم لا يجلسون ويقرأون قائمة من الكلمات، بل يمتصونها. نتمنى أن تكون هذه الوسائل هي الوسائل السحرية، وإذا استخدمنا هذه الوسائل فمن الممكن أن نحقق نتائج عظيمة.

الحقيقة هي أن ميزوفانتي والآخرين لم يخرجوا عن الوسائل المألوفة إطلاقاً، بل جعلوا الوسائل المألوفة أكثر فائدة، فعقولهم تستمتع بالوسيلة المألوفة. إن طبيعة الوسائل نفسها ليست بتلك الأهمية. قال لي يوهان فانديفال شيئاً ما يستحق الإعادة: "مهما كانت الوسيلة، ابقَ معها، هذه هي الوسيلة".

فكر في مشاهد متعدد اللغات ميزوفانتي مع الباباوات، والكاردينالات، والشعراء، والأباطرة، والقادة، والأميرات الروسيات، والبارونات الألمان، ومن ثم تخيله يمشي بالشوارع ذات القناطر متثاقلاً إلى منزله، ثم يراجع ويقلب صفحات كتاب اللغة التاغالوغية على عجل، ثم يطفئ الشمعة؛ من الصعب تخيل هاتين الصورتين معاً، ولكن هذا تذكير مفيد. لقد كان أسطورة؛ كان هناك رجل يستمتع باللغة، وبسبب هذه المتعة - وبدون أمل في مكافأة في المستقبل - قام بما قام به، ولم يترك وراءه تابعين أو تراثاً فكريًّا ولا تلاميذ. لقد عاش بالتأكيد، ثم ذهب وتركنا مع الكثير من الدهشة والقليل من الإجابات. أكانت معجزة؟ لا، بل كانت حكاية مفيدة.



Twitter: @ketab_n

# إضافة

في استبياني على شبكة الإنترنت، سألت المشاركين عن أفضل ثلاث وسائل لتعلم اللغات الجديدة. ببساطة، ركزت هنا على الإجابات من الأشخاص الذين قالوا إنهم يعرفون إحدى عشرة لغة أو أكثر. بعض الإجابات كانت مباشرة، مثل "استرخ واستمتع باللغة، اقبل الأخطاء وعدم اليقين، استمع واقرأ كثيراً" أو "أتعلم القواعد، وأقرأ، وأتحدث". تفاصيل أكثر عن استراتيجيات مهمة وضعتها هنا، مع التنبيه إلى أن هذه الوسائل كتبت من قِبل أشخاص مغرمين باللغات، وأنها ناسبت أساليبهم المعرفية. كما قال لي أحد الباحثين: "الوسيلة مثل الدواء؛ فهي تفعل مفعولها لدى بعض الأشخاص، ولا تعمل مع الأشخاص الآخرين. فهي بدون تأثير، وقد تكون سمًّا".

كتب أحد الأشخاص في الاستبيان: "بعيداً عن التكرار الأعمى المطلق، إنني أستمر بالتمارين العادية بشكل واعٍ وبانتباه. وأقوم بأسلوب التتبع (الاستماع) إلى العديد من المصادر السمعية، وأتحدث، وأستخدم أكبر كمية من المصادر (الصحف، المصادر الصوتية، شبكة الإنترنت) التي تصل إليها يداي وأطوعها من أجل أهدافي المحددة. كما أحاول أيضاً الاستغراق بالموضوع لفترات قصيرة". شخص آخر كتب أيضاً: "في البداية، أقوم بترجمة حرفية من النصوص المكتوبة بإتقان، وأستخدم القواعد والقواميس والترجمة العادية، وأقوم أيضاً بتكوين ثلاث قوائم من الكلمات المستهدفة (المستهدفة، الأصلية، مقسمة إلى مجموعات من 5-7 كلمات) وأعيدها في مواعيد معينة. أتعلم القواعد أيضاً على أوراقي،


Twitter: @ketab_n

وهذا يتضمن مواضيع صرفية، وأكتب أيضاً قطعاً صغيرة من المواضيع الصعبة".

وأكثر إجابة مفصلة هي ما يلي:

"أرسم خرائط ذهنية عن النظام الصرفي وجذور المفردات لربطها باللغات التي أعرفها من قبل، وبهذه الطريقة أبني ترابط ذاكرة يمنحني القدرة على زيادة المفردات بسرعة (تصل إلى الآلاف في الأسبوع الأول). وأبني أيضاً قائمة بالعلاقات بين الكلمات. وأعزّز أيضاً من ذاكرتي العاملة من خلال التكرار المنظم؛ النظام الذي طورته وأدرس به. أعمل من خلال الحوار النقاشي الذي يغطي تسعة مجالات في حياتنا اليومية: البيت، والمدرسة، والعمل، والترفيه (الأكل/ التسوق)، والسفر، والمواصلات، والأعمال، والصحة، والطوارئ.

استمرت الملاحظة بتقديم معلومات مفيدة:

"في البداية، أكتسب معلومات عملية عن بناء اللغة بعدد محدود من المفردات، ومع هذا أكون قادراً على تطبيق هذه المعرفة العملية لأفهم وأنتج اللغة. مواد ميشيل توماس التعليمية Michel Thomas جيدة لهذا الأمر، حيث تقدم لي معلومات عن بناء اللغة التي يمكن استخدامها مباشرة. في مرحلة تالية أطور مهارة الاستماع السلبي، وكذلك تجهيز البناء بالمفردات والجمل الاصطلاحية التي تعلمتها. يلي ذلك تطبيق المفردات الجديدة المتعلمة في البناء السابق، وتطوير مهارات التحدث النشطة. الحوار طريقة مفيدة للقيام بهذا. على كل حال، يجب أن يكون موجوداً في نموذج كتابي، كما يجب عليّ أن أستمع إلى اللفظ والكلمات والجمل. وتعتبر طريقة مواد Assimil طريقة مثالية في هذا الأمر. في النهاية، عليَّ أن أصقل معرفتي جيداً بقضاء فترة من الوقت في الدولة التي يتحدث بها في اللغة. ولذا، إنني أستغرق في اللغة بشكل كامل وأطور المهارات بشكل كامل، وكذلك بناء معرفة في المفردات والجمل الاصطلاحية".



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سرد المؤلف في ثنايا صفحات هذا الكتاب تفاصيل رحلته عبر العالم وعبر التاريخ؛ متأمّلاً باحثاً، ومحاولاً معرفة حدود قدرة الإنسان القصوى على تعلم واستخدام العديد من اللغات. ومن أجل هذا الهدف التقى العديد من الشخصيات المعاصرة ذوي الموهبة الاستثنائية في تعلم اللغات، وبحث عن آثار السابقين منهم؛ أولئك الذين حباهم الله تعالى قدرةً فريدةً على التعلم والتواصل بالعديد من لغات العالم تحدثاً وكتابة؛ والتي قد تبلغ عشرات اللغات، بدءاً من أستاذ اللغة العربية في جامعة بولونيا الإيطالية جوزيبي ميزوفانتي، وحتى يوهان فانديفال رئيس قسم اللغة التركية في جامعة غانت البلجيكية، ومروراً بالعديد منهم حول دول العالم. كما تناول في هذا الكتاب تحقيقاً عن حركة تعلم اللغات في أنحاء العالم، وعن حقيقة مثل أولئك الشخصيات وقدراتهم؛ مستعيناً بتطبيق المقاييس والمعايير العلمية، وبنظرة شاملة ذات أبعاد وزوايا مختلفة؛ من الناحية النفسية والاجتماعية والبيولوجية والتاريخية، وكشف عن الوسائل التي استخدمها كلٌ منهم في تعلم هذه الطائفة الكبيرة من اللغات.

**«إن كان بإمكانك تخفيف القلق الذي يعتري بعض الأشخاص عندما يشرعون بتعلم اللغة، فستكون قد وصلت إلى حل لمشكلة اللغة الجوهرية في القرن الحادي والعشرين. وإن المعرفة الحقيقية عن عباقرة اللغة يمكن أن تخفف هذا القلق».** – المؤلف

**«أفضل طريقة لتعلم اللغة هي الجلوس مع طفل في عمر الرابعة...».** – زينب باوا، متعددة لغات من الهند.

المؤلف: **مايكل إيرارد**، متخصص في العلوم اللغوية والبلاغية من جامعة تكساس في أوستن. كتب مقالات صحفية عن مواضيع اللغة واللغويات واللغويين في Science, Slate, Wired, The Atlantic, The New York Times, New Scientist، وغيرها من المطبوعات. وهو كاتب مشارك في مجلة Design Observer، ومؤلف كتاب «الزلات، العثرات، الأخطاء اللفظية، وما تعنيه». حصل المؤلف على منحة «دوبي بايسانو» في عام 2008 المتضمنة إقامة في إحدى مزارع تكساس من أجل البدء في تأليف كتاب «وداعاً بابل». موقعه الإلكتروني www.michaelerard.com.

المترجم: **بندر محمد الحربي**، مترجم كتاب الدكتور دارولد تريفيرت «جزر العبقرية» (2012). يحمل درجة البكالوريوس في علم الاجتماع، وهو مهتم بشؤون التوحد وذوي الاحتياجات الخاصة. له مشاركات في الصحف والمجلات الأدبية والثقافية. بريده الإلكتروني: bmh295@hotmail.com.

ISBN 978-614-01-0718-2
9 786140 107182

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف